فيليب كورتن

العالم والغرب

التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات

نقله إلى العربية
رضوان السيد






تليجرام
مكتبة سور الأزبكية



العالم والغرب




التحدي الأوروبي والاستجابة

فيما وراء البحار

في عصور الامبراطوريات

فيليب كورتن Philip D. Curtin

العالم والغرب

التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصور الامبراطوريات

نقله إلى العربية

رضوان السيد



Original Title:

The World and the West

by:

Philip D. Curtin

ISBN 0 - 521 - 77135 - 8

PUBLISHED BY: THE PRESS SYNDICATE OF THE UNIVERSITY OF CAMBRIDGE
the pitt Building, Trumpington Street, Cambridge, United Kingdom.

المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807 الرياض 11595

Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1428هـ - 2007م

ISBN 2 - 095 - 54 - 9960

ⓒ مكتبة العبيكان، 1427هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كورتن، فيليب

العالم والغرب: التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصور الإمبراطوريات/ فيليب كورتن: رضوان السيد. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٣٢٨ص : ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٢-٠٩٥-٥٤-٩٩٦٠

١-أوروبا - العلاقات الخارجية ٢- الاستعمار

أ- السيد، رضوان (مترجم) ب- العنوان

ديوي ٣٢٧,٤ ١٤٢٧/ ٥٣٦٨

ردمك: ٢-٠٩٥-٥٤-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٥٣٦٨ /١٤٢٧



القسم الأول

الغزو

غالباً ما تكون كلمة الاستعمار تسميةً عامة تستخدم للإشارة إلى أي شكل من أشكال السيطرة التي يمارسها مجتمعٌ على آخر. ويشير المعنى الأصلي الإغريقي لكلمة «مستعمرة» إلى حصول حركة هجرة نحو الخارج من المدينة الأم أو العاصمة بهدف الاستقرار في مكان جديد. ويستخدم حالياً نموذجا الولايات المتحدة وكندا لفهم الاستعمار الجديد بمعناه الأول. فقد شهد هذان البلدان تبدّلاً ثقافياً نتج أساساً عن حركة هجرة خفية للأوروبيين الذين نقلوا ثقافتهم معهم. ودُفع الأميركيون الأصليون جانباً إلى أن أصبحوا أقلية صغيرة وامتصّت الثقافة الجديدة بعضاً منهم، فيما تمكن البعض الآخر من الحفاظ على ثقافته.

وثمة صيغةٌ مغايرةٌ لما يسمّى الاستعمار، وهي من الناحية الديموغرافية عكس الاستعمار الحقيقي وللإشارة إليها بمزيدٍ من الدقة، استخدم مصطلح «الإمبراطورية الإقليمية» territorial empire والتي يفتح بموجبها الأوربيون بلداً في ماوراء البحار لكنهم لا يرسلون إلا عدداً ضئيلاً من المستوطنين بالإضافة للموظفين الإداريين والعسكريين للسيطرة عليه. ومن الأمثلة على ذلك نذكر الحكم البريطاني في الهند ونيجريا.

وتحدُثُ أحياناً حالة ثالثة مختلطة تقعُ في منتصف الطريق بين «الإمبراطورية الإقليمية» والاستعمار الحقيقي. في هذه الحالة، يشكّل المستوطنون الأوروبيون أقلية معتبرة تعيش جنباً إلى جنب مع مجموعات ثقافية أخرى من السكان الأصليين. ويُطلق على المشيج غالباً تسمية المجتمع المتعدد الأعراق. ويمكننا أن نخطَّ حداً فاصلاً بين المجتمعات المتعددة الأعراق والامبراطوريات الحقيقية عندما يزيد عدد

المستوطنات على نسبة ٥ بالمئة من إجمالي عدد السكان. ومن الأمثلة اللافتة على المجتمعات المتعددة الأعراق التي ظهرت في القرن المنقضي نذكر جنوبي إفريقية، والجزائر، وإسرائيل، وبعض الدول الأمريكية اللاتينية كالبيرو وغواتيمالا، والعديد من نواحي الاتحاد السوفييتي السابق.

تُصوّرُ الفصولُ الثلاثةُ الأولى من القسم الأول هذا الوضع. فالفصل الأول يتعلق بالنمط المنبثق عن السيطرة الأوروبية في العالم. أما الثاني فيبحث في جذور هذه السيطرة في التطوّر والتاريخ الأوربيين. أما الفصل الثالث فيعالج السياسات التي اعتمدتها أوربا في بناء الامبراطوريات في دول ما وراء البحار.



١

الإمبراطورية

ما اكتفى التاريخ التقليدي لبناء الإمبراطورية الأوروبية بتجميع خبرات متباينة تحت عنوان الاستعمار، بل غالباً ما كان يتقبّل، عن طيب خاطر، وعوضاً عن الواقع، روايات خياليةً مناسبةً ابتدعتها أقلامُ خبراء في القانون الدولي ومؤرخين وفعاليات حكومية غيّبهم الموت منذ فترة طويلة. حقق المؤرخون في العقود الأخيرة، تقدماً هائلاً في تصحيح هذا التطرف الأوروبي ولكن الوضع مايزال يتطلب عملاً كثيراً.

من النزعات التي اتصف بها التأريخ الرسمي في الماضي والتي لم يتم تصحيحها تصحيحاً شاملاً حتى الآن، نزعة تحليل النمط الواضح للسيطرة الأوروبية في الماضي القريب تحليلاً عسكرياً، مع الافتراض بأنّ الوضع كان مماثلاً قبل ذلك. فقد نُقتفي أصولُ الإمبراطورية الإقليمية والاستعمار الحقيقي الواسع النطاق إلى هذه حِقَبٍ سحيقةٍ في الزمان؛ ثم يقال إنها لم تشهد ازدهاراً إلاّ في الفترة التي ابتدأت حوالي سنة ١٨٠٠، أو ربما بعد ذلك.

في القرون السابقة، تمحورت أهم أنماط الاتصال الثقافي حول التجارة وتحقق هذا الاتصال من خلال الجاليات التجارية أو مستوطنات التجار التي امتدت على طول الطرق التجارية تسهيلاً لأعمالهم. قدِم هؤلاء المستوطنون التجار بأعداد قليلة ولكنهم كانوا يضطلعون، غالباً، بدورٍ بالغ الأهمية في عملية التبادل الثقافي. وبذلك عملوا عمل سماسرة متخصصين في التثاقف بما أنهم يسهلون التجارة بين موطنهم الأم ومعاقله التجارية. وفي هذا الصدد، يمكن الاستشهاد بأمثلة مقتبسة من المجتمعات الحضرية القديمة في بلاد ما بين النهرين والأميركتين ماقبل كولومبوس.

كان العديد من الجاليات التجارية القديمة مسالماً نسبياً، ترزح تحت المعاناة المسلطة عليها بموافقة حكّام البلاد التي استوطنوا فيها، وغالباً برضاهم. لكن

بالعودة إلى منطقة البحر المتوسط في العصور الوسطى، نجد أنّ الجاليات التجارية الأوروبية اتخذت أحياناً شكلاً عدوانياً. فلم يكتف أهالي جنوى والبندقية بالاستيطان في مدن يقيمون معها علاقات تجارية، بل سيطروا على هذه المدن ذاتها، واتخذوا منها قواعد للمنافسة مع المدن الأخرى في مجالات الحرب والتجارة. لكنها لم تكن تسعى -إلا في حالاتٍ نادرة- لتوسيع إطار سيطرتها فيما وراء هذه المواقع القوية. ولهذا السبب أُطلق على الجاليات التجارية التي دعمت نفسها بالأسلحة -في أغلب الأحيان- تسمية الامبراطوريات وذلك في الحقبة الواقعة بين ١٤٢٥ و١٥٢٥. وعندما عادت المراكب الباقية من أسطول ماجلان إلى إسبانيا، كان الملاحون الأوربيون قد أحدثوا ثورة في قدرة البشر على السفر بحراً ذهاباً وإياباً. واعتمد هذا الإنجاز على مجموعةٍ من المراكب والتقنيات الملاحية المتقدمة تدعمها معلوماتٌ جغرافية متزايدةٌ تشتملُ، فيما تشتمل عليه، على نظام تحركات الرياح. قبل هذه الفترة في تاريخ العالم، كانت الملاحة المنتظمة والاعتيادية مقتصرةً على الرحلات الساحلية وبعض الرحلات داخل بحار داخلية من قبيل البحر المتوسط، علماً بأنّ إفريقية وشمالاً عبر بحر الصين الجنوبي باتجاه اليابان. ولكن بعد العشرينيات من القرن السادس عشر، أصبح بإمكان الملاحين الأوروبيين الإبحار إلى أي ساحل في العالم، على الرغم مما كانوا يتكبدونه من نفقات وما يتعرضون له من مخاطر في بادئ الأمر.

وفرت في الثورة البحرية للأوربيين الميزة العسكرية المهمة الأولى. وقد كانوا يفتقرون حتى تلك الفترة لميزة تقنية ما في منطقة البحر المتوسط حيث: كان الأتراك العثمانيون، في مطلع القرن السادس عشر، يتعاملون معهم في تعامُل الندّ للندّ على أقل تقدير. أما فيما وراء البحار، فقد كان الوضع مختلفاً. لقد أتاحت التكنولوجيا البحرية، في أغلب الأحيان، الفرصة للأوربيين للتحكم بزمام الأمور المحلية في البحار النائية التي كان أهلها يجهلون تمام الجهل سلاح المدفعية الفعّالة المركّزة على متن المراكب. وقد اتّسمت القوة البحرية بالفعالية الاستراتيجية، وهو ما من شأنه أن يسمح بتركيز القوة المتوافرة على هدفٍ واحد.

إنّ قدرة القوة البحرية على الحركة السريعة خوّلت الأوربيين بناء امبراطوريات من حول المراكز التجارية في حقبةٍ من الزمن كانوا لا يزالون خلالها دون مستوى غيرهم من حيث المهارة العسكرية البرية. وفي مطلع القرن السادس عشر، عندما بدأ البرتغاليون بإطلاق حملاتهم البحرية شرق رأس الرجاء الصالح، كانوا ينتقون غالباً لقواعدهم جزراً من مثل غوا Goa في الهند الغربية، بالإضافة إلى مراكز ثانوية في الموزامبيق في شرق إفريقية، وميلاكا Milaka في الملايو، وماكاو Macau في جنوب الصين. وفي مطلع القرن السابع عشر، أقام الهولنديون شبكة مماثلة تركزت في باتافيا Batavia (جاكارتا الحالية)، وانطلقت منها مراكز اتصال باتجاه الغرب نحو سيلان والساحل الشرقي من الهند، وشمالاً باتجاه جزيرة في خليج ناغازاكي في اليابان. وسرعان ما برز الإنكليز إلى الواجهة من بومبي ومدراس وكالكوتا في الهند. وتبعتهم فرنسا ودول أوروبية بحرية أخرى حين أقامت محطاتها التجارية التنافسية الخاصة بها. لم تشكّل هذه المقاطعات التجارية أي تهديد للقوى الآسيوية الكبرى، ولكنها كانت الإسفين الذي سمح للإمبراطوريات الإقليمية بالانتشار والتوسع خلال القرون التالية.

وما لبثت المحطات التجارية للإمبراطورية البرية أن رأت النور. ففي أوائل القرن السابع عشر، توسع تجار الفرو الفرنسيون باتجاه غرب نهر سان لورانس السفلي عن طريق البحيرات الكبرى. أما تجار الفرو الإنكليز فوصلوا إلى الجنوب عن طريق خليج هدسون. ولم يهتم أي من الفريقين بالسيطرة على أراض جديدة أو التحكم بشعوب أمريكا الأصليين. وقد اقتصرت مطامعهم على تأمين قاعدة أمنية لتجارتهم وحمايتها من التجار الأوروبيين المنافسين لهم. في آسيا، وخلال الحقبة الزمنية ذاتها، أخذ تجار الفرو القادمون من موسكو Muscovy يوسّعون نطاق امبراطوريتهم من المحطات التجارية باتجاه الشرق، مخترقين سيبيريا نحو المحيط الهادئ. ومع مرور الزمن، تمكنت هذه الامبراطوريات المتكونة من المحطات التجارية البرية من تكوين الخلفية التي أقيمت عليها امبراطوريات برية واستعمار فعلي في كلٍ من أمريكا الشمالية وسيبيريا.

إمبراطورية في الأميركتين:

يعود ظهور الامبراطوريات الإقليمية الأوروبية، في الأميركتين فقط، إلى مطلع القرن السادس عشر. وفي هذا السياق، تداخلت الميزة البحرية التي اتصف بها الأوروبيون بهشاشة خاصة بالأميركيين. كان أجداد الهنود الأميركيين قد عبروا الجسر من آسيا خلال العصر الجليدي الأخير، لعشرة آلاف سنةٍ خلت. وقد تم هذا العبور قبل الثورة الزراعية، أي قبل تطور أمراض من قبيل الجدري، والتي نتجت عن اختلاط البشر وحيواناتهم الأليفة. ولم تظهر أمراض خطيرة أخرى، مثل الملاريا الخبيثة falciparum malaria في إفريقية الاستوائية إلا بعد أن فتحت الزراعة المجال أمام تطوّر مجتمعات بشرية كثيفة. وظهرت هذه المُمْرضات البشرية التالية للزراعة في وقت متأخر وحملها المهاجرون الأوائل إلى الأمريكتين. ولم تطوٍّر هذه البلاد في عزلتها أيّ مرض بهذا القدر من الخطورة. في هذه الأثناء، تمكنّت الأمراض الصادرة من مختلف المواقع من الانتشار، على نطاقٍ واسعٍ للغاية، بسبب تزايد الاتصالات في المجالات الإفريقية والأوراسية. وعمّت عناصر من مجموعة الأمراض الشائعة مع بعض التغيرات المحلية، معظم هذه القارات.

تنزع أي بيئة مرضية إلى بناء نمط من المناعات الموازية لدى الأطفال الذين يترعرعون في تلك البلاد. وكان ضحايا معظم هذه الأمراض، في حال تغلبهم على المرض، يحظون بدرجةٍ من الحماية ضد أي هجمات أخرى من الأمراض. يصيب مرض الحصبة وأمراض أخرى الأطفال الصغار في السن أساساً، إذ يُصابُ معظمُ الناس بالعدوى في طفولتهم ويتمتعون بمناعة نسبية في فترة لاحقة من حياتهم. تكون بعض الأمراض حميدة كذلك في سن الطفولة ولكنها تزداد خطورة في سن الشباب. تكون الحمى الصفراء معتدلة عند الأطفال إلى حد أنها لا تظهر أيّ أعراض سريرية، ومع ذلك تكتسب الضحايا مناعة طوال حياتها في حين أنّ الحمّى الصفراء تتسبب غالباً بموت أكثر من نصف المصابين من البالغين.

في مطلع القرن السادس عشر، أوقعت الأمراض القادمة من البلاد الإفريقية والأوراسية ضحايا عديدة بين الشعوب الأمريكية التي تفتقر إلى المناعة. الجدري وحده كان كفيلا بالقضاء غالبا على ربع عدد السكان، مخلفاً وراءه ناجين عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم دفاعاً عسكرياً مناسباً. ونتيجةً لذلك، عجزت الامبراطوريات الأمريكية الكبرى، من قبيل امبراطوريتي الأزتيك والإنكا، عن مقاومة الهجوم الإسباني. وأقام البرتغاليون بسرعة قواعد متناثرة هنا وهناك على طول الساحل البرازيلي. واستمر تأثير الأمراض عدة عقود. وحتى عقب الأزمة الأولى توالت ضربات الأمراض غير المألوفة الواحدة تلو الأخرى. كانت بعض هذه الأمراض الجديدة، مثل الجدري، شائعةً في كلٍّ من إفريقية وأوروبا على السواء. ولكن الأمراض الاستوائية المسببة للعدد الأكبر من الضحايا، مثل الحمى الصفراء والملاريا الخبيثة، ظلت شبه مجهولة في أوروبا على الرغم من أن الأوروبيين هم من أدخلوها، عن طريق المصادفة، إلى الأميركتين عبر تجارة العبيد. انخفض أعداد الشعوب الأمريكية الهندية انخفاضاً حاداً طوال قرن ونصف القرن تقريباً بعد تعرضها للأمراض، إلى أن استقر وَضْعُها، ثم بدأت أعدادُها بالتزايد البطيء من جديد.

لا تشكل أنماط للأمراض عاملاً منضبطاً يمكن استخدامه للتفسير أو التنبؤ بما يمكن أن يحدث في التاريخ. ولكنها تقدّمُ تفسيراً من الدرجة الأولى بما يدعو مجموعةً متنوعةً من أنماط الديموغرافيا الثقافية للظهور في أماكن مختلفة بعد وصول البحارة الأوروبيين. يتمكن الأوربييون بما أوتوا من براعةٍ في الملاحة من بلوغ الأميركتين واستخدام عنصر المفاجأة الاستراتيجي، وفي ذلك وصلوا قبل أن يتمكن الأميركيون من بلوغ أوروبا. وتمكن الأوربيون، بفضل كارثة انتشار العدوى التي أعقبت وصولهم إلى حد بعيد، من نشر هيمنتهم على المجتمعات الأمريكية المتشرذمة. وبالتالي، ظهرت الامبراطوريات الإقليمية الأوربية في المناطق الاستوائية الأمريكية على أنقاض امبراطوريات الأزتيك والإنكا وسط المكسيك والبيرو على التوالي.

شكلت أنماط الأمراض خطراً أكبر على الأراضي الاستوائية الأمريكية المنخفضة، حيث التحقت الملاريا المنخفضة والحمى الصفراء الصادرة من إفريقية بالجدري ومجموعة من أمرض الأطفال الآتية من أوروبا. وبحلول القرن السابع عشر، تمّ القضاء على المجتمعات الأمريكية الأصلية في جزر الكاريبي وسواحل الأراضي المنخفضة في جنوبي أمريكا الاستوائية بشكل كلي تقريبا. صحيح أنهم قدموا مساهمة وراثية إلى شعوب الكاريبي المستقبلية، ولكنهم انقرضوا في معظمهم بانخراطهم في مجتمعات ثقافية متباينة. وحدها المجتمعات المنعزلة في حوض الأمازون تمكنت من البقاء حتى القرن العشرين.

وفي هذه البيئة الجديدة للأمراض التي اجتاحت الأراضي المنخفضة من أمريكا، افتقر القادمون من أوروبا أيضاً إلى الحماية اللازمة من الأمراض الاستوائية الإفريقية. فيما كان القادمون من إفريقية الأوراسية. وبفضل مناعتهم الفائقة، باتوا الأصلح في إعادة تأهيل المناطق الاستوائية من أمريكا. عُرض الرقيق للبيع على ساحل غرب إفريقية، وشرع تجار العبيد عبر الأطلسي ينقلونهم إلى المناطق الاستوائية الأمريكية.

يطلق على هذا النمط الناتج أحياناً تسمية مركّب المستعمرات. استخدم الأوروبيون قوتهم البحرية لبسط سيطرتهم السياسية، ثم استغلوا فيما بعد مهاراتهم البحرية عينها لنقل الأفارقة المستعبدين وتحويلهم إلى مستعمرين يحلون محل الهنود النافقين. ولو كانت البيئة محملة بأمراض حميدة لكانوا حملوا إليها مستوطنين أوربيين بغية إقامة مستعمرة فعلية، ولكنهم نقلوا إلى الأراضي المنخفضة الاستوائية أفارقة عوضاً عن الأوروبيين، وفي أواخر القرن الثامن عشر، بلغ هذا النمط أوجاً معيناً في جامايكا وأمريكا اللاتينية (هيسبانيولا)، ولكنه اتخذ شكلاً مهماً من أشكال التطور الأميركي، امتد من الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية إلى جنوب البرازيل الوسطى.

النزوح وأنواع التحول الديموغرافي:

تختص الهجرة الجماعية للأوربيين بعصر الصناعة الذي ابتدأ في مطلع القرن التاسع عشر على الرغم من أن عدد الأفارقة الذين عبروا المحيط الأطلسي فاق عدد الأوربيين في أثناء العقود التي سبقت الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ومع أن الحكومات الأوروبية الأولى مالت بتفكيرها إلى أن امبراطوريات من المحطات التجارية كانت أفضل ما تتوقع إنجازه في بلاد ما وراء البحار، فإن المستعمرات الصغيرة الفعلية تعدّ ناتجاً ثانوياً عرضياً. كانت جزر الأزور الواقعة في وسط الأطلسي على خطوط العرض نفسها مثل البرتغال ذاتها، وهي وقتها عبارة عن سلسلة غير مأهولة من الجزر اكتشفت عن طريق المصادفة. وخلال القرن التالي، عقب سنة ١٤٧٠، شرع سكان البرتغال الأصليون بالتوجه نحوها لإعمارها. فأصبحت تلك الجزر بحلول منتصف القرن التالي جزءاً من البرتغال، وصاروا ينتجون النبيذ والقمح والماشية ذاتها التي تنتجها شبه جزيرة البرتغال. لكنها تحولت في آخر المطاف أيضاً إلى مستعمرات حقيقية لإسبانيا والبرتغال.

كانت البرازيل في بداياتها ملحقة بإمبراطوريات المحطات التجارية البرتغالية في المحيط الهندي. وكان لا بد من أن تمر على مقربة منها المراكب المبحرة باتجاه الهند. وعلى الرغم من أنها لم تكن ترسو، في أغلب الأحيان في مرافئ البرازيل إلا أنه كان من الممكن أن تشكل هذه الأخيرة تهديداً محتملاً للمتجهين بأمان واطمئنان نحو الهند في حال وقوعها في أيدٍ غير صديقة. وبحلول الأربعينيات من القرن السادس عشر، عندما نشط الفرنيسون وغيرهم في مجال تجارة الخشب الصبغي على ساحل البرازيل، اتخذ ملك البرتغال قرار زرع مستعمرة في ذلك الموقع، كي تكون بالدرجة الأولى نواة تؤمن الدعم الذاتي لكتيبة هدفها حماية موقع استراتيجي مهم.

ظهرت نوايا البرتغاليين من خلال الحملة الأولى التي انطلقت في سنة ١٥٤٩ واشتملت على ٣٢٠ شخصاً يعملون لحساب ملك البرتغال، و٤٠٠ من المجرمين

المدانين الذين يعملون بالسخرة، وحوالي ٣٠٠ شخص من الرهبان والرجال الأحرار المستخدمين لأغراض استعمارية أو تبشيرية. ظلّ المستعمرون الأوروبيون يحظون بالأغلبية حتى حوالي ١٥٧٠، ولكن الميزان اختل مع تدفق العبيد الأفارقة والهنود الأميركيين، فبات الشمال الشرقي من البرازيل مستعمرة زراعية يديرها الأوروبيون، ويشكل الأفارقة والهنود الأمريكيون طبقتها العاملة. ولم يتم التوصل إلى مقدار مهم من الاستعمار الحقيقي من جديد سوى في مطلع القرن التاسع عشر، وتركز هذه المرة بشكل أساسي في وسط البرازيل وجنوبها.

اتبع الفرنسيون والهولنديون في مطلع القرن السابع عشر استراتيجية مماثلة فيما يتصل بالمستوطنات التجارية. وحذت بعض المحطات في الكاريبي حذو المثال البرازيلي وتحوّلت مع مرور الزمن إلى مستعمرات زراعية يكوّن الأفارقة أغلبية سكانها، إلا أن غيرها اتخذ منحى آخر وأصبحت مستعمرات فعلية بفضل النمو السكاني لا بسبب الهجرة المستمرة من أوروبا. يُذكر من الأمثلة على ذلك المستوطنة الهولندية عند رأس الرجاء الصالح والمستوطنة الفرنسية حول مصب سان لورانس. أقيمت هاتان المستوطنتان في منتصف القرن السابع عشر من أجل حماية التجارة، وعُزّزتا بعدد كافٍ من المزارعين الأوروبيين لإنتاج مؤونة غذائية محلية، وتأمين القدرة على الحماية والدفاع.

أقيمت فرنسا الجديدة على طول نهر سان لورانس لتسهيل تجارة الفراء، ولم يستلزم ذلك سوى بضعة آلاف من المستوطنين، وهو العدد الكلي الذي كان بوسع فرنسا إرساله. وطوال الفترة التي تراوحت بين تأسيسها ووقوعها بأيدي الإنكليز سنة ١٧٦٣، لم يقدم من فرنسا أكثر من ١٠ آلاف مهاجر، وتعتقد بعض المصادر أن عدد القادمين من فرنسا قد يكون في حدود الأربعة آلاف. إلا أن التزايد الطبيعي الصافي لما يقل عن ١٠ آلاف مستوطن، بالإضافة إلى أعداد إضافية قليلة قدمت فيما بعد من أوروبا، أدى إلى ظهور مجتمع كندي يفوق عدده حالياً الخمسة ملايين في أمريكا الشمالية.

كان هدف المستوطنات الهولندية في رأس الرجاء الصالح مشابهاً- أي كان يقصد منها إقامة محطة الطريق التي كانت تسلكها شركة الهند الشرقية للاتجار في إندونيسيا والهند وتأمين كتيبة تحمي الخليج Table bay وظلت كيب تاون، طوال عدة عقود عقب تأسيسها، محطة عسكرية أو أكثر بقليل من ذلك. ولكن الشركة قررت في سنة ١٦٧٩، زيادة عدد المستوطنين كي ترفع المحطة دعمها الذاتي إلى حد ما. لم يكن المستوطنون يتقاضون أجوراً من الشركة. ولكن كان بالإمكان استدعاؤهم للخدمة العسكرية. في هذه الأثناء، كانوا يندفعون لإنتاج الغذاء للكتيبة وبيعها للمراكب المارة. وموّلت الشركة لفترة من الزمن هجرة البروتستانت الألمان والهولنديين والفرنسيين؛ فأرسلت بالإجمال حوالي ١٦٣٠ شخصاً، ولكنها أوقفت إمدادها المالي للهجرة في سنة ١٧٠٧، فضعفت الهجرة تدريجيا ثم توقفت تماما. وكوّن هذا النزوح الأوروبي لحوالي ألفي شخص قبل ١٧١٠ بشكل طبيعي مجتمعاً أبيض البشرة ناطقاً باللغة الإفريقانية في جنوب إفريقية تعداده في مطلع القرن العشرين حوالي الثلاثة ملايين ونصف المليون.

ولكن رأس الرجاء الصالح لم يشهد ظهور مستعمرة فعلية على شاكلة كيبيك. نجا شعب خويسان Khoisan المحلي واختلط بالمستوطنين الأوروبيين والعبيد القادمين من مختلف سواحل المحيط الهندي. وانبثق عن ذلك مجتمع رأس الرجاء الصالح الهجين الحالي الذي يعدّ اليوم أكثر من ثلاثة ملايين نسمة. وهكذا باتت مقاطعة الرأس مجتمعاً متعدد الأعراق ولكنه امتصّ العديد من الثقافات المختلفة. لم تكتف النواة الصغيرة من المستوطنين الأوروبيين بالتوسع عن طريق النمو السكاني وحسب، بل أصبحت ثقافتهم عنصراً له شأن كبير في ثقافة الأغلبية الهجينة في الرأس. فعلى سبيل المثال، تتكلم الأغلبية العظمى من مواطني الرأس الهجناء اللغة الإفريقانية بوصفها لغتهم الأم.

تبدي المستوطنات الأوروبية في الرأس والكيبيك تمايزين مهمين عن امبراطوريات المحطات التجارية الأخرى. وفي المثالين، لم تشتمل قوة المستوطنين

العسكرية على الرجال فقط بل انخرطت النساء في صفوفهم وسرعان ما حققوا نسبة توازن طبيعية بين الجنسين أدت إلى التزايد الطبيعي في المجتمع الأوروبي. ونادراً ما بلغت المجتمعات الأوروبية في المناطق الاستوائية الرطبة زيادةً طبيعيةً صافيةً حتى بعد مرور عدة عقود.

ويعود ذلك لنقص عدد النساء من جهة وافتقارهن إلى المناعة في مواجهة الأمراض الخاصة بالمناطق الاستوائية من جهة أخرى. ولكن بيئة الأمراض التي سادت في كل من كندا ورأس الرجاء الصالح اضطلعت بدور إيجابي بالنسبة لنمو المجتمع الأوروبي في العوالم الجديدة كما لأوروبا نفسها، وربما أكثر من ذلك. وما لبثت المجتمعات المستوطنة في كل من أمريكا وجنوب إفريقية أن حققت مستوى من التزايد الطبيعي فاق ما حققته المجتمعات الأوروبية في مواطنها.

كانت المتغيرات الديموغرافية في أمريكا الإسبانية مشابهةً لما سبق وإن أكثر تعقيداً. وبحلول السبعينيات من القرن السادس عشر، تغلبت المكسيك والبيرو على الفوضى التي عمت من جراء حقبة الاحتلال، وتحولتا إلى الامبراطوريات الإقليمية الأولى في العالم الأوروبي. ولكنها أصبحت بعد مرور قرنين من الزمن شبكة معقدة من المجتمعات المتعددة الأعراق لم تحصل من أوروبا إلاّ على إضافةٍ ديموغرافيةٍ صافيةٍ ضئيلة العدد.

لم ترَ الإمبراطورية الإسبانية في الأمريكيتين النور بمبادرة من الحكومة الإسبانية بل من المحتلين عينهم ولم يكن عددهم يزيد على بضعة آلاف. واتسم خلفاؤهم بالعدد الضئيل ذاته حيث إنهم ضموا جنوداً، وإداريين، ومبشرين، وصاروا فيما بعد مديري مناجم وأصحاب مزارع للماشية. لقد ظلت أمريكا الإسبانية، على مدى القرن السادس عشر، عبارة عن إمبراطورية إقليمية تسيطرُ عليها أقلية أوروبية قليلة العدد.

بعد مرور هذه الحقبة، بات من الصعب تقدير عدد المهاجرين الإسبان المترحلين إلى الأميركتين. طرحت بعض المصادر عدد ١٥٠ ألف مهاجر شرعي عبروا البحار

من إسبانيا باتجاه الأميركتين على مدى الفترة ما بين ١٥٠٩و ١٧٤٠. واقترح آخرون عدد نصف مليون قدموا إلى هذه الأراضي حتى سنة ١٦٥٠ فحسب. لا يمكن الاعتداد بهذه الأرقام إذ إنها لم تكن تأخذ بالاعتبار، سوى في حالات نادرة، عددا كبيراً وإن لم يكن محددا من الموظفين الرسميين والتجار والجنود الذين عادوا إلى إسبانيا بعد أداء واجبهم في الأميركتين. وعلاوةً على ما سبق، كان القسم الأكبر من المهاجرين من الذكور؛ فقد بلغت نسبة الإناث بينهم أقل من ١٥ بالمئة قبل سنة ١٥٥٠، وظلت دون الـ ٣٥ بالمئة بحلول نهاية القرن. ويوحي إلينا من خلال ذلك بأنّ الجيل الثاني من المجتمع المنحدر من أصول إسبانية كان من الميستيزوس mestizos أي أنهم إسبانيون من طرف الأب فقط.

شكّلت أنماط الأمراض والهجرة والتوالد الديموغرافيا التاريخية لأمريكا الإسبانية طوال فترة الاستعمار.

وبغض النظر عن عدد المهاجرين الصافي القادمين من أوروبا، فما أن تكافأت نسبة الذكور والإناث بين الإسبان المولودين في أمريكا حتى ازداد عدد السكان الأوروبيين في المهجر تزايداً طبيعياً، تماماً كما جرى في رأس الرجاء الصالح أو في الكيبيك. حدث الشيء نفسه لمجتمعات الميستيزو أي الإسبانيين من طرف الوالد.

ومع مرور الوقت، أبطأت عجلة انخفاض عدد الأميركيين الأصليين وتوقفت وبدأت مرحلة الانتعاش. ولكن التوقيت لم يكن متشابها في كل الأماكن. فقد انطلق الانتعاش بقوة لدى المجتمعات الأمريكية الهندية التي أصيبت أولاً بعدوى الأمراض الغريبة قبل أن تبلغ أزمة الأمراض مناطق أكثر انعزالاً.

يعتبر المؤرخون مسألة حجم المجتمع ما قبل الكولومبي مشكلةً مشوبةً بالغموض. ولم تكن البيانات الإحصائية هي وحدها غير المتوافرة، بل كان المؤرخون يبالغون في التقيم رغبةً منهم بأن ينعكس التقدير الكبير الذي كانوا يولونه لمجتمعات الأميركيين الأصليين. غيرهم كان يشتق أرقامه من الآثار وعينات أخرى، وتعّد مجموعة

الاستنتاجات واسعة النطاق. فاقت التقديرات المبالغ فيها، في أغلب الأحيان، عشرة أضعاف التقديرات الأخرى، وقد كمن التناقض الأكبر في العقود الأولى التي أعقبت وصول الأوروبيين. وبعد إقامة الحكومات الإسبانية الاستعمارية، أصبح الدليل مضموناً. ويمكن اعتبار وسط المكسيك حالة في صميم الموضوع. فابتداءً من عام ١٥٧٠ ضم وسط المكسيك حوالي ٥٧ ألفاً من البيض والإسبان من جهة الأب وأربعة ملايين من الهنود. ولذلك كان العنصر الأجنبي يعدّ أقل من نسبة ١٥ بالمئة من مجموع عدد السكان، ولا شك بأن التباينات الأولى كانت أكبر بكثير بعد.

بحلول ١٧٠٠، أي بعد ١٣٠ سنة، لم يكن عدد الهنود يزيد على ألفين وحسب (انخفاض بنسبة ٥٠ بالمئة) مقابل ٤٠٠ ألف من البيض والإسبان من جهة الأب (زيادة بنسبة ٧٠٠ بالمئة). ارتفع العنصر الأجنبي في تلك الفترة إلى ١٨ بالمئة من المجموع. وما من شك بأن جزءاً من هذه الزيادة نتج عن الهجرة الصافية من أوروبا، ولكن معظمها مصدره نمو سكاني بكل بساطة. وقد تسببت ديناميات السكان المحليين عوضاً عن الهجرة في إدخال التغييرات في هذا الجزء من أمريكا الإسبانية بحيث حوّلتها من إمبراطورية حقيقية إلى مجتمع متعدد الأعراق، تماماً كما تحولت الكيبك من محطة تجارية إلى مستعمرة حقيقية.

شهدت أمريكا الشمالية البريطانية نوعاً آخر من التحوّل الديموغرافي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فقد ازداد عدد السكان الأوروبيين القادمين من وراء البحار زيادةً كبيرة، على غرار ما حصل خارج الأراضي المنخفضة. إلا أن عدد الهنود الذين نجوا من الأمراض كانوا أقل من أن يشكّلوا طبقة عاملة، كما حصل في أمريكا الإسبانية؛ ولذلك تشكلت الطبقة العاملة في معظم أجزاء المستعمرات الشمالية، من الخدم الأوروبيين الملزمين بعقود رسمية وعائلاتهم، وبعض العبيد الأفارقة، وبعض المدانين، وبعض المستوطنين الأحرار.

على أنّ الإنكليز، وخلافاً للقوى الاستعمارية الأخرى، أسسوا عن قصد في بعض الأحيان، مستعمراتٍ حقيقيةً في أمريكا الشمالية في مطلع القرن السابع عشر، شاع

اعتقاد انكلترا مأهولة بأعداد مفرطةٍ من السكان. وقد استند على هذا الاعتقاد عند استعمار إيرلندا أيضاً. صممّت بعض المستوطنات، وليس كلها، من أجل نسخ مجتمع البلد الأم. صممت نيويورك جزئياً لترسيخ تجارة الفراء عبر ألبانيا وصولاً إلى الغرب، تماماً كما قصد من وراء إقامة الكيبك تركيز تجارة الفراء في سان لورانس. وقد كانت المنطقة المنخفضة من كارولينا الجنوبية في مطلع القرن الثامن عشر مستعمرةً زراعية على شاكلة نموذج غرب الهند أكثر منها مستعمرة للاستيطان.

ومع ذلك، فخلال الفترة الاستعمارية كان عدد النازحين الأوروبيين إلى أمريكا الشمالية أكبر منه إلى أي وجهة أخرى؛ ولذلك كان نمو السكان الذي أعقب وصولهم كبيراً جداً. فوفقاً للتخمينات الأخيرة المستندة إلى إحصائيات المهاجرين المتباينة، قدّر عدد الواصلين من المستعمرات البريطانية بما يتراوح بين ٣٦٠ ألفاً و ٧٢٠ ألفاً، وفقاً لأسلوب التقديرات. ومهما كان العدد الفعلي المتضمن في هذا المدى، فقد كانت نسبة نمو السكان مرتفعة إلى حد أنّ هذه الإضافة الصغيرة أنتجت مجتمعاً أوروبياً في ما وراء البحار فاق الثلاثة ملايين بحلول سنة ١٧٩٠.

وعلى الرغم مما سبق، يظل حجم الهجرة الأوروبية ضئيلاً بالمقارنة مع التدفق الذي شهدته في أواخر القرن التاسع عشر. تشير التقديرات غير الدقيقة لحركة الأوروبيين نحو الخارج بحلول سنة ١٧٩٠ إلى حوالي المليون ونصف المليون، وهو رقم أقل بكثير من مجموع الأفارقة البالغ عددهم ثمانية ملايين تقريباً. كما أنه ضئيل بالمقارنة مع هجرة الأوروبيين إلى الخارج خلال مدة زمنية موازية امتدت من ١٨٠٠ إلى ١٩٩٠، وصلت الأعداد في بعض التقديرات إلى الستين مليوناً.

ظهور الإمبراطورية الإقليمية:

ينتمي ظهور الإمبراطورية الإقليمية إلى الحقبة الصناعية، على غرار حركات الهجرة الأوروبية الضخمة في بلاد ما رواء البحار. قبل عام ١٧٥٠ كانت الهيمنة الأوروبية المهمة على الامبراطوريات الإقليمية لا تزال مقتصرةً على الأميركتين.

ولكنّ المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم في تلك الفترة لم تكن أكثر من مجرد صورة مصغرة لما كانت تظهره الخرائط التي تتصدر الكتب المدرسية على أنها أمريكا الإسبانية والبرتغالية. تبيّن الخرائط مطالبة أوروبا بالسيادة، في حين اقتصر نطاق سيطرة الإدارة الحكومية الفعلية ابتداءً من سنة ١٨٠٠ على الأراضي الجبلية امتداداً من وسط المكسيك إلى وسط تشيلي، ومعظم جزر الكاريبي، والقسم الأكبر من البرازيل الساحلية. ومن ناحية أخرى، اقتصرت سيطرة الأوروبيين الفعلية على المستعمرات المحاطة بالأراضي التي طالبوا بها ولكنهم لم يحاولوا حكمها. وقد تضمنت هذه المقاطعات الواقعة شمال وسط المكسيك مراكز المناجم المتناثرة على مساحات شاسعة، والمدن التجارية من قبيل سانتا Snta Fe ، وأجزاء من كاليفورنيا التي تحيط بمراكز تبشيرية. وظهر نمط الاستقرار نفسه في مواقع أخرى من أمريكا الشمالية. فقد شملت السيطرة الحقيقة مناطق المستوطنة الساحلية ابتداء من الكيبك وصولاً إلى جورجيا. ولكن ساد ما وراء جبال الأبالاش Appalachians، نمط رئيس آخر تمثل في إمبراطورية المحطات التجارية البرية. وبحلول سنة ١٨٠٠، كان ربع مساحة الأميركتين بالكاد خاضعاً لسيطرة الأوروبيين.

كانت لأوروبا تخوم أخرى يمكن استخدامها لتوسيع رقعة سيطرتها نحو الشرق في شمال البحر الأسود وجنوب موسكو Muscovy، في مطلع القرن السابع عشر، كانت هذه المنطقة تحت سيطرة البدو التتر الذين تخلفوا وراء أسلافهم خلال حركتهم التوسعية في مطلع ا لقرن الثالث عشر وفيما بعد، وباتت تلك المناطق موضع مطامع وصراعات الدول الحدودية، أي موسكو Muscovy في الشمال، وبولندا وليتوانيا في الغرب، ومقاطعات آل هابسبورغ في الجنوب الغربي، والإمبراطورية العثمانية في الجنوب. إلا أن النزاعات السياسية والعسكرية الناشبة بين هذه الدول المستقرة كانت أكثر مرونةً من الصراعات الحدودية المماثلة لها في أوروبا الغربية. لم يكن التحكم السياسي المطلق للبنى البروقراطية يتمتع بالقدر ذاته من الأمان كما في أوروبا الغربية.

فقد كان السكان أكثر تباعداً وحركةً على حدٍ سواء. ولكن السلطة انزاحت، في الفترة المتراوحة بين ١٦٠٠ إلى حوالي ١٨٠٠، بعيداً من أيدي التتر والعثمانيين واستقرت في قبضة الإمبراطورية الروسية. وقد ترافق التقدم العسكري والسياسي باستيطان واسع النطاق لما كان يعرف بأوكرانيا وجنوب روسيا. عندها ابتدأ الاستعمار الروسي الذي امتد في آخر المطاف إلى ما وراء الأورال أيضاً.

أما الوجود الروسي في سيبيريا فقد اتخذ -قبل سنة ١٨٠٠- شكل إمبراطورية للمحطات التجارية توسعت باتجاه الشرق حتى ألاسكا. تمحورت بداية الاستعمار الحقيقي حول شريط ضيق من الأراضي الممتدة على طول خط سكة الحديد القديمة العابرة لسيبيريا. وفي الحقيقة، بدأ الروس بالتحرك داخل ذلك الرواق قبل سنة ١٨٠٠ بفترة زمنية قصيرة. لكن الغزو الروسي الحقيقي وقع في فترة لاحقة. وقد ترافق ذلك مع تكوين الروس لامبراطوريات الإقليمية الأولية في الجنوب وامبراطوريات المحطات التجارية البرية في الشمال بالإضافة إلى مقاطعات خاضعة لاستعمار حقيقي متناثرة في المنطقتين. لقد كانت استراتيجية التوسع الأوروبي بأسرها في هذه البلاد واقعةً تحت التأثير الشديد الذي كانت تمارسه التقاليد القديمة للنزاعات بين الشعوب البدوية والحضرية.

على طول السواحل الجنوبية والشرقية من آسيا، كان النمط السائد للإمبراطورية الأوروبية لا يزال نمط المستعمرات التجارية، على الرغم من بدء ظهور بعض الهيمنة الإقليمية هنا وهناك. أما في الفيلبين، فقد كانت إسبانيا قد وسعت أنماط هيمنتها المتوسعة انطلاقاً من أمريكا الإسبانية وغطت بنيتها الإدارية البيروقراطية من الناحية النظرية الجزر كافة. ولكن عناصر السيطرة القوية الكامنة فيها ظلت في أيدي المحليين، أي الإسبانيين والفيليبينيين. لم تحاول الحكومة في مانيلا أن تدير القسم الأكبر، أو معظم الأراضي الفيليبينية التي طالبت بها.

كانت أهم الامبراطوريات الإقليمية الأوروبية في آسيا تلك التي خضعت للشركة البريطانية والشركة الهولندية للهند الشرقية. لقد كانت تلك شركات تجارية

مرخصة، الهدفُ الأوليُّ منها أن تراقب امبراطوريات المحطات التجارية. وبحلول سنة ١٨٠٠ أصبحت الشركة الهولندية تمتلك سطوةً هائلةً على أجزاء واسعة من مجموعة الجزر الإندونيسية. ولكنها كانت تستغل هذه السيطرة بشكل رئيس للحصول على منافع تجارية عوضاً عن الاكتفاء بمنافذ الضرائب والرسوم. غير أنها ظلّت أقلّ بكثيرٍ في الإدارة الحكومية اليومية. واقتصر حكم الشركات على الأراضي. وإنْ واهناً، على الثلاثة الأرباع الغربية من جزيرة جاوة. ومن نواحٍ أُخرى، أحكمت تجارة التوابل من قبيل جزء المالوكوس.

وابتداءً من سنة ١٨٠٠ في الهند، كانت شركة الهند الشرقية البريطانية هي السلطة المسيطرة على مقاطعات البنغال والبيهار. ولكن طبيعة هذه السلطة تشير إلى المرحلة الانتقالية بين إمبراطورية المحطات التجارية والسيطرة الإقليمية الفعلية. وحتى الأربعينيات من القرن الثامن عشر لم تضطلع القوى الأوروبية، ولاسيما بريطانيا وفرنسا، إلا بدور تجاري بسيط، إذ كانت متمثلة بتجار مسلحين، نقلوا عداواتهم الأوروبية إلى السياسات الهندية. أما الإمبراطورية المغولية التي حكمت شمال الهند طوال معظم القرن السادس والسابع عشر، فهي تعد ذات سلطة مركزية قوية ما خلا ما يكتنفه اسمها. استأثر الحكام الريفيون بالسلطة وإن كانوا يحكمون باسم المغول. وأتاح هذا الوضع المرن المجال للشركات الأوروبية تجنيد جنود من الهنود للتصدي لبعضهم، واستخدام قدراتهم العسكرية للمشاركة بفاعلية في نظام الدولة الهندية.

باديْ ذي بدء، سعى الأوربيون للتأثير على الحكام الهنود بشكل حصري، ولكن سطوتهم هذه تزايدت تدريجياً إلى أن حوّلتهم إلى الحكام الفعليين. في سنة ١٧٧٢، أصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية هي المسؤولة باسم إمبراطورية المغول عن مقاطعات البنغال والبيهار في الأراضي ما وراء كالكوتا. وقد أدت دور جابي الضرائب والديوان في هذه المقاطعات، ولكنها كانت تحتفظ بهذه المداخيل لنفسها عوضاً عن إرسالها إلى عاصمة المغول في دلهي. جباة الضرائب الفعليون كانوا من

الهنود. كما جرت العادة في السابق. ولكنهم أصبحوا يعملون في ظل مراقبة موظفي الشركة البريطانية. وأدت جباية ضرائب الشركة إلى اكتساب المزيد من السلطات الإدارية والقضائية، وعلى مستوى الحكومة الأقلّ. ولكن في وقت لاحق، أقيمت المراقبة غير المباشرة على «الدول الأصلية» الهندية، التي قبلت سلطة «المقيم» البريطاني، وهو فعلياً سفير كان الحاكم مجبراً على قبول نصيحته واستشارته في المسائل المهمة.

واستناداً إلى هذه المعاهدات الوهمية الملائمة، واصلت سلطة الشركة البريطانية تزايدها حتى سنة ١٨٠٥، وباتت أكبر قوة إقليمية نفوذاً في الهند. وبحلول الأربعينيات من القرن التاسع عشر، صارت لأوامر الشركة البريطانية قوة القانون في غالب الأحيان، حتى في داخل الدويلات الهندية التي لم تضم رسمياً إلى الهند البريطانية. ومع ذلك، كان نفوذ الشركة ومدراؤها العاملون في خدمة التاج البريطاني جزءاً لا يتجزأ من مجموعة من مؤسسات المغول التي أضفى عليها الطابع الغربي تدريجياً على مدار القرن التاسع عشر.

الواقع المتغيّر للقوة الإمبريالية:

تبدلت القوى الحكومية مع مرور الزمن، على الرغم من أن العصر الصناعي الأول مهّد الطريق أمام تكنولوجيا جديدة للحكومات انتشرت في أنحاء العالم كافة بعد إدخال بعض التغييرات المحلية عليها. في أثناء العصر الزراعي، اختلفت الإدارة الحكومية إلى حد كبير باختلاف الثقافات. فكانت أوروبا الإقطاعية مختلفة تماماً عن الصين الخاضعة لحكم السونغ. فهناك العديد من الأطالس التاريخية التي تورد خريطة «الإمبراطورية شارلمان» بلون واحد، وتمتد على معظم المناطق الواقعة شمال غرب أوروبا انطلاقاً من عاصمة الإمبراطورية في Aachen. من الممكن أن يكون نفوذ شارلمان قد اعترف به من بعض النواحي على هذه الأراضي الواسعة النطاق، ولكن مستويات التعلم والكفاءة الحكومية كانت منخفضة في تلك الفترة إلى حد أنه

كان من الصعب أن يضمن نقل الأوامر بأمانة إلى الأماكن كافة، وبالتالي تنفيذها. ومن المشكوك فيه أن تكون أقلية مهمة من السكان الريفيين مدركة بأنها جزء من إمبراطورية ما مهما كان الاسم الذي تحمله.

تُظهر خرائط تعود إلى فترة لاحقة بعض المتغيِّرات، من مثل انتقال الألزاس واللورين من فرنسا إلى ألمانيا سنة ١٨٧١. ولكن المعنى في هذه الحالة يكتسب المزيد من الواقعية. تحوّلت الضرائب إلى اتجاه جديد. كانت الأوامر تنفذ كالعادة، ومارست الشرطة والسلطات القضائية نفوذاً ضمن الإطار المركزي للسلطة. كان التعليم على الرغم من أن سكان الالزاس واصلوا استخدام لغتهم الأم التي لم تكن الفرنسية أو الألمانية. ومن الصعب أن يتجاهل أيُّ امرئٍ، مهما تدنى مستوى تعليمه، هذا التغيير. هيمنت الحكومات الأوروبية في مطلع العصر الصناعي على مجتمعات متعلمة في أغلبيتها من خلال إدارة عامة متزايدة الكفاءة كانت تسيطر على مجالات واسعة من الخدمة العامة، ولم تكن أيٌّ من حكومات ما قبل العصر الصناعي تمتلك هذه القدرة الشاملة على التأثير على مواطنيها بهذا القدر الشاسع من أوجه حياتهم.

زادت القوة الإدارية للامبراطوريات الأوروبية في ما وراء البحار أيضاً. ولكن كان لابد من وجود هوة هائلة أحياناً بين مطالباتهم بالسلطة وواقع القوة التي كانوا قادرين على ممارستها. يعود استخدام الأوروبيين للألقاب الضخمة - على أقل تقدير - إلى مطالع القرن السادس عشر، عندما طالب ملك البرتغال مانويل الأول بلقب «سيد الفتوحات، والبحار، والتجارة في أثيوبيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند». في تلك الفترة، لم تكن غير قلة من أهالي تلك الأراضي قد سمعت بوجود دولة البرتغال.

ولكن المطالبة بهذا اللقب لم تكن تحتوي على هذا القدر من الغباء كما يبدو عليه الأمر.

ففي السياق الأوروبي لتلك الفترة، عنى توكيد احتكار البرتغال للتجارة في آسيا إخراجاً للأوروبيين الآخرين، وإنذاراً بأنه إذا ما حاول بعض الأوروبيين غزو الأراضي الآسيوية أو الإفريقية فإنهم سيواجهون القوة البرتغالية.

في فترات زمنية أخرى ، خفض الأوروبيون من واقع هذه القوة عوضاً عن تضخيمه. وفي سنة ١٨٨٢ احتل الجيش البريطاني مصر، ولكن الوضع الدبلوماسي الأوروبي في تلك الفترة، حال دون السماح لبريطانيا بضم مصر إليها أو الانسحاب. وللخروج من هذه الورطة، بسطت وزارة الخارجية البريطانية سيطرتها على العمليات الرئيسة التي تقوم بها الحكومة المصرية وحكمت مصر بالفعل لعدة عقود. بدأ الحكم البريطاني سنة ١٨٨٢. وظلت السياسة الخارجية المصرية خاضعةً لنوع من السيطرة البريطانية حتى سنة ١٩٥٢. ولكن مصر لم تعد جزءاً من الإمبراطورية البريطانية إلا في الفترة الواقعة بين ١٩١٤و ١٩٢٢. لم تكن الشخصيات المهمة تجهل ما كان يحدث، ولكنه كان ضرباً من الخيال المؤاتي أن يطلق على الحاكم البريطاني تسمية «المندوب السامي العام» عوضاً عن تسمية حاكم، وأن تحكم الدول الخاضعة للوصاية من خلال وزارة الخارجية عوضاً عن مكتب المستعمرات.

لم يكن غريبا، بعد مرور هذه الفترة الزمنية على الإمبراطورية، أن تكسي هذه السيطرة بهذا القناع الفاضح، زخرت الخريطة بمحميات كثيرة ,Schuutzgebientn ودول خاضعة للوصاية، ومقاطعات ما وراء البحار والجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، والأوطان الإفريقية، بالاضافة إلى أشكال مقنعة أخرى من الإمبراطورية الاقليمية. في معظم الحالات، ولم يكن القناع إلا مجرد خيال قانوني يخدم العلاقات العامة، وليس جهداً جدياً هدفه خداع الشعب المحكوم أو العالم بأسره.

ولكن يصعب أحياناً التحقق من الدرجة الفعلية لهذا النفوذ الخارجي من الناحية النظرية، وكان من الممكن إقامة إدارة إمبريالية بيروقراطية كاملة في ذروة

الامبـراطوريات الأوربيـة مـع إبقـاء جـهـاز الدولة الحـديثـة تحت قـيـادتهـا، ومع القـدر القليل من مشاركة السكان المحليين أو حتى دون مشاركتهم. لكن نادراً ما كان يوجد هذا النوع من الحكومات الإمبريالية خارج المجتمعات المتعددة الأعراق مثل الجزائر أو جنوب إفريقيـة حيث شغل الأوروبيـون القـادمـون من وراء البـحـار المراكـز الإدارية العليا. لكن في مناطق أخرى احتل السكان المحليون القسم الأكبر من الوظائف في إدارة الشرطة، والوظائف الإدارية، والإدارات المنخفضة المستوى. وكان بعض السكان المحليين يشغلون وظائف إدارية عالية المستوى أيضاً، كما في حالة الراجا Rajas على رأس الدويلات المحلية Native States في الهند.

يمكن أن تتبدل نسبـة الإداريين الأوروبيين بين السكان بشكل كبيـر، ولكنها ظلت ضئيلة حتى في المستعمرات التي تعد عدداً كبيراً منهم في مراكز إدارية. خضع الكونغو البلجيكي لسيطرة محكمة، ولكنه لم يكن يوجد فيه أكثر من إداري أوروبي واحد لكل ١٥٠٠ مواطن. أما في الأراضي الإفريقية الأخرى حيث اتخذ الأوربيون قراراً حاسماً ببسط نفوذهم عبر الأملاك السابقة الوجود، فمن الممكن أن ترتفع هذه النسبة إلى أن تصل إلى ٥٠.٠٠٠ أو حتى ما فوق.

كان لابد من اتخاذ قرار في مسألة مقدار النفوذ الذي يمكن تفويضه على التابعين المحليين، وفي مسألة أخرى هي مقدار النفوذ الإجمالي الواجب ممارسته. وفي نهاية المطاف، قد تدعي أي قوة أوروبية السيادة على أي صقع بغية إرسال إنذار لمنافسيها الأوربيين من محاولة السيطرة عليه، ولكن لا تقوم هي بذلك. وقد يقتصر التأثير الفعلي على مجرد تهديدات أو يتخذ شكل حملة تأديبية عرضية. وتنتمي دعاوى الإسبان والبرتغاليين باقتسام السيطرة على الأميركتين خلال الحقبة الاستعمارية انتماءً وثيقاً إلى هذا النوع. وخلال القرن العشرين، تركت الأطلسي دون إدارة. ولم يحاول الأستراليون ولا الهولنديون إدارة الأراضي الداخلية من غينيا الجديدة إلى حد ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولو لم يكن المواطنون المحليون

يمتلكون موارد قيمة من مثل المعادن أو النفط، فالأسهل والأقل كلفة أن يتركوا للعناية بشؤونهم الخاصة.

وظهرت إمكانية أخرى تمثلت باقتسام السيطرة بين قوة أوروبية وأخرى محلية. وغالباً ما كان الأوربيون يُحكمون سيطرتهم على الشؤون الخارجية، والعسكرية، وجباية المداخيل، أو البرق والبريد، وهي المجالات التي تؤثر على مصالحهم، بينما تُترك المسائل الأخرى للسلطات المحلية، كما تصرف البريطانيون في مصر.

أما في دول أخرى، من قبيل أقاليم الصين في أواخر القرن التاسع عشر أو الإمارات في الخليج الفارسي في مطع القرن العشرين، فمن غير الواضح إن كان الأوروبيون فرضوا أي نوع من أنواع السيطرة أو اكتفوا ببساطة بتقديم النصيحة المصحوبة بقوةٍ عسكرية لا يستهان بها.

ظهرت مشكلة مماثلة حتى ضمن الأراضي الخاضعة رسميا للنفوذ الأوروبي. كان من الممكن أن تواصل السلطات السابقة للاستيطان حكمها للبلاد مع تقبل نصائح المسؤولين الأوربيين. ولكن النصيحة كانت أحياناً روتينية، اتسمت في أحيانٍ أخرى بدقة تفاصيلها، مما جعل من أصحاب النصيحة الحكام الحقيقيين. وهكذا اتصف واقع الحكم الإمبريالي بتوعيةٍ شديدةٍ، واكبت مرور الزمن وتغير المكان، حتى ضمن الإمبراطورية الاستعمارية الواحدة. واكتفت الخرائط المنشورة الملونة بشكل ملائم كي تبرز الأراضي الخاضعة للحكم الفرنسي أو البريطاني أو البرتغالي بإظهار المطالبات بالسيادة الشرعية فحسب، وليس بواقع القوة التي تمارسها على الأرض.



٢

التكنولوجيا والنفوذ

يصعب علينا أن ننكر أنّ التوسع الإمبريالي الذي شهده القرنان المنصرمان كان مرتبطاً من ناحية ما ببدء العصر الصناعي، وما رافقه من زيادات هائلة في الإنتاج والاستهلاك بالنسبة للمدخول. ولكنّ مؤرخي أوروبا غير متفقين حول الماهية الدقيقة لهذه العلاقة، ولذلك يحفل الجزء الأكبر من النقاش بتعابير ذات محتوى غير مؤكدة ولكنه المألوف، من قبيل الثورة الصناعية، والرأسمالية، والإمبريالية.

لم يتوصّل المؤرخون الاقتصاديون حتى الآن، بشكل مرض، لتحديد العلاقة التي تربط بين التكنولوجيا الصناعية والنمط الغربي للتنظيمات الاقتصادية، أو ما يسمى عادة بالرأسمالية. ظهر هذا المفهوم في مطلع القرن العشرين ولكنه أرجع زمنياً نحو الوراء بحيث شمل فترات سابقة ودُفع إلى الأمام حتى بلغ أيامنا الحالية فبات يشير إلى مجموعة من التنظيمات الاقتصادية التي دخلت عليها تغييرات جمة، حتى خلال القرنين الأخيرين، إلى أن أصبح من الصعب اعتبارها كياناً واحداً.

وبما أنَّ أياً من تحديدات الروابط ليست دقيقةً بما فيه الكفاية كي تشكّل مفهوماً، فمن الصعب أن نقبل بها على أنها المحرّك الأولي، إلاّ أنّ بعض السلطات قد أشارت إلى أنّ الرأسمالية كانت وراء اندلاع الثورة الصناعية وظهور الإمبريالية، ووجدت العلاقات الأخرى ضمن هذه الروابط الثلاثة مؤيدين لها. وإلى أن يقدّم مؤرخو أوروبا الاقتصاديون لما تبقى تحديداً واضحاً ومعقولاً بما فيه الكفاية عن العلاقات التي تربط الرأسمالية والتكنولوجيا الصناعية، ودليلاً مقنعاً على السبب الرئيس لقيام الإمبريالية، يكون أكثر أماناً لنا أن نبدأ بمستوىً أقل من التعميم.

مهما كان دور الرأسمالية، فإن المؤرخين مقتنعون بأن أوروبا هي المجتمع الأول الذي صدرت منه «الثورة الصناعية». اعتقدت بعض السلطات يوماً بأن الإنجاز إنكليزي المصدر، وابتدأ في أواخر القرن الثامن عشر. وفي فترة قريبة، بحث المؤرخون عن جذوره في أماكن أخرى من أوروبا وعادوا إلى فترات زمنية سابقة، بما في ذلك التكنولوجيا المقتبسة من المجتمعات غير الغربية. ولم يكن نمو الإنتاجية الفردية حكراً على أوروبا. فقد شهدت كل من الصين في أثناء حكم أسرة سونغ، واليابان في ظل حكم توكوغاوا، من بين مجتمعات أخرى، تحركاً نحو نمو اقتصادي مستديم دون عبور الخط على عدة ابتكارات مثيرة، من قبيل المنسوجات المنجزة آلياً و القوة البخارية، ومن بعدها الحديد والصلب. أما الثورة التكنولوجية فقد كانت على نطاق أوسع بكثير وخلال فترة أبكر بكثير. خلال حقبة إمبراطورية المحطات التجارية، كانت القوة المائية والمراكب الشراعية هي المصدر الأهم للقوة غير الإنسانية وغير الحيوانية، وقامت منافسة فاعلة في عرض البحار بين الشراع والبخار في منتصف القرن التاسع عشر. ولم يشهد العصر البحري للشراع تغيرات تقنية هائلة وحسب في المراكب الشراعية نفسها، بل وفي التغييرات كلها التي ساعدت في نقل التجارة إلى مسافة ما، بما فيها التغييرات العادية، ولكن المهمة في مجالات الأعمال المصرفية والاعتمادات، أو التأمين، أو المحاسبة. ويشير الاقتصاديون أحياناً إلى ما ذكرنا على أنها تكاليف الصفقات. وقد مثل انخفاضها، على مرِّ القرون من القرن السادس عشر وصولاً إلى القرن العشرين، إسهاماً على قدر من الأهمية في النمو الاقتصادي، أكبر من التحسينات التي أُدخلت على المراكب الشراعية. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر، تم التوصل إلى نشر مجموعة من العلاقات الاقتصادية على مستوى العالم، وبموجبها دفعت الأميركتان الذهب والفضة مقابل الواردات الأوروبية من آسيا، واشتملت، فيما اشتملت، على المنسوجات الهندية التي كانت السلع الرئيسة المستخدمة على الساحل الإفريقي لشراء الأفارقة المستعبدين.

سعى بعض المؤرخين غير الأوربيين لتقديم تسويغ للثورة الصناعية من خلال البحث عن جذورها في نشاطات مماثلة لامبراطوريات المحطات التجارية والمجتمعات الزراعية التي شاعت في حقبة ما قبل الصناعة. في مطلع القرن العشرين، ضخّم بعض المؤرخين في الهند المكاسب التي حققتها شركة الهند الشرقية البريطانية، وما يستنزفه الأوروبيون منها بوصفه المدخول الرئيس للاستثمارات SOURCE CAPITAL OF INVESTMENT، وقالوا إنّ ذلك مهّد الطريق أمام بريطانيا لإدخال الصناعة إليها في مطلع القرن التاسع عشر. وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، نشر إريك ويليامس، الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء الترينيداد، كتاباً عنونه بـ «**الرأسمالية والاستعباد**» طرح فيه رأياً مشابهاً: أي أنّ المكاسب التي حققت من المتاجرة بالعبيد ومن المزارع الأمريكية الاستوائية مولت «الاستثمارات البدائية» التي استلزمتها عملية إدخال البريطانيين الصناعة إلى البلاد[1]. لقد أقرّ الجميع بأنّ بزوغ فجر العصر الصناعي اتسم بقدرٍ كبيرٍ من التعقيد بحيث يصعب تفسيره بأسلوب خطي أحادي السبب، ولكن بات من المعلوم على نطاق واسع أنّ التقنيات المعتمدة في تنظيم الاقتصاد ونقله على مسافات بعيدة، على غرار ما طوّر خلال القرنين الأولين من النشاطات الأوروبية في ما وراء البحار، قد أسهمت إسهاماً بالغ الأهمية في أهلية الأوربيين للتنظيم، ومن ضمن ذلك أهليتهم في إعداد الجيوش على القتال بحيث يصبح بإمكانها احتلال الامبراطوريات الإقليمية لأوربا وحكمها.

ومهما كان المصدر، فقد بدأ الأوروبيون انطلاقاً من أواخر القرن الثامن عشر، بإنتاج مجموعة من السلع فاقت ما كان ينتجه المجتمع السابق. وبفضل هذه الموارد، تمكن أحدهم أو بعضهم من اكتساب القدرة على اتخاذ القرار المؤاتي لكيفية استخدامها. ومن الممكن أن يتمثل هذا الاستخدام باستثمار رأسمالي جديد، يضم

١ - إريك ويليامز، الرأسمالية والعبودية Capitalism and Slavery (تشابل هيل: منشورات جامعة كارولينا الشمالية، ١٩٤٤).

الاستثمار الاجتماعي في السلع العامة مثل التعليم والبنية التحتية، أو يمكن استثمارها في الجيوش البحرية؛ بغية تعزيز قدرة الدول على التغلب على منافسيها من الدول الأوروبية الأخرى، كما يمكن إنفاقها على الخدمات الاجتماعية المخصصة للأفراد المحرومين في المجتمع، أو يمكن استخدامها لتمويل عمليات غزو لمجتمعات أخرى في ما وراء البحار وحكمها. وردّ كلّ من المصلحة الوطنية، والثراء الفردي، والغيرية بين الأهداف التي تحظى بالدعم بين الحين والآخر. ولكن لا الموارد الجديدة ولا التكنولوجيا التي كانت وراء ظهور هذه الموارد فرضت طريقة استخدامها. والجديد في كل ذلك بدر في مجموعة الخيارات التي لم يكن لها وجود في العصر السابق للصناعة.

الأسلحة والقوة العسكرية:

شكل امتلاك الأوروبيين القدرة على الغزو والسيطرة على معظم أنحاء العالم وضعاً أساسياً جديداً لوّح في أفق كل أشكال العلاقات التي ربطت بين الغرب والبلاد الأخرى. ولكن شتان بين امتلاك القدرة وممارستها، يمكننا الاستعانة في هذا الصدد بالاختلاف بين العلل الضرورية والأسباب الملائمة؛ فغزو بلد ما يتطلب بالضرورة امتلاك القوة العسكرية الكافية للسيطرة على مجتمع آخر، ولكن مجرد وجود هذه القدرة لا يعوّل عليه باعتباره تسويغاً كافياً لتفسير استخدام هذه القوة بالتحديد بأسلوب معيّن. إلا أنّ التكنولوجيا الأوروبية، ولا سيما التكنولوجيا العسكرية، كانت مع ذلك واقعاً ضرورياً حاضراً في خلفية التاريخ العالمي خلال العصر الإمبريالي.

فرضت المنافسات القائمة بين الدول الأوروبية إنفاق الأرباح الأولى المكتسبة من الثورة الصناعية على الأسلحة والجيوش. وفي هذا الإطار، كانت الطبقة الحاكمة الأوروبية المكتسبة من الثورة الصناعية على الأسلحة والجيوش. وفي هذا الإطار، كانت الطبقة الحاكمة الأوروبية خلال الفترة السابقة للصناعة من العسكريين

تشارك رجال الكنائس والمواطنين في حكم البلاد، ولكن حصة الأسد كانت من نصيب النبلاء. ومهما كانت مصادر الابتكار في أوروبا، لم تشكل التكنولوجيا موقعاً من مواقع قوة طبقة النبلاء، ولا حتى طبقة العسكريين بأسرها. شدّدت توجهاتهم وقيمهم على البطولات في ساحات الحروب، لا على المهارة والابتكار، ولا حتى على ابتداع أسلحة جديدة وعندما أُدخل سلاحُ المدفعية للمرة الأولى، كان مواطنون من الطبقة الشعبية المتدنية من أعطي في أغلب الأحيان، هذا النوع من الأسلحة، وببلوغ القرن التاسع عشر، ظلّ سلاح المدفعية فرعاً متدنياً في الجندية، هيبة سلاح الفرسان كانت أكبر على الرغم من إمكانية وصول فرد من أفراد سلاح المدفعية إلى مرتبة قيادية مهمة كما حصل مع نابليون.

لكن حتى في مطلع القرن التاسع عشر، عندما باتت أهمية التكنولوجيا الصناعية معترفاً بها بالكامل، ظلّت الفئات العسكرية في صفوف القوى الغربية الرئيسة تحظى بتقدير جنتلماني عوضاً عن مزايا مهنية. وقد قامت إحدى أهم الإصلاحات العسكرية على تشكيل هيئة للضباط المدرَّبين. أول الناجحين في تحقيق هذا الهدف كانت بروسيا، ومن بين نتائجها تكوين الإمبراطورية الجرمانية عقب فوز بروسيا في الحرب ضد فرنسا.

وعلى الرغم من الاحتقار الذي أولي للأعمال التكنولوجيا الخلاّقة، فقد أظهرت الطبقة الحاكمة الأوروبية احتراماً وتقدماً بجذورها العسكرية من خلال إنفاق نسبة متزايدة من الدخل الوطني الآخذ في التزايد على الميدان العسكري غير المستخدم بالضرورة في بلاد ما وراء البحار، ولكن لتوفير الحماية من المنافسين الأوربيين. زاد عدد المنخرطين في الجيوش الأوروبية بعد أن كانت تتكوّن، في مطلع القرن الثامن عشر، من قوى محترفة قليلة العدد، وقد تم ذلك من خلال التجنيد الواسع النطاق الذي أجرته الثورة الفرنسية بغية تشكيل جيوش من المجندين الإلزاميين في أواخر القرن الثامن عشر، ووصل عدد المجندين إلى أقصاه خلال المذابح الجماعية التي اقترفت خلال الحرب العالمية الأولى التي دامت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨.

بعد الأربعينيات من القرن الثامن عشر، خاضت أوروبا جزءاً من حروبها الرئيسة في ساحات حربية بعيدة عن مراكز القوى مثل بونديشيري Pondichery أو بيتسبيرغ Pithsburgh، ولكنّ اهتمامات الحكام الأوروبيين كانت تتمحور حول موضوعي أوروبا والتنافسات الأوروبية، ثم انتقلت هذه التنافسات مع مرور الزمن إلى ما وراء البحار. أما القوى المسلّحة التي أنشئت أساساً كي تستخدم داخل أوروبا فقد جيِّشت ضد الأعداء الأوروبيين على حدود الإمبراطوية وفي مواجهة غير الأوروبيين أيضاً.

أما على المستوى العالمي، فقد كان الابتكار التكنولوجي الأوروبي الأول في الميدان الحربي بحرياً. لقد كان الأوروبيون في طليعة من استخدم سلاح المدفعية المحمولة بحراً، وتزايد عدد المراكب التي تستطيع القيام برحلات طويلة بأمان معقول وتتمتع بدراية بكيفية خوض بحار ممعنة في البعد. وخلال القرنين ونصف القرن التي تلت ظهور فاسكو دي غاما في كاليكوت في أثناء رحلته الأوروبية الأولى إلى الهند، فقد الأوروبيون تنافسيتهم في ميادين الحروب البرية إزاء المجتمعات الأخرى في المناطق الإفريقية الأوروآسيوية ولكنهم احتفظوا بتفوقهم في المجال الحربي البحري إذ لم يتمكن أي مجتمع آسيوي من اقتراض ما بحوزة الأوربيين من معلومات كافية لإقامة تجارة بحرية مباشرة يسيطر عليها الآسيويون مع أوروبا. قامت مجموعة ضئيلة من التجار الآسيويون بزيارة أوروبا، لكنهم إن سلكوا الطريق البحرية، فقد قدموا على متن مراكب أوروبية.

اتسم التحكم بالحركة في عرض البحار بصعوبة خاصة مع الاستعانة بالتكنولوجيا البحرية السائدة في تلك الحقبة من الزمن. فكلّ مركب تقريباً مؤهل للإبحار نحو الأمريكيتين أو إفريقيا دون الصحراء الكبرى أو آسيا يمكن أن يستغل كمركب حربي عند الضرورة، وقد توجب عليه في بعض الأحيان أن يحارب على سبيل الدفاع عن النفس. خلال بعض الحقبات الزمنية، استخدمت، في معاهدات السلام الأوروبي المطبقة على المياه الأوروبية بشكل حصري، مصطلحات «خطوط

الصداقة». وفي مطلع القرن التاسع عشر، اعتبر الغزو التجاري في فترة الحرب مشروعاً خاصاً تعاقب عليه الحكومة، واستمرت عمليات القرصنة بشكل فاضح.

ووضع بدء الحقبة الصناعية حداً لهذه الحريات في عرض البحار. وفيما كانت السفن الحربية الصغيرة والمتوسطة ملكية خاصة للشركات، أصبحت السفن الحربية الضخمة حكراً على الحكومات المهمة بسبب الثمن الباهظ للتكنولوجيا الحديثة. وقد تشكلت نقطة التحول من مزيج من القدرة البخارية والسفن الحربية المدرعة، فظهرت سفن حربية حالَ تخصُصها المفرط دون استخدامها لأغراض التجارة. ظهرت أوجه الاختلاف في السفن المدفعية النهرية، وهي عبارة عن مراكب بخارية تتمثل مهمتها، على وجه الخصوص، في حمل المدفعية إلى ساحات الحرب. شيّدت المراكب الشراعية المدرعة الأولى المستخدمة في المعارك من أجل شركة الشرق الأوسط البريطانية. وليس من أجل البحرية الملكية المحافظة من الناحية التقنية، واستخدمت للمرة الأولى ضد الصين في حرب الأفيون في أوائل الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وقد أثبت مركب شراعي مدرّع بالحديد يحمل اسم نيميسيس Nemesis قدرته على إسكات البطاريات الصينية المصطفة على طول الأنهار الصينية ومثّل النجم التكنولوجي الساطع في حرب الأنهار المذكورة. وانطلاقاً من سفينة نيميسيس، بدأ خط أدى إلى ظهور سفينة المونيتور وميريماك اللتين شاركتا في الحرب الأهلية الأمريكية وبعدها إلى ديردنوت والقطع الحربية الثقيلة التي شاركت في الحرب العالمية الأولى.

القوة البرية الأوروبية:

رانت أوروبا بتفوقها في الحروب البرية، في بادئ الأمر، للتقنيات التنظيمية الأوروبية أكثر من الأسلحة الجديدة التي ستتدفق في الوقت المناسب من المصانع الأوروبية. وفي الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، تماثلت الأسلحة المتوافرة في أيدي الأوروبيين وغير الأوروبيين، بمختلف أشكالها سواءً

أكانت أسلحة الخيالة أو بنادق المشاة والمدفعية وتبادلت الأطراف الابتكارات التقنية التي استخدمت بشتى الطرق المؤاتية للبنية الاجتماعية والسياسية للدولة التي تستخدمها.

برزت المهارة الأوروبية في التنظيم إلى الواجهة بأسلوبين، أحدهما تنظيم إنتاج الأسلحة، وثانيهما تنظيم الطريقة التي يتم بموجبها نشر هذه الأسلحة. وقد ظهر التبدّل الرئيس الأول في سلاح المدفعية، فابتداءً من القرن السادس عشر، أُنتجت أسلحةٌ مدفعيةٌ خفيفةٌ مناسبةٌ للاستخدام في ساحات الحرب بدلاً من أسلحة الحصار gun siege، ولكنها كانت مصنوعةً من البرونز وباهظة التكاليف. كان لا بد أن تنتج الأسلحة من الحديد المسبوك بمقاس الفوهة نفسها وبالسرعة نفسها، وأن تكون بالتالي أقل حركة. في أوائل القرن الثامن عشر، ظهرت أسلحة المدفعية الحديدية الزهيدة الأثمان بين أيدي الأوروبيين. ولا ضرورة لأن نضيف بأنّ الأسلحة الأوروبية الصنع بأسرها لم تبقَ بين أيدي الأوربيين. كان من الممكن الاحتفاظ بالتفوّق الأوّلي في مجال صناعة الأسلحة لو تمكن الأوروبيون من مواصلة إنتاج أسلحة أفضل وأقل ثمناً. ولكن بالكاد تمكنت أوروبا أن تحتفظ بتفوقها خلال القرن الثامن عشر. فقد أدرك الضباط الأوروبيون المرة تلو المرة بأن المدفعية الآسيوية كانت تتميّز بجودة عالية فعلاً، واستفادوا غالباً من الأسلحة التي غنموها في الهند، انتقدوا -في أغلب الأحيان- المهارة التقنية التي يتسم بها صانعو الأسلحة الهنود، لكنهم اشتكوا أيضاً من النوعية المتفاوتة الجودة لمنتجاتهم. ما كانت المشكلة في تقنيات الإنتاج بل في تنظيم مراقبة الجودة.

ميزة تنظيمية أخرى اتسم بها الأوروبيون في ساحات الحرب تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما تبين من جديد أنّ كفاءة جنود المشاة تزيد عندما يخضعون لتدريب يؤهلهم للمناورة والقتال كوحدة واحدة. اكتشاف متجدد متواتر في التاريخ العسكري، ولكنه يدين بذلك إلى فقدان الأجيال المتعاقبة لمعرفة الأفضلية التكتيكية للحركة المنتظمة خلال المعارك. إنّ مفتاح النصر يكمن في قدرة المجتمع على تنظيم نفسه فيجنّد ويدرب ويحافظ على جيش محترف.

على غرار العديد من المزايا العسكرية، تصل هذه المهارة إلى أوج كفاءتها عندما يتصف بها طرفٌ خلافاً للطرف الآخر. ولذلك فقد كانت ميزة جنود المشاة المنضبطين مستقلةً نسبياً عن الأسلحة المستخدمة، كما لم تكن متوافرة للأوروبيين بشكل حصري. في مطلع القرن التاسع عشر، انفجرت ثورةٌ عسكريةٌ عارمةٌ في إفريقيا الجنوبية، لا علاقة لها بالتغيرات الصناعية في أوروبا. واكتشف شعب الزولو وغيرهم من شعوب النغوني في ما يعرف اليوم بكوازولو ناتال الميزة العسكرية للتشكيل الانضباطي المسمى إيمبي المسلح برماح طاعنة قصيرة ودروع، في تنظيم مشابه للكتائب الرومانية. وتوفر التدريب من خلال الابتكار الاجتماعي والسياسي لاستخدام النظام الحالي المرتبط بالسن وبموجبه يخضع الذكور المنتمين إلى مجموعة سن واحدة للتعليم والإعداد لسن الرشد سوياً. أعادت قيادة الزولو تنظيم هذه المؤسسة لتشكيل جيش دائم ومدرّب من خلال تجنيد كافة أعضاء مجموعة السن الواحدة كل بدوره ومن خلال إبقائهم في الجيش طالما وجد الحاكم مصلحته في ذلك. ونتجت عن ذلك نفحة من القوة في روح الجماعة وحالة متطورة من الانضباط.

بحلول العشرينيات من القرن التاسع عشر، أصبحت ممالك الزولو وغيرها من ممالك الناتال التي تبنت هذا النظام تلحق الهزيمة بكل سهولة بمن لم يعتمد على هذا النظام. وجاءت النتيجة لصالح استخدام الإيمبي Impi ضد من لم يتبنَ هذا النظام حتى ذلك التاريخ. انتشرت الجيوش المستخدمة لطريقة الإيمبي نحو الخارج وصولاً إلى مرج مرتفع من الأشجار المتناثرة، باتجاه الشمال داخل سوازيلاند، والموزامبيق، ونحو تانزانيا الوسطى، وباتجاه الشمال داخل وادي زامبيزي الأعلى في زامبيا الغربية. وبعد مضيّ بضعة عقود، استقرت حركات النزوح العسكري، وتخطاها، في نهاية المطاف، مشيّدوا الامبراطوريات الأخرى الذين قدموا وبحوزتهم أحدث الأسلحة النارية من أوروبا.

أما في بقاع أخرى من العالم في منتصف القرن الثامن عشر، فقد امتدّ نجاح التكتيكات الجديدة المنطلقة من أوروبا وفقاً لنمط مماثل ضد مناوئين لم يتضلّعوا

بعد بالمهارات التنظيمية ليردوا بالمثل. ظهر ذلك، أول ما ظهر، في الهند حيث درّبت الشركتان البريطانية والفرنسية لشرق الهند الفرق الهندية بغية اعتماد الأسلوب الأوروبي في القتال. وأضافوا ابتكاراً أوروبياً آخر، هو المدفعية الخفيفة التي كان بإمكان الخيول أن تجرها بسرعة إلى ساحة المعركة. وكان بإمكان المدفعية الرشاشة أن تستخدم على شكل قطعة من أسلحة المدفعية بهدف إطلاق الرصاص بوتيرة تفوق ما كانت عليه في زمن جنود المسكيت. أما كتيبة المشاة الداعمة فقد كانت مزوّدة ببندقية المسكيت ذات الزند المصوّن والتي استخدمت للمرة الأولى في التسعينيات من القرن السابع عشر. وبحربةٍ تخوّلهم حملتها الحلول محل الرامحين الذين كانوا يشكلون معظم عداد كتائب المشاة.

إن ما حملته الشركات الأوروبية ابتداءً من الأربعينيات من القرن الثامن عشر إلى الهند كان مزيجاً يجمع بين التكتيكات والتدريب. وفي أثناء ذلك العقد، باشرت الشركة الفرنسية بتعزيز دورها في سياسات المناطق الجنوبية من الهند من خلال تجنيد جيوش من الهنود الخاضعين لتدريبات على الطريقة الأوروبية في تلك الفترة على أيدي ضباط غير تقليديين وفدوا من أوروبا. لم يكن الجهد الأولي مصمَّماً لاحتلال الهند ولا لإقامة إمبراطورية إقليمية، ولكن لمجرد دعم الموقف السياسي الفرنسي في نظام الدولة الهندية وتمثّل العدو الرئيس بالشركة البريطانية التي ردّت على عملهم هذا بإنشاء جيش مماثل من الخيالة Sepoys الهنود.

وبذلك وفّرت التنافسات في أوروبا للشركات الأوروبية تفوقاً عسكرياً على القوى الهندية الأقل تنظيماً التي كانت تقاتل معتمدةً على الأسلوب القديم. شكّل هذا التفوق ركيزةً للإمبراطورية الإقليمية الأولى التي أسستها الشركة البريطانية. وبحلول سنة ١٧٨٢، كان للشركة في البنغال جيشٌ دائمٌ يبلغ حوالي الـ ١١٠ آلاف رجل ٩٠ بالمئة منهم من الهنود. أما الأهم بعد، فقد دُفع القسمُ الأكبرُ من تكاليف هذا الجيش من المداخيل المنتزعة من البنغال، ذاته، بدأ احتلال الهند بشكل موجز بمساعدة التكتيكات والتنظيم الأوروبي، وليس بفضل الأسلحة الجديدة أساساً والتي

بدأت تظهر مع حلول الحقبة الصناعية، وقد دفع الجزء الأكبر منها دافعو الضرائب الهنود.

كانت الجيوش الهندية بالطبع قادرةً على محاكاة الأسلوب الأوروبي في التكتيكات والتدريب. فقد قامت خبرة شركة الهند الشرقية البريطانية في مواجهة الدويلات الهندية المتعاقبة على المظاهرات العسكرية. قبل قيام الثورة التكتيكية، تساوى الجيشان الأوروبي والهندي المتماثلان حجماً في ساحة الحرب إلى حد ما. لكن في معركة بلاسي Plassey عام ١٧٥٧، هزمت الشركة بالجيش الأوروبي النمط بعدديه المقتصر على الثلاثة آلاف جندي جيش المغول الذي كان يعد خمسين ألف خيّال. وبما أن هذا النصر بالذات كان عرضياً، فقد كان تفوق الشركة مؤقتاً. ففي سلسلة حروب الميسور Mysore التي وقعت في جنوب الهند بين ١٧٦٧ والتسعينيات من القرن الثامن عشر، تزايدت الحاجة للعديد للنصر تدريجياً، وفيما تمكنت الشركة البريطانية من الانتصار بسهولة في أولى تلك الحروب أمام جنود تفوقوا عددياً بنسبة ٧ إلى واحد. فقد تساوت أعداد الطرفين إلى حد ما في الحرب الأخيرة بسبب الكتائب الكبيرة العدد من الفرق الفرنسية أو المتدربة على أيدي الفرنسيين والتي كانت تحارب إلى جانب الميسور. وحدثت واقعة ممثلة في تدهور التفوق خلال حروب الماراثا الثلاث في الفترة الواقعة بين السبعينيات من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. بدأت هذه المعارك بتفوق جيش الخصوم على جند الشركة البريطانية عدداً بنسبة ١٢ إلى واحد. وانتهت الحرب الأخيرة بما يعرف بانتصار الأعجوبة ضد فرق قوية متكاثرة من المناوئين المعززين مرةً أخرى بالتدريبات الفرنسية والمستشارين الفرنسيين.

في مطلع القرن التاسع عشر، أثبت ظهور دولة السيخ في البنجاب ما يمكن لموج التحديث أن تحققه. بدت الفرصة مؤاتيةً على الجانب الهندي حوالي سنة ١٨٠٥، عندما شرع مجتمع السيخ الديني، المغاير للهندوس والمسلمين، في تقوية دعائم هيمنته السياسية على البنجاب. تمثل الزعيم الأول والقائد العسكري في شخص

رانجيت سينغ Ranjit singh الذي ظل في منصبه هذا حتى وافته المنية في سنة ١٨٣٩، وهو من بدأ في تأسيس جيش انضباطي تبعاً لمبادئ التنظيم الأوروبية. كما أنه أقام وحدةً سياسية عمادها مجموعة السيخ بغية توفير نوع من التكافل والترابط الذي جذب إليه مجموعةً من الأنصار من بين الهندوس والمسلمين على حد سواء، كما وجنّد أيضاً سنغ في صفوف جيشه ضباطاً عسكريين أوروبيين. قاتل سنغ بالدرجة الأولى من أجل توحيد البنجاب عوضاً عن أن يحاول احتلال أراض جديدة في الخارج، ولكن قواسم مشتركة جمعت بين حركته وامبراطوريات ثانوية في أراض أخرى.

عند موت رانجيت سنغ كان جيش البنجاب الأقوى، على الأرجح، في الهند. ولكن دولة السيخ بدأت تفقد وحدتها التنظيمية. ولو نظرنا من جديد نظرة مراجعة إلى الحربين ضد الشركة البريطانية، عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ و ١٨٤٨ - ١٨٤٩، فقد كان من الممكن أن يحرز النصرَ أيٌّ من الفريقين من وجهة نظر عسكرية، وقد ارتُكبت أخطاء سياسية على الجانبين. ولكن الشركة البريطانية، وفتح هذا النصر المجال أمام الشركة لضم البنجاب وظهرت للمرة الأولى على أنها القوة الرئيسة في الهند. على غرار تأسيس الشركة للإمبراطورية الإقليمية في الهند، نتج هذا النصر عن النجاح في تنظيم الموارد الهندية أكثر من تفوق سلاحها التكنولوجي. وقد بان هذا التفوق الذي امتلكته أوروبا في مجال الأسلحة في مرحلةٍ لاحقةٍ من القرن.

اتساع الهوة في مجال الأسلحة وتقلصها:

حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت بوادر هوة في مجال الأسلحة بين الجيوش الأوروبية والجيوش غير الأوروبية. ومنح هذا التفوق الأوروبيين مركز القيادة العسكرية التي دامت طوال عصر الإمبريالية البادئ في السبعينيات من القرن الثامن عشر. على الرغم من أنّ سلاح المدفعية تحسن على مدار القرن، إلا أنّ التغير الثوري في الأسلحة الاستعمارية أدخل على أسلحة المشاة. ابتداءً من

الخمسينيات من القرن التاسع عشر وما بعدها، كان السلاح المعياري لمعظم الشعوب الأوروبية عبارة عن بندقية مصوّنة تُحشى فوهتها بالرصاص من خلال ماسورة ملساء ظهرت للمرة الأولى خلال التسعينيات من القرن السابع عشر. كان الجندي يدكّ البودرة والرصاصة داخل الماسورة ويطلق النار بحجر الصوان عبر محك، كان من الممكن الوثوق بهذه البنادق أكثر من الأسلحة السابقة إلى حد أنها أتاحت لأفراد المشاة استخدام الحراب عوضاً عن مجموعة الرماح والسيوف التي كانوا يحملونها في السابق. وعلى الرغم من أنّ الفرد المتمرس في فريق المشاة كان يستطيع أن يحمل بندقيته ويطلق النار منها مرة واحدة في الدقيقة تقريباً، إلا أنّ فريقاً من المشاة الانضباطيين الذين يشكلون خطاً ويطلقون النار سوية يمكنهم أن يحافظوا على إطلاق نيران مستديمة. وبالتالي، فقد أصبح الجنود المسكيتيون هم الأقوى من بين المشاة في ساحات الحروب الأوروبية.

وبعد هيمنة دامت أكثر من قرن ونصف القرن، تركت بنادق المسكيت المصوّنة في الستينيات من القرن التاسع عشر من جراء التغييرات المهمة من حيث الدقة ووتيرة إطلاق الأعيرة النارية التي أدخلت عليها. اتخذت هذه التغييرات شكل تحزيزات لولبية في داخل الماسورة، ما أدى إلى انطلاق العيار الناري في حال دوران سريع. كان هذا المبدأ معروفاً منذ عقود عديدة، واستخدم هذا النوع من البنادق أحياناً لأغراض عسكرية في أواخر القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من أنّ البنادق الأولى تميزت بدقة تجاوزت بأربعة أضعاف على الأقل رمية المسكيت الملساء الماسورة، فإن العيار الناري المقذوف (الرصاصة) لم تكن لتوضع بكلّ بساطةٍ في أسفل الماسورة. ولذلك كان من الممكن أن تستغرق عملية الحشو من ثلاث إلى أربع دقائق. وبعد مرور عقود من التجارب، اكتشف حل استخدام الرصاصة التي تتمدد قليلاً في أثناء إطلاقها بغية التقاط التحزيزات الحلزونية في داخل القناة.

زادت سرعة إطلاق النار من خلال تطوير آلية المسمار الملولب في مؤخرة البندقية وبالتالي أصبح من الممكن إدخال الرصاصة والبارود على شكل خرطوشة

تطلق عندما يقدح المسمار كبسولة موجودة عند قاعدة الخرطوشة. وبحلول الستينيات من القرن التاسع عشر، باتت البندقية التي تلقم من مؤخرتها تطلق ستة أعيرة في الدقيقة الواحدة، وبدقة يوازي مرماها ثمانية أضعاف بندقية المسكيت ملساء الماسورة. استخدمت البندقية الملقمة من مؤخرتها في أواخر سنوات الحرب الأهلية الأمريكية، وبرزت فاعليتها بشكل مدهش في أوروبا في الحرب التي انتصرت فيها بروسيا ضد النمسا - هنغاريا سنة ١٨٦٦.

زادت سرعة إطلاق النار عندما بات من الممكن إيلاج الخراطيش داخل الماسورة أتوماتيكياً. شرع الأمريكيون في العمل على هذا النوع من الأسلحة حتى قبل أن تنتهي الحرب الأهلية. وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر، استبدلت الجيوش الأوروبية، بالبندقية الملقَّمة من مؤخرتها والتي تطلق عياراً نارياً واحداً في كل مرة بالبندقية المزوَّدة بمخزن للذخيرة. وفي العقد ذاته، بوشر باستعمال الرشاش الفاعل الأول بسرعة أكبر في إطلاق النار وحلّ النيتروسليلوز (البارود المعدوم الدخان) محلّ البارود القديم وزُوِّد برافقةٍ أضمن وشبه مخفية.

اكتملت السيطرة البريطانية على الهند بشكل شبه نهائي قبل أن تصبح هذه الأسلحة متوفرة. ولكنها اضطلعت بدور في غاية الأهمية في الغزو الأوروبي السريع لإفريقية وجنوب شرق آسيا. ظهر الاختلاف بمزيد من الوضوح في غرب إفريقيا التي كان الأوروبيون يتاجرون فيها، منذ عقودٍ خلت، بأسلحة مشابهة لموديل البندقية المصونة التي ظهرت عام ١٦٩٠. وبسبب هذا التساوي القريب في الأسلحة بالإضافة إلى ارتفاع نسب الوفيات في صفوف الأوروبيين في بيئة غرب إفريقيا الموبوءة بالأمراض، ما قام الأوروبيون بمحاولات تستحق الذكر لإقامة امبراطوريات إقليمية قبل سبعينيات القرن التاسع عشر. وقد أنجزوا تدخلات عسكرية عرضية، من قبيل الزحف على كوماسي Kumasi في أسانتي Asante خلال الشهرين الأولين من سنة ١٨٧٤، ولكن القوى البريطانية انسحبت واستعادت الأسانتي مجدداً السيطرة وإدارة شؤونها الخاصة. إلا أنّ البريطانيين ضموا، بسبب الجشع الشرير، أراضي

الدول الإفريقية التي كانت حليفتهم ضد الأسانتي، وأسسوا في أثناء تنفيذهم لهذه العملية المستعمرة البريطانية الأولى في إفريقيا الاستوائية التي تخطت أبعاد المراكز التجارية. بيّن الفرنسيون في غرب السودان، بادئ ذي بدء، ما يمكن أن يُلحق مزيج من التكتيكات والأسلحة الأوروبية بالأعداء الذين ما زالوا يحملون البنادق المصوّنة. تشكّلت القوة القليلة العدد أساساً والموضعة في خدمة الفرنسيين في السنغال السفلي، خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر، من أفارقة جُندوا محلياً يحاربون تحت إمرة ضباط فرنسيين، وتدعمهم أعداد ضئيلة من المشاة والمدفعية البحرية الفرنسية. قامت الاستراتيجية الفرنسية على تنظيم حملات سنوية في فصل الجفاف تدوم أقل من ستة أشهر، فابتدأت بقوة لا يصل عددها إلى ألف شخص وبلغت ما دون الألفي شخص في المراحل المتأخرة من التسعينيات من القرن التاسع عشر. تمكن هذه القوة المحمّلة بالبنادق والمزودة بمخزن للذخيرة والمدفعية الخفيفة والمزوّدة في النهاية بالرشاشات، من أن تحتل، باسم فرنسا، منطقة تبلغ مساحتها عدة أضعاف حجم فرنسا ذاتها، يسكنها ما بين ١٠ إلى ١٥ مليون نسمة، حتى وإن كان عدد المقاتلين يزيد أحياناً عما ذُكر بنسبة ٥٠ إلى واحد.

باشرت البحرية الفرنسية منجزةً هذه العملية بتنفيذ استراتيجية إمبراطورية المحطات التجارية المؤلفة من مراكز محصنّة على طول السنغال ومزوَّدة بالمراكب البخارية في الأنهار، ومن ثم أخذت ترسل في كل سنة طوابير قوية لكن محمَّلة بأسلحةٍ خفيفة نحو الداخل بهدف إقامة خطٍ من محطات أعلى مرتبة تكون كل واحدة منها محصَّنة تحميها كتائب قليلة العدد بعد انسحاب القسم الرئيس من الجيش عند بداية فصل الأمطار. عقب إنشاء خط المحطات أقام الفرنسيون خطاً من السكك الحديدية وصل إلى نهر النيجر في باماكو، وقد كانت السفن البخارية المزودة بالمدفعية تمارس عملها في نهر النيجر حتى قبل أن تصل إليه السكة الحديدية، لقد كانت الاستراتيجية في غاية الأهمية. فلا يمكن لقوةٍ بهذا الحجم أن تحتل أو أن تسيطر على هذه الأراضي التي وقعت، في نهاية المطاف، بأيدي

الفرنسيين. وكل من خطر بباله تهديد الوجود الفرنسي لُقّن درساً عسكرياً قاسياً. ومن ناحية أخرى، حصلت السلطات الإفريقية التي وافقت على «الحماية الفرنسية» بإذن مواصلة حكم أراضيها بشكل لم يتخلله غير قدرٍ متدنٍ من التدخل.

لطالما تدخلت البحرية الفرنسية بقوة في شؤون المستعمرات، وذلك بمبادرة من ضباط البحرية الفرنسية وإدارة بسيطة من باريس - وأحياناً دون إذن. الكلفة لم تكن ترهق كاهل الخزينة الفرنسية، وفيما كانت الأمراض تحصد أعداداً هائلة من الوفيات إلا أن الفرق الأكثر تعرضاً لهذه المخاطر كانت تتشكل من الأفارقة أساساً والمكاسب المحققة من الأراضي كانت هائلة. أدت البراعة العسكرية التي أظهرتها الطوابير المتنقلة إلى تخلي الأفارقة عن المطالبة بالحكم الذي بات واقعاً كان من الممكن تأجيله لعقد أو أكثر. ولم تنتزع الحكومة الفرنسية المستعمرات الجديدة من أيدي ضباط البحرية إلا في التسعينيات من القرن التاسع عشر؛ عندما أسست إدارة مدينة بدأت في الحكم فعلياً على الرغم من أن غرب إفريقيا الفرنسية ظل من الأراضي الخاضعة لأقل قدر ممكن من الإدارة.

انتشر هذا النوع من التقدم بعد إدخال بعض التغييرات عليه في كل أنحاء إفريقيا الاستوائية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، وقد حظيت الحملات من الناحية العسكرية، بدعم المدفعية الخفيفة، والبندقية المزوّدة بمخزن للذخيرة، والرشاشات واستخدمت ضد أُناس لا يمتلكون هذا النوع من الأسلحة. احتل البريطانيون شمال نيجيريا بواسطة قوة تشبه من حيث الحجم القوة الفرنسية في غرب السودان، وواجهت خصومات مماثلة. في وسط إفريقيا، فرض الملك البلجيكي ليوبولد هيمنته بوصفه مواطناً عادياً له جيشه الخاص، على ما سيعرف بالكونغو البلجيكي. وبحلول نهاية التسعينيات من القرن التاسع عشر، اكتمل احتلال إفريقيا تقريباً، ولم يبق سوى القليل منها فقط. ولكن الهوة الفاصلة بين الأسلحة التي تستخدمها مختلف الأطراف بدأت تتقلص، تماماً كما تقلصت الهوة في مجال الكفاءة التنظيمية والتي ظهرت في الهند عند اندلاع الحرب بين السيخ والإنكليز سنة ١٨٤٨.

حتى قبل حلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كان بعض المسؤولين الأفارقة قد اعترفوا بأهمية الأسلحة الجديدة، ولو تمكنوا من ضمان من يزودهم بها لأصبحوا يمتلكون ميزة مماثلة لما يمتلكه الأوروبيون. وبدأ الحكام الأفارقة في مواقع متناثرة ومتباعدة في إفريقيا بتوسيع رقعة أراضيهم معتمدين طريقة ضباط البحرية الفرنسية في غرب السودان أو ليوبولد في الكونغو. يطلق مؤرخو إفريقيا على هذه العملية بناء الإمبراطورية الثانوية. إذ إنّ التوسع استند إلى المعدات العسكرية التي أنتجتها أوروبا الصناعية. باشرت مصر ببناء إمبراطورية ثانوية في السودان النيلي في العشرينيات من القرن التاسع عشر. وقد اعتمدت في بنائها على التنظيم والتكتيكات العسكرية من الطراز الأوروبي.

في التسعينيات من القرن التاسع عشر، أعادت ثلاث ممالك إفريقية تسليح نفسها وأحرزت نجاحاً مذهلاً إلى حد أنها باتت تحظى بفرصة معقولة لمواجهة جيش أوروبي. شرعت مدغشقر في تنفيذ هذا المشروع في فترة مبكرة من خمسينيات القرن التاسع عشر. وقام أحد ملوك أثيوبيا بمحاولة ولكنها باءت بالفشل، إلا أنّ خلفه مينيليك تمكّن، في الفترة الواقعة بين الثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن التاسع عشر، من توسيع مساحة الإمبراطورية الأثيوبية عدة أضعاف. في أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر، بدأت مملكة الداهومي في غرب إفريقيا بغزو جيرانها بصورة نظامية بغية الحصول على العبيد الذين كانت تبيعهم للأوروبيين على أنهم «عمال مأجورين بموجب عقد» في مقابل أسلحة حديثة.

وحدها الإمبراطورية الأثيوبية تمكّنت من تخطي الإمبريالية في إفريقيا. حصل مينيليك على كمية من البنادق والمدفعية الحديثة كانت كافية لإلحاق هزيمة حاسمة بالجيش الإيطالي الغازي في عدوة Adwa سنة ١٨٩٦. كان هذا النصر كافياً، حتى هجوم موسوليني في الثلاثينيات من القرن العشرين، لتثبيط همم الأوروبيين الآخرين المهددين، ومن جهةٍ أخرى، لم يكن الداهومي قادراً على تدريب جيشه على استخدام الأسلحة الجديدة بفاعلية وبالتالي انهزم عند مواجهته فرنسا في سنة

١٨٩٢. وعلى الرغم من أن مملكة مالاغاسي نظمت جيشاً حديث الشكل بمساعدة تقنية من أوروبا إلا أنها انهارت سنة ١٨٩٥ خلال مواجهتها للاحتلال الفرنسي، وإن كانت هزيمتها تعود بالدرجة الأولى إلى الشقاق الداخلي وليس للهزيمة العسكرية.

بدأت الهوة الشاسعة في مجال الأسلحة الأوروبية تضيق حوالي سنة ١٩٠٠، وإن كان قليل من الناس فقط أدركوا هذا الوضع حينها. باتت أوروبا معتادةً على إحراز الانتصارات في بلاد ما وراء البحار، حتى عندما تكون أعداد خصومهم أضعافاً مضاعفة. ظهر النصر الذي أحرزه مينيليك في عدوة Adwa كأنه ضربة حظ. وأساءت الصحافة الأوروبية فهم الدرس العسكري الملقن من خلال الحرب بين الإنكليز والبوير Boer، حتى وإن بدا جلياً واضحاً عند الإمعان في تأمل أحداثها. اكتشفت جمهوريات البوير بأنها تمتلك أضخم مخزون للذهب حتى ذلك التاريخ وشرعت باستخدام بعضٍ من مدخول الذهب لشراء أسلحة حديثة بغية التمكن من مقاومة الضغط التي كانت تسلطه عليهم المصالح البريطانية في المناجم. وعندما تفجرت الأزمة سنة ١٨٩٩، توقع الإنكليز نصراً سريعاً، ولكن طول مدة الحرب التي استمرت حتى ١٩٠٢، أرسلت بريطانيا قوة تناهز نصف المليون محارب مقابل البوير التي تراوحت بين ٦٠ و ٦٥ ألفاً. أما الأمثولة العسكرية التي انبثقت في فترة لاحقة من القرن العشرين، فقد بينت بأن أي هجوم يشن على شعب يمتلك قوة نارية ممثلة يتطلب أعداداً متساوية على أقل تقدير. أمّا إلحاق الهزيمة بميليشيات تمتلك أسلحة حديثة فيستلزم قوة تعد أكثر بكثير مما تعده المليشيات.

لم تكن هذه الوقائع واضحة جلية في تلك الحقبة من الزمن. خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، تعرّف الهولنديون على فاعلية حرب الميليشيات في العمليات العسكرية في مواجهة شعب الأتشة Aceh في سومارا. وفي أثناء الحرب الإسبانية - الأمريكية، هزم الأميركيون بكل سهولة القوات الإسبانية في الفيليبين، ولكنهم احتاجوا إلى ضعف عدد المتمردين كي يتمكنوا من خنق «تمرد الفيليبين» في عام ١٩٠٠ - ١٩٠١.

ظل التفاوت الجديد قائماً في الحروب الاستعمارية الباقية من فترة ما بين الحربين. فمن أجل احتلال جبال الريف، في زاوية من زوايا الغرب، كانت القوة الفرنسية والإسبانية بحاجة إلى ما يزيد على الـ ٥٠٠ ألف رجل - وهو عدد أكبر بكثير مما احتاجته فرنسا لإخضاع أراضيها الصحراوية كافة. تطلبت الحملة الأثيوبية الإيطالية في الثلاثينيات من القرن العشرين فرقاً إيطاليةً تعد نصف مليون شخص، فيما لم تزد القوة الخاضعة لقيادة إيطالية في معركة عدوة Adwa سنة ١٨٩٦ عن ١٥ ألف شخص. وفي تلك المعركة، حارب الإيطاليون ضد خصوم فاقوهم عدداً بنسبة سبعة إلى واحد، ولكنهم كان يمكن أن ينتصروا، في كل الأحوال، في ظل قيادة أكثر براعة. وبحلول فترة ما بين الحربين، تجلّى التئام الهوة في مجال الأسلحة واضحاً، ففي ذلك التاريخ، كانت الرشاشات قد باتت شائعة عامة، وكانت تمثل سلاحاً دفاعياً رائعاً.

بعد الحرب العالمية الثانية، ارتفعت كلفة حملات المليشيات إلى أن باتت باهظة للغاية. وبحلول تلك الفترة، حتى عندما لم تواجه القوى الاستعمارية تهديداً عسكرياً مباشراً، كانت كلفة الحفاظ على أراضي المستعمرات معروفة وباتت جزءاً من معادلة المساومة. في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، فضل الهولنديون التخلي عن إندونيسيا عوضاً عن مواصلة سعيهم لإعادة غزوها بالتكاليف التي كانت مطلوبة في تلك الفترة. وتخلى الفرنسيون عن الصين الهندية والجزائر للأسباب ذاتها. وانسحبت الولايات المتحدة من فيتنام، على الرغم من أنها كانت القوة العسكرية الأولى في العالم. وفي الفترة الواقعة بين منتصف الستينيات من القرن العشرين وآخرها، أفادت التقديرات العسكرية الأكثر تفاؤلاً بأن تكتيكات الميليشيات على غرار التي يستخدمها الفيتناميون تستلزم جيشاً حديثاً بأعداد تفوق عدد جيش العدو بخمسة إلى ستة أضعاف.

التكنولوجيا الإدارية:

تدين الأسلحة والنظام الصناعي بوجودهما للخلفية التنظيمية للتكنولوجيا. وتكمن قدرة أوروبا على التنظيم وراء الإنتاج الفاعل للسلع، بما فيها الأسلحة، وكفاءة الجيوش في هذا الميدان. وقد كان هذان العاملان وثيقي الصلة لدى الإدارة الحكومية. ويغيب عن البال أحياناً أن البنية التحتية البيروقراطية حديثة العهد نسبياً في تاريخ العالم. ومن السهل أن نفترض للوهلة الأولى بأنّ الإمبراطورية الكارولينغية Carolingian والإمبراطورية الألمانية لسنة ١٨٧١ كانتا قريبتين من الأمر ذاته إلى حد أنهما استحقتا التسمية ذاتها. حتى في أواخر حقبة ما قبل الصناعة في التاريخ الأوروبي، واجهت الحكومات بعض الصعوبات للتقدم من مراكز اتخاذ القرار وصولاً إلى الأشخاص الفعليين الذين ترغب في السيطرة عليهم أو في فرض الضرائب عليهم. في القرن الثامن عشر وما قبل، استندت الحكومات في عملها على ما يشبه أو في فرض الضرائب عليهم. في القرن الثامن عشر وما قبل، استندت الحكومات في عملها إلى ما يشبه إلى حد بعيد نظام الحكم غير المباشر الذي استخدموه فيما بعد في امبراطورياتهم في ما وراء البحار. لم يعمل في خدمته غير حفنة قليلة من الموظفين الرسميين المأجورين المعيّنين والقابلين للفصل كي يدخلوا أوامرهم حيّز التنفيذ المباشر، علماً أنه بإمكان تعيين بعض أعضاء الطبقة الإقطاعية ومالكي الأرض والرجال قُضاةً للصلح، كما في إنكلترا، يعملون في خدمتهم ويُلقى على كاهلهم القدر الكبير من أعباء الإدارة اليومية مقابل الحصول على استحسان الحكومة المركزية.

اتّسم المجتمع الأوروبي في الحقبة ما قبل الصناعية بتشكيلةٍ نقابيةٍ بارزة. كان الناس يُعتبرون أعضاء في مجموعاتٍ هي: في الواقع عبارة عن شركات غير رسمية ذات امتيازات وإعاقات متباينة. بعض هذه المجموعات كانت شركات قانونية تشمل النقابات، أو الجامعات، أو البلدات، أو الكنيسة، لم يكن أمام الموظفين البيروقراطيين العاملين في خدم ملك من الملوك خيار سوى الحكم من خلال هذه

المجموعات أو من خلال أقطاب المجتمع، أو أصحاب الأراضي، أو الشركات غير الرسمية. كان لا بد أن يحدّدوا الأشخاص القادرين على ممارسة تأثير ما على مجتمعهم والاعتماد عليهم. صحيح أنّ الحكومة كانت قادرة على التضييق على بعض المواطنين الأقوياء، ولكن ليس على عدد كبير منهم في الوقت ذاته. وبالطبع لم تكن تستطيع التضييق عليهم جميعاً في الوقت ذاته. وما إن تختار القوة الملكية هذه الأدوات المحلية حتى تصبح هذه الأخيرة متجذّرة صعبة الاقتلاع، وإن لم تتسم بالكفاية، أو إن قامت فعلياً بتخريب مقاصد سلطة عليا. باختصار، واجه بيرقراطيو أوروبا بعضاً من المشكلات التي واجهها حكام الامبراطوريات الاستعمارية الساعية لبسط هيمنتها من خلال «القادة الطبيعيين» في ظل أشكال مختلفة من الحكم غير المباشر.

ومع تزايد تعقيدات المجتمع الصناعي، وجدت الحكومات نفسها بحاجة لإقامة تسهيلات صحية، وتفتيش المعامل، والسيطرة على عمالة الأطفال، وتنظيم المجتمعات النامية، والتخطيط لشق سكك الحديد، والتحكم بالنقد والأعمال المصرفية، وفرض الضرائب اعتماداً على طرق حديثة ومعقدة. وما إن يتم تطبيق هذه التقنيات على الدول الأوروبية حتى يصبح بالإمكان تطبيق تقنيات مشابهة لها في بلاد ما وراء البحار. بل إنّ وجودها زاد من قيمة إمبراطورية ما وراء البحار. لم يكن الحكم الإمبريالي ذا فائدةٍ كبيرةٍ للقوى الاستعمارية إلا في حال ساعدت في إدارة الأراضي المحتلة بأقل كلفةٍ ممكنة وبفاعلية تتناسب مع المصالح المُرتجاة. وما إن صارت لدى الأوروبيين مجموعة من الموظفين المتحركين بالإضافة إلى الآلات الكاتبة، والناسخات، وكل اللوازم الباقية، حتى بات بإمكانهم أحياناً التلاعب بالمجتمعات بأساليب معقدة، دونما إدراك منهم أحياناً للنتائج الطويلة الأمد لأعمالهم، كما سنرى في فصول لاحقة.

كان التلاعب مباشراً في بعض نواحيه. دفع رعايا دول ما وراء البحار المال للدفاع عن أنفسهم، كما أنهم دفعوا غالباً معظم تكاليف التوسع الامبريالي. وبحلول

أواخر القرن التاسع عشر، تألفت الأغلبية العظمى من الفرق المنخرطة في جيوش الفرنسيين والبريطانيين والألمان والهولنديين في بلاد ما وراء البحار من غير الأوروبيين، واقتطعت نفقات هذه الجيوش من الميزانية المحلية. تكفل الرعايا الهنود الدفاعون للضرائب بنفقات الجيش الهندي الذي كان يشتمل على فرق ذات أصل بريطاني. وشكلت هذه التكاليف جزءاً كبيراً من ميزانية بلاد الهند. وتميز الهولنديون أيضاً بتنظيم عسكري منفصل تماماً عن الجيش الهولندي وتكفل بتمويله الرعايا المحليون من أموال الضرائب أساساً، وفي حوالي ١٩٠٠، تشكَّل الجيش من حوالي ٣٠ بالمئة من المجندين الهولنديين و٢٠ بالمئة من الأوروبيين الآخرين (خاصة من الألمان)، وعدد قليل من الأفارقة، و٥٠٪ من الهنود الشرقيين. واقتطعت النفقات العسكرية من سنة ١٨٧١ إلى ١٩١٧ حوالي ٣٥ بالمئة من ميزانية بلاد الهند الخاضعة للحكم الهولندي.

قال بعضهم إن الأوربيين أجبروا رعايا بلاد ما وراء البحار على الإنفاق على عملية إخضاعهم. وقد كان هذا الكلام صحيحاً إلى حدٍّ ما. من ناحية أخرى. يُعدُّ الدفاع تكلفةً طبيعية في حياة أي مجتمع. إلا أن الدور الذي اضطلعت به العمليات العسكرية في الدول غير الغربية، في الفترة السابقة للاستعمار والتالي له، مشوب بقدرٍ كافٍ من الغموض بحيث يظلُّ السؤال عن إمكانية حصول الرعايا العاديين على مقابل لما ينفقونه دون إجابة. ولكن مهما كان البيان الإجمالي لميزانية الإمبراطورية، فقد مارست القوى الإمبريالية، في الفترة التي بلغت خلالها الامبراطوريات أوجها، قوةً عسكريةً في ما وراء البحار بأسعار متهاودة لرعايا الدولة الأم.

اتصفت البنية الإدارية التي شُيدت عليها هذه القوة أحياناً بالهشاشة. وبعد الاستقلال، فقدت الدولة الاستعمارية التي أقامتها القوى الغربية القدرة على الحكم في بعض الأحيان، كما سبق أن حدث لفترة طويلة أو قصيرة خلال العقود القريبة العهد في أماكن متفرقة مثل كامبوديا، والصومال، ورواندا، وزائير، وليبيريا. وحتى ذلك التاريخ، لم تكن تقنيات الإدارة العامة قد خضعت لدراسة قائمةٍ على أساس

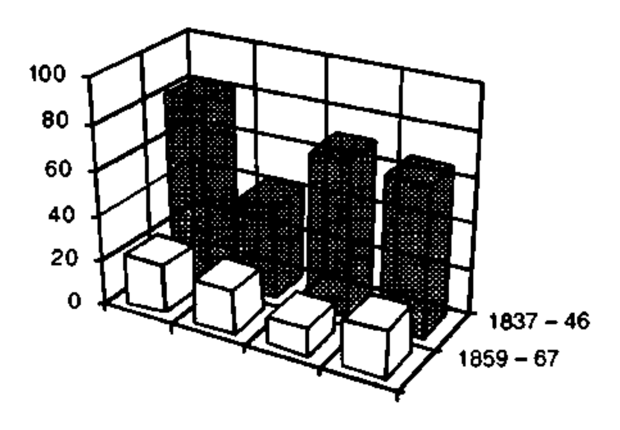
مقارن من حيث البعد العالمي التاريخي، سواء داخل الامبراطوريات الأوروبية أو خارجها، علماً بأن عدة فصولٍ لاحقةٍ ستطرح موضوع الجهود غير الأوروبية الهادفة إلى تقوية الإدارة الحكومية من أجل مقاومة التهديد الأوروبي.

التكنولوجيا الطبية:

مارست التطورات المتزايدة للعلوم الطبية تأثيراً قوياً آخر على مسار الامبراطوريات الأوروبية في ما وراء البحار مع أن تطبيقاتها الفعلية تخلفت أحياناً عن الوعي والإدراك العلمي في أوروبا. وحتى قبل اكتشاف نظرية جرثومة الأمراض أو البعوضة الناقلة للملاريا والحمى الصفراء، خطا الطب العسكري الأوروبي خطواتٍ واسعةٍ في مجال حماية الجنود الأوروبيين في بلاد ما وراء البحار. كان هؤلاء الجنود قد اكتسبوا في نشأتهم مناعات ملائمة لبيئة أمراض أوروبية. أما في بيئة أمراض جديدة، ولا سيما في العالم الاستوائي، فقد ارتفعت نسبة الوفيات في صفوف الحامية بحيث بلغت أضعاف عدد الجنود العاملين في الدولة الأم. ولكن في الفترة المتراوحة بين الأربعينيات من القرن التاسع عشر والستينيات من القرن التاسع عشر، أدخلت تطورات تجريبية بحتة، ولا سيما في الطب الوقائي، تغييرات باهرةً في معدلات الوفيات بين الرجال في الثكنات المنتشرة في العالم الاستوائي (الشكل ٢.١) انخفض معدل الوفيات السنوية، من ٥٠ إلى ٧٠ بالمئة بفضل استخدام الكينين، وأدوية جديدة لعلاج الزُحار، والمزيد من العناية في تأمين مياه نظيفة وظروف أفضل للتهوية.

استعانت بعض السلطات بهذه التحسينات دليلاً على أن الأوروبيين عالجوا مشكلة الحفاظ على حياة جنودهم في المناطق الاستوائية، بدا الطب الاستوائي مصدراً تقنياً آخر للقوة الأوروبية. ولكن في القرن التاسع عشر، اقتصر انخفاض عدد الوفيات من جراء الأمراض في صفوف الفرق الأوروبية على الثكنات. أما خلال الحملات، فقد ظل معدل الوفيات مرتفعاً حتى في غياب أي عمل عدائي من

الخصوم، على الرغم من أن بعض الحملات غير الاعتيادية أظهرت عملياً تغلباً على الأمراض الاستوائية. في سنة ١٨٧٤، حققت السلطات العسكرية البريطانية رقماً قياسياً طبياً في أثناء الزحف الذي دام شهرين وانطلق من ساحل الكاب إلى كوماسي ذهاباً وإياباً دون أن تزيد خسارتها في الأرواح عن ١٧ في الألف في صفوف الفرق الأوروبية المشاركة في هذا الزحف. وفي الواقع، لم تكن هذه الحملة سوى ضربة حظ غير اعتيادية. إذ ما من حملةٍ أخرى أُنجزت في المناطق الاستوائية قبل نهاية كانت تُعادلها في سجلها الصحي، علماً بأنّ الحملة تسبّبت في بعض التوقعات الخاطئة.



تواصل التحسُّن في معدل الوفيات داخل الثكنات لأن الضباط الطبيين العاملين فيها كانوا يتمتعون بالحرية، نسبياً، في القيام بما يرونه الأنسب. خلال الحملات، فكانوا يخضعون لأوامر ضباط الصف الذين كانوا يضعون نصب أعينهم هدفاً واحداً، ألا وهو إحراز النصر في المعارك. وفي أغلب الأحيان، لم تستخدم المعلومات المتوافرة في حقل الطب الوقائي، فقط ظل هذا الأخير، في كل أنحاء العالم الاستوائي في أثناء الحملات، معدوم الفعالية حتى ما بعد حلول مطلع القرن، عندما انتهت الفتوحات الأوروبية فعلياً.

القوة العسكرية ومراحل الإمبراطورية:

مراحل النشاط السياسي والعسكري الأوروبي في بلاد ما وراء البحار مع التغييرات الواسعة النطاق في التكنولوجيا الأوروبية التي واكبت التقدم في التيار الصناعي. شهدت المرحلة الأولى حتى حوالي سنة ١٧٥٠ تكافؤاً تقنياً تقريباً بين الغرب والمناطق الأكثر تقدماً في إفريقيا الأوروبية - الآسيوية Afro-Eurasia. تفوقت القوى الآسيوية عسكرياً في البر، فيما تفوّق الأوروبيون بحراً، حدّد علم الأوبئة الخاص بالأميركتين هذه القارات على أنها المكان الذي يمكن للأوروبيين أن يقيموا فيه امبراطوريات إقليمية بسهولة نسبية.

في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، بدأ الأوروبيون يحققون تقدّماً عسكرياً بطيئاً في أجزاء معينة من آسيا - كالهند على سبيل المثال - إلا أنه لم يكن مستنداً -حتى ذلك التاريخ- على البراعة الصناعية بل على المهارات التنظيمية التي ظهرت جلية في الأمثولات التكتيكية التي لقنها المدرسون الأوروبيون لفرقهم الهندية. كانت بريطانيا قد نشرت سيطرتها على أغلبية شعوب جنوب آسيا حتى قبل ظهور الهوة البارزة في ميدان الأسلحة في أواخر القرن التاسع عشر.

مثلت الفترة الواقعة بين ١٨٧٠ و١٩٠٠ تقريباً الحقبة الرئيسة للتفوق العسكري الأوروبي القائم على الأسلحة الجديدة. وشملت هذه الحقبة العقود التي احتل خلالها الأوروبيون المناطق الاستوائية الرطبة، عندما قسموا إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى، واستولوا على بقايا القارة الآسيوية المتعرضة للرياح الموسمية، وطالبوا بالجزر المتبقية في المحيط الهادئ.

بعد ١٩٠٠، لم تعد الهوة الفاصلة في ميدان الأسلحة منفرجةً للغاية. ولكن لم يعد ثمة أراض كثيرة يمكن احتلالها. وقعت بعض الهزائم الحاسمة في شمال إفريقية ومنطقة حوض المتوسط. كما بوشرت بعض الاحتلالات ثم تركت نصف منهية. أقامت كل من روسيا وبريطانيا درجة من السيطرة غير الرسمية التنافسية

على بلاد فارس وأفغانستان، ولكنهما أقلعتا عن القيام بأي عمليات ضمّ رسمية. وقد أبطأت التنافسات الدولية تقسيم تايلاند والصين أيضاً أو حالت دون حصولها. قسّمت القوى الأوربية الصين إلى مناطق نفوذ، ولكنّ الأوروبيين كانوا منشغلين بالمنافسات التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى. وابتداءً من الثلاثينيات من القرن العشرين، أصبحت اليابان القوة الصناعية التي حاولت أخيراً احتلال الصين، ولكن هذه الجهود المبذولة انتهت بهزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية. وبحلول الأربعينيات من القرن العشرين، قلّصت عملية بناء الامبراطوريات المكاسب ورفعت التكاليف، ومن هذه التكاليف تقليص الهوة في ميدان الأسلحة، ولكنها لم تكن سوى مشكلة واحدة، بين مشكلاتٍ أخرى، في وضع الإطار الدولي للحرب الباردة الأولى.

من الخطأ أن نفرط في التشديد على العامل المرخّص من قبيل توقع نصر زهيد الثمن، علماً بأنه بدت أهميته بكل وضوح في بعض الغزوات الإفريقية، كتلك التي قامت بها فرنسا في غرب السودان، وبريطانيا في شمال نيجيريا. في بعض الأحيان، شنّ الأوربيون كغيرهم حروباً في ظروف لم يكن فيها النصر المتوقع القليل التكلفة ممكناً، أو أنهم كانوا ينغمسون في الحرب بعد أن تتخطى تكلفة النصر أي حسابات عقلانية.

والتضحيات التي قدمتها القوات البريطانية في الحرب العالمية الأولى حالة وثيقة الصلة بهذا الموضوع، ولقد بدا واضحاً على مدار التاريخ البشري أنّ العقلانية لم يكن لها دورٌ رئيسٌ في قرارات شن الحروب.





السياسات الإمبريالية

تمحورت المناقشات التاريخية الخاصة بأسباب ظهور الإمبريالية، خلال القرن الماضي، في أغلب الأحيان، حول التأويلات المادية الواقعة تحت عنوان الماركسية، علماً بأنّ ذلك التأويل يدين لـ ج.أ. هوبسون Hobson . A.j على الأرجح بأكثر مما يدين لكارل ماركس. ظهرت أكثر كتب هوبسون أهمية «الإمبريالية» دراسة، في سنة ١٩٠٢، وقد تأثر إلى حد بعيد بالأحداث الأخيرة للحرب بين البوير Boer والإنكليز والتي جرت في جنوب إفريقية. ركز هوبسون على نقطة رئيسة هي أنّ الاقتصاد الرأسمالي والصناعي في أوروبا أنتج أموالاً للاستثمار أكثر مما يمكن للاقتصاد الأوروبي أن يمتصه، ولذلك حُوِّلت هذه الأموال الفائضة إلى بلاد ما وراء البحار للبحث عن المزيد من المكاسب ومعدلات الفائدة في سوق أقل قدرة على المنافسة. وبما أنَّ الحكومات الأوروبية كانت تتوق لحماية الأموال التي كان مواطنوها يستثمرونها في الخارج، فقد مالت إلى توسيع امبراطوريتها في أراضي ما وراء البحار. إنّ النقاش النظري الخاص بالجذور المادية للإمبريالية والمتغيرات التي نتجت عنها على مدار القرن الماضي مماثلة لنقاشات أخرى تدور حول العلاقات بين الرأسمالية والتيار الصناعي والإمبريالية. ومن حق مؤرخي أوروبا أن يهتموا بهذا الموضوع. لكن قد يكون من الأفضل لهذه الدراسات أن ترضى بمستوى أكثر عقلانية، وأن تهتم بالسياسات الفعلية التي تزعم مختلف الحكومات الأوروبية بأنها تتبعها في حقبات مختلفة وعمليات اتخاذ القرار التي تقف وراءها.

النية والواقع:

يمكننا أن نفترض منذ البداية حضور الفوائد المادية على كل المستويات التي يتخذ فيها الناس قراراتهم. ويمكننا أن نفترض أيضاً بأنه كان ينبغي أن تُتخذ

القرارات السياسية في عالم كان التصنيع (الرأسمالي أو غيره) يعيد إقامة علاقات قوى، سواء أكان كل أبطالها على علم كامل بهذه التغييرات أم لا. وقد قيل في إحدى النكات القديمة بأن بريطانيا العظمى اكتسبت امبراطوريتها الهندية «في حالةٍ من شرود الذهن». تطبّق هذه المقولة على مطلع القرن التاسع عشر. ففي الواقع لم تقم أي حكومة بريطانية بتقديم تصريح واضح في نيتها بالسماح لشركة الهند الشرقية -أو منعها- من إقامة الإمبراطورية الإقليمية التي كانت فعلاً في طور بنائها. جاء احتلال الهند بمبادرة خاصة، ثم إن رخصة الملك، شكّلت سياسةً لا يمكن اعتبارها رسمية، علماً أن الحكومات المتعاقبة وافقت على النتيجة في آخر المطاف.

عند النظر إلى السياسة الرسمية التي اتبعتها الحكومات المركزية في أوروبا بمنظار عام، نرى أن شرود الذهن حيال بناء الامبراطوريات كان وضعاً شائعاً للغاية. وعلى الرغم من صعوبة الفصل بين الأهداف المعلنة وغير المعلنة والنوايا الخفية، فقد كانت فترات بناء الامبراطوريات قصيرة نسبياً لمعظم القوى الأوروبية. ودامت قوة الزخم الألمانية المعلنة «للحصول على مكان تحت الشمس» أقل من ربع قرن، من حوالي سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨. واتسمت السياسة الهولندية الرسمية بمضادّة التوسع خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ويمكن أن نؤرخ التوجه نحو التوسعية الخفية ببداية الحرب الهادمة لاحتلال أتش Aceh شمال سومطرة في سنة ١٨٧٣ واستمرت في العقد الأول من القرن العشرين. وهي حقبة امتدت على مدى ثلاثة عقود، واقتصرت على جنوب شرق آسيا. أما البرتغال فقد اتبعت سياسة توسعية ابتداءً من سنة ١٨٨٣ وصولاً إلى العقد الأول من القرن العشرين.

يعد شرود الذهن البريطاني حالة تقليدية. فعلى الرغم من إنشاء الإمبراطورية الأكبر في بلدان ما وراء البحار سنة ١٨١٥، أعادت بريطانيا بعض الأراضي المحتلة في ما وراء البحار إلى هولندا وفرنسا دون الشعور بأي وخز شديد في الضمير. ولم يظهر التيار التوسعي المعلن صراحةً من جديد إلا بمواكبة وزارات سالزبوري بين

١٨٨٦ و١٩٠٢. وحتى في أثناء تلك الفترة، جاءت وزارة غلادستون الذي كان يتبنى سياسة رسمية مضادة للإمبريالية من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٤. وبذلك لا تبقى غير أربع عشرة سنة فقط من سياسة بناء الإمبراطورية بشكل علني إلى حد ما.

وظل النمط واضحاً. فقد كانت القوى الأوروبية تسعى، بكامل وعيها وبكل علانية، لاحتلال أراضٍ جديدة خلال فترة قصيرة نسبياً من حوالي ١٨٧٠ وحتى ١٩١٠، وقد زادت من اهتمامها خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. وبالطبع، تُعدُّ هذه الفترة القصيرة نسبياً من المقاصد الأوروبية الصريحة الميزة المحدّدة لعصر الإمبريالية. ولكنها بعيدة كل البعد عن أن تكون هي الحقبة الوحيدة في عمليات بناء الإمبراطورية الغربية.

كانت فرنسا الاستثناء الذي شذ عن النمط الشائع سواء من حيث التوقيت أو النتيجة، وقد انبثق الاختلاف من المنافسات الدولية أكثر منه من الأحداث الخارجية. فتبعاً لخسارة فرنسا أمام الحلفاء في الحروب التي خاضها نابليون، مرت السياسة الفرنسية بحقبة تعاظم مفاجئ للتيار التوسعي، في محاولةٍ ظاهريةٍ للتعويض عن الخسارات التي تكبّدتها في أوروبا. ثم نشطت لعقودٍ وجيزةٍ في غينيا والسنغال ومدغشقر. ولكن الهدف المنصوب ظلَّ إقامة مجمَّع زراعي plantaion complex أو إمبراطورية للمحطات التجارية، وللإمبراطورية الإقليمية على غرار تلك التي أقامتها شركة شرق الهند البريطانية وفيما بعد. من مطلع العشرينيات حتى مطلع الخمسينيات من القرن التاسع عشر، أصبحت فرنسا دولةً مناهِضةً صراحةً للإمبريالية مثلها كمثل أي دولةٍ أخرى، مع أنها كانت تؤسس في الواقع إمبراطورية إقليميةً في الجزائر كي تتكافأ مع النشاط البريطاني في الهند.

عندما تسلم نابليون الثالث زمام الحكم في سنة ١٨٥١، تغيرت السياسة الفرنسية مجدداً. حاولت الحكومة الفرنسية أن تستفيد من نجم نابليون المتألق سابقاً في مغامراته في المكسيك وغيرها. ولكن هذه الحقبة الزمنية انتهت في سنة

١٨٧١، عقب الهزيمة في الحرب الفرنسية -البروسية. وابتداءً من سبعينيات القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، مرّت السياسة الفرنسية بعقودٍ من التعاقب السريع نسبياً. سقطت وزارتان على الأقل لأنهما حاولتا تنظيم تحركات في مواجهة الشعور المناهض للإمبريالية. ومع ذلك بنت فرنسا في هذه الحقبة ثاني أضخم إمبراطورية أوروبية ما وراء البحار.

أظهرت التقلبات في الآراء داخل مجلس النواب التصورات المتغيرة للمركز الذي ينبغي أن تتبوأه فرنسا في أوروبا. وعندما خسرت فرنسا الحروب الإمبريالية وأراضي في الخارج، كما حصل عام ١٧٦٣و عام ١٨١٥، تفجرت، عند شريحةٍ من الرأي العام الفرنسي، رغبة بالتعويض من خلال احتلال المزيد من الأراضي في الخارج. ناشدت شريحة أخرى الحكومات الفرنسية أن تعيد بناء القوة العسكرية الفرنسية في أوروبا بغية إعادة ترسيخ مركزها القيادي الخاص هناك. وفي الحقبة الواقعة بين ١٨٧١و ١٩١٤، اتصف هذان الشعوران بالقوة. واتفق الطرفان على أهمية استعادة الهيبة الوطنية، ولكنهما اختلفا فقط على الوسيلة اللازم اتباعها من أجل تحقيق هذا الهدف. وقعت حادثةٌ موازيةٌ في سنة ١٩٦٢ عندما تخلى شارل ديغول عن القتال من أجل الاحتفاظ بالجزائر لصالح سياساتٍ مصمّمة على إعادة وضع فرنسا في المكان المناسب داخل أوروبا.

لقد كان بناء الامبراطوريات علانيةً خارج أوروبا الغربية استثناءً أكثر بروزاً بالنسبة للنمط الأوروبي. وكانت اليابان ذلك الاستثناء. وقد نتج ذلك جزئياً عن اكتسابها، في الفترة الأخيرة، للتكنولوجيا الصناعية- وأكثر بعد بسبب التوجه السياسي والثقافي المختلف - هاجمت اليابان تايوان وكوريا في السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن التوسع العلني لم يبدأ إلا عندما اندلعت الحرب بين الصين واليابان على كوريا في سنة ١٨٩٤. بدأت هيمنة اليابان على تايوان في سنة ١٨٩٨، وقد دامت هذه الهيمنة على الجزيرة طوال حقبة الهيمنة الأوروبية على معظم أراضي إفريقيا الإستوائية.

لا يعود تاريخ الإمبراطورية اليابانية في الأراضي الداخلية الآسيوية إلى الفوز المحقق ضد روسيا واحتلال كوريا سنة ١٩٠٥ وحسب. فبعد ذلك، وفيما كان الشعور الامبريالي يتقلص في أوروبا الغربية، واصلت عملية التوسع الياباني ازدهارها، بعد أن خفّت في العقد الأول والثاني من القرن العشرين، حتى نهاية حرب الباسيفيك سنة ١٩٤٥.

الولايات المتحدة وروسيا:

غالباً ما كانت الولايات المتحدة وروسيا غائبتين عن لوائح بناتي الامبراطوريتين الغربيتين من القرن التاسع عشر. من الناحية الجغرافية، لم تكن الولايات المتحدة تنتمي إلى أوروبا. ومع أن روسيا كانت أوروبية من الناحية الجغرافية، إلا أن تاريخها وتوجهاتها الأولى انحرفت غالباً عن النمط العام، وقد بنت امبراطوريتها في الأراضي البرية، والسهوب الشاسعة وليس في بلاد ما وراء البحار. تواصل توسع كل من روسيا وأمريكا الشمالية بشكل شبه مستديم ابتداءً من القرن السابع عشر، متخذاً في بادئ الأمر شكل امبراطوريات للمحطات التجارية البرية المعتمدة على تجارة الفراء، ومن ثم تحولت تدريجياً إلى نمطٍ بدا على أنه إمبراطورية إقليمية، ولكنه تحول في أغلب الأحيان إلى مجتمع متعدد الأجناس بعد أن تدفق المستوطنون من الأجزاء السلافية من الإمبراطورية الروسية تجاه الغرب.

لم تكن الرغبة في بناء إمبراطورية إقليمية، في أيٍ من الحالتين، الدافع الأساسي، علماً بأنّ الولايات المتحدة وروسيا شاركتا على حدٍ سواء مع الآخرين في ذلك- روسيا على نطاق واسع في القوقاز، وآسيا الوسطى، وكوريا. والولايات المتحدة بقوة مماثلة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، من خلال ضمّ معظم الأراضي في الشمال الغربي من المكسيك والتوجه نحو بلاد ما وراء البحار في التسعينيات من القرن التاسع عشر بالاستيلاء على الفيليبين وبورتو ريكو.

في الحالة الأمريكية، أعقب التوسعَ تصوراً قانونياً خيالياً باكتساب أراضي كان يطالب بها أوربيون آخرون. وغالباً ما كانت أراض خاضعةً بشكلٍ غير مكتمل لإدارة دولة أخرى. وكانت فرنسا على معرفةٍ ضئيلةٍ بحجم لويزيانا حتى ذلك التاريخ بحيث توجب على الولايات المتحدة أن ترسل لويس وكلارك لاستكشاف ما كانت قد ابتاعته.

أما غزو الأميركيين الأصليين الفعلي فقد حدث في فترة لاحقة وتميّز بسهولة نسبية في وجه مجموعات متناثرة، كانت تواجه وقتها الضربات الأولى من الأمراض الاستوائية التي عايشتها شعوب وسط المكسيك قبل قرون خلت. كما لم تكن معظم الأراضي المسلوبة من جمهورية المكسيك في سنة ١٨٤٨ قد أُخضعت فعلياً لإدارة المكسيك، تماماً كما لم تكن كافة أراضي ألاسكا خاضعةً فعلياً للحكم الروسي. لم تكن سوى صفقات متناثرة، في حين يخضع جزء فقط من الأراضي لسيطرة الشاري الفعلية شجعت بعض توجهات الرأي العام في الولايات المتحدة الاكتساب الإقليمي لمناطق ذات كثافة سكانية عالية في أمريكا اللاتينية وغيرها من البلاد، إلا أن الأميركيين كانوا يفضلون عامةً الأراضي الواقعة باتجاه الغرب والتي كانت تبدو متقبلة للاستيطان. لقد كانت الفكرة وراء «القَدَر الرأسمالي» تقوم على توسيع عملية الاستعمار الفعلي على طراز الشاطئ الأطلسي، وليس تأسيس إمبراطورية إقليمية على شاكلة الهند. أما ضمّ هاواي وبورتو ريكو والفيلبين فقد كانت أعمالاً شاذة بُرِّرت في أعين الجماهير بالدوافع الاستراتيجية بشكلٍ أساسي.

أما التوسع الروسي فقد كان لأهداف استراتيجية أوضح فعلاً. فمن قلب موسكو، كانت الطريق المستقيمة نحو البحر تتجه بيدها في مرافئ المياه الدافئة على مدار السنة. ابتداءً من القرن السابع عشر، قاد بطرس الأكبر الهجمات العسكرية العنيفة على المرافئ غير المتجمدة- بدءاً بسان بيتر بيترسبورغ، وفيما بعد، أدّت جهود مماثلة إلى التوجه نحو الجنوب الفارسي عن طريق إيران، ونحو المحيط الهادئ على طول خطوط السكك الحديدية العابرة لسيبريا. أي أن روسيا

ظلت تتوسع استناداً إلى سياسة وطنية صريحة، ولكن نادراً من أجل السيطرة على أراضٍ جديدة.

وبشكلٍ عام، نادراً ما كان بناء الإمبراطورية الأوروبية سياسةً صريحةً معلنةً جهاراً في مراكز القوى الأوروبية باستثناء حقبة محدودة جداً تراوحت بين الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. وبالتالي فإنّ جزءاً كبيراً من توسع الأراضي حدث بإغراء من قوى طرفية وليس بوصفه مقصداً مركزياً. لقد كان الشرود الذهني سائداً في المركز الامبراطوري، ولم يكن هو المكان الذي تجري فيه الأحداث.

البيئة السياسية في الأطراف:

يستخدم المنظّرون الذين يعملون في تحليل النظم العالمية مصطلحي مركز هامش أو طرف بمعانٍ خاصة. أما هنا، فهذان المصطلحان يُستخدمان على نحو غير تقني، ويحدّدان بكل بساطة الموقع الجغرافي لفرد أو مجموعة تتخذ القرار ضمن البنية السياسية لإمبراطورية أوروبية.

قبل حلول القرن التاسع عشر بفترة طويلة، طوّر البيروقراطيون المفهوم القائل بأنّ الأوامر كانت تصدر من مركز الحكومة، باسم الملك في أغلب الأحيان، إلى سلسلة هرمية من المسؤولين التابعين الذين كانوا ينقلونها بدورهم إلى من هم دونهم مرتبة. في أوروبا، كان المسؤولون المتمركزون على قمة هذا التسلسل الهرمي إما من سلك القضاء أو في العاصمة، في حين إن المرؤوسين كانوا غالباً في مناطق أخرى، إما في عواصم الأقاليم أو المدن الرئيسة.

لم يكن الشكل النهائي لهذه الهرمية على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لأوروبا بالتحديد، كما تسنى لها أن تكتسبه فيما بعد، عندما استُخدمت مؤسساتٌ مماثلةٌ لإخضاع رعايا على مسافة آلاف الأميال. قبل انتهاء حقبة التلغراف تحت الماء، كانت المسافات المعنية تشير إلى أن أيَّ اتصالٍ يتطلب بالضرورة أسابيع أو أشهراً. وكانت الأوامر تنطلق من وزارة المستعمرات أو أي هيئة مماثلة إلى الحكام العامين، ومنهم

إلى حكام دونهم مرتبة، وأخيراً إلى القادة العسكريين عند نقطة التماس أو الخلاف مع الجيران أو الخصوم غير الغربيين.

هكذا كانت عملية اتخاذ القرار لا مركزية وذات نتائج مهمة. وقد تمتع أشخاص عند مستويات مختلفة من التسلسل الهرمي، في مناطق مختلفة، بمصادر مختلفة من المعلومات وتقييمات مختلفة للوضع السياسي أو العسكري. وكالعادة حصل الشخص الذي يتبوأ المركز المسؤول على تقييم مختلف اختلافاً شديداً عن التقييمات في مستويات أخرى من القيادة أو ذات أبعاد مختلفة.

تمتع كل مسؤول قادر على اتخاذ القرار بدائرة مراقبة معينة يحددها موقعه والمعلومات المتوافرة له، بالإضافة إلى أي إمكانيات أخرى يحظى بها وغالباً ما كانت الأعمال الفردية للتقدم الإمبريالي منوطةً بترابط مجموعة من القرارات الفردية التي يتم التوصل إليها ضمن دوائر الرؤية المتاحة لذلك المستوى.

الحرب بين بريطانيا وبورما سنة ١٨٥٢:

يمكن الاستعانة بعدد من الأمثلة على التقدم الإمبريالي لتوضيح هذه الفكرة نذكر من الأمثلة التقليدية استحواذ بريطانيا على جزء كبير من جنوب بورما عقب حرب بورما الثانية سنة ١٨٥٢. وما أدى إلى إضفاء الطابع التقليدي على هذا المثال نشره، في تلك الفترة، في كراسة مهمة تحمل عنوان «كيف انفجرت الحروب في الهند»، كتبها ريتشارد كوبدين، وهو أحد قادة حركة التجارة الحرة[1].

لقد كان متخذو القرار المعنيون، في هذه الحالة، الحكومة البريطانية التي كانت تمارس سلطتها من خلال هيمنة شركة الهند الشرقية، والحاكم العام في الهند، لورد دالهوسي المقيم في كالكوتا، والرجال المتبوئين مراكز مهمة في دلتا نهر إيراوادّي Irrawaddy في جنوب بورما. وقد مهّدت معاهدة سابقة لوجود مقيم بريطاني في

(١) «كيف انفجرت الحروب في الهند»، في الكتابات السياسية لريتشارد كوبدين. Richard Colden مجلدان (لندن، ت. فيشر أنوين ١٩٠٢)، ٤٥٨:٣٩٩:١ (الطبعة الأولى ١٨٥٣).

رانغون وسفير بورمي في كالكوتا، ولكن هذا التمثيل الدبلوماسي لم يكن قد دخل حيز التنفيذ بعد.

في سنة ١٨٥١، اعتقلت السلطات البورمية على نهر إيراوادّي Irrawaddy السفلي ربانين بريطانيين باتهامات ملفّقة. وفي ذلك الموقف بالذات، كان الحدثُ عبارةً عن سوء تفاهم ثقافي متبادل، لقد بات من ضمن الممارسات العرضية، في ذلك الجزء من آسيا، إلصاق اتهامات خطيرة بالتجّار الأجانب، ومن ثم إطلاق سراحهم مقابل غرامة باهظة. في تلك الحالة بالذات، بلغ مقدار الغرامة أقل من ألف جنيه استرليني. ولكن كمثل الحصاة الملقاة في الماء، انتشرت أصداء هذا الخبر إلى أن تقاطعت مع عدة دوائر متباينة للمراقبة.

أعمى الغضب الربانين من جراء المعاملة «غير الشرعية» التي تعرضا لها، ولذلك فإنهما احتكما لسلطات كالكوتا. وتمثلت وجهة المراقبة الثانية بدائرة دالهوسي والحكومة الهندية. كان الموقف البريطاني في الهند منوطاً، عامةً، بقوة الجيش الهندي والبحرية الملكية، إلا أن استخدام هذه القوة كان مقيداً باعتبارات مالية. إنّ الحروب، لا بل حتى الحملات التأديبية ضد خصوم ضعفاء، تكلف أموالاً كثيرةً، والأمر نفسه يحدث عند احتلال المزيد من الأراضي الهندية وإدارتها. بدت الإستراتيجية المثلى، انطلاقاً من كالكوتا، الاستفادة من القوة العسكرية البريطانية المعروفة دون استخدامها فعلياً. إذ إنّ مجرد التلويح بعصا هذه القوة للتهديد يكون أقل تكلفةً وأحياناً بالقدر ذاته من الفاعلية فيما لو جرى استخدام هذه القوة بالذات. وقد ارتدت القيود المالية أهميةً كبيرةً عند النظر إليها من دائرة مراقبة الحكومة الإمبريالية في لندن.

في هذه الأثناء، كان دالهوسي في كالكوتا منشغلاً، كحال العديد من نواب الملك قبله وبعده، في محاولة تعزيز قوة التأثير البريطاني داخل «الأقاليم الأصلية». فخلال ولايته، طرحت الحكومة الهندية مبدأ تفوق السلطة العليا، وهو مبدأ شبيه، إلى حد ما، بمبدأ مونرو المتضمّن في السياسة التي تتبعها الحكومة الأمريكية حيال

أمريكا اللاتينية. وقد كان مجرد بيان دبلوماسي تطلقه قوة كبرى يدفع الدول الأخرى إلى أن تأخذ حذرها منها. واستناداً إلى هذا المبدأ، فإنّ هيمنة هذه القوة عظُمت في شبه القارة بحيث أصبح لبريطانيا الحق- لا بل الواجب- التدخل في الشؤون الداخلية لأي إقليم هندي لا يحافظ على المعايير الملائمة للإدارة الحكومية. والأكثر من ذلك بعد، فإن الراج Raj البريطاني يمثل السلطة الوحيدة التي تحدّد هذه المعايير.

من الصعب الحفاظ على مبدأ من هذا النوع. فهو يستلزم توازناً دقيقاً بين الاستعداد لاستخدام القوة التأديبية عند الضرورة وإدراك الخصوم المحتملين بأن هذه القوة ستستخدم فعلاً في بعض الظروف المعروفة لدى الأطراف كافة. وفي لغة ذلك العصر، كان يتردد، في أغلب الأحيان، مصطلح «هيبة الرجل الأبيض»، ولكن قوة الجيش الهندي وهيبته كانت تكمن وراءه.

وهكذا فإنهم من وجهة نظر كالكوتا، لم يكن ابتزاز بضع مئات من الجنيهات من تجار بريطانيين بالأمر المهم. ما يهم كان الفرصة للتشديد على قوة السلطة البريطانية في المنطقة. وبالتالي، أرسل دالهوسي حملة بحرية قليلة العدد إلى الجزء السفلي من إيراوادّي Iraawaddy طلباً للتعويض، وحدد رقماً فاق الخسارات المحتملة التي تكبدها التجار رغبة منه بتلقين درس تأديبي لمن قد تسوّل له نفسه إهانة الرعايا البريطانيين.

عندها برزت دائرة المراقبة الخاصة ببورما إلى الواجهة. أحسّت حكومة بورما بخطورة التهديد البريطاني فحاسبت حاكم بيغو المذنب عند النهر السفلي. إلا أنّ الحاكم الجديد وصل مع الإمدادات العسكرية وغالى في تقدير قوته الخاصة. حتى إنه رفض أن يناقش الطلبات البريطانية.

بدوره، ظهر القائد البحري البريطاني المدعو لامبيرت في الصورة. كان من الممكن أن يحوّل هذه المسألة إلى كالكوتا، ولكنّ طبيعته المهتاجة جعلته يقع في فخ

التكبّر الثقافي والعنصرية التي كانت سائدة في زمانه، وضمن طبقته الاجتماعية. وقد تعرّض لإهانة شخصية من ضابط آسيوي متدني الرتبة، فباشر بحصار رانغون معارضاً بذلك أوامر رؤسائه. تمكنت المدافع المحمّلة على سفنه من إخماد صوت مدفعية نصبت على الساحل وشرع في الانتقام من السفن البورمية. وأصرّت سلطات بورما على رفضها للاستسلام، ولم يكن تحت تصرف لامبرت غير ثلاث سفن خاضعة لأوامره. لقد كان الوضع في مجرى إيراوادّي Irrawaddy في تلك الفترة محرجاً.

عند عودة دالهوسي إلى كالكوتا، وجد نفسه أمام خيارين، إما نسيان المسألة برمتها أو القيام بما يقوم به الأقوياء في ظروف مماثلة، أي تصعيد مستوى القوى المستخدمة. فأصدر أوامره باحتلال كامل وشامل للمناطق الساحلية من بورما، مصمّماً على تطبيق مطالباته الأولى، إلا أن السياسات القضائية البورمية تدخلت في هذا الشأن ولم يتمكن البريطانيون من الحصول على تسوية. في آخر المطاف، أعلن دالهولي بكل بساطة ضمّ ذلك الجزء من نهر Irrawaddy السفلي الذي سيطرت عليه القوات البريطانية على الرغم من أن عملية الاحتلال هذه كانت مضادة للأوامر الصادرة من لندن، وأعلن نهاية الحرب. وهكذا انتهى الأمر بحصول الإمبراطورية البريطانية على جزء من الأراضي البورمية لم يكن أحد على الجانب البريطاني ينوي اكتسابه عند بدء المسألة.

وفُهمت المسألة في لندن فهماً مغايراً. إذ كان يُفترض بالضباط البحريين والحكام العامين إطاعة الأوامر. أخضعت الحكومة لامبيرت للرقابة ووجهت لدالهوسي انتقاداً لاذعاً لأنه أدخل بريطانيا في حرب لا فائدة منها وباهظة التكاليف وتوّجت -في النهاية- بالحصول على أراضٍ لم تكن تبغي الحصول عليها. ومع ذلك، فقد واجهت لندن صعوبةً ماديةً ودبلوماسية في التراجع عن أخذ ما أنجزه عملاؤها. وقد صار هذا الوضع المُشْكِل مثالاً تقليدياً على كيفية بناء إمبراطورية في حالةٍ من الشرود الذهني.

وإذا تركنا جانباً الإدراك الذي كوَّنته بورما عن هذه الحالات من سوء التفاهم - وأنَّ الحروب من أجل الإمبراطورية كانت تتضمن دائماً وجهتي نظر بالرغم من الطريقة الرسمية المركزية في تصويرها للرأي العام، فقد انبثقت الحرب وعمليات ضم الأراضي عن تباين في الآراء مستند على ثلاث دوائر للمراقبة. لقد كان رأي لامبيرت مستساغاً لدى من يجدون الأسلحة في متناول أيديهم ويعتقدون بأنهم تعرضوا للإهانة. وصعّد دالهوسي الخلاف خوفاً من إلحاق الضرر بهيبة بريطانيا في الهند. وانشغال بال الحكومة في الوطن الأم ما تتكبد من تكاليف عند دخولهم في حرب غير ضرورية تكسبها أرضاً في بلاد ما وراء البحار لا ترغب بالحصول عليها: ولكنها لم تكن قادرةً على التراجع عن أمرٍ واقع.

بريطانيا في الملايو:

يشكِّل التوسع الإقليمي للممتلكات البريطانية في شبه جزيرة الملايو مثالاً آخر ومختلفاً بعض الشيء عن عملية بناء إمبراطورية عن غير قصد ونية. لقد اقتصر الاهتمام البريطاني بهذه المنطقة، في مطلع القرن التاسع عشر على عملية نشر المحطات التجارية، حتى في الحقبة نفسها التي كانت فيها إمبراطوريتها الإقليمية آخذةً في التوسع في الهند. في الواقع، كانت بريطانيا قد احتلت الممتلكات الهولندية في جنوب شرق آسيا خلال الحروب التي خاضها نابليون ولكنها أعادتها إلى هولندا عند عقد معاهدة السلام سنة ١٨١٥ في أثناء الحروب. أسس ستامفورد رافيلز Stamford Raffles سنغافورة من أجل تعزيز حركة التجارة البريطانية في المنطقة. ومع اقتراب السلام، احتفظت بريطانيا بسنغافورة بالإضافة إلى مدينتي ملقة Melaka وبينانغ التجاريتين على مضيق الملايو. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر، فُصلت هذه المحطات التي أطلقت عليها بشكل جماعي تسمية مستوطنات المضيق عن الحكومة الهندية وأُخضعت لسيطرة مكتب المستعمرات البريطاني.

تكوّن الجزء المتبقي من شبه جزيرة الملايو من مجموعة من الأقاليم الصغيرة التي يتمركز كلٌّ منها على مرفأ عند مصبّ نهر ما. وحاول كل منها السيطرة على

تجارة منطقةٍ داخليةٍ قليلةِ السكان دونما قدرةٍ على إخضاع تلك المنطقة للسيطرة الفعلية. وفي منتصف القرن، لم تتضمن سياسة الاستعمار البريطانية أي تجاوز لسلطات الملايو فقد اعتبرهم حُكام مستوطنات المضيق منظمين بما فيه الكفاية كي يستطيعوا المحافظة على السلام وحماية التجارة الأوروبية. أما اهتمام سنغافورة فقد اقتصر على حماية حكام الملايو من أي توسع محتمل لسيام باتجاه الشمال أو للهولنديين انطلاقاً من مستوطناتهم في سوماطرا باتجاه الغرب، عبر المضيق.

لكنّ السلطنات كانت واهنةً من ناحيتين. وقد بدا هذا الوهن بمزيد من الوضوح من دنو منتصف القرن. فهي لم تكن قادرة على التحكم بالقرصنة التي يقوم بها بعض رعاياها وجيرانها. كما أنها فشلت في التحكم بانتشار مناجم القصدير على طول الجزء العربي من شبه الجزيرة، التي جذبت عشرات الآلاف من عمال المناجم الصينيين، وكانوا في معظمهم من الشباب الذين قاموا دون نساء وشكلوا عنصر اضطراب في مجتمع الملايو. وكان موقف بريطانيا معادياً للقرصنة، إلا أن اهتماماتها الاقتصادية ما كانت معنية بمناجم القصدير إلاّ مباشرة فقط. كان رافيلز قد افتتح سنغافورة على أنها مرفأ حر جذب نحوه مهاجرين من كل أنحاء آسيا الجنوبية الشرقية، بما فيها جنوبي الصين. وقدم الصينيون بأعداد كبيرة إلى حد أنهم سرعان ما فاقوا السكان الأصليين عدداً بالإضافة إلى عددٍ ضئيلٍ من البريطانيين العاملين في المراكز التجارية في سنغافورة ومدنٍ أخرى في مستوطنات المضيق.

زاد عدد المناجم بشكل ملحوظ ابتداءً من العام ١٨٤٨، في بيراك أولاً ثم في سلطنات سيلانغور ونيغري سيمبيلان. كانت معظم مناجم القصدير ملكاً لرأسماليين صينيين والعديد منهم رعايا بريطانيون مقيمون في ملقة وسنغافورة. وصُدِّر معظم القصدير إلى أوروبا ولاسيما إلى بريطانيا. وجُلُّ ما كان سلاطين الملايو يملكونه كان أنظمةً إداريةً بدائيةً عاجزةً عن التحكم بعمال المناجم والحفظ على السلام. وكانوا يدينون بالانضباط المتوفر «للمجموعات السرية» الصينية. ومع

ذلك، فقد رحبَّ السلاطين بالمناجم بسبب ما يمكن أن تقدمه من وفرة. لكنْ طوال الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، تفاقمت صعوبة هذه المشكلات أمام السلاطين، وأساءت الفوضى للمصالح التجارية والمناجم في مستوطنات المضيق. وعندها، أُطلقت الاستغاثة طلباً للعون من الحكومة المستعمِرة.

تدخلت عدة دوائر مراقبة مختلفة،. تبيِّن للسلاطين أنه يتعذر عليهم الدفاع عن موقفهم أكثر من ذي قبل. إذ كانوا قد بدؤوا يفقدون سيطرتهم على المناجم والعاملين فيها. ومن وجهة نظرٍ أخرى، شعر أصحاب المصالح في مجالي التجارة والمناجم في سنغافورة بالخوف على استثماراتهم ورغبوا في الحصول على حفظ أفضل للقانون والنظام. أما لندن فقد كان لها بعدٌ ثالث؛ إذ لم يكن لبريطانيا مصالح اقتصادية مباشرة طالما ظل القصدير متوافراً. كانت بريطانيا تتبنى موقف الحفاظ على الوضع القائم وتفادي تكلفة نشاط فعال أو مسؤوليات إقليمية متزايدة في جنوب شرق آسيا.

ظهر شكلٌ من أشكال الأزمة في مطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر. التمست حكومة سنغافورة البريطانية من لندن الإذن بالتدخل، وردت لندن بالرفض. وفي نهاية الأمر، أعطت لندن، في سنة ١٨٧٤، الإذن لحاكم مستوطنات المضيق بإرسال موظف رسمي للإقامة في بعض محاكم أقاليم الملايو، شريطة أن يتم ذلك على حساب المستوطنات، ولا يتحمل النفقات دافعو الضرائب البريطانيون. لقد كانت الحكومة تفكر في تأسيس مفوَّضية دبلوماسية.

إلا أن الحاكم، السير أندرو كلارك، أوّلَ هذا الإذن بأسلوبه الخاص. فبعد عملية عسكرية غير مهمة، أقنع سلطان بيراك بتوقيع اتفاقية لا ترحب بمقيم بريطاني داخل بلاطه فحسب بل ترى «ضرورة طلب نصيحة المقيم وتطبيقها في كل المسائل ما خلا ما يمت الصلة لديانات الملايو وتقاليدها». وهكذا، نفَّذت الأوامر الصادرة من لندن، ولم تحصل أي عملية ضمّ، إلا أن اتفاقية بيراك دشَّنت سلسلةً من اتفاقيات

وُقِّعت مع سلطنات أخرى. وفي غضون بضعة عقود، وضعت الركيزة التي قام عليها ما عُرف بأقاليم الملايو البريطانية التي أصبحت، في نهاية المطاف، ماليزيا الحالية. وعلى غرار ما حصل في بورما قبل عشرين سنة، كانت لندن مدفوعةً لعملية استحواذ كانت قد حظرتها في البداية، وبمبادرةٍ من الرجل الذي وضعته في مركز القيادة في ذلك المكان، رداً على المشكلات المحلية والمصالح المحلية أيضاً.

الرجل في المكان:

في أثناء الحرب بين بورما وإنكلترا في سنة ١٨٥٢ والتدخل البريطاني في الملايو في فترة لاحقة من القرن، انبثقت القوة الدافعة نحو بناء الامبراطوريات من الأطراف وليس من مركز الإمبراطورية. ومن الممكن ملاحظة نزعة مماثلة في الأنماط التي اعتمدها الفرنسيون في توسعاتهم داخل غربي إفريقيا أو الهولنديون في جنوب شرق آسيا. فعلاً، لقد كانت نزعة شائعة إلى حد كبير بحيث تم تعريف هذه الظاهرة.

تحت اسم: «الرجل في المكان» أو «المسؤول المحلي»

تتسم بعض المصادر بقدرٍ وافرٍ من الوضوح، فقد فهم متخذو القرار في الأطراف وظيفتهم على أنها تعزيز قوتهم وميزاتهم الخاصة بهم وبمواطنيهم إلى أقصى حد في الإطار المحلي الضيِّق. فعلى سبيل المثال، إن فاقت تكلفة مشروع معيّن ما يمكن أن تتحمله الميزانية المحلية، يظل بالإمكان طلب المزيد من المركز، مبررين طلبهم هذا بأنه يعزز المصلحة العامة. كان من الممكن أيضاً الدخول في التزامات يضطر المركز للوفاء بها في المدى الطويل، حتى وإن كان من الممكن أن يرفضها في حال طلب الإذن المسبق بشأنها.

من جهة أخرى، كان واضعو السياسات في المركز أقرب إلى ممثلي المواطنين وغيرهم من الأشخاص والجهات المنزعجة من تزايد التكاليف والمسؤوليات. رأى

المركز، من وجهة نظره، أنه من الضروري إقامة توازن بين الطلبات الصادرة من أجزاء مختلفة من العالم، والأخرى الصادرة من مؤسسات متنوعة ضمن الحكومة المركزية. أُجبرت الوزارات الفرنسية، بعد السبعينيات من القرن التاسع عشر، أن توازن المطالبات بالثأر من ألمانيا ومن جانب الحركة التوسعية في إفريقيا والهند الصينية أو في بقاع أخرى من الأرض. كما كانت مجبرة على إقامة توازن بين طلبات وزارة البحرية التي كانت تسيطر على معظمهم المستعمرات فيما وراء البحار، وبين طلبات وزارة الحرب وما تضطلع به من مسؤوليات مهمة في أوروبا وشمال إفريقية، ناهيك بالاهتمامات الدولية الواسعة النطاق التي كانت تختص بها وزارة الشؤون الخارجية.

وقسّمت الشؤون الإمبريالية البريطانية ووزّعت بشكل متوازن بين وزارة المستعمرات التي كانت تحكم معظم المستعمرات، ووزارة شؤون الهند التي كانت تحكم الهند، ووزارة الخارجية التي كانت مسؤولةً عن مصر، والسودان الإنكليزي/ المصري، وبعض الأراضي الأخرى. وعزّزت هذه التوازنات المتعددة نزعة المركز إلى اعتماد الرفض، وعلى الأقل وضع حدود للطلبات الوافدة إليه من المحيط.

لقد كان المسؤولون في مراكز القيادة المحلية أكثر من يمكنهم على الأرجح أن يواجهوا التحديات الناجمة عن اختلاف الثقافات، فسواء مدى كانوا من التجار أو المبشرين أو الإداريين، كان من ضمن واجباتهم التعامل مع الأشخاص الموجودين داخل حدود الإمبراطورية أو خارجها، والمختلفين عنهم ثقافياً، والمعتمدين على قيم مختلفة وأساليب مغايرة في التعامل التجاري. وكان التعامل مع هؤلاء الأشخاص في ما واء الحدود يكتنفه الصعوبات إذ كان يتطلب التوصل إلى تسوية مع «البرابرة» في كل مرة. ولكن من جهة أخرى، كان هؤلاء الغرباء داخل الإمبراطورية وكان في مستطاع الحكومة الاستعمارية طبعاً في سن القوانين، لكنّ التسوية تبقى شرطاً ضرورياً. لكنّ الجيد في هذه الحالة -الوجود داخل الإمبراطورية- أنّ السلطات السياسية في مركز القرار، تشاركنا، على الأقل، في التقاليد والقيم.

في القرن التاسع عشر، كان لدى المسؤولين في مراكز القيادة المحلية دافعان إضافيان يدفعان للتوسع. فقد أدت الهوة الناجمة عن التقدم التكنولوجي إلى خفض تكلفة استعمال القوة ضدّ الدول غير الأوروبية. وبالتالي أصبح المسؤولون في مراكز القيادة المحلية قادرين على تفجير كتبهم تجاه المختلفين ثقافياً بكلفة أزهد مما كان عليه الأمر في السابق. وعلاوةً على ذلك، نزعت عملية التصنيع ذاتها إلى التسبب باضطرابات اقتصادية واجتماعية جديدة في دول ما وراء البحار. وفي أغلب الأحيان، لم تكن موارد حِقَب ما قبل التصنيع الخاصة بالإدارة العامة مناسبة. فوجد الأوروبيون في الثورة الصناعية عوامل حديثة دعتهم للاعتقاد بأنهم يستطيعون معالجة المشكلات بطرائق أكثر فاعلية.

إن مناجم القصدير في الملايو ليست غير مثال واحد عن هذه العملية الجارية على المستوى العالمي. شجع الطلب الصناعي الأوروبي للسلع من بلاد ما وراء البحار غير الأوروبيين على محاولة تلبية هذا الطلب. وقد أدت هذه العملية بالذات إلى إحداث تغيرات مشوّشة ألحقت الضرر، كما في هذا المثال بالتحديد، بالتجارة وبمصدر زهيد الثمن للقصدير. وتبين للأوروبيين في حالات أخرى أيضاً بأن الحكومة مؤلفة من «السكان الأصليين» لم تكن قادرة على توفير القدر المطلوب من الفاعلية، وبالتالي لم يكن بدٌّ من وضعها بين أيدي الأوروبيين سعياً لتطوير قدراتها. وتأثر الأوروبيون عامةً بشعور الفخر الجديد بالقدرات التنظيمية المتطورة التي تمتعت بها الحكومات الأوروبية. وقد كان هذا الاعتزاز بالتحديد مصدراً رئيساً للسوفيتية الثقافية (التعصب للثقافة الوطنية) والعنصرية اللتين ميّزتا الفكر الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر. أما في الأطراف، فقد اتخذ الكبت الناتج عن محاولة التعامل مع أناس مختلفين بأسلوب عيشهم منحى أكثر حدة، وقد منح الوعي بهذه القدرة التنظيمية والصناعية الأوروبية المسؤولين إحساساً أقوى بقيمة الإمبراطورية يصحبه وعدٌ بتحقيق النصر بتكلفةٍ زهيدة.

في هذه الأثناء ولاسيما في العقود الوسطى من القرن، شكّكت الحكومات الأوروبية بالتدخلات، حتى من أجل الحصول على سلع زهيدة. لقد كان عصر إمبريالية التجارة الحرة عندما كانت التجارة الأوروبية آخذة في التوسع في أسواق جديدة في كل أنحاء العالم. وقد بدا للعديد من المراقبين أنّ السياسة المثلى القائمة على حسابات عقلانية لابد أن تتبنى الشراء من أقل المصادر كلفة والبيع بأعلى سعر ممكن في إطار دولة تتميّز بإدارة متقنة تستطيع حفظ السلام وتضمن الوفاء بالعقود- وهو ما من شأنه أن لا يستدعي أكثر من شكلٍ ما من أشكال «الإمبراطورية غير الرسمية» (٢).

لكن لا يمكن الاعتداد بهذه الاعتبارات في محاولة فهم الإمبريالية الأوروبية في عصر بناء الامبراطوريات الواضح خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، بل يمكن استخدامها لتطوير بعض الضغوطات وجوه الاضطراب الكامنة وراء اتخاذ القرار الامبريالي حتى في تلك الفترة.



(٢) الدراسة الكلاسيكية عن ذلك هي:

John Gallagher ,Ronald robino; the impreicalisn of free Trade . Econimic History Raview, 6 (2nd sr) : 1 - 15 (1953).

القسم الثاني

التبدّل الثقافي والحكم الإمبريالي

وصف المؤرخون في حقبة زمنية ما نموّ الامبراطوريات الأوروبية بالاستعانة بعملية النماذج process model المستندة إلى مصطلحات أحادية الكلمة للإشارة إلى سلسلة من المراحل، من قبيل الرحلة والمصنع، والحصن، والإمبراطورية. وكان ينبغي إضافة مصطلحين هما إزالة الاستعمار والتحديث بهدف الأخذ بالاعتبار نصف القرن المنصرم. لقد انبثق إضافة مصطلحين هما إزالة الاستعمار والتحديث بهدف الأخذ بالاعتبار نصف القرن المنصرم. لقد انبثق الواقع الكامن وراء هذه المصطلحات الأحادية الكلمة من المهارة التي أثبتها الأوربيون في إبحارهم إلى أي مكان في العالم، وإقامة مراكز لعناصرهم كي يتمكنوا من ممارسة التجارة، وتعزيز منشآتهم الساحلية، وأخيراً رؤيتها تتحوّل إلى إمبراطوريات إقليمية. ويزداد النموذج تعقيداً ما إن يبلغ مرحلة الإمبراطورية. لقد كانت بلدان ما وراء البحار تشتمل على إدارة حكومية يشغل الأوروبيون فيها مراكز القيادة. وكان لابد من إجبار العديد من السكان المحليين على العمل في هذه الإدارة الحكومية. وازدادت بعض الطبقات الاجتماعية المحلية ثراءً ونفوذاً فيما غاص غيرها أكثر فأكثر في الفقر وقلة الحيلة.

برزت، في أوساط الطبقات الاجتماعية النافذة المطالبة بإدخال المزيد من التغيرات طبقة من النخبة التي كانت على معرفة بالإنجازات المادية الأوروبية. وقد تحوّل أعضاؤها إلى مناصرين لتيار التحديث الذين أرادوا أن يتحقق وجه من أوجه الوعد المادي في العالم الصناعي- من أجلهم أو من أجل بلادهم أو من أجلهما معاً. العديد منهم أرادوا أن يحصلوا على المدخول الفردي الذي شهدوه في الغرب، وسعوا

لهذا الغرض باستخدام شتى الطرق والوسائل- الرأسمالية أو الاشتراكية المختلفة. قد تكون الأهداف المرجوة شديدة التباين، علماً بأنها حرصت دائماً على احترام بعض أوجه الثقافة المحلية التي نادراً ما كانوا يرغبون في التخلص منها. في أغلب الأحيان، كان الوجود الأوروبي يتضمن مبشّرين يحاولون إقناع الناس باعتناق دين الغرب وقد أدخل الأوروبيون درجةً من التعليم والتغيّر الاقتصادي الغربيين من خلال تأثير الاقتصاد العالمي.

ثم حان زمن إزالة الاستعمار، وهي عملية باتت مألوفة لدى العالم الاستعماري بأسره تقريباً. قادت هذه العملية، في أغلب الأحيان، النخبةُ الداعيةُ للتحديث والتي عانت من الكبت الناتج عن الوضع الاستعماري وبدأت تنظِّم العمل السياسي على الطراز الغربي. ولهذا الغرض، اضطرت لتفعيل أقلّ عناصر المجتمع تأثراً بالغرب بغية إيجاد قاعدة شعبية للتمرد. ووجد المستعمرون أنفسهم مجبرين على الاختيار بين محاولة الخروج من البلاد بكل كياسة وفي جو من السلام النسبي، على غرار ما فعل الانكليز في الهند، أو أن يحاولوا الاحتفاظ بزمام السلطة بالقوة. ولكن في كل مرة دخلت القوة الاستعمارية في معركة ما، وبغض النظر عن انتصارها أو هزيمتها، كان الضغط الدولي والداخلي الذي تتعرض له يجبرها على الانسحاب، كما حدث للهولنديين في الهند الصينية، وللفرنسيين في الجزائر.

التحديث هو المصطلح الأخير والنهائي وهذا الهدف يكاد يكون شاملاً عاماً في العالم اليوم، فكل امرئٍ يود اليوم أن يستمتع بالإنتاجية المرتفعة والاستهلاك الفردي العالي للذين بدأت الدول الأكثر تقدماً بتحقيقهما منذ حوالي القرنين من الزمن.

ويظلّ هذا النموذج المتألف من ست مراحل ناقصاً غير مكتمل. إذ إنه يهمل الدولَ غير الغربية التي لم يَغْزُوها الأوروبيون بشكلٍ كاملٍ ولم يحكموها، من قَبيل اليابان. ويُهمل بدرجاتٍ متفاوتة، كلٌّ من الصين وتايلاند وأفغانستان وإيران. كما أنه لا يهتم بتايوان وكوريا اللتين كانت تخضعان للقائد الاستعماري الياباني وليس الأوروبي. لقد كانت الدول التي تمكنت من التملّص من السيطرة الأوروبية تتطلب

تحديثاً عسكرياً بدرجة كافية لكي تصبح إمكانية الغزو باهظة التكاليف في وجه أي مهاجم، وكان لابد أن تكون لهذا التحديث كلفةٌ أيضاً. اعتادت القيادة المنفِّذة للتحديث أن تضع الحكام السابقين جانباً. وفي ذلك تغيير ثوري أجبر النخبة المناصرة للتحديث على محاكاة الوطنيين المحدِّثين في المستعمرات السابقة، وبالتالي، دخلت هذه الدول التي لم تخضع يوماً للاستعمار في العملية نفسها. إلا أنّ دخولها هذا لم يحدث إلاّ في المرحلة الأخيرة من التحديث التالي للاستعمار.

تعالج الفصول الثلاثة التالية للتبدل الثقافي في مرحلة الإمبراطورية. والهدف هنا يتمثل في استخدام أمثلة فردية تبرز اختلاف الظروف التي عايشتها الشعوب غير الغربية وتفاعلت فيها مع السياسات التي سعت الحكومات الاستعمارية لفرضها عليها. أما الفصل الرابع فيطرح حالة المجتمعات المتعددة الأعراق حيث كانت الهيمنة الاستعمارية مصحوبةً بأقليةٍ لا يُستهانُ بها من المستوطنين الوافدين من أوروبا. ويعالج الفصل الخامس أمثلةً من التبدل الثقافي في أجزاء من الأميركتين سعت الشعوب الهندية -الأمريكية الكثيفة العدد نسبياً لمقاومة هذا التغيّر أو لتكييف أسلوب عيشها كي يتماشى مع نمط حياة الشريحة المسيطرة في المجتمع المكسيكي. أما الفصل السادس فيطرح حالات مقارنة من التبدّل الناتجة عن السياسات الإمبريالية المتعلقة بالإدارة والامتلاك الإقطاعي للأراضي في بعض الامبراطوريات الإقليمية في آسيا الجنوبية.



٤

التبدل الثقافي في المجتمعات المتعددة الأعراق في منطقتي جنوبي إفريقية وآسيا الوسطى

لا يأخذ النموذج المعروف للرحلة، والسفر، والحصن، والإمبراطورية بالاعتبار المجتمعات المتعددة الأعراق التي تنبثق من الهوة الفاصلة بين الإمبراطورية الإقليمية من جهة وبين الاستعمار الحقيقي من جهة أخرى. أول هذه المجتمعات ظهرت في أمريكا الهندية، وبالتحديد في الدول التي تمتد على طول العمود الفقري للأميركتين من المكسيك باتجاه الجنوب نحو بوليفيا وباراغواي وأجزاء من الأرجنتين وتشيلي. يتميز هذا المزيج الثقافي بتنوع شديد. ففي بعض الدول، تعيش مجتمعات هندية منفصلة في عزلة نسبية. أما في بلدان أخرى، من قبيل المكسيك، فقد تكاملت الثقافتان الهندية والإسبانية على مر العصور، بحيث طغى على ثقافة الأغلبية الطابع المكسيكي أكثر من غيره.

وانبجست مجموعةٌ أخرى من المجتمعات المتعددة الأعراق الأمريكية من المجمَّع الزراعي في منطقة الكاريبي وغرب أمريكا الجنوبية. انتشر الأفارقة في كل مكان، وامتزجت الثقافات بحيث تشكلت ثقافة جديدة كاريبية عقب انتهاء تجارة العبيد الأفارقة. أدت الهجرة الضخمة للعمال المستخدمين لأجل معين والقادمين من الهند إلى تشكيل مجتمع ثقافي منفصل من غرب الهند، في بعض الأماكن. وفي معظم الأحيان، كان المجتمع الأوروبي صغيراً جداً. لكنّ الأوروبيين كانوا يشكلّون الأغلبية في بعض الجزر، من قبيل كوبا وبورتوريكو.

ثمة مجموعةٌ مماثلةٌ من المجتمعات المتعددة الأعراق في جنوب شرق آسيا، وقد نتجت التعددية الثقافية عن حركة النزوح داخل العالم الاستوائي، وليس عن مجتمعٍ كبير العدد من المستوطنين الأوروبيين.

لقد تألفت مجموعة المهاجرين الأكبر عدداً من الصينيين. وبذلك فقد كوَّنوا المجتمع العرقي الأكبر عدداً عند وفادتهم إلى سنغافورة، ولاسيما في مطلع القرن التاسع عشر. كما شكلوا أقليةً كبيرةً في ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا. كما أصبح المهاجرون الهنود في الفترة ذاتها مجتمعاً ثقافياً مهماً في كل من سنغافورة وبورما السفلى وماليزيا.

وظهرت أشكال متنوعة من التعددية الثقافية الاتحاد السوفييتي في سنوات انقسامه. وقد عكست بعض المشاعر العرقية إحساساً بالوطنية المتباينة بين الشعوب التي كانت ثقافتها عبارةً عن فرع مشتق من الثقافة الأوروبية العامة. إنّ انقسام جمهوريات البلطيق، ومولدافيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء مثل الانقسامات التي تشقّ مختلف الدول في مواضع أخرى من أوروبا. وقد انتمت بذلك إلى دائرة التاريخ الأوروبي، وليس إلى دائرة الامبراطوريات الأوروبية.

وقعت مجموعة متنوعة من الشعوب غير الغربية في الجنوب والشرق، وما وراء الأراضي السلافية، تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية. نسخ العديد من تلك الشعوب الديموغرافيا الثقافية للإمبراطورية الإقليمية، ولكنّ بلداناً أخرى استقبلت عدداً كبيراً من المستوطنين السلافيين بحيث باتوا ينتمون إلى فئة المجتمعات المتعددة الأعراق، وتنقسم الأراضي السوفييتية غير الغربية إلى ثلاث مجموعات، تقوم أولاها على طول الحدود الجنوبية من التقدم الروسي نحو القوقاز بين البحر الأسود وبحر الأورال. وتشمل هذه المنطقة جمهوريات جورجيا وأرمينية وأذربيجان في الاتحاد السوفييتي السابق.

أما المجموعة الثانية فتظهر في آسيا الوسطى، وشرق بحر الأورال وغرب الصين. احتلت روسيا هذه الأراضي بشكل أساسي بين ١٨٦٠ و١٨٩٠، وقد تزامنت هذه الاحتلالات مع بدء عصر الإمبريالية في مواقع أخرى. وتمثل هذه المنطقة أهم مجموعة بين المجتمعات المتعددة الأعراق. في الاتحاد السوفييتي، وقد تحوّلت بعد

انقسام الاتحاد إلى جمهوريات تركمانستان وطاجكستان وقيرغيزيا وكازاخستان، الخمس المستقلة.

وتتكون المجموعة الثالثة من عدة مناطق غير سلافية، والتي عُرفت بوصفها جمهوريات ذات حكم ذاتي داخل الجمهورية الاشتراكية المتحدة الروسية / السوفييتية والتي ظلت على حالها في الاتحاد الروسي الحالي، يبلغ عدد هذه المناطق إحدى وعشرين منطقة متنوعة نسبياً، صغيرة ومتناثرة، وتشمل الشيشان التي تطالب بالاستقلال عن الجمهورية الروسية. في مطلع التسعينيات من القرن العشرين، كوّن العرق الروسي ما يزيد عن ٨٠ بالمئة من سكان الجمهورية الروسية ككل، إلا أنه يشكل غالباً أقلية داخل المناطق التي تتمتع بالحكم الذاتي، كما هو حاله في الشيشان. واتسمت جمهورياتٌ مستقلةٌ أخرى بتنوع شديد، وهي موجودة في روسيا الأوروبية كما في سيبريا. ولطالما تضمنت الكتلة الروسية، لقرونٍ عديدةٍ، مجموعةَ الست على طول نهر الفولغا إلاّ أنّ الروس يشكلون أقليةً في أربعٍ من الجمهوريات الست.

تشكّل مجتمع متعدد الأعراق في جنوب إفريقية

تأسست المجتمعات المتعددة الأعراق في إفريقيا في أقصى الجنوب وأقصى الشمال، إذ إن الهجرة الأوروبية أدت إلى تشكيل مجتمعات ثقافية أوروبية مهمة في الجزائر كما في جنوب إفريقيا وزيمبابوي. وتسبّب الانسحاب الكثيف للمستوطنين الفرنسيين من الجزائر عقب سنة ١٩٦٢ في خفض حجم المجتمع الفرنسي هناك خفضاً شديداً. تركزت المجتمعات المتعددة الأعراق المتبقية في تلك القارة في أقصى الجنوب.

شاعت عادة تقسيم العالم إلى نصفين، كما لو أنّ الأمر يقتصر على اثنين فقط. نصف متمركز في الأمريكتين - فيما يشتمل الثاني على معظم أوروبا وآسيا وإفريقية. يوجد بالطبع عدد غير متناهٍ من أنصاف الكرة المحتملة، استناداً إلى

نقطة في الفضاء يُنظر منها إلى العالم. عُزلت إفريقيا الجنوبية في الطرف الجنوبي على امتداد طويل لمساحات واسعة من الأراضي الأوروبية- الآسيوية- الإفريقية. وفي حال أدرنا العالم لوضع جنوب إفريقية في مركز مجال بصر المرء، لرأينا نصف كرةٍ أرضيةٍ مكوّنة في معظمها من الماء. وفي الواقع، تقع جنوب إفريقية عند إحدى نهايات الأرض من أي جهةٍ نظرت إليها.

بحلول القرن السابع عشر، عندما استوطن الأوروبيون للمرة الأولى على الساحل، انقسمت جنوب إفريقية لغوياً إلى شعبٍ ناطقٍ باللغة الخويسانية KHOISAN في الجنوب الغربي، والناطقين بلغة البانتو في الجنوب الشرقي وهم من تنتمي لغتهم إلى إفريقية الاستوائية. مارس الناطقون بلغة البانتو، بشكل رئيس، الزراعة بالإضافة إلى جزء مهم عمل في تربية المواشي، وقد كانوا مغايرين لشعب الخويسان الذين كانوا ينطقون باللغات الصوتية. انقسم شعب الخويسان بين الناس الذين كانوا يمارسون الصيد والغزو، وبين الخويخول البدو الذين كانوا يعيشون أساساً على تربية الماشية. عكست هذه الاختلافات الثقافية فروع البيئات الرئيسة الثلاث وهي الزراعة المختلطة، والزراعة وتربية الماشية، والصيد. غير أن قروناً من التفاعلات حول أطراف المجموعات الثلاث الأخرى أنتجت درجةً كبيرةً من التزاوج المتداخل والمزيج الثقافي. تعدّ الانقسامات العرقية المعروفة حالياً ضمن هذه المجموعات الأساسية حديثة العهد بما أنها لا تعود إلى ما يزيد على بضعة قرون.

في منتصف القرن السابع عشر، بدأ الأوروبيون يفدون إلى مقاطعة الكتاب الغربية في جنوب إفريقية، وهما مجتمعان ناطقان باللغة الإفريقانية انحدر أحدهما أساساً من العرق الأوروبي، فيما تكوّن الآخر من شعب الكاب، وهو مزيج عرقي وثقافي جمع بين شعب الخويسان الأصلي، والمهاجرين من أوروبا، وشرق إفريقية، وأجزاء مختلفة من آسيا. وفي القرن الثامن عشر وما بعده، وصلت مجموعتان أخريان من المهاجرين، ونما الأوروبيون الناطقون باللغة الانكليزية، والأفارقة الناطقون بلغة البانتو القادمون أساساً من مقاطعة الكاب الشرقية.

في مقاطعات أخرى من جنوب إفريقيا، ولّدت تحركات شعبية أخرى أشكالاً متنوعة من الأنماط الأخرى التي تعايشت فيها مجتمعات ثقافية متنوعة جنباً إلى جنب. استقر الأوروبيون من الناطقين باللغة الانكليزية والإفريقيانية، على السواء، في جيوب موزعة في مختلف أنحاء البلاد. ذهب الإنكليز أولاً إلى الكاب الشرقي، ومن ثم إلى ناتال، وفيما بعد إلى المدن التي تركز فيها النمو الاقتصادي. ولم يكن جميع المهاجرين الذين انضموا إلى جنوب إفريقية الناطقة بالإنكليزية، من بريطانيا حصراً. فقد وفد العديد منهم من القارة الأوروبية، ولكنهم اندمجوا لغوياً وثقافياً، فور وصولهم إلى جنوب إفريقيا، مع الناطقين باللغة الانكليزية الموجودين في البلاد عوضاً عن الاندماج مع الأفارقة.

الناطقون باللغة الإفريقانية البيض انتقلوا أيضاً من موطنهم الأصلي في الكاب. في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، نقلتهم حركة الهجرة التي أطلقت عليها تسمية «الهجرة الجماعية إلى الأراضي المفتوحة» حيث أقاموا جمهورية الأورانج الحرة Orange free state والترانسفال، ونشروا سيطرتهم الاقتصادية والسياسية على الأغلبية الإفريقية. وتشكلت مجموعة المهاجرين الرئيسة الأخيرة من الهنود الذين وصلوا، بشكل رئيس، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى ساحل الناتال على المحيط الهندي على أنهم عمال يعملون لأجل معيّن indentured في حقول قصب السكر. وبحلول التسعينيات من القرن العشرين، نمت ذراريهم وشكّلت مجتمعاً بلغ عدده أقل من مليون نسمة، أي ما نسبته ٣ بالمئة من السكان.

نتيجةً لهذه الهجرات المختلفة، تناثرت مجتمعات المهاجرين المتنوعة هنا وهناك في جيوب موزعة في مختلف أنحاء المناطق الريفية والمدن. وبدروها، نزعت الشعوب الإفريقية للتمركز العرقي. عندما تحرك الأوربيون نحو الداخل، استولوا على أفضل الأراضي، علماً بأن الأفارقة ظلوا يقومون بمعظم أعمال الفلاحة. واستقر الأوروبيون في المدن التي تمركزت فيها المناجم والصناعة. وفي مطلع القرن العشرين، حدّدت حكومة جنوب إفريقية بعض المناطق بوصفها محميات تعود

ملكيتها الحصرية إلى الأفارقة الذين مُنعوا من امتلاك أراضٍ في مناطق أخرى. ومع الوقت، أصبحت هذه المحميات تعرف بأنها المواطن العرقية لكل من المجموعات اللغوية الخاصة كالزولو والخوصا، وتسوانا إلى آخره. خُصِّص القسم الأكبر من الأراضي للبيض، ولكنّ هؤلاء كانوا لا يزالون بحاجة للعمال الأفارقة، ولذلك فإن غالبية سكان جنوب إفريقية «البيضاء» ظلوا في الواقع، من الأفارقة.

إقامة مجتمع متعدد الأعراق في آسيا الوسطى:

لا يمكن اعتبار آسيا الوسطى إحدى نهايات كوكب الأرض، إذ إنها في منتصف أوسع رقعة من الأراضي التي تقع تاريخياً على تقاطع طرق التبادل بين الهند والصين وأوروبا والشرق الأوسط. وفي حال قُلِبَ الكوكب بحيث أصبح مركزه في آسيا الوسطى، عند نقطة مثل مدينة سمرقند، فإنّ نصف الكرة الأرضية التي يمكن رؤيتها عندئذٍ ستكون المناطق المأهولة الأكبر هي المسكونة، وحتى نهاية الألفية السابقة، كان المهاجرون ينتقلون براً بشكل أساسي، وليس بحراً، وقد عبر عدد كبير منهم آسيا الوسطى. ونتجت عن ذلك سلسلة من شعوب آسيا الوسطى التي فاقت شعوب جنوب إفريقية تنوعاً واختلاطاً ثقافياً.

على غرار ما حدث في جنوب إفريقية، فصل الانقسام الأكثر ثباتاً، على مر الزمن، بين البدو الرحل والمزارعين المقيمين. عاش البدو الرحّل بشكل رئيس في المناطق القاحلة في الشمال والغرب، فيما سكن المزارعون المقيمون في الجبال الواقعة في الشرق والجنوب أو على طول الأنهار المتدفقة نحو بحر الأورال. لم تكن الأراضي توفِّر غير الخيارات البيئية، ولم تكن السهول القاحلة تناسب إلا البدو الرحّل العاملين في تربية الماشية. وعندما احتل البدو أودية الأنهار، كما كان يحصل بين الفينة والفينة، لم يجدوا أمامهم سوى خيار الأخذ من جيرانهم المستقرين تقنيات الزراعة وجزءاً من ثقافتهم.

لا يمكن تقسيم شعب آسيا الوسطى، من الناحية الثقافية والتاريخية، إلى الجمهوريات السوفيتية الخمس المعترف بها حالياً على أنها دول مستقلة، كما لا

يمكن تقسيم شعب جنوب إفريقية من الناحية الثقافية، إلى «القبائل» التي اعترفت بها حكومة التمييز العنصري في جنوب إفريقية. مال سكان آسيا الوسطى للتشبه، من حيث المظهر، بمزيجٍ جمع بين الشكل الشبيه بالمغول المسيطر في الشرق والشمال وبين النمط الشبيه بالقوقازي أو الإيراني المسيطر في الجنوب والغرب. علماً بأن الانقسامات اللغوية لا تتبع على الدوام الشكل الخارجي. تنقسم لغات آسيا الوسطى إلى كل من اللغة المغولية والتركية، وعائلات اللغة الإيرانية، المشوبة مجدداً بنزعة اللغات الإيرانية للسيطرة على المناطق الجنوبية الغربية الممتدة نحو الحدود مع إيران. فيما تسيطر اللغات الأخرى على المناطق الممتدة في الشمال والشرق. لم تكن أي من هذه المناطق تنطق بلغة واحدة معينة قبل الغزو الروسي أو بعده واكتفت فترة الحكم الروسي بإضافة عنصر سلافي مغاير إلى هذه المناطق المختلطة ثقافياً.

منذ مطلع القرن السابع عشر، شرع المستوطنون الأوروبيون ينسلّون لداخل آسيا شرق الأورال وشمال كازاخستان، إلا أنّ حركة النزوح باتجاه آسيا الوسطى لم تبدأ فعلاً سوى بعد الخمسينيات من القرن التاسع عشر. وعلى غرار ما حدث في جنوب إفريقية، اتخذت مراحل الاستيطان أشكالاً متباينة وولدت نتائج متنوعة. حدثت الموجة الأولى خلال العقود الأربعة الأخيرة تقريباً التي أعقبت الحرب العالمية الأولى عندما انتقل المزارعون الروس والأوكرانيون إلى المناطق التي ستعرف فيما بعد بكازاخستان الشمالية حيث كان من الممكن ممارسة الزراعة المعتمدة على الحرث. وابتداءً من سنة ١٩١١، شكل السلافيون نسبة ٤٠ بالمئة. وفي سنة ١٩٨٩، بلغ عدد الروس بين سكان كازاخستان نسبة ٤١ بالمئة فيما شكل الأوكرانيون نسبة ٦ بالمئة. أما الكازاستانيون أنفسهم فقد تدنى عددهم إلى ٣٨ بالمئة في البلاد التي حملت اسمهم (الجداول ١-٤).

إن نسبة المستوطنين، بالمقارنة مع عدد سكان كازاخستان الإجمالي، أقل ثباتاً مما بدت عليه بين سنتي ١٩١١و١٩٨٩. لقد اتسمت فترة حكم ستالين باضطرابات شديدة وارتفاع في نسبة الوفيات. وبين سنتي ١٩٢٦و١٩٣٩، أي في فترة التنظيم

المفروض وفقاً للمبادئ الجماعية، خسرت كازاخستان ظاهرياً مليون نسمة، بل ربما ربع عدد سكانها الإجمالي. فقد توفي بعضهم إثر خسارة ماشيتهم. فيما فرّ غيرهم بكل بساطة. فالبدو سريعو الحركة وكل من يرغب بالهروب من استيطان قسري يستطيع الانتقال إلى كسينيانغ Xinjiang غربي الصين التي كانت تمثل بلادهم ثقافياً وفيها يظلون في موقف يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم عند تحسن الأوضاع في كازاخستان. في هذه الأثناء، واصل المزارعون الروس والأوكرانيون تقدمهم نحو داخل البلاد.

التوازنات العرقية في آسيا الوسطى السوفييتية والدول التي خلفتها الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية			
	عدد السكان بالملايين	المجموعات العرقية	النسبة المئوية للروس في سنة ١٩٩١
تركمانستان	٣.٥	تركمانيون ٦٨٪ روس ١٣٪ أوزبكستانيون ٩٪	٩٪
أوزبكستان	١٩.٦	أوزبكستانيون ٦٩٪ روس ١١٪ تتر ٤٪ كازاخستانيون ٤٪	٩٪
طاجكستان	٥	طاجيك ٥٩٪ أوزبكستانيون ٢٣٪ روس ١٠٪	٧٪
قيرغيزيا	٤.٢	قيرغيزيون ٤٨٪ روس ٢٨٪ أوزبكستانيون ١٢٪	٢١٪
كازاخستان	١٦.٥	كازاخستانيون ٣٨٪ روس ٤١٪ أوكرانيون ٦٪	٣٧٪
المصدر: الكتاب السنوي للاتحاد السوفييتي ١٩٨٩، بيانات ١٩٩١			

شكلت حركات الهجرة الروسية والأوكرانية الأخرى التي تقدّمت أكثر نحو الجنوب وصولاً إلى منطقة الواحات، على طول نهري سير داريا وأمو داريا (سيمون وجيجون) عملية مغايرة وقعت بتوقيت مختلف. فقد وصل بعض السلافيين قبل الحرب العالمية الأولى وعملوا إداريين وجنوداً وتقنيين وتجاراً، إلاّ أنّ عدد الروس، بالنسبة لعدد سكان ما كان يعرف بآسيا الوسطى السوفيتية، لم يتعدّ ٦ بالمئة في سنة ١٩١١. وقد كانت هذه النسبة مركَّزةً في الشمال داخل حزام يتوسّط بحيرة بلقاش والحدود الصينية، فظلّ الجنوب إمبراطورية إقليمية. لهذا السبب، كان كل من تجارب وخيوه خاضعتين، بشكل غير مباشر فقط، لحكم القيصر في تلك الفترة.

جرى التحرك السكاني الكثيف للروس وغيرهم من الأوروبيين نحو المناطق الجنوبية من جمهوريات آسيا الوسطى أساساً عقب الحرب العالمية الثانية. وفي نهاية الحقبة السوفييتية، بلغ العدد الإجمالي للروس في المقاطعات الثلاث الأكثر غوراً نحو الجنوب حوالي ١٢ بالمئة من العدد الإجمالي، أو حوالي النسبة المماثلة لعدد الفرنسيين في الجزائر عند نهاية الحكم الفرنسي. ولم يكن أغلبهم من العمال أو المزارعين على شاكلة المستوطنين في كازاخستان، بل كانوا تقنيين وبيروقراطيين متعلمين نسبياً ويتقاضون أجوراً مرتفعة نسبياً.

الديموغرافيا المقارنة: جنوب إفريقية وآسيا الوسطى:

على الرغم من التنوع الداخلي الضخم في الديموغرافيا الثقافية في كل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، إلا أن الأنماط الاجتماعية المميزّة لهاتين المنطقتين متشابهة إلى حد كبير. في سنة ١٩٨٨، بلغ عدد سكان آسيا الوسطى السوفييتية ٤٩ مليون نسمة، أو عندما كان الأوروبيون يشكلون نسبة ٢٥ بالمئة. وفي سنة ١٩٨٧، بلغ عدد سكان جنوبي إفريقية الإجمالي ٣٥ مليون نسمة، اعتبر ١٤ بالمئة منهم من البيض. وتعدّ النسبة الأكثر روزا في جنوب إفريقية، لأغراض معينة، هي نسبة عدد السكان ذوي الثقافة العربية سواءً كانوا من البيض أم من الزنوج، والذين وصلت نسبتهم، في سنة ١٩٨٧، إلى ٢٣ بالمئة من العدد الإجمالي.

خلال العقود الأخيرة، تماثلت معدلات النمو السكاني التفاضلي للأوربيين وغير الأوربيين في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، إلا أنّ عدد غير الأوروبيين نما بشكل أسرع من عدد غير الأوربيين. وبما أنّ الفئتين شكلتا جزءاً من بيئة أمراض المنطقة الأوروبية- الآسيوية- الإفريقية الكبرى، لم يسبب وفود المستعمرين الأوروبيين القضاء على السكان الأصليين كما حدث في الأمريكيتين. إلا أنّ مرحلتين ديموغرافيتين متباينتين حدثتا في آسيا الوسطى وجنوب إفريقية على حد سواء. وصولاً حتى حوالي ١٩٥٠، تزايد المستوطنون عدداً ونسبةً بالمقارنة مع عدد السكان الإجمالي. تأتي هذه النتيجة جزئياً عن الهجرة، كما أنّ مجتمع المستوطنين كان يتبع نظاماً غذائياً ورعايةً طبيةً أفضل. في آسيا الوسطى وخلال فترة حكم ستالين، عانت الشعوب غير السلافية أكثر من السلافيين من الصراعات التي دارت حول التنظيم وفقاً للمبادئ الجماعية. ونتيجةً لذلك، ارتفع عدد السكان الأوروبيين في كل أنحاء آسيا الوسطى من ٦ بالمئة في الإجمال في سنة ١٩١١ إلى ٣٠ بالمئة من العدد الإجمالي سنة ١٩٩٥، إلا أنه بُعَيْد سنة ١٩٥٠، بُطئت عجلة معدل نمو السلافيين، وبدأ الطور الديموغرافي الأحدث. وزادت الهجرة المتواصلة مدة من الزمن، النمو الطبيعي المتدني كما أنها أوصلت عدد السكان الأوروبيين إلى ذروتها حوالي ٣٣ بالمئة في حوالي ١٩٧٠، ثم تدنت بعد ذلك التاريخ إلى أن بلغت في سنة ١٩٨٩ نسبة ٢٥ بالمئة. عادل معدل نمو السكان في الجمهورية الروسية ٦.٨ في الألف، فيما تراوحت معدلات النمو في جمهوريات آسيا الوسطى الخمس بين ١٨.١ في الألف في كازاخستان وصولاً إلى ٣٥.٢ في الألف في طاجكستان. انبثق، نتيجة لذلك، نمط شديد التباين للمجتمع المتعدد الأعراق المصوّر في الجدول ٤.١ في سنة ١٩٨٩، مثلت المجموعة العرقية المحلية المهيمنة التي أضفت كل منها اسمها على كل جمهورية، الأغلبية في كل جمهورية باستثناء كازاخستان، ولكنها لم تتعد ٧٠ بالمئة من العدد الإجمالي في أي مكان. شكلت الأقلية الروسية ١٠ بالمئة على الأقل في كل الجمهوريات كما أنها مثلت ثاني أكبر المجموعات العرقية عدداً في كل الجمهوريات

باستثناء طاجكستان حدثت تقلبات مماثلة في نسبة عدد المستوطنين في جنوب إفريقية، كما يبينها الجدول ٢.٤ في سنة ١٨٧٠، بلغ عدد البيض نسبة ١٧ بالمئة من العدد الإجمالي، وقد شكّل البيض الملوَّنون سوياً نسبة ٢٧ بالمئة. بحلول سنة ١٩٨٧، أشار عدد الأفارقة المتزايد إلى أن عدد البيض وحدهم انخفض إلى ١٤ بالمئة من العدد الإجمالي فيما انخفض عدد البيض الملوّنين سوياً إلى ٢٣ بالمئة.

في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى على حد سواء، لم يتصف توزيع المستوطنين بالتساوي. اكتنفت بعض المناطق، من قبيل كازاخستان الشمالية أو مقاطعة الكاب الغربية، ظروف المستعمرة الاستيطانية الحقيقية. أما في المحميات الأصلية التي أعيدت تسميتها مستوطنات في جنوب إفريقية، فقد تدنى عدد السكان الأوروبيين إلى أقل من ١ بالمئة من العدد الإجمالي، كما حصل في الأجزاء الريفية الجنوبية من آسيا الوسطى.

الجدول ٢: عدد سكان جنوب افريقيا حسب العرق ❖

الفئة	العدد	بالمئة
الأفارقة	٢٥.٩٨١.٦٣٥	٧٤.٥
البيض	٤.٩١١.٠٠٠	١٤.١
الزنوج	٣.٠٦٩.٠٠٠	٨.٨
الهنود	٩١٣.٠٠٠	٢.٦
المجموع	٣٤.٨٧٤.٦٣٥	١٠٠

(❖) تقديرات بتاريخ يونيو ١٩٨٧

المصدر: ليغوم كولين، السجل الإفريقي المعاصر، ١٩٨٧-١٩٨٨

المتغيرات في التعليم والثقافة:

اتبعت التغييرات التي أُدخلت على الثقافة، في كل من آسيا الوسطى وجنوب إفريقيا، وتيرةً مختلفةً ووسائل مغايرة. فقد بلغت سرعةً قصوى بين كل من الآسيويين والأفارقة الذين انتقلوا إلى المدن بحثاً عن فرص العمل. وصل التواصل الثقافي المتبادل إلى أكثر درجات النمو الاقتصادي بروزاً في هذه المناطق، إلا أنّ الاحتكاك الثقافي المتبادل اتسم أيضاً بالنمو القوي في هذه المناطق أيضاً. وعلى غرار ما حدث في شتى أنحاء العالم في القرن العشرين، أُججت مشاعر الهوية العرقية تأجيجاً في المجتمعات التي اتصفت باختلافٍ عرقي بارز. أدرك الحكام الأوروبيون في آسيا الوسطى مشكلات النزاعات العرقية. وسعت حكومات جنوب إفريقية لتحديد المشكلة على أنها مشكلة عرقية. أما السوفييت، فقد اعتبروها «مشكلة أعراق» لكن فيما يختص بمسائل أخرى، فقد فهمت الحكومات أن كلاً من السياسة التعليمية والسياسة الدينية شكلتا مجالين ترتبط القرارات التي تتخذها الحكومات بشأنهما بالتغير الثقافي ارتباطاً شديداً، ظاهرياً. عقب الثورة الروسية، بات كل مواطن سوفييتي مساو - من الناحية النظرية - لغيره من المواطنين. وكان في نية السوفييت تعليم الجميع بمستوى عام يديره الحزب الشيوعي. جند هذا المجهود مؤسسات من قبيل الطلائع الشابة Young pioneers المشابهة لكشافة الصبيان في أوروبا الغربية. بالإضافة إلى إدارة كل وسائل الاتصال، انطلاقاً من الصحافة وصولاً إلى الأدب والفنون، والخبرة المشتركة الناجمة عن التجنييد الإجباري لكل الشباب، والضغوطات غير الرسمية في مواقع العمل، وبالطبع النظام التعليمي الرسمي على كل المستويات. ولطالما اعتبر التفوق الروسي على الثقافات السوفييتية الأخرى أمراً مسلّماً به، في أغلب الأحيان، وإن لم يجد دمجه بوعي في السياسات التعليمية.

في مطلع القرن التاسع عشر، في أوروبا الغربية وروسيا السابقة للثورة على حد سواء، شدّدت النظرية الخاصة بالتعليم المناسب للإمبراطورية في بلاد ما وراء البحار على قيمة نشر المدينة بحيث تشمل السكان الأصليين، ولكن غالباً ما أُلقيت

هذه المهمة على عاتق الجهود الفردية التي كانت تبذلها المجموعات التبشيرية. لقد كان قراراً منطقياً اتخذ في فترة كان التعليم الرسمي، في أوروبا ذاتها، يطبَّق تدريجياً، وقد كان التعليم الرسمي الجماعي مكلفاً، بالاستناد إلى المطالب الأخرى التي أرهقت الميزانيات الاستعمارية. لم يفكر سوى عدد قليل بإمكانية إنفاق أموال ضرائب رعايا الدولة الأم على التعليم في المستعمرات. لقد كانت فكرة نشر المدنية، في أغلب الأحيان، تبريراً للإمبراطورية أكثر منها سياسة جدية. ولو أن نية نشر الثقافة الأوروبية اتخذ منحى جدياً، لكان ينبغي الانطلاق من التعليم الابتدائي المجّاني والإلزامي، وتتبعه درجةٌ معقولةٌ من الانتساب المجاني إلى المدارس الثانوية والجامعات للأطفال المتفوقين. في الواقع، لم تقدم أيٌّ من الامبراطوريات الإقليمية الرئيسة اقتراحاً مماثلاً، حتى ولو لم تلمح إليه من بعيد. وحدها الولايات المتحدة بين الامبراطوريات الغربية التي تحركت في هذا الاتجاه في هاواي وبورتوريكو، بالإضافة إلى جهد أكثر تواضعاً في الفيليبين.

تُعدّ جنوب إفريقيا مثالاً على هذا الإهمال الواسع النطاق. في مطلع القرن التاسع عشر، وقرت الحكومات درجةً ضعيفة، من التعليم العام للأطفال بمختلف أعراقهم. وحتى الخمسينيات من القرن العشرين، لم يكن الأفارقة يحظون إلاّ بالتعليم الذي تقدمه الإرساليات المسيحية، كما أنه لم يكن إجبارياً ولا مجانياً؛ لأنّ الإرساليات كانت تتقاضى، في أغلب الأحيان، أقساطاً مدرسية، اهتمت الحكومة، في تلك الفترة فقط، بالتعليم العام للأفارقة وفقاً لقوانين البانتو للتعليم. وقد كانت تهدف من جراء ذلك لتقديم مستوى متدنٍ من التعليم للأفارقة ومستوى أفضل منه قليلاً للملوَّنين والآسيويين.

من الناحية النظرية، كان هذا التباين منطقياً. ففي كل الأحوال، من المستحيل أن يتبوأ الأفارقة المراكز التي تتطلب مهارات عالية. وقد يكون من غير المنتج تعليمهم بحيث يحتلون مراكز مخصصة للآخرين. لكن مع دنو أواخر الستينيات من القرن العشرين، طرأت بعض التغييرات على هذه السياسة عندما اكتشفت حكومة التمييز

العنصري بأنّ الدولة الصناعية تستلزم قوة عاملة تتمتع بمستوى أفضل من التعليم، ومع ذلك ظلت الاختلافات الحادة في نوعية التعليم قائمة. في سنة ١٩٦٣، أنفقت الحكومة، في مجال تعليم البيض، مبالغ فاقت اثنتي عشرة مرة ما أنفقته على تعليم الأفارقة. وبرز الاختلاف في معدلات التعلم لسنة ١٩٨٤ فقد بلغت ٩٣ بالمئة عند البيض، و٧١ بالمئة عند الآسيويين، ٦٢ بالمئة عند الملونين و٣٢ بالمئة فقط عند الأفارقة، في تلك الفترة بالذات، تساوى معدل التعلم عند سكان آسيا الوسطى وعند البيض في جنوب إفريقية، أدخل الاتحاد السوفييتي التعليم الرسمي في آسيا الوسطى في حقبة سابقة وقد شمل نطاقاً أوسع مما قدمته معظم القوى الإمبريالية الأخرى، علماً بأن الفرص التعليمية ظلت دون مستوياتها في الجمهورية الروسية أو أوروبا الغربية. ومع ذلك، ففي سنة ١٩٣٠، حدّد الاتحاد السوفييتي هدف إقامة نظام تعليمي مجاني وإجباري للمرحلة الابتدائية في آسيا الوسطى، علماً بأن التعليم في المدارس لم يكن إجبارياً إلاّ لأربع سنوات فقط، وقد تطلب وضع هذا الهدف موضع التنفيذ وقتاً طويلاً. ولكن بحلول الأربعينيات من القرن العشرين، ارتاد المدارس حوالي ٩٠ بالمئة من الأطفال في سن الدراسة. وفتحت المجالات لارتقاء السلم التعليمي فيها أكثر من أي دولة أخرى في معظم مستعمرات إفريقية الاستوائية أو جنوب إفريقية.

الدين:

الدين ميدان رئيس آخر صاغت له الحكومات السوفييتية وحكومات جنوب إفريقية أهدافاً متباينة. كانت ديانة تبشيرية في روسيا قبل قيام الثورة، كما في أوروبا الغربية، وفي جنوب إفريقيا الخاضعة للمستوطنين. إلا أنّ المسيحيين الأرثوذكس اغتنموا بالكاد فرصة هداية سكان آسيا الوسطى للدين المسيحي. وقد واجه المبشرون المسيحيون أيضاً صعوبةً، في أغلب الأحيان، في إقناع المسلمين باعتناق الدين المسيحي في شتى أنحاء العالم.

بذل المبشرون المسيحيون جهداً على قدْرٍ أكبر من الجدية في جنوب إفريقية، واستقبلوا بمزيدٍ من الترحيب، مع أنّ العديد من الأفارقة امتعض، مع مرور الزمن، من الحصرية العرقية للكنائس التبشيرية ومن بعض أوجه الدين المسيحي غير المتماشية مع التقاليد الاجتماعية المنشقة عوضاً عن كنائس الإرساليات الرسمية التي يديرها البيض. ومع ذلك تظل جنوب إفريقية موقعاً أحرز فيه النصارى أهم الانتصارات في إفريقية. وفي هذا الصدد، ظهر قولٌ مأثورٌ مفاده «كنا نملك في بادئ الأمر الأرض وأنتم الكتاب المقدس. أما اليوم فأنتم تملكون الأرض ونحن الكتاب المقدس». لكن حتى هذا القول المأثور لا يتصف بالدقة. فقد كان الأوروبيون في جنوب إفريقية يملكون، عند نهاية التمييز العنصري، ما يزيد المسيحيون على ٨٠ بالمئة من الأرض، ولكن حوالي نصف السكان الأرفارقة كانوا مصنفين رسمياً من فئة الوثنيين.

وعلى سبيل المقارنة، لم يكن المسيحيون الروس قد وصلوا إلى هذا المستوى من النجاح قبل قيام الثورة.

وقد كان السوفييت يميلون إلى تثبيط همة المبشرين بأي ديانة من الديانات، كما أن محاولات القضاء على الإسلام باءت بالفشل ذاته الذي لاقته الإرساليات التبشيرية في محاولات مماثلة. فضّل بعض سكان آسيا الوسطى المتعلمين، على غرار بعض الروس الذين يتمتعون بخلفية مماثلة، الانتقال إلى وضع علماني يشوبه الغموض، إلا أنّ الدين الإسلامي ظل محتفظاً بمعظم معتنقي هذا الدين في مناطق الأكثرية بل وتمكن هذا الدين أيضاً أن يجذب إليه بعض الوثنيين.

النمو الاقتصادي:

شكل النمو الاقتصادي مجالات توازت فيه إلى حد ما نوايا حكومات آسيا الوسطى وجنوب إفريقية وإنجازاتها، حازت الإنتاجية العالية على أفضلية حكومة كل من آسيا الوسطى وجنوب إفريقية، مع أن هاتين الدولتين اختلفتا، في هذا

المجال، حول طريقة توزيع الانتاج. أرادت الدولة السوفييتية، من الناحية النظرية، استخدام زيادة الموارد لأغراض حكومية تشتمل على معدلات مرتفعة من الاستهلاك الجماعي على المدى الطويل فقط. سمحت سياسة دولة جنوب إفريقية، لا بل شجعت أحياناً، تقسيم الدخل حسب العرق بحيث يُعطى القسم الأكبر للبيض، وجزءاً أصغر للهنود، وأقل بعداً للملوّنين، فيما يحصل الأفارقة على أقل قدر على الإطلاق.

واختلفت أيضاً الوسيلةُ المستخدمة لبلوغ هذه الأهداف بين الدولتين. فقد كان النظام السوفييتي في آسيا الوسطى، كما في أرجاء الاتحاد السوفييتي كافة، قائماً أساساً، على الاقتصاد الموجَّه. أما النظام المستخدم في جنوب إفريقية فقد كان رأسمالياً، ولكنه خاضعٌ لتدخُّلاتٍ حكوميةٍ شديدة هدفُها تطبيقُ الأهداف الاجتماعية للتمييز العنصري، كما كان يتضمن امتلاك الحكومة لمؤسسات اقتصادية، لاسيما الصناعات الثقيلة.

أحرز اقتصاد كل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى نجاحاً معتدلاً على مر العقود، وقد كان دون مستوى النجاح الذي أحرزته الدول الأكثر تقدماً، كما قد فاق ما أنجزته الدولُ الأقلُّ تقدماً. بعد الحرب العالمية الثانية بربع قرنٍ تقريباً، تفوقت آسيا الوسطى في نموها الاقتصادي على العالم الإسلامي بأسره، فيما تقدمت جنوب إفريقيا القارة الإفريقية كلها. وفي حوالي سنة ١٩٦٠، تساوت تقريباً المداخيل الفردية في آسيا الوسطى وجنوب إفريقيا. بلغت هذه المداخيل خمسة أو ستة أضعاف مداخيل الدول الفقيرة، من قبيل الهند أو الباكستان، إلا أنها لم تشكل سوى خمسُ أو سدسُ المداخيل الفردية التي تجنيها الدول الغنية مثل كندا والولايات المتحدة.

ثم وقعت الاضطرابات في مجال النفط، فتأسست منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك)، وكسبت دول الخليج العربي أرباحاً طائلةً، وظهرت اقتصادياتٌ صناعيةٌ جديدةٌ على شواطئ المحيط الهادئ.

وواصل اقتصاد جنوب إفريقية نموه بنجاح أكبر من اقتصاد معظم الدول الإفريقية في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، إلا أنه لم يصل إلى مستوى النمو الصناعي في تايوان أو كوريا لجنوبية. أما آسيا الوسطى فقد جاء بعدها بمسافاتٍ واسعةٍ، بسبب المشكلات الاقتصادية التي عانى منها الاتحاد السوفييتي ككل.

واتسم توزيع الدخل داخل حدود الاتحاد السوفييتي، مع ذلك بدرجة من المساواة فاقت ما كانت عليه داخل جنوب إفريقية. تعاون كلٌّ من الآسيويين والأوروبيين في الأجور التي كانوا يتقاضونها في آسيا الوسطى. وتشير التقديرات التي أجريت حوالي ١٩٧٠ إلى أن مستوى المعيشة كان أدنى مما هو عليه في الجمهورية الروسية بنسبة ٢٠ إلى ٢٥ بالمئة لمجرد أنّ عدداً أكبر من الناس في آسيا الوسطى يشغلون وظائف منخفضة الأجور. ومن جهة أخرى، كانت الوظائف التي تتطلب مهارات أو المرتفعة الأجور مخصصة، في جنوب إفريقية، للبيض وفقاً للقانون. بدأت بعض التغييرات تُدخل إلى هذه السياسة في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، إذ بات من المسموح للأفارقة الانتساب للنقابات، وظهرت جهودٌ هادفةٌ للمساواة في الأجور. وعلى الرغم من إحراز بعض النجاح، ظلت الصورة الإجمالية سيئةً للغاية بحلول سنة ١٩٨٧. لم يبلغ الدخل الفردي للسود حتى عُشر الدخل الفردي الذي كان يحصل عليه البيض. وبالتالي، فيما كانت جنوب إفريقية أكثر الدول تقدماً في المناطق الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى، لم تزد مداخيل الأفارقة العاديين، على الدوام، عما كانت عليه في أجزاء أوفر حظاً في إفريقية الاستوائية.

القومية

كان الشعور القومي، بمعناه المعارض للحكم الأوروبي، منتشراً في العالم الاستعماري ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر. أما القومية بمعنى الولاء الدامج لأناسٍ باللغة والتقاليد، فيمكن توقع تولدها حيثما وُجدت ثقافاتٌ مختلفةٌ في

المجتمع الواحد. كانت المجتمعات المتعددة الأعراق، من قبيل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، عُرضةً للقومية بمعنييها. وما كان حكام الناحيتين ليتناسوا هذه المخاطر. قبل الخمسينيات من القرن العشرين، بات من المعروف بأنّ الاتحاد السوفييتي نجح في استيعاب أغلبيات آسيا الوسطى العرقية في حين أن جنوب إفريقية البيضاء أخفقت في مسعاها هذا. اعتبر الرأي العام العالمي جنوب إفريقية الدولة المنبوذة التي تعرّضت، في آخر المطاف، لعقوبات عند محاولاتها، بوصفها حكومة أقلية، فرض سيطرة عرقية. وفي بعض الأحيان، كان الاتحاد السوفييتي يحظى ببعض الاستحسان لكونه الموقع الذي يُرحب فيه بالذين كانوا خاضعين للاحتلالات تحت راية المواطنية المشتركة مثل هاواي، ومناطق الهند وجنوب شرق آسيا الخاضعة للحكم الفرنسي، بالإضافة إلى أجزاء أُدمجت من الامبراطوريات الاستعمارية السابقة. لم يطرأ أي تغيير على الانطباع الخاص بجنوب إفريقية، إلا أنّ ما يتعلق بالاتحاد السوفييتي طُرح مجدداً على بساط النقاش على ضوء العنف العرقي الذي شهدته جمهورياته السابقة ابتداءً من جورجيا وأذربيجان وصولاً إلى داخل آسيا الوسطى، ناهيك عن مشكلات الشيشان في روسيا ذاتها.

اشتركت السياسات التي اتبعتها جنوب إفريقية والاتحاد السوفييتي في مسألة الأعراق في بعض نقاطها، وكانت كل دولةٍ منها على علم بما تقوم به الأخرى أو لا تقوم به. إلا أن السوفييت نزعوا إلى إحاطة مشكلة جنسياتهم في إطار سياسي وثقافي خاص بهم. بُعيد الثورة، شعروا بالتهديد الذي كان يسلطه عليهم ازدهار الدين الإسلامي خارج الحدود السوفييتية، وما قد ينتج عنه من قومية مضادة للاستعمار ومطالبة بالاستقلال. ومن أجل محاربة مطالب الإسلام الشاملة، حاول السوفييت تشجيع المطالبات بالقومية اللغوية على أنها شكل من أشكال سياسة فرِّق تَسُد. في سنة ١٩٢٤، قسّموا تركستان السابقة إلى الوحدات الخمس التي تشكل آسيا الوسطى الحالية. كل وحدة من هذه الوحدات أصبحت جمهورية سوفييتية اشتراكية منفصلة تمتلك مناطق تتمتع بالحكم الذاتي المستقل عن السلطات المركزية. وكان من المتوقع أن تشجع كل منها الثقافة المحلية، وتشدد بالتالي على

الاختلافات عن الآخرين، والتقليل من شأن ما قدّمه لهم المجتمع الإسلامي من دين مشترك. وسَبَّبت الاستقلالية الممنوحة في خيبة الأمل؛ لأن كلاً من هذه الحكومات كانت خاضعةً فعلياً لحكم الحزب الشيوعي السوفييتي الذي يسيطر عليه الروس. وقد تكون هذه السياسة قد خففت من حدة المشاعر المضادة للسوفييت. إلا أن الشعور بالامتعاض لم يتلاشَ من المنطقة، ولاسيما خلال فترة حكم ستالين من منتصف الثلاثينيات إلى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين. فخلال الحرب العالمية الثانية، فرّ العديد من الجنود السوفييت من آسيا الوسطى والتحقوا بالألمان.

عقب الحرب العالمية الثانية، مهّد انتعاش الازدهار الاقتصادي الطريق أمام الحكومة السوفييتية للتخفيف من الإلحاح على القوميات المنفصلة. وعوضاً عن ذلك، مالت إلى التشديد على المواطنية السوفييتية المشتركة فيما كانت تسمح، في الوقت ذاته، للقادة السياسيين المحليين بالاضطلاع بأدوار أهم في كل من هذه الجمهوريات، لكنهم شكلوا مصدراً للاضطراب فيما بعد؛ لأنّ التحكم المحلي أتاح فرصة تفاقم الفساد السياسي. وفي الثمانينيات من القرن العشرين، عندما هاجمت حركة الإصلاح السوفييتي الفساد الحكومي المنتشر في آسيا الوسطى، كما في كافة أرجاء الاتحاد السوفييتي، اعتبرت هذه السياسة أحياناً محاولةً روسيةً للقضاء على القيادة المحلية، وأجّجت الأزمات الاقتصادية التوترات العرقية داخل الجمهوريات، وفي الحالتين كان لابد من ردٍ مشتركٍ يستند على إعادة إحياء المشاعر العرقية التي كانت مخدّرة. ولم يحلّ انقسام الاتحاد السوفييتي المشكلة؛ بل أجلها لبعض الوقت. فقد ظلت التوترات موجودة داخل المجتمع المتعدد الأعراق وإن بأشكالٍ مختلفةٍ اختلافَ كلٍ من الجمهوريات المنفصلة.

بالنسبة لجنوب إفريقية، سبَّب النجاح الظاهر الذي أحرزته سياسة القوميات السوفييتية صدمةً، في الخمسينيات من القرن العشرين، دفعت الحزب الوطني إلى تبني الفكرة السوفييتية، وإنشاء سلسلة من المستوطنات Homelands المسمَّاة بشكل شائع بانتوستان bantustans حتى إنها قلّدت السوفييت في التسمية أيضاً.

لقد كانت النيةُ وراء هذا العمل مماثلةً لنية السوفييت- أي تحويل فكر الناس من التعاضد المحتمل بوصفهم أفارقة والتشديد على الولاء المحتمل للوحدات العرقية الأقل عدداً من قبيل الخوصا، أو الزولو، أو تسوانا، وظلت الأقلية البيضاء بالتالي أقلية لكنْ الأكبر عدداً بين عدة أقليات، كما ظلت إمكانية تطبيق مبدأ فرِّق تَسُدْ سارية المفعول. طوّرت حكومة التمييز العنصري هذه السياسة من خلال إقامة جامعات منفصلة لبعض المجموعات العرقية الرئيسة-فأنشأت جامعةً على مقربة من كايب تاون للملونين وأخرى للهنود في درم، وجامعات للفروع الإفريقية الثانوية. كما أنها شجَّعت اعتماد التعليم بلغة البلاد في المدارس الابتدائية، بيد أنَّ هذه السياسة واجهت معارضةً بلغت حداً كبيراً فكان لابد من التخلي عنها.

في نهاية المطاف، هدفت سياسة المستوطنات إلى منح استقلال رسمي للبانتوستانات بالتدريج. وبالتالي كان من المفترض أن يخسر الأفارقة الذين خصّصوا لهذا المواطن مواطنية جنوب إفريقية، بغض النظر عن مدى الحقوق التي يتمعتون بها. وابتداءً من سنة ١٩٨٧، أحصي ٢٠ مليون إفريقي على أنهم يعيشون في جنوب إفريقية، ٨.٥ مليون منهم يقطنون في المستوطنات، إلا أن الرأي العام الدولي اعتبر استقلال البانتوستانات ضرباً من ضروب الخداع، ولم تعترف بهم أي دولةٍ أخرى اعترافاً دبلوماسياً.

عقب ١٩٩٠، تخلت قيادة الحزب الوطني الحاكم عن المستوطنات تماماً كما تخلت عن التمييز العنصري بشكل عام. وبعد فوز المؤتمر الوطني الإفريقي ANC في انتخابات سنة ١٩٩٤، أعيد دمج المستوطنات السابقة داخل الجمهورية. ضعُفت الثقة بقيادة البانتوستانات الإفريقية بشكل كامل واعتبرت فاسدةً على غرار قيادات الحزب الشيوعي في آسيا الوسطى. قسّم الدستور الجديد لسنة ١٩٩٦ البلاد إلى تسعة أقاليم عوضاً عن الأربعة السابقة، علماً بأن جنوب إفريقيا ظلت دولةً واحدةً لا اتحاداً فدرالياً مثل كندا وأستراليا.

أخفقت سياسة «فرِّقْ تَسُدْ» في جنوب إفريقية، فيما نجحت جزئياً في آسيا الوسطى بفضل ظهور الدول الخمس المستقلة الجديدة عقب انقسام الاتحاد السوفييتي. فقد واصل المزيد من الأفارقة مطالبتهم بالحصول على الحقوق السياسية في جنوب إفريقية ككل، عوضاً عن الاكتفاء بقدرٍ أقلّ من الامتيازات في منطقة محدودة. أتاح إضعاف سياسة التمييز العنصري للمؤتمر الإفريقي فرصة البروز كصوت إفريقي مهيمن، وتمسك المؤتمر بهدف إقامة دولة ديموقراطية في جنوب إفريقية panafricanist الذي طالب لفترة من الزمن بمنح حقوق سياسية كاملة للأفارقة فحسب. وكان من المعارضين أيضاً حركة زولو إنكاتا بقيادة الزعيم مانغوسوتو توتيليزي الذي مثل الصوت السياسي البارز الوحيد المطالب بجنسيات عرقية مميَّزة كتلك التي توجد في آسيا الوسطى. وقد يكون الوقت مبكراً للغاية إصدار تنبؤات موثوق بها. ولكن الوضع بدا، في نهاية التسعينيات من القرن العشرين، كأن القومية العرقية قد أحرزت فوزاً في آسيا الوسطى، في حين أنها أخفقت في جنوب إفريقية في مواجهة إيمان مستمر للأغلبية في جنسية جنوب إفريقية غير عنصرية وأوسع نطاقاً.

كانت المجتمعات المتعددة الجنسيات ناتجاً ثانوياً بارزاً في عصر بناء الامبراطوريات الغربية. ولم تخفف النهاية الرسمية للقوة الاستعمارية الأوروبية مشكلة الصراع العرقي الذي تسببت به. وبعد التاريخ الحديث لكل من جنوب إفريقية وآسيا الوسطى دلائل كافية على ذلك. ومن جهةٍ أخرى، يشكل النزاع العرقي مشكلةً عانى منها العالم في الماضي القريب، ومشكلة يسهل التنبؤ بها تتغلغل نحو المستقبل. لقد كان عمر الامبراطوريات الأوروبية عنصراً مساهماً مهماً، ولكنه لم يكن العنصر الوحيد. كان لابد من اعتبار بدء العصر الصناعي، وما صاحبه من عولمة النشاطة البشري، ذا تأثيرٍ مهيمن على مجموعة ضخمة من التغييرات الثقافية والنزاع الثقافي. أجبر الشعب على اتخاذ قرارات فردية حول إجابته، وتباينت قراراته كما سنرى في الفصل التالي الذي يطرح مثال المكسيك.

٥

تغير الثقافة في المكسيك

من بين الأخطاء المتخلفة الناتجة عن تقسيم العالم إلى مناطق ومجالات -وهو تقسيمٌ شاع استخدامه في حقبةٍ سالفة- وجهة نظر تفيد بأنّ تاريخ الأميركتين هو مثل تاريخ الولايات المتحدة ومختلف عن تاريخ القارات الأخرى. في الواقع، تزيد أوجه الشبه بين كندا والولايات المتحدة من جهة مع أستراليا ونيوزيلاندة من جهة أخرى عما هي عليه بالمقارنة بين معظم المناطق الاستوائية مع إفريقية كما مع أوروبا. وتقاسمت المجتمعات المتعددة الأعراق في أمريكا الهندية بعض أوجه الشبه مع المجتمعات الأخرى المتعددة الأعراق في آسيا الوسطى أو إفريقية، أكثر بعداً، في الواقع، مما كانت تتشابه فيه مع مجتمعات المستوطنين في أمريكا الشمالية أو مع مجتمعات الكاريبي الزراعية.

ابتدأ الغزو الأوروبي للمكسيك والبيرو في العشرينيات من القرن السادس عشر، في حين أن الغزو الأوروبي لشمال إفريقية وجنوب إفريقية الناطقة بلغة البانتو لم ينطلق قبل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. أما الغزو الروسي لآسيا الوسطى فقد تأخر أكثر بعد، وجرى في الستينيات من القرن التاسع عشر. ولذلك فإن الثقافات الأمريكية الهندية، والأوروبية كانت على اتصال إحداها بالأخرى داخل الإمبراطورية الإسبانية لحوالي ثلاثة قرون قبل أن يبدأ فعلاً الاختراق الثقافي الأوروبي لإفريقية وآسيا الوسطى.

كل الثقافات تتغير مع مرور الزمن، ولكن ثمة فكرة واحدة مفرطة في بساطتها تختص بالتغير في الثقافات الأمريكية الهندية وتفيد بأنها تقبلت تدريجياً عناصر ثقافية من جيرانها الأوروبيين ضمن عملية غالباً ما يُطلَقُ عليها: وصف التثاقف

acculturation. وهذا ما فعلَتْهُ في بعض الأحيان. إذن الثقافات الأوروبية/ الأمريكية كانت تقتبس الأنماط الهندية، في الوقت ذاته، ولذلك كانت الثقافتان تتغيران باستمرار وليس لأسباب داخلية فقط. في بعض الأماكن، من مثل المكسيك الوسطى، نشأ نتيجةً لذلك، بعد أكثر من أربعة قرون، نمطٌ ثقافيٌّ مسيطرٌ لم يكن هندياً ولا أوروبياً بل مكسيكياً. وقد أطلقت عليه أحياناً تسمية الميستيزو أو المختلط، واستخدم المصطلحُ ذاتُهُ للإشارة إلى أشخاصٍ من أعراقٍ مختلطةٍ تكونُ عادةً إسبانيةً أو أمريكيةً- هندية. اختلطت الأعراق بالفعل. بيد أنّ النتائج كانت المزيج الثقافي الجديد بين الإسبان والهنود. ويحمل مصطلح لادينو ladino الإسباني معاني أخرى. لكنْ نستطيع استخدامَهُ في هذا الصدد للإشارة إلى الخليط الثقافي الهندي- الإسباني الذي أصبح مكسيكياً.

على غرار كلمة حديث modern، تحمل كلمة لادينو ladino معاني مختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة. لم تكن ثقافة اللادينو المحدثة مجرد استمرار بسيط للتشكيلة المتجانسة الأصلية التي ابتدأت في وسط المكسيك في الثلاثينيات من القرن السادس عشر، ولم يكن شكل ثقافة لادينو جامداً لم تدخل عليه أي تغييرات.

فقد ظلّت ثقافة لادينو الأولى تتغير، على غرار غيرها من الثقافات. واكب هذا التغيير النسخة الإسبانية للثقافة الأوروبية ومجموعة من الثقافات الهندية التي كانت تتعرض أيضاً للتغيير. وجرت هذه العملية التي خضعت لدراساتٍ دقيقة في السنوات الأخيرة، بسرعةٍ فائقة في وسط المكسيك واستمرت لفترة طويلة لكنها ليست موضوع بحثنا هذا[١].

يُعنى هذا الفصل ببعض المجتمعات الهندية الأصل عدداً ومركزيةً والتي تمنت من الاحتفاظ بنسخ متطورة عن ثقافتها الأصلية حتى القرن التاسع عشر، وحتى

(١) انظر على سبيل المثال:

James Lockart, the Nshuan after the congurt : Asocial and cultural history of the Indiana of central Mexico, sixteenth thronght the eighteenth chm\ntsrid (stant ford : stan (ford pren,1992

تاريخنا الحالي من بعض الأوجه. لفت مجتمعان من هذه المجتمعات المذكورة الانتباه على الخصوص، بسبب صراعها الطويل الأمد بغية الحفاظ على أغلى ما تتميز به طريقة عيشها القديمة. فكلاهما كانا بعيدين عن وادي المكسيك، وهو المركز الحقيقي للقوة والتأثير في إسبانيا الجديدة. أحد هذين المجتمعين كان مجتمع المايا عند شبه جزيرة يوكاتان. أما الآخر، وهو مجتمع أقل عدداً، فمجتمع الياكي في سونورا، والذي كان يسكن أصلاً وادياً واحداً ينساب فيه نهر الياكي غرباً انطلاقاً من سييرامادري حتى خليج كاليفورنيا.

المواجهة مع إسبانيا:

حدثت هذه المواجهة مع إسبانيا على مراحل تشابهت في معظم أنحاء الأراضي التي ستكون أمريكا الإسبانية. امتد الغزو الأول للمناطق الوسطى على مدار العقود من العشرينيات إلى السبعينيات من القرن السادس عشر. وأعقب ذلك حقبة اتسمت بالاستقرار، وأطلقت عليها غالباً تسمية الحقبة الاستعمارية في التاريخ الأسباني- الأميركي. إلا أنّ نهاية الحكم الإسباني في مطلع القرن التاسع عشر لم يكن سوى حلقة في سلسلة من التغييرات التي أصابت العلاقات الهندية- الإسبانية في تلك الفترة تقريباً، بدءاً من ستينيات القرن الثامن عشر، بسبب إصلاحات البوربون» كما عرفت بها تلك المتغيرات، تيمناً بالسلالة الإسبانية. ركزت هذه الإصلاحات على إعادة ترتيب إداري لإمبراطورية إسبانيا، بما فيها منح الرعايا الإسبان المزيد من الحرية في تعاملاتهم التجارية بين المستعمرات.

أما الهنود الخاضعون للحكم الإسباني، فقد ارتبطت هذه الإصلاحات بالنسبة لهم، في أغلب الأحيان، بما يُعرف بالغزو الثاني حيث سعى الإسبان، عقب فترة من الإهمال الحميد، لإحكام سيطرتهم على المجتمعات الهندية، وظلت جمهورية المكسيك مصرةً على مواصلة اعتماد سياسات مماثلة بعد الانفصال عن إسبانيا. ومن ناحية أخرى مثَّل الغزو الثاني بأشكاله المتباينة التي اتخذها في كافة أنحاء

أمريكا اللاتينية مقابلاً إقليمياً لعمليات الضم الأوروبية التي احتوت على قَدْر أكبر من العنف في آسيا وإفريقية. وقد أطلقت القوة الدافعة النهائية، في كلتا الحالتين، بدايةُ العصر الصناعي.

اختلف تأثير عمليتي أمريكا الأصلية باختلاف المناطق، حتى داخل حدود ما سوف يصبح المكسيك. اتسم الغزو الأول بمزيدٍ من الحدة في وسط المكسيك. فقد هدم الإسبان تينوشتيتلان، عاصمة الأزتيك، وشيّدوا في موقعها مدينة موسكو التي ظلت أهم مركز حضري في الأميركتين. أما بالنسبة للمكسيك، فقد سببّ الغزو الأول أكبر قدر من التلف الفعلي. إذ بلغت الأمراض الغربية ذروتها في هذه المنطقة، كما وصل التأثير الثقافي للإرساليات الإسبانية إلى أوج تركيزه.

يعتبر تقبّل المسيحية في وسط المكسيك أحياناً، نتيجة الجهود التي بذلتها الإرساليات التبشيرية وتوّجت بالنجاح أكثر من أي مكان آخر في العالم. إلا أن التقبّل الرسمي قد يكون سطحياً كما يحصل في أماكن أخرى خلال انتشار الديانات العالمية. لقد تغلغل قدرٌ كبيرٌ من الديانة القديمة في المسيحية المكسيكية، في تلك الفترة، بحيث بات من الممكن أن يعتنق العديد الديانة المسيحية دون تحطيم المعتقدات العميقة التي تنتمي لأسلوب العيش الهندي. حجبت الأوبئة الخطيرة التغير الديني بحيث بات من الصعب تحديد المسار الذي كان من الممكن أن تسلكه في غيابها. ولكن مع انخفاض عدد السكان، ذوتْ أوجهٌ عديدةٌ من ثقافات وسط المكسيك وتلاشت مع أن غيرها ظلّ سارياً على شكل مساهماتٍ رئيسة في ثقافة مختلطة ستصبح فيما بعد مكسيكية.

في المكسيك، رأى مجتمع ثقافي إسباني النور، في الفترة المتراوحة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر. تكوّن أعضاؤه الأوائل من الجنود والإداريين، ثم انضم إليهم عمال المناجم ومربو الماشية، والعاملون في التجارة، وبعض المصنّعين. قليلون كان عدد المنحدرين من أصل إسباني من الذين قدموا للإقامة في المكسيك إقامة دائمة، وكان عدد النساء دون عدد الرجال. ونتج عن ذلك

خليط عرقي، واحتفظ المستيزو ببعض أوجه ثقافة موطنهم الأم. انتقل بعض الهنود الذين تشرّبوا الدم. الإسبان أيضاً إلى القطاع الغربي، وقدّموا مساهمتهم الخاصة بهم. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت هذه الثقافة الإسبانية التي انتمى إليها معظم الأشخاص المولودين في إسبانيا الجديدة قد أصبحت هي الثقافة الجديدة (اللادينو).

في تلك الفترة، ظهر شكلان متباينان للشبكة الثقافية، أحدهما لادينو ناطق بالإسبانية لكنه اقتبس مزايا عديدة من الهنود. من جهة أخرى، وجدت مجموعة من المشائخ المختلفة التي كانت لا تزال التقاليد الهندية تسيطر عليها. عشية الغزو الثاني، لم يكن أيٌّ من الأنماط الثقافية تتغير بالسرعة التي اتسم بها التغير خلال القرن الأول، عقب وصول الإسبان. وبدا الأمر كأن الهنود اقترضوا ما أرادوا اقتراضه، وحذا الأوروبيون حذوهم. لكنّ الغزو الثاني الذي جرى في القرن التاسع عشر، أدخل تغييرات على كل هذا الوضع.

لقاء المايا الأول مع الإسبان :

قبل كلٌّ من المايا والياكي التحدي الإسباني في قرونه الأولى بأساليب مختلفة كلياً عن تجربة معظم المجتمعات الأخرى التي تشكل اليوم جمهورية المكسيك. بالنسبة للمايا، ظهر التحدي الأوروبي في حقبة زمنية خاصة من تاريخهم الخاص. عندما وصل الإسبان، كانت سيطرة الأزتيك في وسط المكسيك وإمبراطورية الإنكا في الأنديز قد أوشكت على الوصول إلى ذروتها في تلك المناطق. ومن جهة أخرى، أوشك المايا أن يسقطوا، في منتصف القرن السادس عشر، إلى أدنى الحضيض فيما يخص إنجازاتهم السياسية والمادية والفنية والفكرية.

في كل الأحوال، لم يتخذ شعب المايا يوماً ضمن إمبراطورية واحدة. فقط سكنوا ولا يزالوا يسكنون ثلاث مناطق مختلفة لكل منها تاريخ إقليمي مختلف. توجد منطقتان من الثلاث في شبه جزيرة يوكاتان المعروفة شعبياً بأنها الأراضي المنخفضة

الشمالية والجنوبية. الأراضي المنخفضة الشمالية عبارة عن سهل منبسط كلسي يصل معدل سقوط الأمطار فيه إلى أدنى مستوى في الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة، وتشكل فيه النباتات الطبيعية غابة منخفضة. ويرتفع معدل سقوط الأمطار كلما توغلنا عميقاً نحو الجنوب والشرق، بحيث ننتقل إلى غابة الأمطار التي تسيطر على الأراضي المنخفضة الجنوبية المقسومة حالياً سياسياً إلى بيليز Belize، وولاية خياباس المكسيكية، وغواتيمالا المنخفضة الشمالية. أما منطقة المايا الأخيرة فهي عبارة عن هضاب ترتفع مطلةً على ساحل المكسيك على المحيط الهادئ وتمتد نحو الشرق والشمال عبر تلال وجبال وغواتيمالا وصولاً إلى داخل الهندوراس.

بزغ الفجر الكلاسيكي لحضارة المايا في المنخفضات الجنوبية، وشكل حدثاً غير اعتيادي إذ إنّ معظم المجتمعات الحضرية المبكرة الأولى نمت في مواقع بعيدة عن الغابات الإستوائية الكثيفة، بل غالباً ما تركزت في أودية الأنهار من قبيل وادي النيل أو الهندوي. ظهرت العناصر التي كوّنت هذا المجتمع الحضرية المتحضرة روعةً في الأميركتين. ظهرت العناصر التي كوّنت هذا المجتمع المعقد قُرابة بداية التاريخ الميلادي، فأدت إلى الفترة الكلاسيكية لبناء الأهرامات حوالي ٣٠٠ إلى ٨٠٠ للميلاد؛ في حين أن الظهور التقليدي المتأخر جرى في المنخفضات الجنوبية خلال القرون الأخيرة التي سبقت، في حين أن الظهور التقليدي المتأخر جرى في المنخفضات الجنوبية خلال القرون الأخيرة التي سبقت ٨٠٠، فأبرزت بالتالي أوج إنجازات المايا في العديد من المجالات.

وشهد مجتمع المايا في المنخفضات الجنوبية، بين ٧٥٠ و٨٥٠ م، أزمةً ربما تأتّت من أصل مادي وبيئي محتمل. توقف بناء الأنصاب في معظم مدن المنطقة، وانخفض عدد السكان انخفاضاً شديدا إلى أن ثبت عند مستوى جديد أدنى، ما كان عليه في السابق. وتعزز السجل الهندسي الوفير لفترة من الزمن في المنخفضات الجنوبية حيث ازدهرت مدن مثل شيشيت إيتزا حتى حوالي ١٠٠٠م.

ولكنّ حضارة المايا كانت قد تخطت أوج إنجازاتها بخمسة قرون. وعقب الانهيار ما بعد الكلاسيكي، تمكن المايا من الحفاظ على بعض المؤسسات الاجتماعية التي مهدت الطريق أمام إنجازاتهم الأولى، ومن بينها تلاحم المجتمعات الزراعية وبنية طبقية حادة التدرج وافق بموجبها الشعب بأسره على قيادةٍ من النخبة واعترف بها.

ظهر الإسبان للمرة الأولى على ساحل يوكاتان سنة ١٥١٧، ولكنهم سرعان ماتجاوزوه بغية تركيز جهودهم في مدينة المكسيك، على الرغم من أن المايا عانوا الأمرّين من الأمراض المستوردة بدءاً بوباء الجدري سنة ١٥١٩. بدأ الجهد الإسباني لغزو يوكاتان في سنة ١٥٢٧، وانتهت المرحلة الأولى في سنة ١٥٤٧ عند إخماد «ثورة» المايا. حتى بعد ذلك، ظل الحكم الإسباني جزئياً؛ لأنهم أرغموا على الحكم من خلال وسطاء من المايا، وظلت بعض أقاليم المايا المهمة خارج دائرة نفوذ الإسبان حتى التسعينيات من القرن السابع عشر.

وفي فترة لاحقة، افتقر الإسبان (والمكسيكيون بعد الاستقلال) لسيطرة إدارية محكمة على كافة الأراضي المايا إلى العقود الأولى من القرن العشرين.

كانت البنى الكهنوتية المتطورّة والحكومية التابعة للحقبة التقليدية قد فقُدت جزئياً قبل وصول الإسبان. واستطاع المايا التكيف مع السيطرة التي فرضها الإسبان دون إدخال أي تعديل على ثقافتهم. وكان بوسع المجتمعات المحلية تطعيم جذور ديانتهم الخاصة بالمسيحية دون أي تغيير أساسي في معتقداتهم السابقة. وقدِم بعض الرهبان والإداريون الإسبان للعيش بينهم، بالإضافة إلى ممثلين ناطقين باللغة الإسبانية من إسبانيا الجديدة (اللادينو). ولكنّ ثقافة اللادينو انحصرت في المدن، وشكَّل ممثلوها أقليةً صغيرةَ العدد.

مواجهة الياكي Yagni الأول مع الإسبان:

خلال القرون الأولى من الوجه الإسباني، مرّ شمال المكسيك بتجربة مختلفة تمام الاختلاف عنها في وسط المكسيك، وعنها خلال القرن ونصف القرن من الاتصال

بالأوروبيين في يوكاتان. بحلول القرن الثامن عشر، بدأ وسط المكسيك، وما فيه من السكان، ينتعش بعد معاناة من الأمراض التي أصابته في القرون الأولى. بدت ثقافة لادينو مهيمنةً على المدن، وبعض المزارع الإسبانية، وأماكن تربية الماشية، ومناطق المناجم، التي كانت متناثرةً بين سكان آخرين لا يزالون يحتفظون بثقافتهم الهندية. كان السكان في مناطق اللادينو يدينون المسيحية بشكل رئيس، وإن كانت بعض معتقداتهم سابقةً للمسيحية. وكانوا يتكلمون الإسبانية، مع أنهم يتقنون إلى جانب الإسبانية لغةً واحدةً على الأقلّ من اللغات الهندية. أما المناطق الجنوبية القاصية المكتظة بالسكان والواقعة في الجنوب، من قبيل الايستموون Isthmus في تيهوانتيبيك وساحل الباسيفيك، فقد كانت شبيهةً بيوكاتان إلى حد كبير. معظم السكان كانوا على الأقل من المسيحيين بالاسم فقط، ولكن أكثر من النصف كانوا ينطقون باللغات الهندية وحسب، بالمقارنة مع ٢٠ بالمئة من سكان وسط المكسيك الناطقين بلغة هندية واحدة.

ومن جديد، كان الوضع في الشمال مختلفاً. إذ كانت منطقةً قاحلةً أو شبه قاحلة ويفصلها عن وسط المكسيك خط معترّج يطلق عليه في بعض الأحيان تسمية حدود شيشيميك chichimec. يعود أصل كلمة شيشيميك إلى الأزتيك الذين استخدموه للإشارة إلى الشعوب التي كانوا يعتبرونها برابرة الشمال المتوحشين. يمثل هذا الخط الحدودي إلى حدٍ ما الفاصل بين المزارعين المستقرين والحضريين في الجنوب وبين الشعوب البدوية في الشمال، ويمكن تحديد مساره من الشرق إلى الغرب على مسافة ١٥٠ ميلاً شمال مدينة المكسيك.

وكان من الممكن التمييز بين مختلف الثقافات الشمالية وفقاً للبيئة الأساسية وحجم المجتمع. بعضهم كان يمارس الصيد والجمع، ولكن عددهم كان ضئيلاً وعاشوا بشكل رئيس في الشمال الغربي القاصي من كاليفورنيا. وبعضهم الآخر كان شبه بدوي يمارس بعض أنواع الزراعة، على غرار النافاهو والأباتشي. أما غيرهم فقد كانوا مزارعين مستقرين في قراهم. ومن بين هذه المستقرات، يمكن

اعتبار القرية pueblo، في المكسيك الجديدة الحالية، حضرية. وكانت هناك بعض الإثنيات الأخرى التي تعيش في قرى دائمة ولكن أصغر مساحة، تشمل البيما والتارهومارا في جبال الشهواوا وجماعات الأودية الساحلية في سونورا بما فيها الياكي والمايو.

انحصر الغزو الإسباني الأول للمكسيك في جنوب حدود شيشيميك، واقتصر عليها. في شمال الحدود، زحفت حملات استكشافية إسبانية عَرَضية عبر البلاد، واستخدمت إسبانيا هذه التدخلات العرضية للمطالبة بالأراضي بذريعة مواجهة الأوروبيين، إلا أن الإسبان لم يقيموا أي إدارة غير مباشرة كما فعلوا في يوكاتان، بل أسسوا سلسلةً من المقاطعات المغلقة للنفوذ الإسباني ونشاطاته، والتي عملت كمراكز هدفها نشر الثقافة اللادينو انطلاقاً من مدن وسط المكسيك.

تركزت القيمة الرئيسة لشمال المكسيك في ثروته المعدنية، علماً بأنّ الهنود المحليين لم يستغلوا، إلاّ نادراً، ما تحويه هذه المنطقة من ذهب وفضة ونحاس، على غرار ما فعلوه في وسط المكسيك. أدخل الإسبان أعمال المناجم بإدارة اللادينو الذين كانوا يوظفون عمالاً محليين عند الاستطاعة أو يستوردون اليد العاملة من وسط المكسيك المكتظة بالسكان عند الضرورة. ولم تكن مراكز المناجم مكتفيةً ذاتياً بالموادّ الغذائية؛ ولذلك سرعان ما جذبت إليها مراكز ثانوية للنشاط الإسباني الزراعي على شكل مزارع لتربية الماشية والمزارع العاملة على المحاصيل والخراف والماشية المصدَّرة من أوروبا.

وحتى أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن المناجم ولا المزارع مراكز للحكم الإسباني. فقد ظلت مناطق مغلقة إسبانية في أراضٍ هندية، سواء على الصعيد السياسي أو الثقافي، تعيد نسخ نمط امبراطوريات المحطات التجارية التي نشرها الأوروبيون على طول سواحل الأراضي الواسعة الإفريقية- الأوروبية- الآسيوية أو براً عبر سيبريا أو الغابات الأمريكية الشمالية بحثاً عن الفِراء.

حصلت المواجهة الأولى بين الياكي والإسبان من خلال النشاط التبشيري. فقد كانت الإرساليات التبشيرية تمثل شكلاً ثالثاً من أشكال الأراضي الإسبانية المغلقة في الشمال الهندي. في سونورا والشمال الغربي، خُصِّصت الإرساليات للبرهنة اليسوعية. وقبل سنة ١٦١٧، عند وصول الدفعة الأولى من اليسوعيين، بلغ عدد شعب الياكي قُرابة الـ ٣٠ ألف نسمة مستقرة في قعر الوادي في منطقة يبلغ طولها ٦٠ ميلاً وعرضها ١٥ ميلاً. وبوجود ٣٠ ألف نسمة في الميل المربع، باتت في المنطقة الأكثر ازدحاماً في الأقاليم التي صارت شمال غرب المكسيك.

إنّ ظروف سونورا الساحلية الشديدة الجفاف لم تؤهلها للزراعة المعتمدة على هطول الأمطار، إلا أن المعدل المرتفع لسقوط الأمطار في المرتفعات الداخلية غذّت الأنهار، من قبيل نهري ياكي ومايو اللذين كانا يرويان الأدوية الساحلية. وفّر الاستيطان الطويل والكثيف في هذه الأودية للسكان الناطقين بلغة الكاهيتا شعوراً بالانتماء لهويةٍ ما. وعلى الرغم من عددهم الضئيل، فقد شكل الياكي ربع سكان هذه المنطقة التي ستصبح ولاية سونورا. عاش بعض الياكي على صيد السمك على طول ساحل الصحراء أو على الصيد والجمع في الجبال، لكن القسم الرئيس من سكان الوادي كانوا مستوطنين في قرى صغيرة لا يزيد حجمها الوسطي عن ٤٠٠ نسمة. كل قرية من هذه القرى كانت تتمتع باستقلالها السياسي لمعظم الأغراض، ولكن سكان الوادي كانوا يشعرون بانتمائهم لهوية الياكي وباختلافهم عن جيرانهم مثل المايا القاطنين في الوادي المجاور، مع أن لغتهما وثقافتهما كانتا متشابهتين. اتّحد شعب الياكي، بين الحين والآخر، على شكل تحالفات غير دائمة للقيام بأعمال مشتركة، مثل الحروب.

عبرت الحملات الإسبانية الشمال متخطيةً سونورا قبل سنة ١٦١٧ ودون أن يتأتى عن ذلك أيُّ نتيجة دائمة، ولكن الحال كان مغايراً مع اليسوعيين. فقد أقام هؤلاء مستوطنات ما وراء الحدود الإسبانية من أجل تغيير ديانة الهنود الذين كانوا، في غالبيتهم من البدو الرحل، ومن أجل تشجيع معتنقي المسيحية الجدد للإقامة

حول الإرساليات بحيث يشكلون سلسلةً من القُرى أو البلدات تخضع لسيطرة الإرساليات، كما فعلوا تماماً في البرازيل والباراغواي.

أمّا في الشمال الغربي من المكسيك، فقد تخطوا إطار حدود السلطة الإسبانية غير الدينية ودون أي دعم عسكري. وفي الواقع، كانوا يمثلون حكومة إسبانيا الجديدة داخل مستوطناتها. أما مقاصدهم المعلنة الطويلة الأمد فقد كانت تقوم على تسليم مسؤولياتهم السياسية إلى الحكومة الإسبانية العادية، وتسليم ما يقدمونه من رعاية روحية إلى رجال الدين الرسميين. وفي الواقع، لم تصل مقاصدهم هذه إلى مرحلة التنفيذ إلاّ في حالات نادرة، ولذلك أصبحت الإرساليات مقاطعة مغلقة سياسية وثقافية جديدة ومختلفة في الشمال. توصلنا إلى هذه المعلومات عن الإرساليات اليسوعية من سجلات اليسوعيين. ومن المحتمل أن يكون إدراك الياكي لهذه الأحداث مختلفاً. واستناداً إلى كلام اليسوعيين أنفسهم، واتفاق ذاكرة الياكي اللاحقين، دخل بعض الرهبان اليسوعيين إلى وادي الياكي وأعادوا تنظيم مجتمع الياكي في فترة زمنية. لم تتجاوز العقد. لقد حولوا قراهم الصغيرة إلى ثماني بلدات إسبانية الطراز متمركزة حول ثماني كنائس. عيّن الرهبان اليسوعيون مسنين وحكاماً تابعين آخرين وحمّلوهم مسؤولية حكم هذه البلدات في ظل سلطة الرهبان. وبهذه الطريقة تألفت الحكومة الموحدة الأولى في تاريخ شعب الياكي.

أدخل اليسوعيون أيضاً وسائل زراعيةً جديدةً، وماشيةً، ومحاريثَ، ومحاصيلَ جديدةً، ونظاماً جديداً لاستملاك الأراضي، بحيث قسّموا الأراضي إلى قطع يستطيع أعضاء العائلة أن يعملوا فيها لثلاثة أيام في الأسبوع. بالإضافة إلى الحقول المشاع التي أُجبر كلُّ الرجال الأصحّاء على العمل فيها في الأيام الثلاثة الباقية في الأسبوع. واحتفظ اليسوعيون بنتاج الحقول المشاع على شكل احتياطي، تحسباً للأيام السوداء من جهة، ولمساعدة الرهبنة اليسوعية، من جهة أخرى، في توسيع نشاطاتها أكثر نحو الشمال الغربي، وصولاً في نهاية المطاف إلى كاليفورنيا.

وفي ظل هذا النظام، شهد الياكي أزمةً ديموغرافيةً ناتجةً عن تعرضهم لأمراض العالم القديم. ولم تتسم فترة حكم اليسوعيين بالازدهار على الدوام. فبحلول أواخر القرن الثامن عشر، تذكر الياكي أساليب قديمة كانت عبارةً عن مزيج جمع بين ثقافة المسيحيين والأهالي الأصليين التي نمت في ظل حكم اليسوعيين وسعوا لحفظها. كما أعاد الياكي المتأخرون هويتهم إلى الفترة التشكيلية للحكم اليسوعي وبلدات الإرساليات الأصلية الثماني.

شاملة امتدت شمالاً إلى أن بلغت ما سوف يصبح ولاية اريزوناز. لكنْ حتى في تلك الفترة، طالب الثوار بإصلاح الحكومة اليسوعية وليس بإلغائها. وأُخمدت الثورة، إلاّ أن الإصلاحات التي تبعتها أعطت الياكي فرصةً أكبر للتعبير عن رأيهم فيما يتعلق بشؤونهم الخاصة. ولكن بحلول الستينيات من القرن الثامن عشر، اصطدمت الرهبنة اليسوعية ككل من سلامة البوربون في كل أرجاء الإمبراطورية الإسبانية. وعندما طُردت الرهبنة من أمريكا الإسبانية في سنة ١٧٦٧، استمرت البنية السياسية للبلدات الثمانية ولكنها صارت تخضع لحكم الياكي.

تمسك الياكي بأراضيهم، ونجحوا في تفادي دفع الجزية المعتادة. وتعزّز مركزهم المساوم لأنهم أصبحوا، بفضل إمدادهم المناجم في الشمال الغربي باليد العاملة، ضروريين لاستمرار تقدم عجلة الاقتصاد المكسيكي. وبما أنهم كانوا مسيحيين بالاسم فقط، فقد قويت جهودهم الآيلة للتصدي للضغوطات المسلطة على المعايير الثقافية التي وضعوها لأنفسهم خلال القرن المنصرم. حظي المجتمع الهندي بسلام نسبي من خلال فرض نفسه عنصراً ضرورياً للشخصيات البارزة في الحكومة، وساعدت تسويةٌ ضمنيةٌ مماثلةٌ في الحفاظ على وحدة ثقافة المايا طوال الجزء الأكبر من القرن الثامن عشر، ولكن في ظل أشكال سياسية مختلفة تمام الاختلاف. في يوكاتان، اقتنع الإسبان بالحكم من خلال طبقة المايا العليا التي ظلت تسيطر على الأراضي ومعظم شؤون المجتمع. أما في وادي الياكي، فقد أنشأ اليسوعيون مجتمعاً تنعدم فيه الطبقات الاجتماعية تقريباً استلموا زمام أموره في بادئ الأمر.

وبعد مغادرتهم، اعتمدت الديموقراطية في اختيار قيادة الياكي فكانت هنديةً لا إسبانية. إلا أنه، حتى عشية الغزو الثاني، تميّز النظام السياسي والثقافي الذي أقامه كل من اليسوعيون والياكي سوياً باستقرار بارز، وإمكانية مواجهة الضغوطات الجديدة التي مارسها عالم اللادينو.

غزو المكسيك الثاني:

ابتدأ الغزو الثاني قبل حروب الاستقلال في العقد الأول من القرن التاسع عشر، واستمر في خلفية اجتياحات أمريكا الشمالية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، والتدخل الفرنسي في الستينيات من القرن التاسع عشر، وحركة الإصلاح بقيادة بينيتو خواريز، وديكتاتورية بورفيويو دياز ابتداءً من أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٠. شملت بعض أشكال هذا الغزو الثاني للمكسيك كلَّ أنحاء المكسيك، فيما كان غيرها مقتصراً على منطقة واحدة أو إقليم واحد. وفي أغلب الأحيان، ارتبطت الأبعاد العسكرية، على وجه الخصوص، بشعوب خاصة، من قبيل الياكي أو المايا،، أو حتى شرائح أصغر من المجتمعات الثقافية، ولاسيما من المايا، أي مجموعة كبيرة تعيش متناثرة في عدة مقاطعات. وحتى ضمنت شريحة المايا التي آلت إلى المكسيك، انفجرت ثوراتٌ منفصلةٌ، تُسمَّى حروب الطبقات، في مناطق المايا المتشرذمة في يوكاتان وخسياباس.

لم تؤثر العديد من الأحداث السياسية والعسكرية المركزية في تاريخ المكسيك، خلال القرن التاسع عشر، تأثيراً مباشراً على الهنود. فقد تركزت على السياسات الوطنية التي وضعتها الجمهورية المكسيكية المنبثقة، وانتهت بسلسلةٍ متلوِّنة من التصريحات التي نادراً ما كانت تعني ما تقوله. كما أنها كانت تُعلن عن خِطَطٍ نادراً ما تُتَرجَمُ على أرض الواقع. إلاّ أنّ التصريحات والخطط كانت تمثل صراعاً بين ثلاث كُتَلٍ من المصالح السياسية داخل المكسيك اللادينو. إحدى هذه الكتل كانت محافظةً على نطاقٍ واسع، تؤلفُها الطبقةُ العليا من رجال الدين، والطبقات المالكة للأراضي، والثرية بشكل عام، بالإضافة إلى كل المناصرين الذين تمكنوا من جذبهم

من الطبقات الأخرى. أما الكتلة الثانية فقد كانت ليبيرالية إلى حدٍ كبيرٍ، بالمعنى الليبرالي الشائع في القرن التاسع عشر، تشتمل على الإيمان بالمؤسسات الخاصة، تصحَبُهُ شكوكٌ قويةٌ بأن مصالح الشركات الموروثة من حقَب الاستعمار غير مؤاتية للهدف الذي وضعته المكسيك نصب أعينها، ألا وهو اللحاق بأوروبا وشمال أمريكا الصناعيتين. وقد يكون المجموعُ الواسعُ من المجتمعات الهندية غير المدمجة التي شكلت على الأرجح ثلث الشعب المكسيكي ابتداءً من حوالي ١٨٥٠، ظهر باعتباره كتلةً ثالثةً. ولكنها تفرقت واستغلتها الكتلتان الليبرالية والمحافظة باعتبارهما طعام المدافع وفرائستها.

على مستوى المكسيك بأسره، صدر الضرر الأكثر خطورة والمسدّد للمجتمعات الهندية من التفاعل الغريب بين الليبراليين والمحافظين بين الخمسينيات من القرن التاسع عشر وسنة ١٩١٠. في سنة ١٨٥٤، وعقب أربعة عقود من الصراع بين القادة العسكريين المتنافسين والحرب التي انتهت بالهزيمة ضد الولايات المتحدة، تمكنت القوات الليبرالية بقيادة بينيتو خواريز من خلع الديكتاتور العسكري وبدأت تعمل بغية نظام دستوري جديد ينقل البرنامج الليبرالي إلى أرض الواقع. أطلق على هذه الحركة تسمية الإصلاح، وقد اتصف برنامجها بالديموقراطية وبالتحديث عامةً. بمعنى أنه كان يسعى لتحويل المكسيك على شاكلة مجتمعات العالم الغربي التي كان الإصلاحيون معجبين بها. لقد كانوا يؤيدون حصول الطبقة الوسطى المتطبعة بالطابع الإسباني على فرصة التعليم، وحرية الاعتقاد الديني، وحرية المؤسسات الخاصة، والحرية السياسية.

اعتبرت الكتلة الليبرالية أن برنامجها يواجه إعاقةً على جبهتين إحدى هاتين الجبهتين كانت عبارةً عن امتيازات اتحادية خاصة لا تزال تتمسك بها الكنيسة والجيش. ومن شأن هذه الامتيازات أن تمنحها نفوذاً جامحاً ضمن الدولة المكسيكية. أما الجبهة الثانية فتمثلت في جهل الهنود وميلهم للمحافظة. اعتبر بعض الليبراليين بأنّ الهنود ينتمون، من الناحية العرقية، لطبقة أدنى وتكلموا عن

الرغبة في تشجيع الهجرة من أوروبا، ولكن لم يكن ذلك سوى توتر ثانوي. فبينيتو شخصياً إلى العرق الهندي.

لكنه كان محامياً نموذجياً من الطبقة الوسطى وله أفكار ليبرالية، ولم يكن يوماً من الأيام فرداً من أفراد مجتمع هندي. لم يظهر البرنامج الليبرالي، في خطوطه العريضة، مناهضاً للهنود، بل اقتصرت معارضته على الثقافات الهندية الموروثة. كان يطالب بالتعليم الرسمي مع أنه لم ينجز الكثير في هذا المجال، كما كان يسعى لفخ تعاضديات المجتمعات الهندية. وصف الليبراليون الأراضي المشاعية باعتبارها عائقاً رئيساً للتحسينات الزراعية. وكانوا يعتقدون بأنّ ملكية الأراضي الفردية قد تحوّل الهنود إلى فلاحين يعولون على أنفسهم ويمكنهم المنافسة في الأسواق.

وما حصل البرنامج الليبرالي على فرصة. فمن ١٨٥٧ إلى ١٨٦٠، فاز خواريز في حرب دامت ثلاث سنوات ضد المعارضة المحافظة، ومن ثم أمضى ثلاث سنوات أخرى، من ١٨٦٢ إلى ١٨٦٥، يحارب التدخل الفرنسي لصالح الامبراطور- الدمية ماكسيميليانو النمساوي الأصل. وخُلع ماكسميليانو واستتبَّ السلام عام وفاة خواريز سنة ١٨٧٢، وحل محل الليبراليين مجدداً ديكتاتور عسكري يحمل اسم بورفيويو دياز الذي حكم من عام ١٨٧٦ حتى عام ١٩١٠.

كان دياز ليبرالياً وقد تابع نظامه جزءاً، على الأقل، من البرنامج الليبرالي بما أنه كان يهدف إلى إلغاء ملكية الأراضي المشاع الهندية. فابتداءً من ١٨١٠، امتلكت حوالي ٥٠٠٠ قرية هندية أراضي مشاعاً، وقعت معظمها في وسط المكسيك، في مناطق خصبة، وكانت تشكل حوالي ٦ بالمئة من مساحات الجمهورية الإجمالية. وبحلول سنة ١٩١٠، عندما أنهى دياز إعادة تنظيم الأراضي، انخفضت الملكيات المشاع الهندية بنسبة ٦٠ بالمئة، وخسر الهنود القسم الأكبر من أفضل أراضيهم التي كانت تنحصر تقريباً في المنطقة الوسطى من وسط المكسيك. كان البرنامج الليبرالي الذي ينوي تحويل الهنود إلى فلاحين مزارعين، إلا أن معظم الأراضي التي خسروها كانت قد صارت مزارع ضخمة.

تحول مالكو الأراضي المشاع السابقون إلى عمال دون أراضٍ، وأصبح معظمهم يعملون بالسخرة أو الأجرة عوضاً عن أن يكونوا عمّالاً أحراراً. وهكذا دخلوا في مجال أعمالٍ شاقّةٍ أشبه بالعبودية. وبما أنّ هذا الحدث شكل قوةً تدعم التغير الثقافي، فقد يرعى دون شك عملية نشر الطابع الإسباني التي كانت قد بدأت واقتلعت العديد من الهنود من مجتمعاتهم السابقة وزجّتهم في الطبقات الدنيا من المجتمع المكسيكي اللادينو. علماً بأنه لم يكن أسلوب التحديث الذي كان يسعى خواريز وتابعوه للحصول عليه.

الغزو الثاني للمايا:

بالنسبة للمايا، بدأت بعض أوجه الغزو الثاني منذ السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما وصل الإصلاح المالي للإمبراطورية الإسبانية إلى اليوكاتان. تُركت المجتمعات الهندية في هذه المنطقة دون أي تدخلات تحكمها طبقتها الارستقراطية وتتحلى بمقدار من الاستقلالية المالية. ولكنها باتت تواجه اعتداءات. فقد نقلت أموالهم السائلة إلى خزينة الدولة الاستعمارية حيث توضع، على الأرجح، تحت مراقبة أفضل. وفي كل الأحوال، وضع هذا الحدث حداً للفساد المفترض انتشاره داخل المجتمع، ولكنه فتح الباب أمام إمكانية نقل أموال خزائن الجماعات إلى الحكومة المركزية. واعتماداً على الأسلوب ذاته تقريباً، بدأت الكنيسة تسيطر على الأموال المحفوظة لدى الأخويات المدنية في مجتمع المايا من أجل طقوس القديسين. وبدأت السلطات الدينية باستخدام الأموال لأغراض دينية أكثر شمولية محمّلة بمصالح الادينو. وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، كبت الإصلاحات الإدارية، إلى حد كبير، الحرية التي كانت تنعم بها طبقة المايا الارستقراطية في إدارة شؤونها الخاصة في ظل التحكم الاسباني.

بحلول السبعينيات من القرن الثامن عشر، بدأ اللادينو يستلمون زمام الأمور في البلاد ويتحكمون بالإنتاج الزراعي. ولم تكن كثافة السكان مرتفعةً في يوكاتان، وقد

اقتصرت المؤسسات الزراعية الإسبانية المبكرة إلى حد كبير على مزارع تربية الماشية الانتشارية. وعلى الرغم من أن عدد شعب المايا كان يتزايد من جديد في تلك الفترة عقب أزمة الأمراض التي شهدتها القرون الأولى، بدأت مجتمعات المايا تفقد أراضيها بسبب عمليات مختلفة من مصادرة الملكيات، وتوسع نطاق قطاع المزارع اللادينو بسرعة كبيرة. وبحلول التسعينيات من القرن الثامن عشر، بدأ مالكو الأراضي اللادينو بالتحوّل من الذرة والأبقار الى القطن والسكر والصبار المكسيكي بهدف تصديرها بالدرجة الأولى. وبحلول زمن الاستقلال، أصبحت المزارع تشكّل أهم قطاعات اقتصاد يوكاتان. كما صارت بالفعل الأهم بالنسبة لعلاقات يوكاتان مع العالم الخارجي.

في تلك الحقبة، بلغ عدد كل من الأشخاص المنتمين إلى ثقافة اللادينو حوالي ربع سكان يوكاتان - وتشير تقديرات غير دقيقة أنّ عدد السكان وصل إلى حوالي ٣٠٠ ألف نسمة عند حصول الاتصال الأول مع الإسبان، ثم انخفض إلى ١٥٠ ألفاً على الأرجح عند مطلع القرن الثامن عشر، وارتفع مجدداً إلى حوالي ٣٦٠ ألفاً عند مطلع القرن التاسع عشر، وإلى ٥٨٠ ألفاً حوالي ١٨٤٥، واتسع إطار التطبّع بالطابع اللادينو تدريجياً بعد الاستقلال. ونتج جزءٌ من التوجه نحو التطبع بالطابع الإسباني عن حركة الهجرة من وسط المكسيك. ولكنّ الجزءَ الأكبرَ منه تأتى من جذور محلية. في تلك الفترة، تم الحفاظ على الانضباط الاجتماعي من خلال الهيبة والسلطة المستمرين اللتين كانت تمارسهما طبقة النبلاء المسيطرة على الأراضي، والوظائف الشعائرية المهمة التي حافظت على المعنى الأصلي لديانة المايا، على الرغم من تطعيمها بالمسيحية.

عندما خسرت مجتمعات المايا أراضيها، أجبر الأفراد على البحث عن العمل في المزارع الخاضعة لسيطرة الإسبان، وسرعان ما وجد معظمهم أنفسهم خاضعين لنظام السخرة التأجيرية الشديدة الشبه بالعبودية؛ لأن الديون كانت إرثاً يتنقل إلى الأولاد عند موت الوالد. واستبدلت بالهوية المشتركة لمجتمع المايا بمجتمعات مزارع

قصب السكر والصبار بالإضافة إلى واجب مشترك لخدمة رب العمل. وبالنسبة لمعظم المايا العاملين في هذه المزارع، كان هذا التحوّل بمثابة بداية فقدان هوية المايا. فقد ابتدأ ذلك بإخضاع نخبة المايا، وإلغاء طقوس المجتمع الدينية، واستبدال لغة المايا بالإسبانية، والتسلل التدريجي اقتصاد السوق. كل هذه الأمور لم تحدث مباشرةً في الجيل الأول. ولكن على مرّ العقود، انتقل الاجتماعي من المايا إلى العالم اللادينو بشكل تصاعدي. وعندما نشبت حروب الطبقات في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، ولم يحرّك هنود المجموعات المتناثرة، ساكناً للدفاع عن مجتمعات المايا الأخرى أو ثقافة المايا.

تركزت يوكاتان اللادينو النامية حصراً في المدن، لاسيما في ميريدا في الشمال الغربي التي كانت تحصل على إمداداتها عبر مرفأ سيسال التابع لها. وتضمنت فئة ثانية من البلدات مرفأ كامبيشي المحصّن في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة وفالادوليد، وهي المركز الرئيس الحدودي لتوسع اللادينو نحو الشرق والجنوب الشرقي. ونذكر أخيراً بلده باكالار التي كانت تحتل مستوى أدنى من حيث عدد السكان والأهمية، وهي عبارة عن مرفأ يؤمن الاتصال بالكاريبي شمال الهوندوراس البريطانية. لقد كانت السلطات المكسيكية تدير معظم منطقة الغابات الشرقية والجنوبية. وحتى مطلع القرن التاسع عشر، كان ليوكاتان خط حدودي غير محدّد يفصل العالم اللادينو الجاري حكمه انطلاقاً من المدن عن مناطق لا إدارة فيها أو ربما ذات إدارة خفيفة ولا يزال يطغى عليها طابع المايا بشكل عميق.

حرب الطبقات وشان سانتا كروز:

تمثل الحدث السياسي والعسكري الأبرز في مقاومة المايا في حركة المقاومة الهندية المعروفة باسم حرب الطبقات التي أصبحت بالفعل الأهم في سلسلة من حروب الطبقات.

اقتبس الاسم من مصطلح CASTAS الإسباني الذي يشير إلى الأشخاص الذين لم يُعترف باعتبارهم فعليين مثل الميستيزوس، والخلاسيين، والأفارقة، والهنود، والمولودين من تزاوج هذه الأجناس.

نشبت حرب طبقات المايا الكبرى سنة ١٨٤٧ على أنها ناتج ثانوي لصراع كان آخذاً في التطور بين فئات اللادينو إثر اجتياح أمريكا الشمالية في سنة ١٨٤٥. وعند بلوغ الحرب أوجها، في منتصف ١٨٤٨، كان الهنود قد استولوا تقريباً نحو الداخل إنطلاقاً من الساحل الكاريبيز، تمركزت الدولة الشرقية على بُعْد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً نحو الداخل انطلاقاً من الساحل الكاريبي. تمركزت الدولة الجديدة في مغارة مقدسة وحوض يقع عند أسفل هوّة سحيقة عامودية يشيع وجودها بين صخور يوكاتان الكلسية. شرعت القيادة السياسية الجديدة باستخدام الرمز الشعائري لصليب ناطق كان يصدر التعليمات بمعونة مترجم. ومع الوقت، طوّرت الدولة الجديدة بنيةً سياسيةً تتمحور حول الصليب. اضطلع القائد الرئيس بدور «راعي الصليب»، وكان يجمع بين سلطة الكاهن الكاثوليكي وناسك المايا. تماماً كما كان الصليب يمثل في وقتٍ واحدٍ رمزاً مسيحياً، ورمز مايا يستند إلى إيمان المايا بأهمية الاتجاهات الأساسية الأربعة. تضمن المسؤولون الآخرون مترجم الصليب وأمين سره، ويأتي بعدهما، ولكن بمستوى أقل بكثير، المسؤولون العسكريون الذين تتناسب ألقابهم مع ألقاب الجيش المكسيكي. ومع مرور الوقت، احتل الجيش الموقع الذي كانت تشغله سابقاً قيادة البلدة. وفي الواقع، ظل طابع المايا مسيطراً على الدولة الجديدة، إلا أنها اقتبست من خصومها اللادينو بعض أوجه ديانتهم وأوجُهاً أخرى من تنظيمهم العسكري.

لقد كانت شان سانتا كروز منيعةً حصينةً دون شك. استولى عليها عدة مرات خلال حرب الطبقات، لكن، في معظم الأحيان، كانت الكتيبة المقاتلة تتوغل في الغابة وتختفي بكل بساطة لتعود وتظهر من جديد عند انسحاب الجيش المكسيكي. وعند انتهاء حرب الطبقات في سنة ١٨٥٥، واصلت قوات شان سانتا كروز غزوها

للمناطق الواقعة تحت سيطرة اللادينو، وظلت تأخذ العبيد أسرى لديها على غرار اللادينو الذين كانوا يأسرون العبيد المايا بهدف بيعهم لمزارع السكر الكوبية. دخل الغزاة المكسيكيون أحياناً لأراضي المايا حيث كانوا يتكبدون خسائر فادحة. ولكن في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، بدأ الوضع يستقر. احتفظت شان سانتا كروز بمكانتها كأشد قوة مستقلة للمايا، ولكن دويلتان أو ثلاث دويلات مستقلة أخرى للمايا تمكنت من الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية، وأحياناً على الصراعات العسكرية أيضاً، مع شان سانتا كروز، ومع البريطانيين في بيليز، ومع حكومة يوكاتان. باتت فترات السلام الرسمي والهدنات DE FACTO الواقعية شائعة. لقد كانت المشكلة الأساسية لكل المايا هي أنّ أراضيهم كانت الأفقر في كل أنحاء شبه الجزيرة ولا يمكنها أن تتحملَ نسبةً كبيرةً من السكان الذين لم يزيدوا على ١٠ آلاف بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر.

قررت الحكومة المكسيكية برئاسة بورفيريو دياز أن تضع حداً لاستقلال المايا بصورة حاسمة، كجزء من سياستها المماثلة التي طبقتها ضد معاقل المقاومة الهندية الموزعة في أرجاء أخرى من الجمهورية.

ففي سنة ١٨٩٩، جهزت جمهورية المكسيك حملةً ضخمةً ضد شأن سانتا كروز تدعمها البنادق والرشاشات، والمدفعية. فيما كانت أعمال شق طريق إلى داخل أراضي المايا من الغرب وبناء سكة حديد فرعية انطلاقاً من الساحل الكاريبي جارية. هذه المرة، لم تكتفِ الحكومة المكسيكية بغزو شان سانتا كروز بل احتلتها، ونظمت المنطقة المحتلة على أنها تسمى كوينتانارو دون اعتبارها دولة مستقلة أو ملحقة بدولة يوكاتان بل أرض غير ذاتية الحكم تخضع للسيطرة الفدرالية. وبحلول سنة ١٩٠٢، اعتبر المكسيكيون أن فتح يوكاتان الثاني قد اكتمل.

بقيت شان سانتا كروز خاضعة لحكم المكسيك حتى ١٩١٢، عندما بلغت أعمال العنف التي اتصفت بها الثورة المكسيكية الكبرى يوكاتان وأجبرت القوات المكسيكية على الانسحاب من جديد. في هذه المرة، لم يعد المايا الموجودون في كوينتانار

للسيطرة على عاصمتهم السابقة بل تابعوا العيش بأسلوبهم الاعتيادي في ظل إدارة مكسيكية ضعيفة للغاية. وقد يكون استقلال المايا السياسي الفعلي في بعض أرجاء هذه المنطقة دام حتى السبعينيات من القرن العشرين، إلا أنّ المايا القاطنين في ياكاتان شهدوا، بشكل عام في القرن العشرين، أنماطاً عالميةً ومكسيكيةً من التبدل الثقافي. ولا تزال لغة المايا متداولةً على نطاق واسع، كما لا تزال عناصر من ديانة المايا القديمة حيوية في يوكاتان ومنطقة المايا الزراعية الشاسعة. نظَّمت مجموعة أخرى من المايا ثورة علنية ضد الحكومة المكسيكية في فترة غير بعيدة في التسعينيات من القرن العشرين، باتجاه غرب ولاية خسياباس. إلا أنّ تأثير الاجتياح السياسي للأوروبيين وسكان شمال الولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة أحدث، بالنسبة لليوكاتان، تغييرات أساسية في حياة المايا أكثر من أي فترة زمنية مماثلة في القرون السابقة.

مقاومة الياكي:

تماثل توقيت تقدم اللادينو ومقاومة الياكي في سونورا مع توقيت صمود المايا في يوكاتان. أحدثت حروب الاستقلال المكسيكي سلسلة من المعارك الإقليمية بين اللادينو والهنود وقوات مختلطة من الفريقين. وانفجرت ثورة ياكي عارمة دامت من ١٨١٦ حتى ١٨٣٣ وشكلت جزءاً من اضطراب عام بقيادة أحد الياكي الذي كان لقبه الحربي بيندرز. كان هدفه المعلن إقامة دولة هندية تمثل الخَلَفَ الشرعي لدولة الإزتيك التي تعود إلى ثلاثمائة سنة خلت، كما أنه جذب إليه دعم المايو وغيرهم من هنود المنطقة.

سحقت الحكومة المكسيكية ذلك التمرد، ولكن الياكي تمكنوا من الظهور مجدداً إلى الواجهة كما أصاب الوهن الدولة المكسيكية، كما حدث إثر الحروب الليبرالية-المحافظة التي نشبت في منتصف القرن. وطوال العقد الذي دام من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٥، نجح قائد ياكي جديد يدعى كاجيم في إنشاء جمهورية مستقلة تقريباً في

وادي الياكي. وعندما ظهر بورفيريو دياز كديكتاتور يطالب بالمركزية، احتلت القوات المكسيكية مجدداً الوادي، واستعادت حقوق الملكية على أراضي الوادي.

تدنت مقاومة الياكي عندئذ إلى مستوى حرب الميليشات المنطلقة من الجبال القريبة، واستمرت المقاومة طوال التسعينيات من القرن التاسع عشر وشملت منطقةً امتدت من الحدود الشمالية للوادي وصولاً إلى حدود أريزونا تقريباً. احتلت حكومة دياز الوادي وباشرت بالقبض على الياكي المشتبه بأنهم يدعمون الميليشيات وترحيلهم إلى الأجزاء القاصية من الجمهورية.

عددٌ كبيرٌ أُرسل بمثابة عبيد للعمل في مزارع القنب في يوكاتان، تماماً كما تم ترحيل العديد من سجناء المايا على شكل عبيد للعمل في مزارع كوبا.

بحلول الحقبة التي شهدت سقوط دياز في سنة ١٩١٠، اتخذت هزيمة الياكي في سونورا على غرار الخسارة التي تكبدها المايا في كوينتانا رو، شكلاً نهائياً. لقد تمكن الفريقان المذكوران من الحفاظ على ثقافتيهما وهويتهما من خلال إدخال تغييرات مع مرور الزمن واقتباس بعض مظاهر أسلوب حياة اللادينو، ولاسيما في مجال التنظيم السياسي، كما حدث في قرى الياكي الثمانية أو شأن سانتا كروز في بوكاتان. لقد استخدم الفريقان أسلحة اللادينو وعرفوا طريقة مقاتلهم. ولكن عقب ١٩١٠، تعلق مصير التراث الهندي في المكسيك بالثورة المكسيكية.

المكسيك الهندية والثورة :

يصعب على المؤرخين أحياناً تحديد زمان اندلاع ثورة سياسية ضخمة أو خمودها. تزامن بدء الثورة المكسيكية عند سقوط دياز سنة ١٩١٠، ولكن عملية إقامة إدارة جديدة للجمهورية اتسمت بالبطء. ولذلك لم تظهر أكثر إنجازاتها ثباتاً إلاّ عند استلام لازاروكارديناس الرئاسة من سنة ١٩٣٤ حتى ١٩٤٠. ففي تلك الفترة، كان الناطقون الرسميون الرئيسون للثورة قد وضعوا التراث الهندي في مركز تبلور القومية المكسيكية. كان التراث الإسباني يحظى بالاحترام أيضاً ولكنّ

كواهتيموك ومزكتيزوما تفوقا على كورتيس بما أنهما يمثلان رمزين، من رموز الكرامة الوطنية يعود ظهور أدب هندي مهم INDIANISTA إلى هذه العقود الثلاثة الأولى من الثورة، حينما كان الآداب والفنون تظهر التقدير والتبجيل للتقاليد الهندية. قدمت حكومة كارديناس تنازلات سياسية بين الحين والآخر، وفي عام ١٩٣٧، منحت الياكي منطقة تتمتع بحكم ذاتي في واديهم، وقد كانت هذه المنطقة تمثل حوالي نصف مساحة الأراضي التي كانوا يدعون بأن ملكيتها تخصهم، وسمحت لهم بإعادة إنشاء بلداتهم الثمانية.

فالاحترام المفروض للماضي الهندي لم يكن يتضمن طبعاً إعادته لهم. وقد طالبت الثورة أيضاً بالتعليم الجماعي بوصفه خطوة أساسية نحو محاولة اللحاق بالدول الأكثر تقدما، بما فيها التعليم الجماعي بالإسبانية. وطوال عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، انخفضت النسبة المئوية لعدد سكان المكسيك الذين يعرفون أيَّ لغة من اللغات الهندية. أما النسبة المئوية لمن يعرفون لغة هندية واحدة فقط، فقد انخفض انخفاضاً أكثر حدة. ومع ذلك، فقد بلغت معرفة اللغة الإسبانية أقل من ٥٠ بالمئة بحلول ١٩٤٠، ولو أننا أسقطنا منحنى التطبع بالطابع الإسباني في أثناء العقد الثوري العام على المستقبل، لما كان كل المكسيكيين تعلموا اللغة الإسبانية إلا بعد سنة ٢٠٠٠.

اضطلع التأثير الجغرافي لتبدل اللغة بدور بارز أيضاً. فمعظم الأحداث كانت تصدر عن المناطق الهامشية حيث بلغت مقاومة الحكم المكسيكية حداً بارزاً خلال القرن التاسع عشر. بلغت نسبة الناطقين باللغة الهندية أدنى مستوياتها في المناطق الساحلية، في الشمال، وفي يوكاتان. ولكنها لم تكن متدنية في المنطقة الوسطية القديمة حيث دامت هيمنة اللادينو أطول فترة. في الواقع أدت زيادة عدد السكان في الثلاثينيات من القرن العشرين إلى الارتفاع الفعلي للعدد المطلق للناطقين باللغات الأربع الخاصة بالمنطقة الوسطية الأكبر مساحة- أي ناهواتي وميكستيك وزابوتيك وأوتومي. أما اللغة الرئيسة الوحيدة التي تدنت نسب استعمالها إلى حدود الانمحاء: فهي لغة مايا اليوكاتان.

يشير ما سبق إلى أن الوهن كان يضرب التعددية الثقافية في المكسيك بسبب التصنيع، والتخطيط، والنزوح الداخلي. وإنه لمن العدل أن نقول بأن الثقافتين الهندية والأوروبية في المكسيك تتكاملان حالياً بحيث أصبح ثلاثة أرباع عدد السكان على الأقل لا ينتمون ثقافيا لا للهنود ولا للأوروبيين، بل للمكسيكيين ببساطة. وجهة أخرى بأهداف تأثير التجانس العالمي. ويشتمل ذلك على التأثير الذي يمارسه التلفزيون في العالم أو تدفق السياح نحو السواحل المكسيكية، ولكن ما هو أهم بعد حركة الهجرة الضخمة ذهاباً وإياباً بين المكسيك والولايات المتحدة.

وبالمقارنة مع المجتمعات المتعددة الأجناس في جنوب إفريقية وآسيا الوسطى، يقيِّم العنصر الأوروبي في جُمعية الجينات المكسيكية بحوالي ١٠ إلى ٢٠ بالمئة من المجموع، بما أن الباقي من الهنود وبعضهم من الأفارقة. ويشير ذلك إلى الحركة المادية للأوربيين نحو المكسيك، تمت بمقدار مماثل لما هو عليه الحال في جنوب إفريقية أو آسيا الوسطة. ولكنّ بالمقارنة مع هذه المناطق، يعدّ عدد النازحين الأوربيين ضئيلاً، ولكنهم وصلوا في فترةٍ لاحقة ووازنت زيادتهم الطبيعية المرتفعة انخفاضاً طبيعياً بين الأميركيين الأصليين.

يبرر هذه الاختلاف في الديموغرافيا والتوقيت إلى حد كبير ثقافة المكسيك المتكاملة، بالمقارنة مع جنوب إفريقية أو آسيا الوسطى. ولكنّ عوامل محليةً مارست بعض التأثير. إذ يوجد اختلافات إقليمية جنوب إفريقية أو آسيا الوسطى. ولكنّ عوامل محليةً مارست بعض التأثير. إذ يوجد اختلافات ضخمة داخل المكسيك. لقد قدم المهاجرون الإسبان إلى البيرو أو إلى غواتيمالا بأعداد مماثلة وبتوقيت مماثل، ولكن التكامل الثقافي الذي تبديه المكسيك يفوق حالياً الدولتين المذكورتين. ويشكل التراث الثقافي للثورة المكسيكية جزءاً من هذا التغيير دون شك، ولكن هذا للوصول إلى تفسير لابد من دراسة مقارنة لحالات أخرى مماثلة لحالة الياكي والمايا في أمريكا اللاتينية.

٦

الخيارات الإدارية ونتائجها، أمثلة من البنغال وآسيا الوسطى، جاوه والملايو

لطالما شكلت الإدارة الحكومية مسألة منذ أمد طويل، باهتمام كل من شارك في تدبير الإمبراطوريات الأوروبية في الخارج، كما كان شأن من حاول حكم أوروبا ذاتها في العصر الصناعي. فشتان ما بين اتخاذ إقرار بخصوص السياسات الواجب اتباعها وبين التأكد من تطبيقها على أرض الواقع. ويتطلب هذا الأمر النمط ذاته من التقنيات الإدارية التي لعبت دوراً في غاية الأهمية لنهوض الغرب في العديد من المجالات المختلفة. ويجذب التاريخ السياسي والدبلوماسي اهتماماً يفوق ما يجذبُهُ التاريخُ الإداري. إذ يكتنفه ما يكتنفه أي لعبة من إثارةٍ ورابحين وخاسرين، وبراعة في الحركات التي يؤديها اللاعبون. ومن جهةٍ أخرى، يُعنى التاريخ الإداري بطريقة تنفيذ القرارات السياسية التي تزيد أهميتها أحياناً عن القرارات نفسها. وتنوط كفاءة الحكومة الآلية المستخدمة في نقل الأوامر مهما كانت من المجموعة الحاكمة عبر السلاسل الهرمية وصولاً إلى أن تضطر الفئات الدنيا إلى القيام بعملٍ ما أو أن تمتنع عن القيام بشيء.

يبدو لنا بوضوح متزايد أنّ الإدارة الحكومية تشكل جزءاً من تكنولوجيا الإدارة. وقد كان زمان ظهور المهارة الإدارية في أوروبا ذاتها طويلاً وتدريجياً. ففي القرون الوسطى، كان هناك العديد من القوى المرتبطة بالحفاظ على السلم والنظام وتوجيه مسار المجتمع من بين الأفراد المنتمين إلى الزعماء الإقطاعيين.

ويرد على صفحات الكتب الدراسية الخاصة بالحضارة الغربية وصفٌ لسلسلةٍ متتاليةٍ من السلطات الحكومية التي سعت -من بين مساعٍ أخرى- لإقامة بيروقراطية مركزية الحكم وفاعلة. وقد أعقب «الملوك الجدد» في القرن الخامس عشر والسادس عشر «الملوك المطلقو السلطات» في القرن السابع عشر و«المستبدون المتنورون» ENLIGHTENED DESPOTS في القرن الثامن عشر.

حوالي نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، واكب تطوّر التكنولوجيا الإدارية تطوّر التكنولوجيا الصناعية، في الفترة الزمنية التي كان المجتمع المعقد والمتغير بسرعة في أمس الحاجة لها. وقد كان المستوى الجديد من الإنتاجية يدين بالقدر نفسه لكل من الأدوات التنظيمية والأدوات الميكانيكية إلى حد ما. وقد ظهر التوحيد التشريعي legal uniformity لقانون نابليون بالإضافة إلى التعديلات المكافئة في القانون العادي والتشريعي الإنكليزي عندما كان الاقتصاد بحاجةٍ لأن يستجيب لظروف جديدة. وتزايدت العناية الحكومية بتنظيم المعامل الجديدة عندما كان العصر الصناعي المبكر يسبب مشكلات اجتماعية جديدةً تتطلب عملاً حكومياً. معظمُ هذه الأعمال كانت ضعيفةً ومتأخِّرةً، ولكن هذا التزايد النظاميَّ في القوى الحكومية استمر في كل أنحاء أوروبا في القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين.

نرى هنا اقتراناً واضحاً بين أمرين، فقد تحسنت التكنولوجيا الصناعية وتحسنت معها -في الوقت ذاته- التكنولوجيا الإدارية. في الوقت الحالي، لا يهمنا أي تحسن سبّب الآخر. ولكن ما يجدر ذكره هو أن تغييرات مماثلة كانت تأخذ مجراها عندما باتت ضرورية لإدارة الممتلكات الأوروبية في ما وراء البحار.

وصولاً إلى منتصف القرن الثامن عشر، قيدت الشركات الأوروبية في شرق رأس الرجاء الصالح نفسها في إطار إدارة امبراطوريات المحطات التجارية أو الديسبورات التجارية التي أُضفِيَ عليها الطابع العسكري. ونادراً ما كانت تسعى إما

لاحتلال بلد ما أو لإرسال المستوطنين لاحتلاله على طراز شمال أمريكا- كما أنها لم تسع يوماً للسيطرة على السكان الأصليين وحكمهم على طراز المكسيك والبيرو.

ولكن في محيط المحيط الهندي في النصف الثاني في القرن الثامن عشر، بدؤوا فعلاً في احتلال الأراضي والسيطرة على الشعوب الآسيوية. وكما سبق ذكره، فإنهم اصطدموا بالمشكلات الإدارية ذاتها التي ضربت الملوك الأوروبيين في بلادهم وأعاقت جهود الإسبان الآيلة إلى حكم الأمريكتين.

في بادئ الأمر، حاول الملوك الأوروبيون ومستشاروهم البيروقراطيون حل المشكلات التي واجهتهم في الخارج بالطريقة ذاتها تقريباً التي تستخدموها في أوروبا. أما في بلادهم، فقد سعوا للحصول على دعم الوجهاء المحليين، أو البلدات، أو الكنيسة، أو المؤسسات المهمة كالنقابات. ويعترفون، في مقابل دعمهم، بسيطرة هذه السلطات على الآخرين وأعضاء المجتمع الأدنى. أما في الخارج، فقد استخدموا القوة العسكرية للقيام باحتلالاتهم، ولكنهم حكموا من خلال الحكام المحليين أو الوجهاء الآخرين الذين تمكنوا من إقناعهم بالتعاون معهم.

رأى النمط الجديد النور في بداية بناء الامبراطوريات في مطلع القرن السادس عشر عندما حاول الإسبان للمرة الأولى السيطرة على جزر الكاريبي. في هذا الموقع، وجدوا طبقةً من الوجهاء المحليين عرفوا باسم الكاسيك caciques بلغة الأراواك، واستخدمهم الإسبان لحكم البلاد من خلالهم. وفيما كانوا يتقدمون إلى الأراضي الداخلية من المكسيك وأمريكا الجنوبية، حملوا معهم ما سبق بالإضافة إلى مصطلح الأوراك. ومع مرور الزمن، اختفى الأرواك، ولكن لا نزال نجد كلمة كاسيك في الفيليبين، على مسافة قاصيةٍ عند الدوران حول العالم وبعد مرور خمسة قرون، للإشارة إلى الطبقة الحاكمة المحلية التي تمكنت على مر الزمان من الاستمرار اعتماداً على الاعتراف الإسباني بنفوذ أسلافهم. لقد سمح نفوذهم السياسي، وامتلاكهم للأراضي، وثراؤهم بأن يحافظوا، بوصفهم طبقة، على موقعهم عبر قرونٍ

من الحكم الإسباني، ونصف قرن من الحكم الأميركي، ونصف قرن من الحكم الفيليبيني المستقل.

لكن خلال القرن التاسع عشر، اتخذ التاريخ الإداري في أوروبا منحىً مختلفاً عن النظرية والممارسة الإداريتين المعتمدتين في الامبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار. اقتصر الاهتمام الرئيس كأوروبا على التخلص من بقايا امتيازات النبلاء أو الامتيازات لمجموعات. وفي الحالات القصوى من القرن العشرين، أحرزوا نجاحاً كبيراً إلى حد بات من الممكن استخدام مصطلح شمولي لوصف الأنظمة التي تسعى للسيطرة على المجتمع سيطرة تامة.

ولكن عدد الموظفين العاملين في خدمة الأوروبيين في ما وراء البحار، كان كافياً لإقامة إدارة أوروبية كاملة. وقد وجد الأوروبيون في جنوب إفريقية بأعداد كافية؛ كي يسيطروا على مجتمع المستوطنين ولكنه لم يكن كافياً للسيطرة على الأفارقة أيضاً. ونتيجةً لذلك، كان من الضروري تقديم مساعدة إدارية. قامت القوى الاستعمارية بهذا العمل أحياناً، في إفريقية كما في غيرها من الدول، من خلال توظيف أشخاص محليين مباشرة في خدمة الاستعمار. ويعدّ الحاكم فيليكس إيبوي Felix Eboue من الكونغو الفرنسي مثالاً على الموظف الإفريقي الذي لعب ولاؤه لفرنسا الحرة دوراً مهماً في الحرب العالمية الثانية.

أما منظّرو الإمبراطورية في أوروبا فقد صوّروا الضرورة باعتبارها فضيلة، إذ أكثر انتقاد الهولنديين للحكم الهولندي في جاوه يتضمن مبدأ السيطرة من خلال «حكام طبيعيين» من حَكَمَةٍ، أو على الأقل كل من اعتاد الرعايا العاديين أن ينصاعوا له. لقد كان لجاوه طبقة من الإداريين الذين وصلوا إلى هذه المراكز بالتسلسل، كانوا زعماء طبيعيين، أي volkshoofden، وقد مثلت هيبتهم الموروثة جبهة مفيدة للحكم الهولندي فيما يسمى بالمسرح السياسي- وبالطبع كان الزعماء الطبيعيون يوصفون أحياناً بالدمى. أطلق هؤلاء المنظرون الأوروبيون، أحياناً، على الحكم المشترك بين الهولنديين والزعماء الطبيعيين تسمية نظام الثنائية الحميد. وكانت نية

الهولنديين، بالطبع، الاحتفاظ بزمام الأمور مع الابتعاد، قدر المستطاع، عن الاتصال الفعلي مع عامة الشعب.

كانت شركة الهند البريطانية منسجمة مع الحكومات الهندية بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر، مما أدى تدريجياً إلى انقسام رسمي بين الهند البريطانية، والولايات الأصلية التي كانت بريطانيا تحكمها بشكل غير مباشر. ونحو نهاية القرن التاسع عشر، اعتقد العديد من المنظِّرين البريطانيين بأن الحكم غير المباشر كان الهدف الفعلي الذي وضعته الإدارة الإفريقية نصب أعينها، وبموجبه يتم حكم البلاد «من خلال الزعماء» فقط. وروّجت مجموعة من المنظرين المماثلين في فرنسا لسياسات الترابط مع النخبة المحلية في كل مستعمرة، عوضاً عن اشتراك امتصاص للمجتمع والثقافة المحليين للمبادئ الفرنسية امتصاصاً.. واللورد لوغارد في بريطانيا وروبيرت دولافينيت في فرنسا، وقد حكما في المستعمرات الإفريقية في مطلع القرن العشرين، كانا من بين المناصرين البارزين لهذه السياسات.

لقد كان المدافعون عن الثنائية والترابط والحكم غير المباشر متأثرين تأثراً عميقاً بالآراء العنصرية الأوروبية السائدة في تلك الفترة. وقد حاولوا أن يثبتوا، في الواقع، بأنّ الحكومة الأوروبية الجيّدة لم تكن بالضرورة جيدة للامبراطوريات الأوروبية في الخارج بسبب الاختلافات العرقية والثقافية العميقة الجذور. لقد كان السكان الأصليون مختلفين إلى حدٍ بات من الأفضل تركهم يديرون دفة الحكم «بالطريقة التي تحلو لهم»، حتى وإن لم تتناسب الطريقة الإفريقية مع أشكال الحكومة المحلية التي اعتقد الأوروبيون بأنها الأنسب لمجتمعهم الخاص.

ولكنّ القرارات الأساسية اتخذت، في أغلب الأحيان، خلال العقود الأولى من الحكم الأوروبي، وغالباً ما تبعت النظريات الواقع. في الحالات الأولى، سيطر الأوروبيون على مجتمع تحكمه حكومة قائمة مرتبطة لا محالة بالبنية العامة لذلك المجتمع. وباختصار، كان المجتمع عبارةً عن جزءٍ قائم في الثقافة المحلية. ولكن بما أنّ الأوروبيين ما كانوا قادرين على إقامة نظام جديد تماماً، فقد كان من الضروري

تبني جزء من الجهاز الحكومي القائم، بعد تعديله بحيث يتلاءم مع مصالحهم وميولهم. وقد تغير نظام الحكم المحلي تدريجياً تحت تأثير اختيارهم لبعض الأشخاص بدلاً من غيرهم لتنفيذ أوامرهم. وفي بعض الأحيان، كان تأثير هذا الاختيار أشدّ وقعاً من الأوامر نفسها.

مثلت الحكومة ما قبل الاستعمارية عادةً نوعاً من الشرعية القائمة على توازن القوى داخل المجتمع. وتعين على الحكام، مهما بلغت غطرستهم، أن يحترموا ما يقبله الأفرادُ الأكثرُ نفوذاً في المجتمع. وعند وضع نظام استعماري في قمة الهرم، تعيّن على الحكام المحليين في المستوى التالي أن ينصاعوا، في العلانية على الأقل، للأوروبيين. ولكنهم لم يعودوا مضطرين لتهدئة تابعيهم. وبالتالي، كان بإمكان الحكم الأوروبي الحدّ من نفوذهم من أعلى فيما كانوا يعزّزون سلطتهم على من دونهم. وكان من الممكن أن ينتج عن ذلك إعادة تشكيل كاملة للمجتمعات المحلية، بما أنّ بعض المجموعات تحركت إلى مواقع النفوذ الحقيقي، في حين انسحبت مجموعاتٌ أخرى من الوسط المسحور، بشكلٍ دائمٍ أحياناً.

أمثلة تاريخية:

يمكن تصوير هذه الاعتبارات العامة بالاستعانة بأمثلة تاريخية مقتبسة من تجربة المجتمعات المتنوعة في جنوب وجنوب شرق آسيا. أدى الخيار الأول للوسطاء الذي قامت به القوة الاستعماري إلى عواقب غير متوقعة دامت طوال حقبة الاستعمار وما بعدها.

ملكية أراضي البنغال:

شكّلت إعادة الترتيب البريطانية لنظام استملاك أراضي البنغال نموذجاً كلاسيكياً للتدخل في ١٧٧٢، اضطلعت شركة شرق الهند البريطانية بدور «ديوان البنغال» تحت سيطرة الإمبراطورية المغولية. وقد شكل ذلك وضعاً شاذاً بما أن الشركة كانت، من الناحية النظرية، شركة تجارية. وأصبحت بالتالي، من الناحية

النظرية ووفقاً لقدراتها المحددة، مسؤولة أمام حكومة المغول، ولكنها كانت قادرة أيضاً على استخدام هذا الدور التابع نظرياً، كي تصبح السلطة المهيمنة، فحلت تدريجياً محل الحكومة المغولية في حكم البنغال.

لم يكن بوسع الشركة البريطانية أن تعرف ما يحدث على أرض البنغال. كما أنها لم تكن أيضاً قادرةً على ممارسة سيطرةٍ فعلية كاملةٍ لو أرادت ولا حتى بقدر ما كانت تمارسه حكومة جورج الثالث في بريطانيا العظمى. ولم يكن في نية الشركة على أي حال أن تمارس، كانت ماتزال شركة تجارية، لكنها تؤدي وظائف سياسية وعسكرية إضافية. وقد كان هدفها من تبوء منصب «ديوان البنغال» أن تضمن حصةً من مردود الأراضي التي حُوِّلت سابقاً إلى دلهي. كانت إمبراطورية المغول، على غرار معظم الامبراطوريات الهندية قبلها «الدولة المالكة للأراضي» والتي كان دخلها الأساسي من العوائد الإنتاجية لتلك الأراضي التي يدفعها كل المزارعين إلى الامبراطور نظرياً. ونظرياً أيضاً، كانت ملكية الأرض تعود إلى الامبراطور بما يشبه المعنى الغربي للملكية، وليس فقط بالمعنى الغربي للسيطرة السياسية.

بشكل عام، كانت حصة الدولة من المحاصيل تُدفع جزئياً للبلاط الامبراطوري. ولكنّ جزءاً آخر كان مخصَّصاً لبعض المسؤولين الامبراطوريين الذين كانوا يحصلون على جزء من العوائد بدلاً من الراتب.

يتعلق هذا الأمر بأراضي الإقطاع **Jagir**. ولم يكن مالكو الجاغير يجمعون نصيبهم بأنفسهم. بل عوضاً عن ذلك. أوكلوا، منذ مدة طويلةٍ، وظيفة جمع المردود الفعلي لطبقة تابعة تُعرف باسم الزميندار **Zamindari**، وهم مجموعة من الجباة والملتزمين توارثوا وظيفتهم هذه عن أجدادهم الذين كانوا يؤدون العمل ذاته تقريباً حتّى قبل تأسيس الإمبراطورية والملتزمين المغولية في القرن السادس عشر.

لقد كان مردود الأراضي المأخوذ مرتفعاً، ويشكل نسبةً تتراوح بين ثلث المحصول الإجمالي ونصفه. وقد سُمِح للزاميندار بالاحتفاظ بحوالي ١٠ بالمئة من هذه النسبة، في مقابل خدمات الجباية، وكذلك لحفاظهم على القانون والانضباط،

وتأمين الجند المقاتلين في أوقات الحروب. ويختلف حجم استملاك الملتزمين اختلافاً شديداً. فقد يكون ضئيلاً إلى حد يدفع الزميندار إلى العمل بنفسه في الأرض بمساعدة بضعة أجزاء، أو قد يصل إلى عدة قرى. وفي الحالتين كانت حقوق الزميندار في الجباية متوارثة، ويمكن نقلها إلى الغير، كما كان بالإمكان طرحها للبيع في الأسواق.

من ناحية أخرى، مرت بعض الحقوق في سلسلةٍ من المراحل بحيث كانت الجباية ينتقل من الزاميندار الأول إلى الثانوي، وحتى إلى ملتزم من المرتبة الثالثة. وقد كان من المفترض أن يساعد كل منهم في الحفاظ على القانون والنظام ويوفر المساعدة العسكرية في حالات الطوارئ. وفي مقابل ذلك، يُسمح لكل واحدٍ منهم أن يحتفظ بما بين ٢ إلى ١٠ بالمئة من المردود الذي كان يصل إليه. ويقع في المرتبة الدنيا من كل مراتب الزميندار الفلاحون الذين عملوا فعلياً في الأرض. يحوزون الأراضي عادةً بعقود إيجار وراثية وبذلك كانت لهم حقوق دائمة على بقعة معينة من الأراضي المزروعة.

أما ما انبثق عن هذا النظام، بكل ما يكتنفه من تعقيدات، فهو عبارة عن اقتصاد زراعي تعود ملكية الأراضي بموجبه، من الناحية النظرية إلى الدولة، ولكن يحظى العديد من الأفراد والعائلات المختلفة بحقوق محددة على قِطَعٍ معيَنةٍ من الأراضي. ولم تصل أيٌّ من هذه الحقوق إلى مستوى الملكية بمعناها الغربي. ولم تكن أيٌّ من هذه المدفوعات محدَّدةً بوضوحٍ على أنها ضريبةٌ مفروضةٌ أو قيمة الإيجار بالمعالم الغربية. كما لم تكن قيمة هذه الحقوق مرتبطة بقيمة السوق القائمة على الوفرة والنُدرة scaracity value للأرض ذاتها. وبما أن كثافة السكان كانت منخفضة في القرن الثامن عشر، فلم يكنّ للمطالبة بالأراضي أهميةٌ كبيرة.

عندما احتلت شركة الهند الشرقية البنغال، حاولت إيجاد وسيلة لجباية المردود بأكبر قدر ممكن من الفاعلية دون التسبب بمقاومة قوية. وبما أن الشركة تجاوزت مرتبة الملتزمين المأجورين مباشرةً إلى الفلاحين الذين عملوا في الأرض، تماماً كما

فعلت في وقت لاحقٍ في أجزاء أخرى من الهند. فقد أُعجب موظفو الشركة بما اعتبروه المكاسب الاجتماعية للنظام البريطاني لاستملاك الأراضي. في ظل هذا النظام، تعود ملكية قسم كبير من الأراضي في إنكلترا إلى عدد من المالكين الذين كانوا غالباً من النبلاء. أما الإنتاج الزراعي فقد كان يشرف على إدارته في الواقع المزارعون الذين كانوا يدفعون إيجاراً ولكنهم كانوا متموّلين، ولذلك كانوا يوظفون فلاحين للقيام بالجزء الأكبر من الأعمال. أما مالكو الأراضي الإنكليز فهم أفراد أعضاء في الطبقات العليا وكانوا يتقاضون الإيجار، علماً بأنه كان يُتوقع منهم ضمنياً شغل مناصب عامة مفيدة من مثل قضاة أو أعضاء في البرلمان، وإدخال أبنائهم للعمل كضباط في الجيش أو في البحرية. صحيح أن رواتب معينة كانت مخصصة لهذه الوظائف، ولكنها كانت منخفضة إلى ما دون مستوى تكلفة إبقاء نبيل من النبلاء في هذه المناصب المذكورة، في البنغال، استخدم النظام الإنكليزي كنموذج، فسعى موظفو الشركة إلى وضع الزاميندار في منصب شكلي على طراز مالك الأراضي الإنكليزي. واعترفت الشركة بهم على أنهم مالكو الأراضي والمسؤولون عن دفع المردود. وقرر أيضاً، في ١٧٩٣، تحديد المردود بمبلغ ثابت من المال لكل قطعة من الأرض لا يتغير مع مرور الزمن. وعرف هذا الإجراء في التاريخ الهندي بالتسوية settlement الدائمة للبنغال.

نتج، بشكل عام، عن هذه التسوية أو هذه الصيغة انحصار الحقوق المختلفة للأراضي ضمن مجموعة واحدة عُرِّفت على أنها: مجموعة المالكين، أي الزاميندارين الأصليين الذين كانوا يجمعون المردود الأول من الفلاحين. وبالتالي فقد الإقطاعيون الكبار والملتزمون والفلاحون حقوقهم العرفية. وهكذا أنتجت الصيغة الدائمة تحولات مهمة في مدخول العديد من المستحقين الذين تغيروا أيضاً مع مرور الزمن.

في المرحلة الأولى، خسر كل المطالبين بالأرض أو بإنتاجها لصالح الزاميندار الأول. وفي غضون بضعة عقود، خفض التضخم القيمة الحقيقية للمرود، وتكبد

الراج البريطاني نفسه خسارةً مقارنةً بالدخل الأول. لكن مع تزايد عدد السكان، زادت قيمة الأراضي، وازداد ثراء مالكي الحقوق من الزميندارين بفضل المكاسب غير المتوقعة؛ ولكن التبدل الاجتماعي الفعلي كان أكثر تعقيداً. في أجزاء عديدة من البنغال، عجز الزميندارون عن الاحتفاظ بمناصبهم؛ لأن الدفعات الأولى التي كانوا يدينون بها للشركة كانت مرتفعة للغاية. وبالتالي كانوا مضطرين للبيع للغير، وفي أغلب الأحيان، لأثرياء من كالكوتا ومراكز حضرية أخرى أبدت استعدادها للاستثمار في المردودات المستقبلية للأراضي. ولم يكن المالكون الحضريون الجدد يقيمون على مقربة من الأراضي، كما لم تكن لهم أي علاقة شخصية بالفلاحين الذين كانوا يعملون في الأرض، ولذلك أصبح الهدف الاجتماعي الرسمي القائم على طبقة الملاَّك الإنكليزية بعيداً بشكل متزايد.

ومن الناحية العملية تغيّر موقع الزميندار أيضاً عندما تحوّلت الواجبات الإدارية والعسكرية السابقة إلى فروع أخرى ضمن البيروقراطية الجديدة. وعوضاً عن أن يشكلوا جزءاً من الحكومة المحلية في المستويات الوسطى والدنيا أصبحوا مجرد جباة للإيجارات- لكنْ في الواقع، صاروا مالكين للأراضي يدفعون جزءاً من مدخولهم للحكومة.

وبالإمكان تعقب التاريخ الطويل الأمد للزميندار البنغالي بوصفهم طبقة عبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المتأخر للنبغال وبنغلاديش، لكنْ ما يهمنا في هذا الصدد هو: أن سياسة جديدة تتعلق بتقييم المردود سببت شكلاً من أشكال إعادة توزيع الدخل والمناصب الاجتماعية. وأصبحتها التسوية الدائمة للنبغال مثالاً تقليدياً عن التغيرات غير المقصودة التي تنتج عن تدخل حكام الإمبراطوريات الأوروبية في الأنظمة المحلية لملكية الأرض.

روسيا في آسيا الوسطى:

قبل الستينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن التقدم الروسي في الأراضي الداخلية غير السلافية لآسيا الوسطى قد وصل إلا إلى محيط المجتمعات المهمة

المقيمة على طول الأودية المروية لنهري سيحون وجيحون المتدفق إلى بحر الأورال. حيث كانت الوحدات السياسية الرئيسة هي خانات كوكند وخيوه وبخارى. وفي الفترة المتراوحة بين الستينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، صار التقدم العسكري الروسي سريعاً وكاملاً. ضمّ الروس كوكند مباشرةً، بالإضافة إلى أجزاء الخانتين الأخريين، ولكنهم تركوا القسم الأعظم من خيوه وبخارى في ظل إدارة روسية فعلية أقلّ مما كان عليه الحال عامةً في الولايات الأصلية في الهند.

وابتداءً من الستينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن أمام الروس بشأن ملكية الأرض الخيارات التي لدى الإنجليز المحتلين للبنغال. وعلى غرار الهند تحت حكم المغول- وكما هو معروف عامةً في الفقه الإسلامي- تعود ملكية الأراضي كافة من الناحية النظرية إلى الدولة. ولكنّ السيطرة الفعلية على الأراضي في المناطق الحضرية في آسيا الوسطى كانت في أيدي الطبقة الأرستقراطية المحلية، وبعض المؤسسات الخيرية الإسلامية (الأوقاف). وحذا الروس في البداية حذو البريطانيين في البنغال وعاملوا القيّمين على الأراضي على أنهم الملاّك، ولكنهم كانوا يرغبون بزيادة المردود الحكومي إلى أقصى حد، كما كانت الشكوك تساورهم بخصوص الطبقة الأرستقراطية: لذلك أعلنوا بأنّ ملكية كافة الأراضي لا تزال تعود للدولة، ولكنّ الحيازة الفعلية هي من نصيب الذين كانوا بالفعل يعملون فيها. جُلُّ ما احتفظوا به من سُلُطاتٍ محلية كانت ممثَّلةً بالموظفين في القرى المسؤولين عن مياه الري، واعتُبروا مستقلين عن طبقة الارستقراطيين القديمة.

لم يقتصر الطابع الثوري النابع من هذ الحركة على آسيا الوسطى فحسب. فقد جاد بكرمه على الفلاحين المحليين أكثر مما فعل مع العبيد الروس عند إعتاقهم في الستينيات من القرن التاسع عشر. ولكنّ الداعي لم يكن إقامة طبقة الفلاحين الأحرار كهدف اجتماعي مطلوب، بل الحصول على قدر أكبر من مرودود الأراضي. اعتقد الروس أنه بالإمكان انتزاع المزيد من الفلاحين من خلال القضاء على المطالبين الآخرين واستخدام خدمات جباة الضرائب المأجورين وغير الدائمين.

أدى النظام الروسي لملكية الأراضي في سنة ١٨٦٨م على غرار غيره من الأنظمة التي كان من الممكن انتقاؤها، إلى عواقب اجتماعية. ومن أبرز هذه العواقب، إفقار الطبقة الأرستقراطية المحلية، التي خسرت تدريجياً هيبتها لصالح المجتمع المحلي. وبحلول الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية، كان الأمراء والسادة الإقطاعيون قد اختفوا إلى حد كبير من المناطق المحلقة، علماً بأن نفوذهم وسطوتهم استمرتا في الخانتين شبه المستقلتين.

ومع دنو حقبة الثورة، كان المصدران الوحيدان للقيادة المحلية لدى مُلاك الأرض في القرى أو بين النخبة المسلمة المتدنّية المثقفة. وقد تكون الاضطرابات الناتجة عن الحرب قد دفعت بعض سكان آسيا الوسطى للسعي وراء الحصول على استقلالهم عن روسيا- أو عن الاتحاد السوفييتي بعد ١٩١٧- ولكن في الغالب لم يحدث شيء من هذا القبيل. ففي سنة ١٩١٦، عمّت احتجاجات آسيا الوسطى بسبب أعمال السخرة، ولكن لم تنبثق أيُّ حركة بارزة مطالبة بالاستقلال حينها أو مباشرةً عَقِب الثورة. وصدرت المعارضة الأشرس للنظام السوفييتي الجديد من خيوة وبخارى، وقد نزعها الأرستقراطيون المحليون الذين سمح لهم النظام الروسي السابق بالبقاء في مراكز نفوذ بوصفهم حكاماً غير مباشرين.

بحلول العشرينيات من القرن العشرين، شعر الاتحاد السوفييتي بأنه يتمتع بقوة كافية ليحاول تطبيق ترتيباته الخاصة في إعادة تشكيل بنية مجتمع آسيا الوسطى. في الأراضي المروية من تركستان، نشر السوفييت سيطرتهم على أراضي الدولة السابقة كافة التي وزعتها روسيا على الفلاحين منذ نصف قرن خلا وحوّلها إلى مزارع جماعية كبيرة وُضعت عادةً تحت إدارة روسية سوفييته. لقد بات إدخال الطابع الروسي على الإدارة أمراً ممكناً بما أنّ عدد المستوطنين الروس شكّل مجتمعاً أولياً متعدداً يتضمن عدداً من الدخلاء السلافيين يكفي لتزويد الإدارة grassroots بالموظفين. لا ينبغي أن ننسى، في الخلفية، وجود القطن الذي لعب

دوراً مهماً لغاية بالنسبة للدولة السوفييتية، بحيث صارت قادرة على استثمار الموارد اللازمة لتنظيم تلك العملية وفقاً للممارسات الجماعية.

ووجد السوفييت أنه من الضروري توظيف إداريين محليين لأسباب سياسية جزئياً. ولكن محاولتهم «استخدام السكان الأصليين» في الإدارة أدت أيضاً إلى نتائج اجتماعية. وربما حاول السوفييت العمل من خلال الأشخاص الذين احتلوا مراكز القيادة المحلية في الماضي. ولكنّ الطبقة الارستقراطية اختفت. ثم إنّ الشكوك ساورتهم حيال الفلاحين؛ ولذلك سعوا لتوظيف أشخاص يطابقون المعايير الروسية بدلاً من هم. وبعملهم هذا ، كوّنوا نخبة جديدة تدربت على النظام السوفييتي إلا أنها لم تُظهر -على المدى الطويل- ولاءً له يفوق ما كانت تبديه الجمهورية السوفييتية الاشتراكية التي حصلت على استقلالها عند انهيار الاتحاد السوفييتي.

جاوة:

يمثل النزام الهولندي في جاوة مثالاً لشكلٍ مختلف من الخيارات الإدارية. عند وصول الهولنديين في مطلع القرن السابع عشر، كان القسم الأكبر من جاوة خاضعاً لسيطرة إمبراطوريةٍ بيروقراطية، هي إمبراطورية الماتارام. كانت كثافة السكان في الجزيرة مرتفعة، كما كان القرويون ينتجون الأرز غير المقشور الذي يشكل المحصول الغذائي الأساسي. وشغل البلاط الامبراطوري قمة الهرم البيروقراطي، الذي كانت له سيطرة اسمية على البوباتي أو زعماء الأقاليم. والبوباتي وجهاء وزعماء عشائر في الحواضر والأرياف، كان البلاط يعترف بهم، وينقل سلطاتهم أيضاً إلى أولادهم.

وحكم البوباتي من خلال طبقة تابعة من النخبة تعرف باسم البريايي الذي كانت تفصلهم عن الفلاحين العاديين هوة عميقة من الثقافة والتقاليد. اتّسمت ثقافة جاوة التقليدية بكل ما تشتمل عليه من مسرحيات خيال الظل والموسيقى والكتابات الدينية بطابع البيريايي أساساً وهو مُغايرٌ تماماً لحياة الفلاحين الثقافية.

لم يكن في نية التجار الهولنديين الذين وصلوا في القرن السابع عشر السيطرةُ على ماتارام، حتى كانوا قادرين على ذلك. ولكنهم كانوا بحاجة إلى قاعدة محلية فاحتلوا مدينة جاكارتا الساحلية وأعادوا تسميتها باتافيا. تأسست الشركة الهولندية شرق الهند على شكل شركة تجارية، مع أنها كانت مخوّلةً شنَّ الحروب عند الضرورة لتوسيع إطار تجارتها. واستخدمت باتافيا كقاعدة للتجارة وللمفاوضات التي كانت تجريها مع القوى الأخرى في المنطقة من خلال الضغط التجاري، والحروب، والدبلوماسية.

دخلت شركة الهند الشرقية الهولندية في متاهة السياسات في بلاط ماتارام، محاولةً على الدوام الحصول على المزيد من الأفضلية التجارية والأمان لقاعدتها. اتكلت بشكل رئيس على الدبلوماسية، ولكنها كانت تنصر أحد الحكام على آخر بالتدخلات العسكرية. ونتيجةً للضغوطات المتعددة، اكتسبت الشركة الهولندية تدريجياً أراضي تمتلكها ماتارام، وكان القسم الأكبر منها في جوار جاكاراتا. كانت الشركة تمارس أعمالاً إدارية، محاولةً الحصول على الميزات الاحتكارية التي يمكن أن تنتج عن استخدامٍ معتدلٍ للقوة. ولم تكن تسعى لحكم البلاد بشكل فعلي. وخلافاً للوضع الذي واجهته الشركة البريطانية في الهند، لم يشكل مردود الأراضي موضوع اهتمام رئيس، علماً بأن أهميته ستظهر بعد أن سلمت الشركة الهولندية زمام الأمور لحكومة الهند الهولندية في مطلع القرن التاسع عشر.

تركت الشركة الهولندية أراضي جاوة التي كانت خاضعةً لسيطرتها بين أيدي طبقة البوباتي ذاتها التي خدمت مسبقاً في ماتارام. وفي بعض الأحيان، كانت تبقي، بكل بساطة، الموظفين ذاتهم في مناصبهم وتضفي عليهم لقب regenten (كلمة حاكم باللغة الهولندية). وتُطلَقُ عليهم تسمية regent الإنكليزية في كتب التاريخ الخاصة بتاريخ جاوة، مع أن هذا المصطلح يحمل بالإنكليزية عادةً معنىً مختلفاً بعض الشيء. وعلى كل حال، استمر نظام الحكم هذا من خلال الحكام المحليين

بمواكبة تزايد السيطرة الهولندية في البلاد، وتدنّي نفوذ بلاط ماتارام، إلى أن تمكن الهولنديون من بسط سيطرتهم على الجزيرة بأسرها.

تغيرت القوة الفعلية للحكام مع مرور الزمن. فخلال القرن الثامن عشر، اتسم نفوذهم بقوة فاقت ما كان عليه أسلافهم، على الأرجح، في ظل حكم ماتارام. لقد أطلقت يدهم إلى حد مقعول في أراضيهم الخاصة، لأنه لم تكن للهولنديين اهتمامات تتعدى العمل التجاري. قدمت الشركة الهولندية للحكام رئيساً قوياً دعمهم وحرّرهم بالتالي من خطر قلب النظام عليهم من الطبقات الدنيا. وفي المقابل، أولت الشركة الحكام مسؤولية التأكد من عمل الفلاحين في الزراعة، وتوصيل بعض المنتوجات الأوروبية.

في سنة ١٨٠٠، تكبّدت الشركة خسارة مالية كبيرة، فاستلمت الحكومة الهولندية زمام الأمور في أراضيها، وبدأ الحكام الجدد بخلاف النزعة السابقة، وواصل الاحتلال البريطاني الذي دام من عام ١٨١١ حتى ١٨١٦ فرض سيطرة مركزية محكمة، وأدخل تشديداً جديداً على مردود الأراضي. وحذا في ذلك حذو المثال الهندي. كما أن البريطانيين بدؤوا بتخصيص أراض خصبة لمزارعين أوروبيين كي يستغلوها استغلالاً مباشراً يتطلب مراقبةً أكثر تشدداً.

عند عودة الهولنديين من الحروب النابوليونية، عيّنوا مقيماً هولندياً في بلاط كلٍ من الحكام، وأمروا بنقض أي قرار من قرارات الحكام، كما فرضوا مجموعةً مفصلةً من التعليمات الإدارية، مستخدمين الحكام لفرض السياسة الاقتصادية المطبقة في تلك الفترة: سواء أكانت تقضي بجباية إيجارات الأراضي للحكومة المركزية، أم تطلب بعض أنواع المحاصيل على شكل جزية، أو مراقبة التعديات التي تعرض لها مزارع يمتلكها الهولنديون على حساب الزراعة القروية التقليدية. وتشير هذه الأهداف والوسائل الجديدة إلى أن الهولنديين نزعوا نحو إقامة بيروقراطية أوروبية الطراز، ولكنّ تطورات أخرى أبطلتْ هذا التوجُّه.

بدأت حـرب جـاوة التي امـتـدت من سنـة ١٨٢٥ إلى ١٨٣٠ على أنهـا ثورة ضـد حكومـة الهند الهولندية بقيادة الأمير ديـاناغـارا Dipanagara الذي كان يحظى بإعجاب الجماهير. كانت حرمته تتضمن عناصر ألفية Millenarian ونشورية إسلامية جذبت للأمير عدداً كبيراً من الأتباع بين سكان المناطق الريفية. وربح الهولنديون الحرب بفضل ما قدمه معظم الحكّام المحليين من دعم، ولكنّ الفوز كان باهظَ التكاليف. ولقد لقنتهم هذه التجربة درساً ألا وهو أنّ دعم الحكام ضروري لاستقرار نظامهم- فقد كانوا في كل الأحوال القادة الطبيعيين الذين اعتاد سكان جاوة على الانصياع لهم. وهكذا تأكدت قيمة الثنائية في الحكومة الاستعمارية، وساعدت في إبقاء الحكام قادةً لجاوة- ولتابعيهم من البرياي- إلى أن احتلها اليابانيون سنة ١٩٤٢.

حدث تغيير بالطبع ولكنّ سكان جاوة اضطلعوا بالقسم الأعظم من الإدارة اليومية. ففي سنة ١٨٦٥، كان الهولنديون يحكمون جاوة التي كان يبلغ عدد سكانها حوالي ١٢ مليون نسمة، فيما لم يتعد عدد الموظفين المدنيين الهولنديين ١٤٥، وقد كانوا يحكمون من خلال ٦٩ حاكماً regents ينصاع لهم حوالي ٤٠٠ زعيم إقليمي من البرياي الذين حاولوا بدورهم الحفاظ على الانضباط بين آلافٍ من الوجهاء القرويين. وبحلول القرن العشرين، زادت الحكومة الاستعمارية تعقيداً، مع أن عدد الحكام regents لم يزد في سنة ١٩٣٠، عن ٧٢ حاكماً في جاوة بأسرها.

اتصف الهولنديون بالتضارب فيما يتعلق بالإدارة الاستعمارية، لقد عيل صبرهم تجاه التقليدية الشديدة للحكام المحليين. ولكنهم يعتمدون عليهم باعتبارهم حلفاء مهمين طوال النصف الأول من القرن العشرين. شعروا بأنّ الخطر الحقيقي الذي كان يُحْدق بنظامهم، متأتٍ من مصدرين أحدهما على مستوى القرية يصدر من المطالب الدينية للوجهاء المسلمين، والثاني على المستوى السياسي يصدر من الوطنيين الحضريين الذين تلقوا تعليماً غربياً ويطالبون بالاستقلال. وفيما كانت الحكومة الهولندية تدعم الحكام regents، فقد كانت

تتعامل عند الإمكان مع طبقة البريايي الدنيا أيضاً، الذين تعلموا اللغة الهولندية وتلقوا تعليماً على الطريقة الهولندية.

أولى الحكام regents أهميةً كبيرةً للدعم الهولندي جزئياً؛ لأنهم لم يكونوا يتمتعون بشعبية لدى الطرف الديني والطرف الوطني في المعارضة. وظلت مناصبهم متوارثةً جيلاً بعد جيل إلى حدٍ كبير تطبيقاً لعرفٍ معتمدٍ وليس للقانون. وفي سنة ١٩٣٠، كان حوالي ثلثي الحكام البالغ عددهم ٧٥ ابناً لحاكمٍ سابقٍ أو أحد أقاربهم في بعض أجزاء جاوة وأخيراً، تلاشى منصب الحاكم في خضم الاضطرابات التي سببها الاحتلال الياباني وحرب الاستقلال التي أعقبتها. ولكنّ العديد من تقاليد البريايي التي تشكل طبقة كثيرة العدد نقلت إلى الخدمة المدنية الموسعة على نطاق كبير في إندونيسيا المستقلة. وعقب منتصف الستينيات من القرن العشرين، شغل الحكام العسكريون الجدد مناصب أشبه بالحكومة المركزية الهولندية في باتافيا، وأسهم المتحدرون من سيلة البريايي مساهمةً مهمةً في عضوية البيروقراطية التي استولت على دور البريايي الذين استخدمهم الهولنديون والحكام REGENT لحكم البلاد من خلالهم.

الملايو:

تماثل شبه الجزيرة الملايو جاوة لغوياً وثقافياً، كما أنها مرت بفترةٍ من الحكم الثنائي الذي انقسم بين سلاطين الملايو من جهة، والمسؤولين البريطاني، من جهة ثانية. ولكن تباينت طبيعة المواجهة ونتيجتها الطويلة الأمد تبايناً كاملاً. بادئ ذي بدء، اتسم الاهتمام البريطاني في جنوب شرق آسيا في القرن التاسع عشر بالطابع التجاري حصراً. لقد بنى البريطانيون امبراطوريتهم الإقليمية في الهند، وقد أعادت بريطانيا بكل رضاها جاوة إلى هولندا بعد حروب نابوليون. ولكنها احتفظت ببضعة مرافئ صغيرة على مضيق ملقة، وأسست مدينةً مرفئيةً جديدةً عند سنغافورة لضمان المرور عبر المضائق ونشر تجارتهم في البلاد المجاورة.

على شبه جزيرة الملايو كانت سيام تمثل الكيان السياسي الوحيد الذي كان يقارب من حيث النفوذ ماتارام، أو حتى جاكرتا. وقد امتدت سلطتهم نحو الجنوب داخل ما صار حالياً شمال ماليزيا. وانتشرت بين الكتلة السيامية ومستوطنات المضائق البريطانية سلسلة من الدويلات الصغيرة الواقعة عند مصبات الأنهار، وقد كانت كل منها تسعى دون إحراز الكثير للسيطرة على تجارة الأراضي الداخلية. وبالكاد تميَّز أيٌّ من سلاطين هذه الدول بما يشبه النفوذ الذي كان يتمتع به البوباتي المتوسطي المستوى العالمي في خدمة ماتارام أو الحكام العاملين في خدمة الهولنديين في الفترة ذاتها في كل الحالات. كان عدد سكان شبه جزيرة الملايو أقل بكثير عنه في جاوة. لقد سبق وتطرقنا في الفصل الثالث إلى مسألة الاضطرابات التي قادت إلى تطبيق نظام المحميات البريطانية على دول الملايو. كانت معاهدة بانكور بالإضافة على معاهدات أخرى تشكلت على طرازها تشبه سطحياً العلاقات التي كانت تربط بين حكام الهند الهولندية وحكام regent جاوة ولكنْ خلافاً للاتفاق الذي عقد مع المقيمين في جاوة، تضمنت معاهدات الملايو شرطاً يفرض أن يطلب كل سلطانٍ نصيحة المقيم في منطقته واحترامها في كل المسائل المغايرة لتلك التي تمس ديانة الملايو وتقاليدها. وخلال العقود التالية، وضعت معاهدات مماثلة وقعت مع سلاطين آخرين أساسات دول الملايو المتحدة. وفي نهاية المطاف ظهر كيان أوسع نطاقاً وهو الملايو البريطانية- التي أصبحت فيما بعد دولة ماليزيا المستقلة الحالية.

وتبقى المسألة الجوهرية هي: إلى أي حد يمنح المقيمون الجدد النصيحة، وإلى أي نوعٍ تنتمي هذه النصيحة؟ مارست الإمبراطورية الهولندية مجموعةً متنوعةً من ممارسات الحكم غير المباشر. ولكنَّ سلاطين الملايو افتقروا، في هذه الحالة، إلى الآلية الإدارية التي تخولهم معالجة أكثر مشكلاتهم إلحاحاً، أي الهجرة الصينية والنمو الاقتصادي المستند إلى القصدير والمزارع. تمحور الحلّ الذي اقترحه المقيمون حول إقامة إدارة حكومية جديدة غربية الطراز تخضع نظرياً لحكم السلاطين ولكن بإدارتهم هم في الواقع.

وتجاهل المقيمون أشكال الملايو الحكومية وأدخلوا الموظفين البريطانيين والأشكال القانونية البريطانية. وعندما كانوا يشعرون بالحاجة لموظفين محليين تابعين، كانوا يختارونهم من بين السكان المحليين المتعلمين على الطريقة الغربية. وفيما احتفظ الهولنديون في جاوة بقانون البلاد المحلي في كلا الحالات التي كانت تخص غير الهولنديين، أدخل البريطانيون في ولاية الملايو القانون الجزائي الهندي الذي كان غربياً في جوهره. أما في الحالات المدنية، فقد أدخلوا نظاماً قانونياً جديداً مستنداً إلى القانون المدني البريطاني. وتحوّل السلاطين إلى مجموعة من الملوك الدستوريين يمتلكون كل ما يحيط بالنفوذ من زخرفة، ولكنهم لا يتمتعون بسلطة فعلية خارج الحياة الثقافية والدينية. احتاج البريطانيون للسلاطين باعتبارهم ممثلين، كما احتاج السلاطين البريطانيين من أجل تسيير الإدارة الغربية الطراز.

كان الهولنديون ينتحون منحىً مماثلاً قبل حرب جاوة. ولكن سعيهم للأمن دفعهم، عقب الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، للاعتماد على الحكام الذين كانوا يمارسون سلطة فعلية بالأساليب التقليدية. تقبلت سنغافورة والسلاطين على حدٍ سواء، هذا الحل الذي اقترحه مقيمو الملايو في إدخال المزيد من الطرائق الغربية إلى الإدارة. ولم تكن لندن على علم بالكثير عن السياسات الفعلية المعتمدة إلا بعدما كانت تترجم على أرض الواقع. وفي الوقت ذاته، لم يكن مقيمو الملايو أعضاء عاديين في حكومة مستوطنات المضائق. ولذلك كانوا يتمتعون بقدر من حرية التصرف، ولم تكن سنغافورة مهتمةً اهتماماً عميقاً بتصرفات المقيمين في ولايات الملايو طالما لم يكونوا يطالبون بزيادات أساسية في ميزانيتهم. وتزايد نفوذ السلطات تزايداً كبيراً من خلال الأعمال التي كان يطلقها المقيمون، في حين تناقصت سلطة السلاطين؛ ولكنّ ضَعفَ نفوذهم كان مصحوباً بزيادةِ ثرواتهم وتعزُّز هيبتهم ومركزهم. وفيما أصبح نظامُ الحماية المفروض على ولايات الملايو خيالياً ومعقداً ومتنوعاً، بات موقع السلاطين الرسمي مضموناً أكثر من ذي قبل.

كان من نتائج هذه العملية تحويل سلاطين الملايو إلى مجموعة من الدُّمى المعدومة النفوذ، لذلك لم تشكل أيَّ خطر على القيادة الوطنية في فترة الاستقلال سنة ١٩٥٧. أُبقي على السلاطين كشكل من أشكال الملكية الدستورية، وكانوا ينتخبون دورياً واحداً منهم رئيساً لدولة ماليزيا لولايةٍ تدوم خمس سنوات. وعلى المدى الطويل، كوَّن سلاطين الملايو ملكيةً من بين بضع ملكيات غير غربية استمرت في حقبة الحماية الأوروبية وبقيت في زمن الاستقلال دون إقدام الشعب على خلع أولئك السلاطين.

مناقشة:

من بين الأمثلة الأربعة المذكورة، يعدّ البلدان الأوّلان، أي البنغال وآسيا الوسطى، مثالين على التغيرات في ملكية الأراضي التي اتخذت اتجاهات متعاكسة. اختير الزميندار في البنغال من بين عدة مجموعات لهم حقوق تاريخية، وارتقوا إلى مرتبة مُلاك الأرض. ولكنّ قلةً قليلةً من الزميندار نقلوا امتيازاتهم إلى نسلهم. دخل أشخاصٌ جُدُدٌ جرى إقصاءُ القُدامى.

من ناحية أخرى، حُرم الأشخاص المناظرون للزميندار في آسيا الوسطى، من ألقابهم وحقوقهم. وانتقل ما يشبه ملكية الأراضي إلى الفلاحين، ولكنهم هُزموا أيضاً في الثلاثينيات من القرن العشرين لصالح تطبيق المبدأ الجماعي. انتقل الحكم الفعلي للتقنيين والبيروقراطيين المناصرين للتحديث والمدربين على يد السوفييت.

وثمة نقطةٌ مثيرةٌ للتهكم مفادها: أن الأوروبيين الذين سعوا لزيادة مردود الأراضي إلى أعلى مستوياته كانوا قد وضعوا نصب أعينهم أيضاً أهدافاً اجتماعية وسياسةً أخرى. وقد دفعتهم محاولة تحقيق هذه الأهداف إلى إدخال تغييرات في الأنظمة التقليدية لملكية الأراضي، وقد نتج عن ذلك تغير أساسي في مجتمع البنغال، ولم تظهر كل العواقب التي كانوا يتوقعونها.

أما المجموعة الثانية من الحالات فذات صلة بحركة التحديث الإداري والسياسي بموازاة مسألة ملكية الأراضي. فقد ظلت الهوة الفاصلة بين المقاصد والنتائج على

حالها تقريباً بالنسبة للأوربيين وغير الأوربيين على حد سواء. فيما كان الحكام يعملون في خدمة الهولنديين، حوّلوا أنفسهم، على مدار قرن من الزمن أو أكثر، إلى طبقة من الموظفين يضمنون بقاءهم في مناصبهم أكثر من سابقيهم البوباتي في ظل حكم ماتارام. استفاد الهولنديون منهم كأنهم ممثلون على خشبة مسرح سياسي. ولكنّ النفوذ الذي تمتعوا به وقف في وجه المجموعات المنبثقة على أرض جاوة، وهم الوطنيون المتعلمون على يد الغربيين من جهة، والزعماء الدينيون المسلمون التقليديون من جهة أخرى. وفي الوقت المناسب، وعلى الرغم من شكل من أشكال الاستمرارية في السلطات الممنوحة لبيروقراطية البريايي، تلاشى منصب الحكام regents على يد البيروقراطيين الجدد المتعلمين على الطريقة الغربية والعسكرية.

ومن جهة أخرى، تمكن السلاطين في الملايو من البقاء في مراكزهم، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى تخليهم عن نفوذهم لصالح نمط غربي من الإدارة عند مستويات دنيا. ولم يشكلوا بالتالي أيّ عائق أمام السلطة الاستعمارية ولا أمام القيادة الوطنية بعد الاستقلال.. تمتع سلاطين الملايو، بوصفهم ملوكاً دستوريين بسطوة فعلية في المسائل السياسية فاقت ما كان يحظى به معظم أسلافهم. وفي الحالتين، في البنغال كما في آسيا الوسطى، اضطلعت الخيارات الإدارية الأوروبية بدور جوهري في مسار التاريخ المتأخر، حتى بعد الاستقلال، ولكنّ النتيجة لم تكن إحدى العواقب التي كان يرجوها الأوربيون أو يتوقعونها.



القسم الثالث

التحول

أنتجت العولمة الشاملة في النصف الثاني من القرن الماضي تواصلاً ثقافياً متبادلاً أكثر كثافة مما كان عليه في أي حقبة زمنية أخرى من التاريخ. في فترات مبكرة – كما اليوم – كان التغيّر الثقافي عبارةً عن ناتج ثانوي عرضي للاتصال بين أشخاص يتميَّزون بأساليب مختلفة للعيش، والقسم الأكبر منه غير مقصود. ولكنّ التغير الثقافي المقصود الذي يُعرف أيضاً بالتحوّل دوراً في غاية الأهمية أيضاً، ويشتمل هذا التحوّل على تغيير الديانة ولكنه لا يقتصر عليها، كما يمكنُ أن يحصُلَ بمبادرةٍ من مقترضي الثقافة كما من ناقليها. وهو يُعتبر عمليةً ثُنائية الجوانب في كل الأحوال. شرع المبشّرون، بما فيهم الدُعاة غير الدينيين، في إقناع الآخرين بتغيير نمط عيشهم ولكنهم حققوا النجاح عادةً في جزءٍ من عملهم، ولم يظهر نجاحهم إلا عندما رغب جمهورهم في الاستماع لما يقولون.

يُعدُّ التغير الثقافي الناتج عن مبادرةٍ من المستعيرين أكثر شيوعاً من غيره. فخلال القرون الأخيرة، تأتّى القسم الأكبر من المبادرة من أصحاب التحديث غير الغربيين والذين عايشوا قبلهم التهديد الذي تسلطه عليهم القوة الغربية، والجاذبية القوية المنبعثة من المهارات التكنولوجية الغربية، ولكنهم لم يعيروا اهتماماً شديداً لمحاكاة الثقافة الغربية مثلما كانوا يتوقون للمشاركة في مكاسب الإنتاجية العالية والاستهلاك المرتفع اللذين شكّلا أكثر مظاهر الغرب بروزاً خلال العصر الصناعي المبكر. لوحظ، بشكل شائع، في ميدان التغير الثقافي على مر القرون، بأنّ أوروبا الغربية كانت، على غرار اليابان، الأكثر شغفاً، بمحاكاة التقنيات الآتية من الخارج. ومن وجهة نظر تقنية صرف، اقترض القسم الأعظم مما جمعه الأوروبيون بنجاح

باهر لإقامة العصر الصناعي من مجتمعات مغايرة. وبحلول القرن التاسع عشر، بدا تفوق الغرب التقني ظاهراً لعيان الجميع مع أنه لم يحز على إعجاب الجميع. لقد كان هذا التفوق التقني مصدراً من مصادر قدرة أوروبا على الغزو وإنشاء إمبراطوريتها في الخارج. وقد طرح موضوع الجهد المبذول للتملّص من تهديد أوروبا بالسيطرة تكراراً ومراراً في مطالبة غير الغربيين بالتحديث، ولا سيما في مجال التكنولوجيا العسكرية.

ومرةً أخرى، لا تفيدُ كلمة التحديث، حسب استخدامها في هذه الدراسات، معنى تقليد الغرب، لا بل قد تدفعه في بعض الحالات، الرغبة بتفادي الغرب، ولا سيما القوة العسكرية الغربية. واستناداً إلى هذا التعريف، ليس التحديث كياناً متجانساً، ويشتمل الاندفاع نحو التحديث على خيارات مهمة بين عدد من الطرق الممكنة المؤدية إلى الإنتاجية العالية والاستهلاك الفردي المرتفع، يبدي كل من الغرب، واليابان، والدول التي دخلت مجال التصنيع حديثاً على الجانب الغربي من الباسيفيكي، اختلافاً ثقافياً مهماً، علماً بأنها كلها حديثة بالمعنى الذي استخدمه لهذه الكلمة.

ولكنَّ القرارات التي يتّخذها الناس لا تميِّز، في كل الأحوال، بين ما هو ضروري لتحقيق هدف التحديث وبين عكسه. بدت بعض المظاهر التي ارتبطت أولاً بالغرب أساسية، من قبيل التكنولوجيا الصناعية والعلوم، والمعدّلات المرتفعة من التعليم والتعليم الجماعي، ودرجة مرتفعة من الحركيّة الاجتماعية، وبعضها الآخر ليس أساسياً ولكنه اقترض، في كل الأحوال، من قبيل ما تبنته اليابان من المظاهر الغربية التجارية الخاصة بعيد الميلاد، تاركةً الأساس الديني لهذه المناسبة جانباً. وخلال العقود القريبة العهد، انتشرت، في كل أنحاء العالم، عناصر أخرى من الثقافة الغربية، من قبيل الموسيقى الشعبية الأمريكية والجينز الأزرق، لم تكن أساساً في حركة التحديث، إلا أنها وصلت حتى إلى أماكن كانت فيها عجلة التحديث بطيئةً للغاية في نواحٍ أخرى.

أدّى الافتراض المتبادل، في حالات نادرة، إلى نسخة كربونية للأصل. إذ عندما يضع أفراد مجتمع ما أيديهم على مزية من مزايا مجتمع غريب، يُسحب الإبداع من الإطار الثقافي الأصلي ويندمج في إطار جديد. وعند حدوث وضعٍ كهذا، فإنه يكون إما محوراً بحيث يتناسب مع سياقه الجديد، أو يحوّر بنفسه بيئته الثقافية الجديدة. وبشكلٍ عام، يحصل التحول بشكليه إلى حد ما.

تُعنى الفصول الأربعة التالية بأمثلة تكون فيها الشعوب عرضة، بشكل أو بآخر، لتهديد القوة الغربية، فتختار الأخذ من الغرب طوعاً بشكل انتقائي مما يؤدي إلى مجموعة متنوعة من النتائج المختلفة.





الإرساليات المسيحية في شرق إفريقية

أدى كلٌّ من الإسلام، والمسيحية، والبوذية دوراً رئيساً في التقارب الثقافي على مدار الألفي سنة المنصرمة أو ما قاربها. وقد يكون مثيراً للاهتمام - وإن كان بعيداً بعداً شاسعاً عن موضوع بحثنا هذا - تتبع تاريخ الدعوة والتبشير بطريقة مقارنة سعياً لمعرفة السبب الذي جعل هذه الديانات الثلاث مميَّزة إلى هذا الحد في قدرتها على اكتساب أتباع جدد من أبناء الثقافات الأخرى. لا شك في أن الجواب سيكون مختلطاً. ولكن الجواب التقريبي الأولي سيفيد بأن الديانات الرئيسة في العالم الحديث هي تلك التي تستند إلى ركيزة عقائدية تتضمن جهداً يُبذل لجذب المؤمنين، وتكون الدعوة في مستوى معيَّن. ميزةً محدَّدة لديانات العالم الحالي. من جهة أخرى، يحتوي السجل التاريخي على دلائل كثيرة عن الجهود التبشيرية العقيمة بحيث لا يمكن أن يكون هذا هو التبرير الوحيد. لذلك ربما كان ينبغي أن يقوَّم تفسيرُ تغيير الدين، في الغالب من جانب معتنق الديانة الجديدة. خلال القرن ونصف القرن الماضيين، تشابكت، لا محالة، مبادرات الإرساليات المسيحية مع الغزوات التي شنّها الأوروبيون في الحقبة الزمنية ذاتها ظهرت الرسالة المسيحية، في أغلب الأحيان، بشكل متزامن مع انتصار الجيش الغربي، وإقامة الإمبراطوريات الأوروبية. أما الطريقة التي تطوَّرت بموجبها هذه التفاعلات في شرق إفريقية عامةً ومملكة بوغندا خاصةً، فتشكل موضوع هذا الفصل، لا يُعدُّ شرق إفريقية، بالضرورة، نموذجياً حتى بالنسبة لأجزاء أخرى من إفريقية، أما بوغندا فقد كانت تشكل حالةً خاصةً، إلا أنّ التطورات التي شهدتها هذه الدولة الصغيرة تمثل التعقيد الذي اتسمت به الظروف السياسية والاجتماعية من النواحي التي كانت مسرحاً للتحول الثقافي.

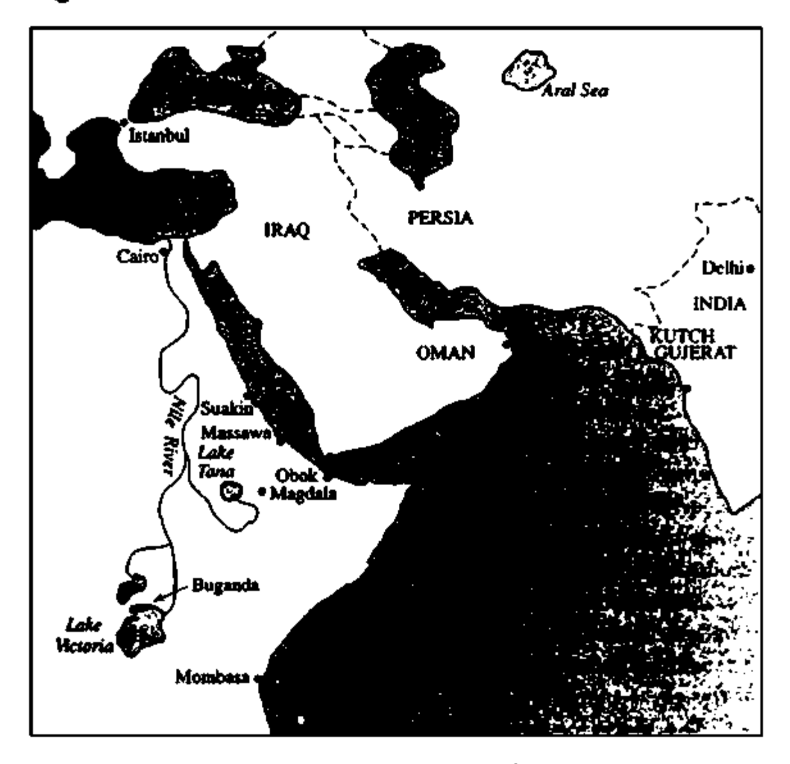
الوضع في شرق إفريقية

كان شرق إفريقية، في سنة ١٨٥٠، بعيداً عن مناطق النفوذ الأوروبية الاعتيادية. صحيح أن الطريق إلى الهند كانت تمرّ بشرق إفريقية؛ ولكن من بين القوى الأوروبية المهتمة بالمحيط الهندي، وحدها البرتغال حاولت أن تقيم منشأة لها على الساحل الشرقي المداري، وقد كان النشاط الرئيس للبرتغال مقتصراً في تلك الفترة، على الموزامبيق ووادي الزامبيزي باتجاه الجنوب. بذل البرتغاليون جهداً بهدف تحصين مومباسا على ساحل كينيا الحالية، ولكنهم عادوا وتخلوا عن هدفهم هذا في مطلع القرن التاسع عشر.

يظهر البحر الأحمر على الخريطة على أنه الطريق المباشر للمرور من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط، ولكنّ الرياح تعصف باتجاه الشمال على مدار السنة في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، مما يجعله عديم الفائدة تقريباً في عصر المراكب الشراعية، ولطالما اعتاد البحارة والتجار على تفريغ شحناتهم في مرفأ يقع في منتصف الطريق، من قبيل مرفأ جدة كي تُنقل الشحنات فيما بعد إلى الهلال الخصيب على ظهور الجمال. ولكن بحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وفَّرت المراكب البخارية إمكانية تقصير الفترة الزمنية الفاصلة بين الهند وأوروبا، باستخدام البحر الأحمر عن طريق السويس. ومع افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩، لم تعد متابعة النقل عبر السويس ضرورية.

وقبل مطلع القرن التاسع عشر، لم يكن أيٌّ من المسافرين الأوروبيين قد وصل بعدُ إلى أي جزء من الأجزاء الداخلية للقارة بين إثيوبيا في الشمال ووادي الزامبيزي في الجنوب. وحدهم العرب كانوا الدخلاء الرئيسين الذين قدموا بحراً، وقد كانوا يحظون لقرونٍ بمستقرات تجارية تمتد من القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي وصولاً إلى زيمبابوي الحالية. ارتأى العرب أنه من المناسب أن يقيموا خطاً من البلدات المحصنة انطلاقاً من وسط الصومال على طول سواحل كينيا وتنزانيا وصولاً إلى صوفالا، على مقربة من مدينة بايرة Peira

الحالية في وسط الموزمبيق. استقر التجار العرب أيضاً في الجزر، مثل زنجيبار وبيمبا، وجزر القمر. تعود بعض هذه المستوطنات إلى حوالي ٩٠٠ للميلاد، علماً بأنها شهدت فترة من النمو المتميز في القرن الثالث عشر والرابع عشر وبلغت ذروتها في القرن الخامس عشر قبل وصول البرتغاليين من حول رأس الرجل الصالح.



لم يحاول التجار العربُ حكم الأراضي الإفريقية، كما لم تكن إدارة المدن الساحلية تتم بشكل اعتيادي، من شبه الجزيرة العربية، لقد كانوا موجودين بهدف إقامة تجارة أساساً، ولكن على مر القرون، انبثقت ثقافة جديدة إفريقية عربية ونمت لغة جديدة تحوّلت مع مرور الوقت إلى ما يعرف اليوم باللغة السواحيلية، وقد اشتقت كلمة سواحيلي من الجذر العربي لكلمة ساحل. إن اللغة السواحيلية هي لغة بانتو إفريقية، مع أنها تشتمل على مزيج وافر من الكلمات المقترضة من اللغات العربية، والبرتغالية، والإنكليزية، يمتنق الناطقون المحليون باللغة السواحيلية الديانة

الإسلامية، يرتبطون بالتالي مع صلتهم من الشمال، مع أنهم في الواقع مجمع من مشيج عرقي مختلط استقر على هذا الساحل على مر الأجيال. في اللغة السواحيلية الحالية، يسمي الأفارقة - العرب الحاليون أنفسهم الوارابو، فيما يُطلق على العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية كلمة حضرمي نسبة إلى منطقة حضرموت الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية شرق عدن.

قبل سنة ١٨٠٠، كانت تجارة هذا الساحل مع العالم الخارجي تتم أساساً مع شبه الجزيرة العربية، والخليج الفارسي، وغرب الهند. احتلت جذوع وأغصان شجر المنغروف مرتبة رئيسة بين أهم المنتجات المحلية، لأنها كانت تستخدم أعمدة وعوارض لسقوف المنازل على طول ساحل شبه الجزيرة العربية والخليج الذي لا أشجار فيه. ومن المنتوجات المهمة الأخرى أكياس وسلال القنّب المجدول التي كانت تصلح لرزم التوابل والسلع الأخرى، والعاج من النواحي الداخلية، والذهب مما يعرف اليوم بزمبابوي حيث كانت تشحن إلى وادي زامبيزي ثم تحمّل عند كِلوة قبل متابعة نقلها نحو الشمال. وشكّل العبيد صادراتٍ مهمة من الجنوب. وباختصار، كانت هذه التجارة النامية تشتمل على شحنات ضخمة الحجم متدنية القيم نسبياً بالإضافة إلى الذهب والعاج.

قبل مطلع القرن التاسع عشر، كانت هذه المعتقدات التجارية الإفريقية - العربية تنقل سلعها بالبحر وحسب. التجار المحليون الذين كانوا يديرون مراكزهم التجارية حتى الساحل كانوا يجلبون بشكل أساسي السلع من الأراضي الداخلية. طريق واحدة كانت تعبر وسط كيبني فيما كانت طريق أخرى تمر فيما يعرف اليوم بوسط تنزانيا، والثالثة على مقربة من بحيرة مالاوي، والرابعة مناجم الذهب في زمبابوي.

في مطلع القرن التاسع عشر، حدث تغيران اقتصاديان مهمان:

اولاً: ارتفع ثمن العاج ارتفاعاً حاداً، مما أدى إلى زيادة في صادراته وحفز التجار على التقدّم أكثر نحو الداخل.

وثانياً: تبيّن أن كبش القرنفل، وهو تابُل يأتي أساساً عن أندونيسيا، يمكن استنباته في ظروفٍ أفضل في جزر زنجبار وبيمباه وقد زادت مزارع كبش القرنفل الجديدة الطلب على العمالة الخارجية. فعولج الأمر بزيادة تجارة العبيد. جذبت هذه التجارة الجديدة بعض العبيد من البلاد المواجهة لزنجبار، ولكنها جذبت عدداً أكبر بعد من أقصى الجنوب، ولا سيما من منطقة بحيرة مالاوي، في بادئ الأمر، عمل معظم العبيد المستوردين في مزارع كبش القرنفل، ولكن مع مرور العقود، حوّل بعضهم إلى إنتاج المواد الغذائية على طول ساحل ما يعرف اليوم بكينيا، بينما نقل غيرهم إلى مناطق شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي.

تفاعلت هذه التغيرات الاقتصادية مع التغيرات السياسية، ووصلاً حتى ذلك التاريخ، ظلّت البلدات التجارية الإفريقية - العربية عبارة عن نقاط التقاء مرتبطة بخطٍ تجاري: كانت لم تشكل إمبراطورية من المحطات التجارية خاضعة لحكم مركزي.

في مطلع القرن التاسع عشر، عندما كان الغزو البريطاني للهند في أوجه، احتاجت رئاسة بومباي في الهند البريطانية إلى دول عملية صديقة على الساحل الغربي من البحر العربي لمساعدتها على حفظ الأمن وحماية المصالح البريطانية. في الوقت ذاته، سعى سلطان مسقط في عمان لتعزيز مكاسبه التجارية، مستخدماً التكنولوجيا البحرية الأوروبية لتقوية مركزه على طول الساحل الإفريقي، في ظل رضا بومباي غير الرسمي ودعمها، وبحلول سنة ١٨٣٥، أصبحت عُمان تمتلك ٧٤ زورق مدفعية، وثلاث بارجات، وحراقتين، وسفينة حربية شراعية كلها من تصميم غربي، بالإضافة إلى الدهوات المسلحة من تصميم محلي - واحتلت المرتبة الأولى من حيث القوة بين الأساطيل البحرية غير الأوروبية في المحيط الهندي. كان من الممكن لهذه البحرية أن تعمل كامتداد غير رسمي للنفوذ البريطاني من قاعدته في الهند - وفي الوقت ذاته، أتاح لها استخدام التكنولوجيا البحرية الأوروبية فرصة التحول إلى إمبراطورية ثانوية في أي مكان كانت سفنها تصل إليه. وفي غضون بضعة عقود، تحولت المستوطنات التجارية الإفريقية- العربية إلى إمبراطورية

عمانية للمحطات التجارية. وبحلول الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بلغت ممتلكاتها الساحلية أهمية كبيرة إلى حد اضطر سلطان مسقط لنقل عاصمته من الجزيرة العربية إلى جزيرة زنجبار حيث أصبحت مزارع العبيد المنتجة لكبش القرنفل فرعاً مهماً غير غربي لمجمَّع المزارع الخاضعة لسيطرة الأوروبيين.

ثم في منتصف القرن التاسع عشر، بادر بعض التجار الزنجباريين والسواحليين لاعتماد إمكانيات أخرى بعيداً عن السياسة المعتمدة سابقاً. إذ بدؤوا بالتحرك نحو الداخل بجالياتهم التجارية الخاصة. وظهر عندها عنصر جديد لبناء الإمبراطورية الثانوية، عندما أدخل التجار السواحليون الأسلحة النارية للمرة الأولى إلى المناطق الداخلية. أقام التجار في المناطق الداخلية مناطق نفوذ إمبريالية ثانوية لهم، كان إشعاعها ينطلق نحو الخارج من مراكزهم التجارية الساحلية، ومع أنهم كانوا يعترفون عامة بسلطة سلطان زنجبار، إلا أن نفوذ السلطان الفعلي كان معدوماً فيما وراء الساحل. حاكى التأثير الزنجباري والسواحلي في شرق إفريقي بعض مظاهر الامبراطوريات الإقليمية الثانوية في أماكن أخرى من إفريقية، بالإضافة إلى مظاهر أخرى من امبراطوريات المحطات التجارية البرية من النوع الذي ابتدعه الأوروبيون في سيبيريا وأمريكا الشمالية.

تغيرت درجة التأثير الأوروبي وشكله تغيراً كبيراً على مدار القرن التاسع عشر. اختفى من داخل البلاد التأثير غير الرسمي والضعيف الذي مارسه الدبلوماسيون البريطانيون في زنجبار. لقد شهد هذا القرن تحوّل البريطانيين من تجار عبيد مهمين على مستوى العالم إلى مانعي تجارة العبيد الخاصة بهم، وبالتالي محاولة القضاء على هذه التجارة التي كان يمارسها غيرهم. وشهد هذا القرن أيضاً سيطرةً بريطانية على المحيط الهندي. واضطرت زنجبار إلى الانصياع لضغوطات البريطانيين وخفض تجارة العبيد الخاصة بها وتزايد نفوذ القنصل البريطاني تدريجياً، إلى أن أخضعت زنجبار في سنة ١٨٩٠ رسمياً للحماية البريطانية.

بدائل تبشيرية:

وجد المبشرون المسيحيون الذين ظهروا للمرة الأولى في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مسرحاً سياسياً مفعماً بالتعقيدات في الأراضي الداخلية من شرق إفريقيا. واجهت السلطات السياسية الإفريقية، التي كانت في يوم من الأيام معزولة نسبياً، تجاراً سواحليين من الساحل حاملين للأسلحة ومطالبين بالعاج والعبيد. سبّب الهجوم السواحيلي هروباً وحالةً من الفوضى في مناطق واسعة النطاق، ولم تبقَ سوى بعض المناطق الداخلية، لتنعم باستقرار نسبي ولم تجد الجمعيات التبشيرية أمامها سوى بديلين شاملين.

أسس المبشرون في بعض المناطق، وفي غياب دول مستقرة ونافذة، إمبراطوريات ثانوية صغيرة خاصة بهم، وبما أنهم كانوا يفتقرون لمصدر يعوّل عليه للقانون والأمن، وجدوا أنفسهم مضطرين لتأمين حمايتهم بأنفسهم كما كانوا، في بعض الحالات، مجبرين على استخدام جيوش صغيرة العدد قسم منها أوروبي والقسم الآخر إفريقي. وفي مواقع أخرى، جهّزوا ببساطة المراكز التبشيرية بأحدث الأسلحة الأوروبية، وشكلوا بذلك دوائر صغيرة من الأمن النسبي قادرة على جذب أعداد متنوعة من اللاجئين. هؤلاء اللاجئون الذين اقتلُعوا قسراً من جذورهم كانوا من بين أول معتنقي الديانة المسيحية أحضرت بعض الإرساليات أطفالاً مستعبدين سُلموا إلى «مياتم» ذاتية التمويل كانت أشبه بمزارع للعبيد تنتج منتوجات قيّمة تعرض للبيع. أما الاختلاف الأساسي فقد كان يكمن في أن العبيد الأيتام كانوا يتمتعون بحرية المغادرة عند بلوغهم سناً معينة. أما بالنسبة لاعتناق ديانات جديدة، فقد شكّلت هذه المياتم في ألوان العبيد تأثيراً على الشباب الذين اقتلعوا من جذورهم وأعيد زرعهم في مجتمع جديد. أما البديل الثاني، فقد قام على التعامل مع ممالك أقوى أينما وُجدت. ولا سيما في منطقة البحيرات الكبرى من قبيل فيكتوريا وتانجانيقا. كانت بعض الممالك، مثل يوغندا وبونيورو، قد سلحت نفسها

بالبنادق وبدأت ببناء إمبراطوريتها الثانوية الخاصة حتى قبل وصول المبشرين. هذا الأمن النسبي هو بالتحديد العنصر الذي جذب المبشرين، وبما أن السلطات الإفريقية كانت مستعدة لتقبلهم وحمايتهم. فقد رحبوا بفرصة هداية الناس من دون الحاجة لإدارة دولة وحدهم. أما التصوّر الأبرز فقد تمثّل بإمكانية هداية ملك إفريقي وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى توسيع إطار انتشار الدين على كل المستويات.

مملكة بوغندا:

إنّ مملكة بوغندا، وهي مركز جمهورية أوغندا الحالية، مثال معروف وبارز للتفاعل بين المبشرين الأوروبيين والقوى الاجتماعية، والسياسية المحلية، اقتبست تسمية أوغندا الحالية من التحوير السواحيلي لكلمة بوغندا، ولكن مساحة بوغندا



- كابا كاموسيسي وموظفوه الأساسيون -

ما قبل الأوروبية كانت أصغر من مساحة جمهورية أوغندا الحالية[1]. فقد كانت تشغل مساحة مئة ميل أو ما قاربه انطلاقاً من الضفة الشمالية لبحيرة فيكتوريا، في نصف دائرة امتدت إلى غرب هذه النقطة حيث يصب نهر النيل عند خروجه من البحيرة. ولكن عدد السكان كان كثيفاً داخل هذه المساحة الصغيرة

(١) الكيسوا حيلي واللواغندا لغتا بانتو تستخدمان أدوات التصريف. الباغاندا هم سكان مملكة بوغندا وينطقون بلغة اللوغندا. يسمح استخدام اللغة الإنكليزية الجذر دون أدوات التصريف على غرار غاندا.

حيث إن العدد الإجمالي بلغ المليون أو المليونين. في المملكة، كان الحاكم الحامل لقب كاباكا، وهو موميسا الأول (١٨٥٧ – ١٨٨٤)، قد أوصل البلاد إلى ذروة التأثير السياسي والنفوذ العسكري . وفي أثناء حكمه، أخذت بوغندا تعتمد على بندقية المسكيت على أنها سلاح المشاة الرئيس، حصل البوغنديون على أسلحتهم من التجار السواحيليين الذين قدموا من الساحل وفي مقابل العاج والعبيد الذين كانوا يحصلون عليهم بقوة السلاح. وبدورها، وفرت الأسلحة لبوغندا القدرة على التحوّل إلى إمبراطورية ثانوية.

مصدر القوة الثانية التي تميزت بها بوغندا في بناء الإمبراطوريات تمثلت في تشكيلتها السياسية، تستند معظم التشكيلات الإفريقية على النسب، أي على مجموعة من الأشخاص ينحدرون من سلف مشترك. قد يكون النسب من جهة الأب أو من جهة الأم أو أحياناً ثنائي الجانب. وكانت الأنساب، في العديد من الممالك الإفريقية مستند الحكم داخلياً أما النفوذ الأوسع للحكومة الملكية فيتمثل في قيامها بالتحكيم في النزاعات بين مجموعات النسب المتنافسة.

في الماضي، عملت مملكة غاندا على هذا النحو، وقد اجتمعت الأنساب الفردية في كل قرية ضمن ثلاثين عشيرة، أو وحدات أكثر عدداً من الأقارب، على رأس كل منها شيخ. شكل هذا النظام مشكلةً للملك. فبموجبه لم يعد يستطيع أن يحكم إلا من خلال شيخ العشيرة. والغرب احتفظ بمركزه من خلال النسب، وبالتالي تمتع بمصدر للنفوذ مستقل عن الكاباكا. وقد يقرر ملك من الملوك أن يحدّ من سلطته أو يخلعه من مركزه. ولكنْ قد ينتج عن قرارٍ من هذا القبيل امتعاض شامل من جانب أفراد العشيرة.

اتخذ كاباكا بوغندا منذ زمن طويل خطوات تهدف لإيجاد حلّ لمصدر هذا الضعف الملكي. وبحلول القرن الثامن عشر، بدأ تعيين زعماء من خارج تراتيبة سلطة الأقارب. وكان في مقدور الكاباكا الذي عيّن هؤلاء الزعماء أن يخلعهم من مراكزهم أيضاً. أطلق على الزعماء من الطراز الجديد تسمية باكونغو bakungu أو الزعماء

- العملاء وبحلول السبعينيات من القرن التاسع عشر، شغل الزعماء - العملاء معظم المراكز، بما فيها منصب رئيس الوزراء، ورئاسة إدارة الإقليم، وهذا يعني التحكّم بالطبقات الدنيا من الحكومة. والأهم من ذلك بعد، تمتع الكاباكا بقوة عسكرية من المحاربين شبه المتمرسين المتناثرين في كافة أنحاء البلاد. كان الكاباكا يعيّن أيضاً الضباط بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيّنون بها الشيوخ - العملاء. وقد كان الضباط يعملون عمل القوة الموازية في مواجهة القوى المستقلة الباقية لزعماء العشائر، وفي مواجهة أي زعيمٍ - عميل قد يسعى لتمديد مدة نفوذه إلى أجَل يفوق ما قد وهبه إياه الملك.

تمتع الزعماء - العملاء، في أعلى المستويات، بسلطة تعيين شيوخ تابعين في مراتب الحكم، وفي الواقع كان لهم شيوخ عملاء مرتبطين بهم. تحكَّم هؤلاء الزعماء، ضمن الإدارة الإقليمية، بتخصيص الأراضي، وبالتالي بالأموال التي تمتلكها البلاد من أعمال الفلاحين المستعبدين والأحرار على حد سواء.

وفَّر النظام تركيزاً غير اعتيادي للنفوذ في مركز المملكة، على حساب حالة من عدم الاستقرار الشامل عمّت ملكية الأراضي في مرافق الحكومة. فقد يشغل رجل ما منصب رئيس الحكومة في يوم من الأيام ويصبح زعيماً مهماً في اليوم التالي. وحدهم أفراد العشيرة الملكية التي ينتمي إليها الكاباكا يحصلون على حقوق خاصة منذ الولادة. نزعت هذه المرونة وحالة الاستقرار إلى تنمية نمط معين من الحياة السياسية كانت تلقي بثقلها من وراء المزايا المخادعة، والسرعة التكيفية في المناورات السياسية بالإضافة إلى رجال طموحين يشخصون بالنظر على الدوام بانتظار الفرصة السانحة. في بلاط الكاباكا، على وجه الخصوص، وهو أشبه بقرية عدادها خمسة آلاف نسمة، وجد القسم الأعظم من السكان أنفسهم داخل لعبة مستديمة من دسائس البلاد.

التهديد الخارجي:

لم تعد بوغندا تشعر بالخوف منذ أن أصبحت الأسلحة في حوزتها. وقد كانت جارتها الأكثر قوة، أي بونيورو، تستخدم أسلحة مستوردة أيضاً وتبني امبراطوريتها الثانوية الخاصة بها. ولكنّ القوة المستمدة من الأسلحة تهديداً يؤخذ على محمل الجد. وبحلول سنة ١٨٧٠، كانت قيادة الغاندا ملمّة بما يكفي من المعلومات عن مصادر الأسلحة. وكانت القوافل السواحلية تفد من الساحل، منذ عدة عقود، حاملةً في جعبتها معلومات عن العالم خارج إفريقيا، وأُطلقت عرضياً الخطوة الأولى لعملية هداية الغاندا إلى ديانة خارجية، وفي هذه الحالة الديانة الإسلامية.

في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ظهر غرباء جدد ولكنهم قدموا هذه المرة من الشمال، كانوا موظفين أوروبيين يعملون في خدمة الحكومة المصرية، منخرطين في حملة هدفها رقعة الإمبراطورية المصرية الثانوية في السودان. زار تشايلي لونغ Long Chaille وهو أميركي يعمل في خدمة المصريين، عاصمة موتيسا ثم انسحب ليقيم مركزاً عسكرياً مصرياً. خارج بوغندا مباشرة باتجاه الشمال. وما إن ظهر التهديد المصري الخارجي في الشمال حتى خرق عبر أوغندا مستكشف أوروبي آخر هو هنري مورتن ستانلي، صحافي أميركي تعود أصوله إلى ويلز، كان يعبر إفريقية من الشرق إلى الغرب برعاية صحيفتي نيويورك هيرالد ودايلي تلوغراف، بأنّ موتيسا كان شديد الاهتمام بالمسيحية، وتحدّى الجمعية التبشيرية البريطانية في أن تستغل هذه الفرصة. ومهما كانت الكلمات التي نطق بها ستانلي فعلياً، وبغضّ النظر عن فهم معانيها من المترجمين، فما من شك بأنّ ستانلي ذكر رأيه بأنّ بريطانيا هي الدولة الرئيسة في أوروبا. وأياً يكن الاهتمام الذي كان يوليه موتيسا بالمسيحية، فقد كان مهتماً من دون شك بوجود مبشرين أوروبيين في بلاطه بغية موازنة التهديد الذي كان يشكله المصريون المسلمون في الشمال والسواحليون المسلمون في الشرق.

بالنسبة للجمعيات التبشيرية البريطانية، تشكّل الحملة إلى بوغندا خرقاً بارزاً في السياسة التي كانت تعتمدها الإرساليات المتقدمة تدريجياً إلى المناطق الداخلية انطلاقاً من الساحل. تبلغ مسافة الطريق المؤدية من الساحل الشرقي إلى بوغندا حوالي ٨٠٠ ميل، ووحدها قوافل الجمّالين تستطيع سلوكها. كان بالإمكان استخدام طريق طويلة نحو أعلى النيل ولكن هذه الطريق أيضاً كانت باهظة التكاليف. من الناحية السياسية، كانت البلاد الواقعة بين الساحل وبحيرة فيكتوريا المجزأة، ولذلك اضطرت القوافل لتأمين حمايتها بنفسها وشق طريقها بقوة السلاح. في كل الأحوال، كانت كلفة الجمال باهظةً للغاية، ولو كان الأمر يتعلق بنشر الديانة المسيحية، لكان بالإمكان القيام بها بأسعار أقل بكثير في أماكن أخرى. من جهةٍ أخرى، أشار تقرير ستانلي حول اهتمام موتيسا إلى أنّ بوغندا تمثّل فرصةً مثاليةً لهداية شعبٍ بأسره من خلال دعم الملك.

ولسبب من الأسباب، قدّم راهبٌ مجهولُ الهوية للجمعية الكنسية التبشيرية مبلغاً قدره ٦٥٠٠ جنيه استرليني، بشرط أن تخرق الجمعية سياستها المتَّبعة في التوسع التدريجي، إرساليةً في بلاد موتيسا. وتلقت الجمعية أيضاً عرضاً من غوردون باشا، الحاكم الانكليزي لأقاليم مصر الاستوائية، لمساعدتها في تحقيق المزيد من الأهداف السياسية الواضحة في حال اختارت الجمعية طريق النيل. كان غوردون يمثّل مصر، ولكن مصر كانت تنجرف، على شاكلة زنجبار، نحو حكم بريطاني غير رسمي. قررت اللجنة المركزية للجمعية أن تقبل العرضين، ووصلت طليعة المبشرين إلى بلاط موتيسا في سنة ١٨٧٧ بعد أن سلك بعضهم طريق زنجبار، والساحل الشرقي، فيما وصل غيرهم عن طريق النيل بمساعدة ضباط مصريين.

لم يطل الأمر حتى ظهر خرقٌ آخر للسياسة المتَّبعة في إطلاق الحملات. استرعت بوغندا أيضاً انتباه الرهبنة الكاثوليكية للآباء البيض. تأسست هذه الرهبنة على أيدي الكاردينال لافيجري أوف ألجي، بهدف هداية مسلمي الصحراء الكبرى وشمال إفريقية بشكل رئيس إلى الدين المسيحي. وكانت من ثَمّ جمعية

تبشيرية ذات هدف خاص قليلة الخبرة في شرق إفريقية، ولم تكن قد أنهت بعد مهمتها الأولى في الشمال. إلا أن لافيجري قرر أيضاً إقامة مركز تبشيري في بلاط موتيسا في بوغندا. ووصل أول الآباء البيض في سنة ١٨٧٠، أي بعد سنتين فقط من وصول جمعية الكنيسة التبشيرية.

لا بد أن يثير وصول هاتين المجموعتين التبشيريتين إلى هذه النقطة الاستراتيجية والمهمة في الأراضي الداخلية القاصية من إفريقيا تساؤلات حول دوافعهما. في أواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر، لم يكن الغزو الأوروبي لإفريقية قد صار شاملاً ولكن قد تساور المرء شكوك حول الضغوطات الحكومية، أو بإمكان التوسع في التنمية التجارية المرتقبة. في الواقع، لم يكن الدليل الذي يثبت التدخل الحكومي التجاري أو المباشر يعتدّ بقوته. عرض ليوبولد ملك بلجيكا معونةً ماديةً على الآباء البيض، وقد كانت له مطامع في الأراضي الإفريقية، ولكن الآباء البيض ردوا عليه بالرفض خوفاً من أن يسيطر بشروطه على سياسة الإرسالية. في السبعينيات من القرن التاسع عشر، كانت الحكومة البريطانية تتبع سياسة تقوم على عدم احتلال أراضٍ في شرق إفريقية، وشجبت مؤخراً تصرفات المسؤولين الذين حاولوا القيام بأعمال مماثلة، وقد كانت فرنسا تشارك بريطانيا في النفوذ في تلك الفترة على غرار السلطة التي كانت لبريطانيا في مصر. أما بالنسبة لنفوذ الحكومة الفرنسية، فقد تقدم لافيجري بطلب مساعدة من الحكومة وحصل على رفض واضح.

لم تكن المصالح التجارية مهمة في بوغندا. فقد كانت هذه البلاد بعيدةً كل البعد عن إطار الاستثمارات الممكنة في مجالات التجارة، أو المزارع، أو المناجم. وكلف النقل أسعاراً باهظة لكل المنتوجات من خلال مُنْتَج واحد مرتفع القيمة بالنسبة لوزنه ألا وهو العاج. قد يقلب تشييد سكة حديدية الوضع بأكمله، ولكن عندما قرر البريطانيون، في التسعينيات من القرن التاسع عشر، أنّ السكة الحديدية، باتت ضرورية لأسباب استراتيجية، فشلوا في الحصول على رأس المال الكفيل لبنائها. في

نهاية المطاف، شيدت الحكومة السكة الحديدية على حساب الرعايا البريطانيين، وأدارتها بخسارة كبيرة.

من المحتمل أن تكون الجمعيات التبشيرية التي حفزتها إمكانية هداية ملك مهم، قد مارست ضغوطات خاصة بها للتحرك داخل بوغندا، بالنسبة لأعضاء جمعية الكنسية التبشيرية، فقد ارتبطت حركتهم بإيمانهم بأن تكون الإرساليات بالضرورة ذاتية الدعم، ذاتية الإدارية وذاتية الانتشار. إن مملكةً مسيحية هي الموقع الطليعي الذي يمكن أن ينطلق منه غاندا في مهمة هداية الآخرين، مستخدمين في ذلك خبرة جمعية الكنيسة التبشيرية باستخدامها الفعلي للإرساليات الإفريقية في غرب إفريقيا.

دوافع مغايرة كانت تدور في خلد الكاردينال لافيجري. اتصف هذا الرجل بشخصية طموحة محبة للسياسة، كما كان مواطناً فرنسياً يسعى لتحسين العلاقات المتوترة بين البابوية، والجمهورية الفرنسية، كان يأمل أيضاً باستخدام الآباء البيض في موقع ما في منطقة البحيرات الإفريقية، لصالح الكنيسة وفرنسا على حد سواء. ويبدو أن هذه الاعتبارات تقف وراء مفاوضاته الفاشلة مع ليوبولد ملك بلجيكا. فقد كان لافيجري يرفض أن يعتبر الآباء البيض القوة الدينية في مخطط ليوبولد ملك بلجيكا في الكونغو. وتقبّل، في وقت لاحق، القيادة التبشيرية على الجزء الشرقي من دولة الكونغو المستقلة. إنّ إقامة دولة مسيحية كاثوليكية في قلب إفريقيا يحكمها الملك بمشورة المبشرين الفرنسيين مفيدة لتحقيق العديد من طموحاته. ثم إنّ الآباء البيض منظمون على أحسن وجه لمثل هذا الأثر، وهم في ذلك أفضل تنظيماً من جمعية الكنيسة التبشيرية. أُرسل الآباء البيض ضمن مجموعة من المهتدين السابقين ليعملوا على سبيل المثال، عمل الضباط في جيش تبشيري خاص ممن وظفوا، ودربوا في الداخل لحماية الإرساليات - ولأي مصلحة أخرى قد تبرز في وقت من الأوقات.

الإرساليات ومجتمع الغاندا:

لا بد أن المسائل بدت مختلفة تمام الاختلاف من وجهة نظر الغاندا. فلم يكن أي قاسم مشترك يجمع بين تصوّر موتيسا والصورة السطحية التي رسمها ستانلي عنه، بأنه يتوق لتعلم المزيد عن المسيحية عقب وصف مقتضب لهذه الديانة من خلال مترجم. كان موتيسا سياسياً بارعاً ناجحاً بفضل تمكّنه من إقامة توازن بين مختلف أنواع القيادات، وكذلك بسبب إقامة توازن بين مصالح الآلهة المحليين المختلفين الممثّلين بالزعماء الدينيين الذين كانت تربطهم، في أغلب الأحيان، علاقات مع عشائر معينة. لم تشكل إمكانية إضافة المسيحيين إلى هذه المعادلة من أجل موازنة التأثير المتزايد لمسلمي زنجبار غير إضافة طبيعية للمعادلة.

رأى موتيسا، أنّ المسيحيين يعرضون المعرفة التكنولوجية، والتصور الاستراتيجي عن العالم المهدَّد فيما وراء منطقة البحيرات الإفريقية، يمكن استخدام معرفة المبشرين في عملية التحديث الدفاعي، فقد سبق للغاندا واستعملوا الأسلحة النارية وأعادوا تنظيم قوتهم العسكرية، وشعر المبشرون بتوق لتلقين الآخرين التقنيات المهمة التي كان الغاندا يفتقرون إليها، مثل تعلم القراءة والكتابة، وعرض الإسلام أيضاً ميزات مماثلة، ولكن موتيسا ارتأى أنه من الضروري الحصول على مصادر متعددة للمعلومات الخارجية والتكنولوجيا، وتبدّل توقه لتعلم المزيد عن الدين المسيحي بشكل مباشر مع التغييرات الحاصلة في الخطر المصري. وصل هذا الخطر إلى مستوى مرتفع في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن المصريين انسحبوا، في سنة ١٨٧٩، إلى مسافة من أسفل النيل، في سنة ١٨٨١ انفجرت ثورة مناوئة لمصر في السودان، في جنوب الصحراء مباشرة، ادعى زعيم ديني مسلم علي محمد أحمد بأنه المهدي أو المخلص، وقطعت قواته أي اتصال مباشر بين مصر والكتيبة المصرية في المنطقة الاستوائية، فوجدت هذه الأخيرة نفسها معزولة بقيادة ضابط ألماني.

عقب هذه الأحداث، لم يعد للمبشرين المسيحيين في بوغندا أي مزايا ولكنهم أبقوا تحسباً لإمكانية العودة إليهم مجدداً، وسُمح لهم بهداية الناس حسب مقدرتهم. لم يحالفهم الحظ في البداية، ولكن فضول الغاندا كان عنصراً لصالحهم. استخدمت الإرساليات طموحات الحاشية المحيطة بالكاباكا للبحث عن فرصةٍ تعينُهم في حياتهم المهنية، فزار العديد من أفراد الحاشية ولا سيما من الموظفين الشباب، الضباط العسكريين الشباب. والإرساليتين ليعرفوا إن كانتا تستطيعان أن تقدما لهم أي فرصة محتملة في السياسات المحلية. وطول حياة موتيسا، لم تسبب المنافسة الدينية أي حدث خطير في البلاط، ولكن في منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر تطوّر الوضع وشكل تهديداً حقيقياً. ونشط ليوبولد ملك بلجيكا في حوض الكونغو في الغرب، واحتل الألمان ساحل تانجانقا في الجنوب الشرقي، وشغل البريطانيون ساحل المحيط الهندي. والأكثر من ذلك، زادت وتيرة زيارات الزنجباريين، واعتنق التجار الديانة الإسلامية بأعداد كبيرة على هامش نشاطاتهم التجارية. بات موتيسا رجلاً مسناً، ولاح في الأفق احتمال نشوب صراع على الخلافة. اصطف بعض الزعماء - العملاء والضباط العسكريين إلى جانب الإرساليات الكاثوليكية، أو البروتستانتية أو الزنجبارية، آملين في أن يضمنوا مصدراً للأسلحة النارية والمعلومات عند انفجار الأزمة، مع العلم بأنّ موتيسا نجح في سنينه الأخيرة في تأليب الأطراف على بعضها.

وعندما توفي موتيسا أخيراً في سنة ١٨٨٤، انفجرت الأزمة. في مطلع سنة ١٨٨٥، انتقلت السلطة إلى موانغا، أحد أبناء موتيسا. والذي كان يفتقر لقدرات والده وذكائه. كما كان أيضاً يفتقر للنفوذ الذي كان يتمتع به والده في المملكة لأسباب مختلفة نذكر منها الظهور المتزايد للأسلحة النارية. ومع أن حيازة الأسلحة فتحت المجال لبوغندا كي تبني اثانوية، فقد سبّبت أيضاً تحولاً مهماً للسلطة داخل بوغندا ذاتها. ابتاعت الملكية الأسلحة من الساحل، ولكنها خصّصتها لتشكيلات عسكرية خاصة، وواجه موانغا بعض الصعوبة في إبقاء كتائب الشباب تحت

سيطرته الحصرية. عززت سياساته نفوذه الاستبدادي لكنها زادت في الوقت ذاته من سطوة الجيش. وارتبطت بعض الكتائب داخل الجيش ببعض الزعماء - العملاء وبالمهتدين من المجموعات الدينية الخارجية الثلاث. ولكن التحوّل الرئيس في السلطة لم يكن له صلة بزعماء العشائر كمجموعة ولا بالكاباكا نفسه بل بالقادة الشباب للتشكيلات العسكرية.

وتفاقمت مشكلات موانغا عند اقترافه عدداً من الأخطاء، ومنها تقدير خاطئ من جانبه للوضع الدولي، وصل به الأمر إلى حد الاعتقاد بأن زنجبار كانت تمثل القوة الخارجية الأولى ولذلك فقد لاذ -في بادئ الأمر- بالطرف المسلم الموجود في البلاد. شاعت الممارسات اللواطية في البلاط أكثر من ذي قبل وكذلك الأمر بالنسبة لموانغا نفسه، بالرغم من تعارض ذلك مع أفكار الغاندا الأخلاقية والمسيحية الفيكتورية، أغضبت هذه الليبرالية الجديدة أيضاً بعض الرجال في سدة الحكم الذين كانوا قد أحضروا أقاربهم الصغار للعمل كوصفاء في البلاط. هؤلاء الوصفاء كانوا من بين الذين لجؤوا إلى الإرساليات بحثاً عن الدعم والنصيحة. وفي سنة ١٨٨٦، عندما بحث موانغا عن شركاء يمارس معهم الجنس من بين أفراد هذه المجموعة، قاومه البعض. وأرعبت هذه المقاومة الكاباكا، وأشعلت النار في أجساد حوالي الأربعين من الوصفاء الذين كانوا من «القراء» في الإرساليات. اضطُهد عدد من الكاثوليك من ضمن هذه المجموعة منذ ذلك التاريخ. ولم ينفّر هذا الاضطهاد المسيحيين جميعاً. وسرعان ما استعادت بعض المجموعات المسيحية مكانتها السابقة في البلاط، ولكنها أخافت القادة الشباب في الجيش، وفي سنة ١٨٨٨، استولى حلف جمع بين الكتائب الدينية المسلمة والمسيحية على القصر وأرسل موانغا إلى المنفى.

كان لا بد أن يعود موانغا من منفاه في يوم من الأيام، ولكن نفيه للمرة الأولى تسبّب في إشعال حرب أهلية معقدة، رباعية الأطراف، بما أن الكتائب كانت موزعة حسب المعتقد الديني بالإضافة إلى التواترات السياسية الأولى التي كانت تحيط بعملية توزيع القوى في مملكة الغاندا. بحلول ذلك الوقت، سيطر كل من

البروتستانت، والكاثوليك على حوالي ألف جندي من حملة البنادق. أما المسلمون فقد كانوا يسيطرون على عدد أقل، ولكن العدد الأصغر من التابعين كان يعود لعبدة الآلهة القديمة. مرت الحرب بمراحل من التحالفات المتحوّلة. أولاً: هزم الموحِّدون كمجموعة موحدة للتقليديين، ثم انضمت الفرقة المسيحية بعضها مع بعض في مواجهة المسلمين. وأخيراً دخل البروتستانت في صراع ضد الكاثوليك. في هذه المرحلة بالذات، أي في ربيع سنة ١٨٩٢، تدخّل عملاء قوة أوروبية. أرسلت الشركة البريطانية الإمبريالية في شرق إفريقيا قوة قليلة العدد من الفرق السودانية بقيادة الكابتن فريدريك لوغار، الذي أصبح لاحقاً من أبرز الإداريين في الحكم البريطاني لإفريقيا. قوة هذا الكابتن كانت صغيرة ولكنه كان يملك مدافع ماكسيم. وبالتالي اختتم هذا الوضع بالفوز العسكري المباشر لصالح الفريق البروتستاني، ومهّد ذلك الطريق أمام ضم بريطانيا لبوغندا في سنة ١٨٩٣.

الثورة الدينية في بوغندا:

فتحت هذه الأحداث، ابتداءً من وصول المبشرين في سنة ١٨٧٧ حتى عملية الضم البريطانية، المجال أمام الفريق المسيحي التشكيل صوت اجتماعي وسياسي مهيمن في بوغندا في ظل الحكم البريطاني. ابتداءً من سنة ١٨٩٣، لم يكن وضعهم قد أصبح محكماً بالكامل، ولكنهم كانوا في طريقهم للتحول إلى حكم أقلية مناصرة للتحديث تتمتع بتأثير مهيمن على سائر الغاندا وصولاً إلى القرن التالي، وهي مرحلة من تاريخ الغاندا ستتم دراستها في الفصل التالي. في الوقت الراهن، كان الموضوع يختص بالتفاعل بين الإرساليات المسيحية، وبوغندا التي هيأت لإطار التحوّل أو لقصة من أكثر قصص النجاح أهمية وجذريةً في تاريخ المسيحية الإفريقية. لقد كانت إحدى الحالات الرئيسة في الدراسات التي سعت لتفسير السبب الذي جعل ديانةً من ديانات العالم تحل محل نظام من المعتقدات في إطار جغرافي محدود، والطريقة المتبعة في هذا الصدد. كتب روبين هورتون، دراساتٍ شكلت التفسير المعتمد لعملية التحول الإفريقية. وهو يعتقد أنّ الإطار الآخذ في

الاتساع للاتصال مع العالم الخارجي مهدّ الطريق أمام الديانات العالمية. تتضمن العديد من الديانات آلهة مرتبطة بأماكن، أو أنساب، أو وظائف معينة، من قبيل التحكم بالجدري أو الرق والمطر. ومع ابتعاد المجتمعات عن الزراعة: الفردية، وانفتاحها على منطق أوسع مساحة للاتصال المتبادل، لم تعد الآلة المتخصصة أو المحلية ترضي الناس بالمستوى ذاته، وبدأ الناس يتوجهون إلى آلة متفوقة شاملة القدرات، يفيد تفسير هورتون في الإشارة إلى الشروط التي تتكرر في العديد من الأماكن المختلفة، ولكن ينبغي أخذها بالاعتبار بجانب أسباب محلية. في حالة الغاندا، اعتنق الناس ديانةً جديدةً بمزيدٍ من السرعة وبشكل أكثر اكتمالاً بالمقارنة مع غيرهم في شرق إفريقية، وفي حقبة زمنية كانت فيها شرق إفريقية تقيم للمرة الأولى اتصالات أكثر قوة مع منطقة الاتصال المتبادل في المحيط الهندي، أعقبها الحكم الاستعماري الأوروبي.

بالإضافة إلى هذه الظروف العامة، يعدّ دور الإرساليات في بوغندا التي ضمت لبريطانيا حالة تقليدية في تاريخ إفريقية حيث سبق وصول المبشرين الحكم الاستعماري، وكان المبشرون فيه مسؤولين، إلى حد كبير، في ضم قطعة من الأراضي الإفريقية . ففي هذا المكان، ينطبق القول التالي أكثر من أي مكان آخر: أعلى الراية الصليب. لقد كانت حالة غاندا أيضاً مثالاً من الأمثلة القليلة في إفريقية التي تصارع فيها الكاثوليك ضد البروتستانت باسم الدين. في مواقع أخرى، من قبيل إيرلندا الشمالية، عبرت العداوات الدينية عن توترات اجتماعية وسياسية تعود إلى قرون طويلة خلت، أما في بوغندا، فقد كان السكان يتحاربون باسم ديانة اعتنقوها للتو.

يمكن أن تؤدي هذه العوامل غير الاعتيادية إلى التفاعل بين النظام السياسي الغاندي والإرساليات الأوروبية في زمن وحيز فريدين. تتضمن قائمة الممثلين على خشبة هذا المسرح الشيوخ - العملاء والضباط العسكريين الذين انضموا للإرساليات وكانت تحفزهم دوافع بدت واضحةً للعيان. لقد كانت مناصبهم وحياتهم

نفسها في قبضة حاكم مزاجي. وكان بمقدور الإرساليات الحصول على الأسلحة وتقنيات أخرى نافعة جذبت اهتمامهم. كان المقيمون في بلاد الغاندا معتادين على حياة سياسية تنافسية، حيث يتعلق بقاؤهم بإزالة العقبات التي تعترض طريقهم. ولا نقصد بهذا التقليل من شأن اعتناقهم للمسيحية، إلا أنهم شكّلوا حالةً عززت فيها المصلحة الشخصية والمبدأ الديني أحدهما الآخر.

في الإطار الزمني، يبدو من الواضح أنّ ظروف الغاندا السياسية فاقت من حيث الأهمية مبادرات المبشرين. تدخل المبشرون على أمل أن يجدوا ظروفاً سياسيةً محلية مؤاتية. على المدى الطويل، أصبحوا مشاركين مهمين، مع أنهم لم يكونوا الزعماء الفعليين في الصراعات السياسية الغاندية. صحيح أنهم كانوا عناصر مهمة أولجت بوغندا في العالم الخارجي الواسع، ولكنهم كانوا منعزلين في عالم الغاندا الضيق. لقد كانوا في قلب إفريقية منهمكين في السياسة الغاندية إلى حد صعب عليهم رؤية ما هو أبعد من إطار عملهم الخاص وأموال تابعيهم. لقد كانوا منعزلين في مكان بعيد خارج منطقة نفوذ أوروبي بحيث لم يكن أمامهم سوى خيار العمل بما يتناسب مع معايير المجتمع الإفريقي والاستجابة لردوده.

بالنسبة لهؤلاء الغرباء، بدا اعتناق بعض الشخصيات المرموقة في مراكز عالية لديانة جديدة لتحولات جماعية من ديانة إلى أخرى في المستويات الدنيا، تماماً كما انتقلت سلطات التعيين في أثناء حكم موتيسا من الزعماء - العملاء إلى المستويات الدنيا من المجتمع. هكذا تطورت الأمور إلى حد ما. ظهر النجاح في قمة مجتمع الغاندا نهائياً. لو تمكن البروتستانت من السيطرة على الكاباكا لأصبح الزعماء الفرعيون الكاثوليك عرضةً للفصل من مناصبهم. وفي حال حدوث ما سبق ذكره، ينبغي على المبشرين الكاثوليك أن يضعوا حداً، على وجه السرعة، لحلمهم في بناء «مملكة كاثوليكية يسودها العدل في قلب إفريقية»، كما وصفها أحدهم وفتح المجال للمبشرين البروتستانت لاعتبار النصر لصالح الفرقة الكاثوليكية هدماً لكل ما حققوه من أعمالٍ وليس كعائقٍ مؤقّت.

بذل الطرفان جهوداً كبيرة، ولم يسعيا لمد يد المساعدة لتسليح أتباعهم وحسب، بل أيضاً لجذب التدخل الأوروبي نحو قضيتهم. وفي نهاية المطاف، تدخل البريطانيون بالفعل، ولكن العمل العسكري الذي قام به لوغار لصالح البروتستانت لم يجر وفقاً لمخطط رسم في لندن بل وفقاً لما ارتآه مسؤول يتمتع بسلطة اتخاذ القرار بنفسه، وأصبح قراره منوطاً بالممثلين المستقبلين - على غرار العديد من القرارات الهامشية الأخرى خلال عقود التقدم الامبريالي. في الواقع، لم يؤدِّ عمله العسكري لصالح البروتستانت إلى حل «الفائز يحصل على كل المكاسب» كما كان يخشاه بعض المبشرين. فبعد عملية الضم التي قامت بها بريطانيا وإقامة حماية على أوغندا، عزّز البروتستانت موقعهم بوصفهم الأعضاء البارزين في حكم الأقلية المناصرة للتحديث، دون أن يتم إقصاء الكاثوليك. وخفف وصول المبشرين الكاثوليك الإنكليز من حدة المنافسة الضمنية الإنكليزية - الفرنسية في المجال الديني. ولكن منذ فترة غير بعيدة، مثلت بعض الأوجه في نظام عيدي أمين إعادة تولد لبعض المشاعر المعادية التي كان يكنها المسلمون في الماضي حيال السيطرة المسيحية.





أشكال متنوعة من التحديث الدفاعي

تُعنى الدراسات الأربع التي تشكل هذا القسم، بشكل عام، بالتحوّل الثقافي الذي بدأ بمبادرة من المستعمرين للتحديث. حتى عندما صدرت المبادرة عن المبشرين المسيحيين، فقد كانت قرارات السكان المحليين حاسمة، كما حصل للغاندا. واجهت الإرساليات الأخرى التي تطرح برامج مماثلةً ظروفاً مغايرة فيما وراء البحار، وأحرزت درجاتٍ مختلفةً جذرياً من النجاح. ولكن تم تعريف التهديد الغربي، بأكبر قدر من الوضوح، على أنه عسكري وسياسي، واستجاب له غير الغربيين، في أكثر الأحيان، من خلال اقتراض كل ما في استطاعتهم اقتراضه من التكنولوجيا العسكرية والتنظيمية، كما أنه يعمل عمل خلفية لاعتبار أكثر تفصيلاً للتحديث في اليابان وتركيا في الفصلين التاليين.

ولكن من المهم أن نرجع إلى الوراء زمنياً وصولاً إلى أنماط أولية وأساسية لتاريخ العالم تكون أوسع نطاقاً من تلك التي تختص بالغرب ودول العالم الأخرى، والبدء من جديد على مقربة من البداية من خلال انتشار الزراعة، ولا يشير ذلك إلى بدء حقبة من الحقبات الرئيسة في تاريخ العالم، بل إنها تطرح أسئلة مهمة حول دور الاستنبات والابتكار المستقل في التغيّر التاريخي.

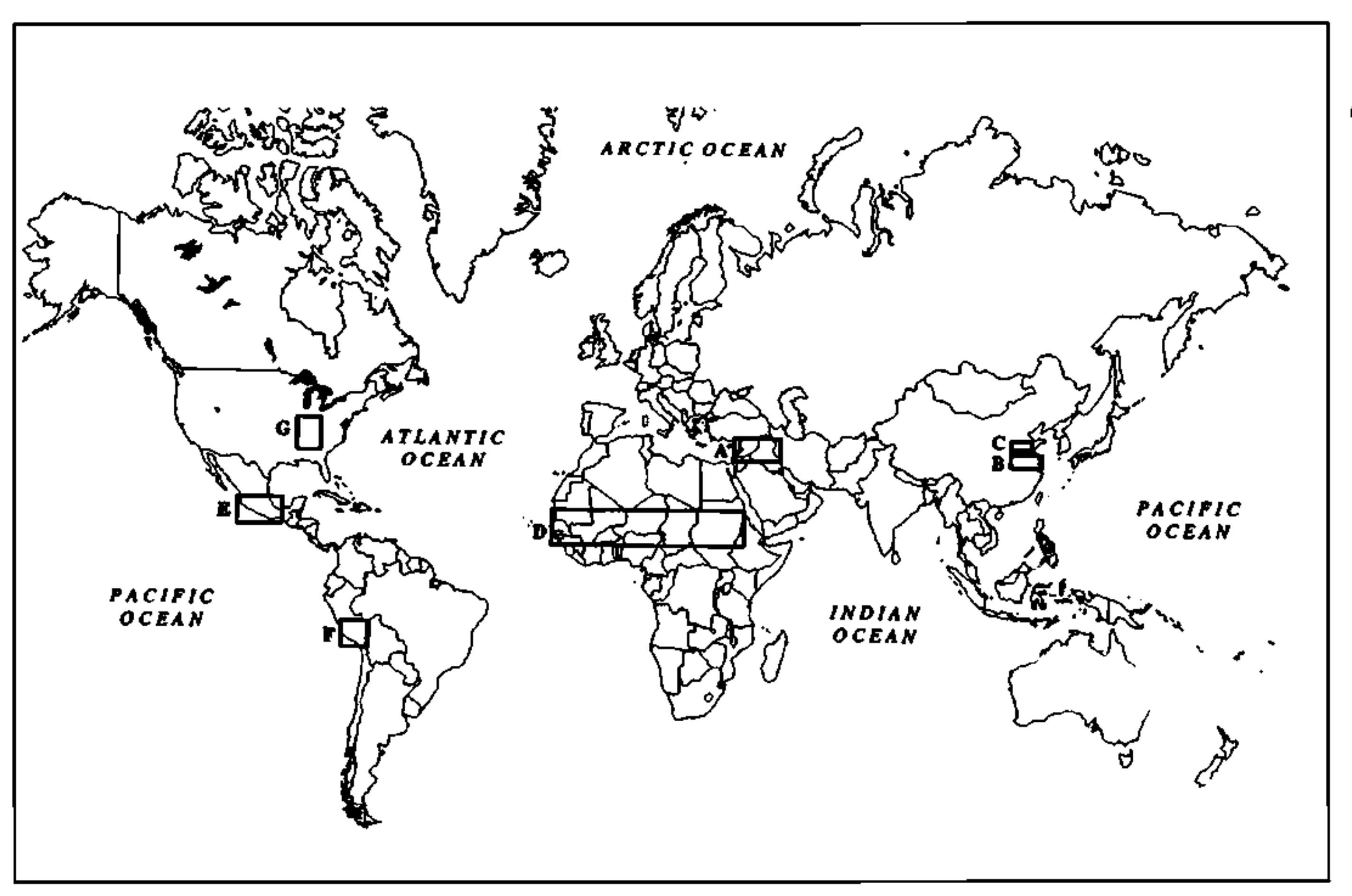
انتشار الزراعة:

يرتبط النقاش القديم بالأهمية النسبية لنشر المعرفة في مقابل الابتكار المستقل. على سبيل المثال، بنى كل من المايا والمصريون القدامى الأهرامات. فهل حصل المايا بشكل من الأشكال على معرفة هذا المجال من المصريين؟ ما من شك بأنّ أهرامات المصريين سبقت غيرها زمنياً ولذلك فربما تكون قد قُلِّدت كما أن كلاً من المايا

والمصريين بنوا أهراماتهم لأغراض شعائرية. وتعددت أسباب رفع الهضبات والتلال الاصطناعية بتعدد منفذيها إلى حد يحثنا على التأكد بأن أعيد ابتكارها المرة تلو المرة على مر التاريخ البشري. يمثل المقياس المختلف بين أهرامات المايا والمصريين، والأغراض الشعائرية المتنوعة دليلاً يعتد به ضد النشر، ولكن المشكلة تتكرر على مر التاريخ ويمكن تصويرها بالاستعانة بتنمية الزراعة وانتشارها.

توافق معظم المصادر حالياً على أن الزراعة بدأت في ما لا يقل عن سبعة مراكز مستقلة في فترة زمنية تتراوح بين ١٠٠٠٠ سنة و٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولا تزال الأبحاث جاريةً ويمكن أن تُكتشف مراكزُ مستقلة أخرى. في كل الأحوال، من الممكن أن تشكل درجة الاستقلال مشكلةً بحد ذاتها. قد يكون الانتشار المحفز تم بين المراكز القريبة نسبياً من قَبيل المكسيك، وجنوب الولايات المتحدة. ونعني بذلك أنه من الممكن نقل معلومة «تدجين» النبات عن طريق النشر، حتى وإن جرى استنبات وتدجين زراعات بشكل مستقل، بالاستناد إلى الجذور البرية المتوافرة. ولكن لا يوجد أي دليل يثبت بأنّ النشر المحفّز قد جرى بالفعل في هذه الحالة. وتبدو إمكانية حصول الانتشار المحفّز بين آسيا وأوروبا وإفريقية والأمريكيتين بعيدة. واستناداً إلى المعلومات الحالية، من الأفضل أن نقول بأن عملياً تدجين النباتات والحيوانات نتجت عن ابتكارات مستقلة في مناطق متباعدة من العالم.

حقيقة واحدة بارزة من الحقائق الخاصة بالبيانات تفيد بأنه على المدى الطويل لوجود البشر على وجه الأرض، كان يجب أن تظهر هذه المراكز المستقلة ضمن مدى زمني ضيق لا يتعدى ستة آلاف عام. قبل أ كثر من ١٠ آلاف سنة خلت، خرج الإنسان Homo sapiens sapiens من إفريقية، واستقر في القارات الرئيسة كافة. ولكن في حال حصول تأهيل النباتات في وقت مبكر، فلا بد أن السجل التاريخي قد أضاعه. في هذا الصدد. لا يعد تأهيل النباتات عمليةً سهلة كما يبدو عليه للوهلة الأولى. فعلى مرِّ آلاف القرون، قطع الناس بعض الأعشاب البرية، وتحكموا بالأعشاب المضرة، وساعدوا في مضاعفة النباتات البرية، أو البذور


ARCTIC OCEAN
ATLANTIC OCEAN
PACIFIC OCEAN
PACIFIC OCEAN
INDIAN OCEAN
G
E
F
D
A
C
B

المزروعة، ولكن لا يمكن اعتبار هذا الوضع تأهيلاً حقيقياً للنباتات، فلكي تكون النبتة أو الحيوان مؤهلين للاستنبات والتكاثر الموجَّهين بالمعنى التقني للكلمة، ينبغي أن ينتميا إلى نوعية جديدة، أو جنس جديد في أغلب الأحيان، ولا يمكن أن يُعيد نفسه من دون مساعدة البشر.

والذُرةُ مثالٌ مناسب. كانت الذرة البرية الأصلية عشبة تسمى Teosinte في المكسيك، وهي عبارةٌ عن نائتة لها صف واحد فقط من الحبوب المغلفة كل منها في غطاء قاس، وعندما تنضج الذرة، تتشقق الشوكة فتتناثر البذور بحيث يصبح بالإمكان إنتاج نبتة جديدة كل سنة. وبذور الذرة أثقل وزناً وتحظى بقدر أقل من الحماية، ولا تتناثر بذورها، في أغلب الأحيان، ينتج حقل من الذرة من دون رعاية بضع سويقات في السنة التالية، ولكنّ انعدام العناية البشرية يتسبّب بانقراض النبتة بعد بضع سنوات، وبوجود أعداد وافرةٍ من الأنواع والاستثناءات الجلية، من قبيل القطط والكلاب الوحشية، لا بد أن تتماثل النتيجة بالنسبة للنباتات والحيوانات المدجَّنة عند تركها من دون رعاية.

أكثر التفسيرات شيوعاً لتأخر تدجين النباتات حتى ١٠ آلاف سنة خلت تفيد بأن التغيرات البيولوجية التي أعقبت العصر الجليدي الأخير أنتجت أنواعاً مختلفة من النباتات البرية المؤاتية للتدجين في عدة أرجاء من العالم، ومن المرجح أيضاً أن تكون الكثافة العددية للصيادين اللقّاطين قد أدت إلى ندرة الموارد المتوافرة بحيث حفزت تنمية الزراعة، وتدجين الحيوان.

إنّ تواريخ بدء الزراعة المدونة على الخريطة متأخرة عما هي عليه في الأدبيات. وخلال الثمانينيات من القرن العشرين، شهدت التقنيات التنقيبية والنباتية المعتمدة في الأبحاث الزراعية الأولى تحسناً مذهلاً. ومن الأدوات المستحدثة قياس الطيف الكتلي المسرَّع accelerator mass spectrometry الذي يساعد في تعيين تاريخ الإشعاع الكربوني انطلاقاً من عينةٍ صغيرة جداً من المادة العضوية. تطلبت التقنيات الأولى عينةً كبيرة للغاية بحيث كان من المستحيل القيام بعملية التاريخ انطلاقاً

من بعض بذور، وكان لا بد من إجراء تخصيب بالإشعاع الكربوني radiocarbon dates انطلاقاً من عيِّنات الموادّ العضوية المرتبطة، وهي تقنيةٌ كانت في بعض الأحيان مخيِّبةً للآمال. وفي الثمانينيات من القرن العشرين، أصبح المجهر الإلكتروني المسحي متوافراً لقياس خصائص البذور، من قبيل الاختلافات الصغيرة في أغلفة البذور التي تميز البذرة البرية عن البذرة المدجَّنة في الفترة الزمنية ذاتها.

لا تكاد قائمة النباتات والحيوانات المدجنة المذكورة على الخريطة تتضمن أمثلة عن الاختراع التكراري المحتمل. أي أنه فيما كانت النباتات مدجنة بشكل مستقل عدة مرات، فقد تمَّ تدجينُ كل نوع نباتي أو حيواني مرةً واحدةً فقط، على الأرجح واصطنع كل مركز زراعي لنفسه مجموعته الخاصة من النباتات والحيوانات.

انتشر استخدام هذه الأجناس المدجنة حول العالم من خلال النشر بمبادرة من الأشخاص الذين كانوا يتمكنون من السفر - عن طريق القوافل عبر طريق الحرير، أو بحراً بمساعدة الملاحين البولينيزيين أو الأوروبيين - ولكنّ الفلاحين الذين سنحت لهم فرصة الاستخدام تقبلوا، أو رفضوا جلب خلفاء كولومبوس، على سبيل المثال، الذرة إلى أوروبا، ولكنّ ردة الفعل الأوروبية الأولى تمثلت بالرفض، إلا في حالة استخدامها كعلف ثانوي للحيوانات. اعتمد الأتراك الذرة بوصفها مادةً غذائيةً للبشر بسرعة ملحوظة أدت إلى إطلاق تسمية «الذرة التركية» عليها في عدة لغات أوروبية. ومن غير الضروري أن تشير إلى أنّ أصحاب السفن كانوا أيضاً في وضع يسمح لهم باقتراض المحاصيل حتى من الذين لم يرغبوا في إقراضهم إياها. حمل الهولنديون زراعة البن من إثيوبيا إلى جاوة. أما الأمريكيون فقد أدخلوا الأناناس إلى أمريكا الجنوبية من هاواي. ونقل البريطانيون والهولنديون الكينا البرية من منحدرات الأنديز الشرقية كي تصبح محصولاً زراعياً في سيلان وأندونيسيا. الأمر الذي أثار انزعاج البوليفيين والبيروفيين الذين كانوا يتحكمون في السابق بالمصدر الأول في العالم لهذه النبتة.

وتيرة الانتشار ومجالاته:

تتوقف خطى النشر، بشكل أساسي، على كثافة السكان ووسائل النقل. في حقبة ما قبل الاستزراع، اتسم النشر بالبطء لأنّ الناس كانوا يقيمون على مسافات متباعدة ولا يكادون يقيمون اتصالاً بالغرباء، وتزايد معدَّل سرعة النشر مباشرة عقب ارتفاع الكثافة السكانيّة وتحسُّن وسائل النقل.

وفي العقود القريبة العهد، باشر الباحثون في التاريخ العالمي في اتّباع نزعة تقسيم التاريخ البشري إلى حقَب زمنية من الحقب السابقة للزراعة وصولاً إلى ١٠٠٠٠ ق.م وانتشار الزراعة من مراكزها الأصلية، ومن ثمَّ الحقبة الزمنية التي تبدأ حوالي سنة ١٨٠٠ في أوروبا تطرؤ أيضاً. وليس هناك اتفاق على طريقة تقسيم الحياة الزراعية الطويلة الأمد إلى حقب ثانوية، ولكنْ رأتْ بدايةُ النور استناداً إلى أعمال مؤرخين طليعيين من أمثال ويليام ماكنيل ومارشال هودجسون. يقوم شكل من أشكال التقسيم إلى حقب على مزيج من الاختراع والنشر. في بعض المراكز الأولى حيث كانت الزراعة تخوِّلُ زيادةً في عدد السكان نمت مراكز حضرية، وأدت بالتالي إلى ظهور الحضارات الأولى، وهو المصطلح الذي كان يفيد أصلاً معنى الحياة في المدن. تحولّت كلٌّ من هذه المراكز الأولى ذات الكثافة السكانية المرتفعة نسبياً والمتصلة فيما بينها إلى مركز منطقة أكبر مساحة تجري فيها اتصالاتٌ متبادلة. وفيما كان السكان وتبادل الاتصال يتم انطلاقاً من المناطق المركزية الأصلية، تزايدت نسبة الاتصال تدريجياً على مراحل إلى أن أصبح تبادل الاتصال، خلال نصف القرن الماضي، شاملاً رخيص الكلفة، ولحظياً تقريباً.

تقترح بعض المصادر استخدام سلسلة من الخطوات باتجاه زيادة الاتصال على مستوى العالم للإشارة إلى التقسيمات الفرعية الرئيسة لحقبة الزراعة. تباعدت الآراء ولكن ظهرت بعض الخطوات جلية واضحة واعترف بها بشكل عام. قبل بدء التاريخ الميلادي بوقتٍ قصير، شكلت سلالة الهان في الصين إمبراطورية في شرق

آسيا دامت، بشكل من الأشكال، حتى القرن العشرين وأقام الإغريق في العصر الهيليني تركيبةً ثقافيةً اقتبست من جذور بلاد ما بين النهرين، ومصر وحوض البحر المتوسط بهدف تأسيس منطقة تواصل تتمحور حول شرق حوض البحر المتوسط. وقبل الحقبة الميلادية بقرن أو ما قاربه، ربطت طريق الحرير عبر آسيا، والملاحة الموسمية عبر المحيط الهندي وجنوب بحر الصين بين المناطق الرئيسة للأراضي الآسيوية الإفريقية الأوروبية. ومع ظهور الإسلام في القرن التاسع الميلادي ربطت مناطق ذات ثقافة واحدة وديانة واحدة أواصر الناس في الأراضي الممتدة من المغرب إلى وسط آسيا. وانبثقت على شكل مجتمع واحد تربطه علاقات مع المجتمعات الآسيوية - الأوروبية الإفريقية الأخرى، فكانت تقترض من بعضهم وتقرض بعضهم الآخر، وتعمل على شبكة للنشر والانتشار الثقافي. بهذه الطريقة انتقل النظام الرقمي المعروف بالأعداد العربية، على سبيل المثال، من الهند إلى أوروبا، وأصبحت عزلة المرأة ممارسةً تطبَّقُ في الأراضي الممتدة من إسبانيا المسيحية حتى الهند الهندوسية. وشاع استخدام البارود بالإضافة إلى اختراعات صينية أخرى في كل أنحاء العالم تقريباً في غضون بضعة قرون.

كذلك فقد أدخلت الثورة البحرية الأوروبية في الفترة المتراوحة بين ١٤٢٥ و ١٥٢٥ الأمريكيتين المنعزلتين سابقاً إلى العالم الذي كان يعرفه الأوروبيون، وفي منتصف القرن الثامن عشر، حلَّت أوروبا محلَّ العالم الإسلامي وأصبحت بالتالي المجتمع المركزي الذي يقيم معه الآخرون الاتصال - في الواقع محور النظام الجديد للاتصالات المتبادلة.

موانع الانتشار

ولكن العلم بابتكار قد يكون نافعاً لا يدفعُ الناس بالضرورة لتقبله. تنتشر الديانات أحياناً بسرعة كبيرة. ولكنها تتواجهُ أحياناً عبر خطٍ حدودي طوال قرون دون حصول أي تغيرات متبادلة جديرة بالذكر. فمع سقوط الإمبراطورية

الرومانية، انقسم حوض البحر المتوسط المتَّحد سابقاً إلى ثلاث مناطق محددة دينياً تتبع الديانة المسيحية بشكليها، والديانة الإسلامية، وظل الانقسام ثابتاً نسبياً طوال قرون.

وقد تتغيّر هذه الحدود الدينية الثابتة على هذا النحو بشكل مفاجئ. ففي بلاد الولوف المعروفة اليوم باسم السنغال، توفي الحاكم الإسلامي الأول المسجَّل تاريخياً في المنطقة في سنة ١٠٤٠م. ظلّ الإسلام الديانة التي اعتنقها التجار والبلاطات الملكية، وزحفت تدريجياً وصولاً إلى القسم الأعظم من الفلاحين، واستمر التوازن الديني ثابتاً لحوالي الألف سنة، ثم، وبشكلٍ مفاجئٍ بين سنتي ١٨٠٠ و ١٩٢٠ تقريباً، أصبح الإسلام الديانة التي تعتنقها الغالبية العظمى من شعوب إفريقيا والسنغال إلى غامبيا وليس بين الولوف فقط.

ونجد امتناعاً عن التبني من هذا القبيل في التكنولوجيا. بيد أن تفسير ذلك يتضمن المزيد من الصعوبة، مع أنه يصعب الاعتماد على تبرير وجود ديانةٍ أفضل من أخرى. فإنّ المُعَدات التقنية تقيسُ الجيِّد والسيئ اعتماداً على قدرتها في أداء مهماتٍ معينة. ومع ذلك، لا يمكن ضمانُ تقبُّل الغير لها. من الأمثلة المعروفة على ذلك رفض الرومان الظاهر لاستخدام الرِّكاب. كانوا على علم بالرِّكاب من خلال اتصالهم بالفرسان الآسيويين في السهول، ولكنهم فضّلوا الاحتفاظ بمركباتهم الحربية وامتطوا الجياد دون الاستعانة بالرِّكاب.

وهناك أمثلةٌ معروفةٌ أخرى على التبادلات التكنولوجية الأحادية الجانب بين الصين والغرب. بشكل عام، كان الغرب يقترض بكثرة من الصين قبل القرن الحالي، خلافاً للصين، التي كانت لا تكاد تقترض شيئاً من الغرب. بحلول القرن الثامن عشر، كانت المعامل في الغرب تنتج تزييفات، متقنة من الحرير الصيني والخزف الصيني، ولكن الصينيين لم يكونوا يصنعون نسخاً عن المراكب الغربية الشراعية التي تُساوي في مجالها خزف الصينيين جودةً.

وما تبنى الصينيون الألف باء، أو الأبجدية المقطعية التي قد تبدو للوهلة الأولى متفوقة على نظام للكتابة قائم على آلافٍ من الإشارات والأدوات. يمكن تفسير هذا الوضع جزئياً بأن الأحرف الصينية كانت تحظى بالتقدير، لأنها كانت جميلةً بقدر ما كانت مفيدة، وكانت تماثل، بشكل وثيق، العديد من أوجُه الثقافة الصينية الأخرى. يحمل كل حرف رسالةً خاصةً به من حيث المفهوم لا من حيث الصوت الذي يُنقل من خلال تجمعات معقدة من الأحرف الأخرى التي تقوم عليها، ولذلك يستطيع أن يحمل مستويات من المعاني والتلميحات والوظائف التي يتعذر أن تقوم بها الألف باء أو الأبجدية المقطعية. تتميّز الحروف الصينية أيضاً بخاصية الشمولية في مناطق واسعة النطاق. وهكذا يمكن للأشخاص الناطقين بلغة غير مفهومة من الطرفين أن يتواصلوا خطياً بما أنّ الأحرف تحمل في طيّاتها مفهوماً وليس صوتاً. ولكن من خلال العصر الصناعي، شكل الاستخدام المتواصل للأحرف مشكلات جديدة. إن استخدام قاموس صيني أمر في غاية الصعوبة، إذ يكون مرتباً أولاً وفقاً لعدد ضربات الريشة المكوِّنة للحرف، ومن ثم وفقاً لنظام ثابت من الجذور، أو الأشكال الأساسية - التي يفوق عددها المئتين. أما مشكلة وضع الكلمات في قوائم وفقاً لترتيب ثابت فيتعدى إعداد القواميس لبلوغ أشكال عديدة من حفظ السجلات - تخيل دليلاً للهاتف مستنداً إلى عدد الضربات وتعاقب الجذور. تستطيع الحواسيب أن ترتب أبجدياً إلاّ أنها تتعامل مع الأحرف بصعوبة. يكمن حل عدة أنواع الاتصالات في الصين وتايوان ببساطة وبكتابة بضعة أنواعٍ من الأشياء بالإنكليزية يبقى علينا أن نعرف إن كانت كفاءة الحاسوب الأبجدية تلغي الميزة الجمالية للأحرف.

الاقتراض الثقافي المتبادل بين الغرب والعالم:

يُعنى المؤرخون وعلماء الاجتماع الآخرون باكتشاف أنماط عامة من التغير الثقافي بما فيها التقبّل والرفض وإعادة ترجمة الافتراضات الثقافية. وعلى الرغم من عدم وجود فرضية تسمح بتفسير كل هذه الظواهر حتى تاريخنا الحالي، يمكن

الاستعانة ببضعة تعميمات شاملة يبدو أنها مفيدة. أولاً: وفقاً لما ذكرته هذه الدراسات عدة مرات، فقد اتسم الغرب، ابتداءً من العصور الوسطى، باكتساباته العديدة في ميدان التكنولوجيا. وصل البحارون الغربيون إلى آسيا على متن سفن اقترضت تصميماتها جزئياً من آسيا واتبعوا توجيهات العلم الفلكي والجبري والبوصلات المغنطيسية التي تعود أصولها بمزيدٍ من الوضوح إلى آسيا. وقدمت آسيا ابتكارات أيضاً. ولكنها كانت بدورها تستخدم التكنولوجيا المقترضة بأساليب جديدة. تزامن الاقتراض والابتكار. وشكّلا الإشارات المبكرة لتجديد تكنولوجي في الثقافة الغربية التي ازدهرت في العصر الصناعي. ولكن وصولاً حتى القرن العشرين، لم يكترث الغرب ألبتة بالافتراض في بعض الميادين الأخرى. من مثل الديانات غير الغربية. وقد كان التعصّب الديني الخاص وجهاً من مجموعةٍ من الأفكار التي دفعت الأوروبيين والأميركيين إلى بذل المزيد من الجهود لتشجيع الآخرين على تقبُّل المسيحية.

أما بالنسبة للتعميم الثاني، فإنّ معظم الآسيويين، قبل القرن الثامن عشر، لم يبدوا أيَّ اهتمامٍ للتكنولوجيا الغربية، ولكنهم باتوا يقترضون الكثير من التكنولوجيا والثقافة الغربية بالقرن التاسع عشر، وإن كان اقتراضهم هذا انتقائياً. قليلٌ منهم ودّوا لو أصبحوا غربيين. ونادراً ما كان جهد التحديث يعني التزييف البسيط. وأُعجب كثيرون منهم بالتكنولوجيا التي أدت إلى الإنتاجية المرتفعة والاستهلاك العالي الذي شهدوه في الغرب. تقبّل بعضهم ترجمتهم الخاصة للمسيحية، ولكن الغالبية رفضت الرسالة المسيحية التي عرضها عليهم الغرب بإلحاح. كانوا يرغبون بالمكاسب الظاهرة للتكنولوجيا الصناعية، ولكنهم كانوا يودّون أيضاً الاحتفاظ بأُسلوب عيشهم الخاص وبذل القسم الأكبر منهم عنايةً خاصةً للحفاظ على ديانتهم الخاصة مهما كانت.

وقبل بلوغ العصر الصناعي ذروته، اضطرّت المجتمعات غير الغربية أن تأخذ بالاعتبار الغربيين الوافدين إلى سواحل القارات، عارضين عليهم صفقات تجارية

وقادمين بصحبة المبشرين بالديانة المسيحية. ولم تكن الإرساليات النصرانية تشكل تهديداً على وجه الخصوص، بل جاء التهديد من مصدرٍ آخر. ففي أغلب الأحيان، ترافقت فرص التبادل التجاري بتهديد لا يستهان به، إذ باتت القوة العسكرية الغربية نذيرةً بالشؤم بشكل متزايد على مر العقود. وإذا كانت الدولة غير الغربية عاجزةً عن الدفاع عن نفسها، فسوف يتعرض أسلوب حياتها بأسره للتهديد في فترةٍ زمنيةٍ معينة. لكن الدفاع عن النفس كان يتطلب محاكاة بعض ميزات الغرب. وكان التحديث العسكري مثل الإسفين المُقحَم في أغلب الأحيان، إذ كان يطلق سلسلةً من التغيرات في دوائر متنوعة بتنوع المنظمات الاجتماعية والتعليم والحياة السياسية.

ويشكل اليابان وتركيا مثلين تفصيليين اختيرا للدراسة في الفصلين التاليين. ولم يقم انتقاؤهما على الصدفة ولا لأنهما نموذجيان. ولكنهما مثالان متناقضان للتحديث الدفاعي. فقد كانت اليابان أول دولة غير غربية دخلت مجال التصنيع وأحرزت أكبر قدر من النجاح. أما تركيا فقد شهدت تحويلاً واسع النطاق وثورياً باتجاه القوانين الغربية في أبعادٍ شاسعة من الطيف الثقافي. لكن قبل ذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة على أمثلةٍ عن استراتيجياتٍ دفاعية في إطارات مغايرة، بعضها ما يزال في عصر ما قبل الصناعة.

مقاومة الإنكا الجديدة:

تشكّل مقاومة الإنكا- الجديدة للحكم الإسباني في البيرو، في القرن السادس عشر، مثلاً، بارزاً أنها وقعت في حقبة زمنية مبكرة من تاريخ الغزو الأوروبي للعالم. وقد كانت عبارةً عن ردة فعل من أعضاء مجتمعٍ هُزموا على أيدي غزاة أجانب ظهرت في العقود الأولى التي أعقبت الهزيمة.

تذكر معظم روايات تاريخ أمريكا اللاتينية قصةً مذهلةً، أدّى دور البطولة فيها بضعة مئاتٍ من الجنود الإسبان الذين زحفوا واحتلوا تاونتينسويو - المعروفة باسم أطلقه عليها الأوروبيون وهو إمبراطورية الإنكا - وأقاموا واحدةً من أولى

الإمبراطوريات الإقليمية الأوروبية في بلاد ما وراء البحار. لقد كان هذا الفوز الأول ناتجاً عن داء الجُدَري وليس عن البراعة العسكرية الأوروبية كما أنّ الأسلحة الحديثة اضطلعت بدورٍ أقلّ أهميةٍ من عنصر المفاجأة الاستراتيجي. لم يكن سكان تاوانتينسويو يعلمون شيئاً عن الإسبان، ولا عن البلاد التي أتوا منها، ولا ما كانوا ينوون القيام به. لقد قدموا مع كتيبةٍ من الخيّالة ودخلوا بلاداً تنعدم فيها الجياد، وأتوا بالمدافع إلى بلادٍ لا يوجدُ فيها البارود.

في مرحلة مبكرة، قبض الإسبان على رأس الإنكا المتمثل بقائد دولة بيروقراطية معقدة، وتمكنوا لفترة من الزمن أن يحكموا البلاد من خلال إصدار الأوامر باسمه. وهكذا ظهرت حركة المقاومة في فترة متأخرة إلى حد فقدت معها فاعليتها، لأنّ الإسبان كانوا يسيطرون على جهاز الحكومة. ولكنّ قسماً من نبلاء البيرو وتابعيهم لاذوا بالفرار إلى فياكابامبا، وهي منطقة حدودية تقع بين جبال شاهقة وغابة استوائية شرق جبال الأنديز. وفي هذا الموقع، كانوا على مقربة من عاصمة كوسكو السابقة التي كانت خاضعةً آنذاك لحكم الإسبان، ولكن كان من الصعب اختراق معقلهم انطلاقاً من الجبال، إذ كانت ماشوا بيكشو في المنطقة الحدودية. أقام الفارُّون في فيلكابامبا حكومةً مستقلة ظلوا يدافعون عنها من الثلاثينيات من القرن السادس عشر حتى عام ١٥٧٢.

من الأمثلة المبكرة ذات الدلالة على التحديث الدفاعي، ما اختاره هؤلاء من ثقافتهم الخاصة بغية الحفاظ عليه، وما ارتأوا اقتراضه من الإسبان. بادئ ذي بدء، اعتزموا إعادة إقامة البنية البيروقراطية الرئيسة لتاوانتينسويو، على الرغم من أنهم باتوا يحكمون منطقةً أصغر مساحة. وفي الوقت ذاته، اقترضوا من الإسبان أكثر بكثير بالمقارنة مع الشعوب الأخرى الناطقة بلغة الكيشوا الخاضعة لسيطرة الإسبان خلال هذه العقود المبكرة. أدخلت دولة الإنكا الجديدة بسرعة تغييرات تعتمد على التقنيات العسكرية الأوروبية، كما يمكن توقعه، فاكتسبت أسلحة

الأوروبيين ودروعهم وأخذت تربي الخيول الأوروبية. وكان دور هذا التكيّف بالغاً في الأهمية لأنه لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى اليد العاملة الضرورية لكتيبة المشاة الممثلة لقوة تاوانتينسويو العسكرية؛ بسبب انخفاض عدد السكان الناتج عن وباء الجدري. ولم يكن الإسبان مضطرين لمواجهة هذه الجيوش، وانفجر الصراع الرئيس، عقب الهزيمة الأولى، بين الكتائب الإسبانية التي تنازعت فيما بينها، ولم يكن الطرف الواحد يزيد على بضع مئات.

أما الميدان الرئيس الآخر، فغير متوقع ألبتة. لقد اعتنقت دولة الإنكا الجديدة ديانة الإسبان، وفي هذا المجال، عمل القادة الإسبان وزعماء الإنكار الجديدة جنباً إلى جنب ساعين لخدمة مصلحتهم الخاصة على الأرجح. أرسل الإسبان المبشرين إلى فيلكابامبا كوسيلة لاختراق المقاومة وضمان تقبّل سلمي للحكم الإسباني. في الوقت ذاته، تقبّلت المقاومة الهندية المبشرين واستخدمتهم لاستمداد المعلومات عن الإسبان، وعن الثقافة الإسبانية، وعن أوروبا، وبهذه الطريقة، تمكنوا من خفض تفوق عنصر المفاجأة المهم الاستراتيجي إلى أدنى مستوى. تكرّر استخدام المبشرين كمصدر للمعلومات في عدة مراحل من المواجهة بين الأوروبيين والعالم غير الغربي - في اليابان ما قبل توكوغاوا، على سبيل المثال - وفي إرساليات اليسوعيين إلى وادي الياكي في المكسيك في القرن السابع عشر، أو في تقبّل المسيحية في بوغندا في التسعينيات من القرن التاسع عشر. في البيرو في منتصف القرن السادس عشر، اعتنق أفراد مقاومة الإنكا الجديدة المسيحية قبل سكان هضبات البيرو عامة. وخلافاً لما حدث في وسط المكسيك، حيث تم التحوّل للديانة الجديدة بسرعة في القرن السادس عشر، يعود تاريخ تقبل المسيحية على نطاق واسع في البيرو إلى القرن السابع عشر، لا بل حتى إلى فترة لاحقة. حدث اعتناق الديانة الجديدة في هذه المنطقة بشكل سريع للغاية داخل مجموعتين هما مجموعة المتعاونين تعاوناً وثيقاً مع الإسبان، ومجموعة من المعارضين لهم في فيلكابامبا.

إضفاء الطابع الغربي على روسيا في عهد بطرس:

بدأت الثقافة الغربية تنتشر في روسيا وأوكرانيا منذ أن اعتنقت أوروبا الشرقية السلافية المسيحية حوالي العام ١٠٠٠م وما بعده. واتسم هذا الالتزام بالهشاشة في بادئ الأمر، وقد كان مرتبطاً بالقسطنطينية والمسيحية الشرقية عوضاً عن الغرب اللاتيني. وتعيّن على هذا الشقاق الكاثوليكي - الأرثوذوكسي الدوام لفترة طويلة في تاريخ أوروبا الشرقية، ولا يزال ظاهراً حتى الآن في النزاع الناشب بن الصرب الأورثوذوكس والكروات الكاثوليك في يوغوسلافيا السابقة.

بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين في منتصف القرن الخامس عشر، برز الأتراك على شكل الخلفاء السياسيين للإمبراطورية البيزنطية، ولكن المسيحية الأورثوذوكسية ظلت تقوم بوظيفتها من مقرها في اسطنبول. أوجُه الشبه عديدة بين سكان موسكو والعثمانيين بما أنهم كانوا يحتلون النواحي الطرفية فيما وراء الحدود البرية للمسيحية الغربية، ولكنهم كانوا يحافظون على علاقات تجارية وسياسية مع الغرب. وابتداءً من مطلع القرن السابع عشر، أصبح لدولة موسكو، بوصفها دولةً مسيحية، جوانب مشتركة مع الغرب، ولكنها ظلت تمثل موقعاً خلفياً عسكرياً بالمقارنة مع كل من أوروبا الغربية أو الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك، كانت روسيا تتوسّع، انطلاقاً من سنة ١٦٨٠، نحو الشرق والجنوب نزولاً باتجاه وادي الفولغا نحو بحر الخَزَر تماماً، كما بنت بوغندا امبراطوريتها الثانوية، في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، في جوارها مع أن خطراً خارجياً كان يُحْدِقُ بها. أما التهديد الذي سُلّط على روسيا فقد صدر عن الأنظمة العسكرية المتفوقة في بولندا ومن ثم السويد الواقعة على الجانب الغربي، مثلما شعرت بوغندا في أثناء حكم موتيسا بالخطر الذي كان يمثله المصريون في الشمال والسواحيليون من ساحل المحيط الهندي. وهكذا كان نظام عسكري أكثر تطوراً ضرورياً لكي تدافع روسيا عن نفسها ولكي تتوسع رقعة الغرب للتوسع والدفاع عن نفسها. هذه الاعتبارات العسكرية هي

التي وضعها بطرس قيصر روسيا من ١٦٨٢ حتى ١٧٢٥، نصب عينيه حين باشر بتنفيذ سياسة جدّية تُعرف عادةً بالتطبّع بالطابع الغربي، مع أنها كانت كما صار معروفاً اليوم، سياسة تحديث مخططة أكثر منها محاكاة بسيطة للغرب. جلّ ما كان يثير اهتمام القيصر وتابعيه، هو تعزيز قوة روسيا أكثر منه التشبه بالغرب. وبالاستعانة بالنموذج الغربي للقوة العسكرية، أسس بصرى جيشاً قوياً بما فيه الكفاية للتصدي للسويد وشرع في تحويل روسيا إلى عامل مهم في نظام الدول الأوروبية للمرة الأولى. ولم يكن من السهل حصر التحديث العسكري داخل المجالات العسكرية فحسب، ولذلك وسّع بطرس وتابعوه إطار هذا التحديث إلى حقول أخرى كان بعضها على هامش اهتماماتهم الرئيسة.

سخر الأوروبيون الغربيون من الروس الذين كانوا يحاولون التطبع بالطابع الغربي، مثلما سخروا في بادئ الأمر من اليابان عندما باشرت ببناء بحرية حديثة. حاول بطرس، من بين أمور أخرى، حظر تربية اللحى. ونشر كتاباً من آداب البلاد بهدف دفع السلوكيات الروسية وأسلوب حياة البلاط لتبني العادات الغربية، وأُدخلت بعض التغيرات على الألف باء، وإن لم يكن على اللغة الروسية ذاتها. لكنّ الكلمات المقترضة من اللغات الغربية بدأت تتسلّلُ إلى اللغة الروسية ابتداءً من تلك الفترة. على أنّ برنامج التحديث الذي اعتمده لم يتضمن تعديلاً دينياً أساسياً على غرار ما سبّبه التحديث في فيكابامبا وما سيحدثه من جديد في بوغندا بعد قرنين.

أدى النوع الثاني من التطوّر العرضي للتحديث العسكري إلى تغيير توزيع القوى في المجتمع الروسي على نطاق واسع. وما إن غيّر الجيش الروسي توازن القوى في أوروبا حتى أصبح القيصر هو الأقوى في داخل روسيا، مثلما عزّز دعم الموسكيت والمبشرين قوة بعض الزعماء - العملاء في بوغندا داخل الدولة الغاندية. أما في روسيا الخاضعة لحكم بطرس. فقد فَقَد أعداء القيصر سطوتهم وتجمّع أصدقاؤه

ضمن إعادة ترتيب ظل قائماً حتى بعد انتهاء فترة حكمه. فقد سيطر على بضع الروس شعور دائم بتحكم أوروبا الغربية بهم سواء من الناحية الثقافية أو السياسية.

تحديث حكم القلة المسيطرة في عصر الإمبريالية بوغندا:

واجهت مجتمعات أخرى الخطر الغربي وردّت عليه بشكلٍ من أشكال التحديث الدفاعي. لكن بحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت المجتمعات الغربية قد استفادت من حوالي قرن من التحديث، وزادت تفاوت القوى بين الغرب وغيره أكثر من أي فترة سابقة. لقد ظهرت هذه الهوة الفاصلة بين الطرفين خلال العصر الإمبريالي. وبسبب تسارع وتيرة الغزو الأوروبي، اضطر الزعماء غير الأوروبيين في كافة أصقاع الأرض لمواجهة هذه المشكلة. اختار البعض، على غرار اليابان وتركيا، شكلاً من أشكال التحديث الدفاعي حافظ على جوهر أسلوب عيشهم القديم، وخوّلهم أيضاً، كما في حال اليابان على تقديم أمارات وبشائر على نجاح اقتصادي.

ونادراً ما كانت الشخصيات الرئيسة في هذه المواجهات من الأفراد. إذ إنّ إنجازات التحديث على الطريقة الغربية التي اضطلع بها بطرس الكبير كانت تبيِّن، على سبيل المثال، جهود مجموعة تحيط بالقيصر أكثر منها جهود بطرس وحده. ولم تكن الاستجابات على حركة التحديث راسخة على نطاقٍ واسعٍ في هذه المجتمعات. كبح التعلم المحدود والتدفق المحدود للمعلومات داخل كافة المجتمعات غير الغربية تقريباً الاستجابات المحتملة لأعضاء النخبة، وحتى لمجموعة معينة داخل النخبة ممن ظهروا أحياناً على شكل أقلية جديدة تتحكم بالبلاد وتفرض التحديث.

لقد سبق أن اطلعنا على المراحل المبكرة للتحديث الدفاعي في بوغندا. كاباكا موتيسا كان الشخصية الأبرز والأولى خلال الثورة المسيحية التي وقعت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر. فقد ساعد في إدخال المبشرين إلى مجتمع يعاني من مواجهات مع دخلاء - لم يكونوا في بادئ الأمر من الأوروبيين بل التجار السواحيليين الوافدين من الساحل الشرقي والإمبراطورية المصرية

الثانوية في الشمال. وأكثر ما لفت انتباه القيادة الغاندية في الثقافة الغربية في تلك المرحلة السلاح والدين. كانت بالتحديد هي المظاهر ذاتها من الثقافة الغربية التي جذبت اهتمام المقاومة في فيلكابامبا منذ حوالي ثلاثة قرون خلت. إلا أن الغاندا كانوا قادرين على استغلال الأسلحة الغربية والديانة الغربية لتوجيه التأثير الأوروبي والحد منه، وفي هذه الحالة لتأجيل الاستسلام دون القدرة على إلغائه كلياً.

حتى في أثناء حكم موتيسا، غزَّزت التغييرات العسكرية منصب موتيسا على حساب مجموعات أخرى من النخبة. وعقب موت موتيسا، انتقلت السلطة من حامل لقب الكاباكا إلى مجموعة من العملاء - الزعماء الذين استغلوا منصبهم القيادي العسكري والديانات الخارجية، أي المسيحية والإسلام، لدفع مصالحهم الخاصة نحو الأمام.

أعقب هذا الوضع عقدٌ من الارتباك والتشوش جرت خلاله عملية ضم بريطانية رسمية، ولكن خلت من إقامة عقد من الارتباك والتشوش جرت خلاله عملية ضم بريطانية رسمية ولكن خلت من إقامة إدارة بريطانية. قام العملاء - الزعماء بخلع الكاباكا موانغا من منصبه، بمساعدةٍ من البريطانيين، ونشروا هيمنتهم السياسية الخاصة على مجتمع الغاندا، وما جاءت كل الأخطاء الخارجية من أوروبا. فقد أودى طاعون الماشية الوبائي من جنوب غرب آسيا بحياة معظم الماشية، كما تفشّى وباء مرض النعاس المشؤوم في الأجزاء المجاورة من محمية أوغندا، علماً بأنها لم تبلغ قدراً كبيراً من الخطورة في بوغندا ذاتها.

انتظرت بريطانيا إلى ما بعد سنة ١٨٩٩ لإقامة إدارة فعلية في بوغندا أخذت تمتد وتتوسع في فترةٍ لاحقة تدريجياً حتى شملت ما تبقّى من الحماية. وبحلول تلك الفترة، وجد الحاكم بأن العملاء - الزعماء المسيحيين الأساسيين كانوا يتحكّمون بمعظم البلاد ويحظون بحماية مستشاريهم من المبشرين، وبالتالي باتت حكومات الأقليات الجديدة قادرةً على التفاوض من مركز قوة.

وجاءت النتيجة على شكل معاهدة رسمية يُطلق عليها تسمية اتفاقية أوغندا لسنة ١٩٠٠، وقد كانت عبارةً عن وثيقة وحيدة للاحتلال البريطاني لإفريقية الاستوائية. وضع هذا الاتفاق الرسمي المبرم بين الحاكم البريطاني ومجموعة من العملاء –الزعماء البارزين– الشروط اللازمة لإقامة الحكومة المستقبلية في بوغندا. كانت مصالح حكومة الأقليات المؤيدة للتحديد وسلوكها المسؤول الأكبر عن فرض توازن القوى الجديد. ولكنّ التفاهم بين العملاء – الزعماء البارزين – والبريطانيين كان أوسع نطاقاً من الوثيقة الرسمية. في الوقت المناسب، عمل بعض الغاندا ومعظمهم من طبقة العملاء – الزعماء، بالنيابة عن الإدارة الحكومية في ترسيخ الحكم البريطاني في باقي أجزاء المحمية. ويطلق على هذه العملية– في بعض الأحيان– تسمية إمبريالية الغاندا الثانوية، وقد اعتقد سكان محمية أوغندا من غير الغاندا –في أغلب الأحيان– بأنه حكم للغاندا مشوب بتواطؤ بريطاني.

أكثر ما يبرز في معاهدة أوغندا برنامجها الخاص بالتحديث السياسي – لإنجازاته وقيوده. فهو يحافظ على سيادة مملكة بوغندا، ومنصب الكاباكا كان داود شاو –وهو الكاباكا في تلك الفترة– قاصراً؛ ولذلك كان من المفروض أن يستلم زمام السلطة الفعلية، في ظل الحكم البريطاني، ثلاثة زعماء يمثلون الفرق الدينية الأقوى بين العملاء – الزعماء.

وبالإضافة إلى الحفاظ على منصب الكاباكا، ضمنت المعاهدة السلطة السياسية المستقبلية من خلال تأسيس مجلس تمثيلي للزعماء يُعرف باسم لوكييكو، كما أنها أمّنت حماية مصالحهم الاقتصادية من خلال القضاء على كل النظام التقليدي لملكية الأراضي قضاءً تاماً، ووزعت الأراضي الخصبة في المملكة بين العملاء – الزعماء الأساسيين على شكل ملكية تتطلب بدلاً مادياً بسيطاً، مع مراعاة تمثيل الفرق الدينية الثلاثة كافة – البروتستانتية والكاثوليكية والمسلمة، وكانت حصة الأسد من نصيب أبولو كاغوا، الزعيم الأهم للعصبة البروتستانتية.

جاءت معاهدة أوغندا التي تضمنت هذه الثورة في ملكية الأراضي، بمثابة تقليد للتسوية الدائمة في البنغال، فقد أدت إلى ظهور طبقة من المُلاك الشبيهين بعض الشيء بمناظريهم في بريطانيا العظمى، ولكنها كانت مختلفةً تمام الاختلاف عنها في بوغندا التقليدية، وأقل شبهاً بعد بالإصلاحات التي أدخلت على الأراضي ونفذت في مناطق الاستيطان الأوروبي، من قبيل الانتقاء الأسترالي أو الأميركي. وكرّمت التوجهات البريطانية المتعلقة بالحكومة التمثيلية من خلال إقامة مجلس ولكن لم يُنتخب اللوكيكو. إذ كان هذا المجلس عبارة عن مجلس للوردات الغاندا تأسس في فترة زمنية كانت الحكومة البريطانية على وشك تخفيف نفوذ اللوردات في بريطانيا بالذات. ولا شك بأنّ الاتفاقية كانت مبتكرة ولم يكمن ابتكارها هذا في الاقتباس عن الغرب، بل في الاعتراف بالتحوّلات الثورية في السلطة السياسية التي كانت تطبّق داخل مجتمع الغاندا في العقود الأخيرة وتنظيمها وفقاً لشروط الغرب.

لا ينبغي النظر إلى اتفاقية أوغندا باعتبارها تشجع إقامة حكومة تمثيلية مع إمكانية زيادة الحركة الاجتماعية، أو إضفاء الطابع الديمقراطي على مجتمع الغاندا، كما لا ينبغي أن يُفهم من الملكية الخاصة على أنها توجّه نحو الزراعة الرأسمالية على الطراز البريطاني. اقترضت حكومة الأقلية من الغرب ما اعتقدت أنه ضروري لمصالحهم الخاصة، ولكن دون الذهاب إلى أنّ هذه الإجراءات تتضمن إقامة نمط حديث أو غربي للمجتمع.

١٩٧٩. حتى بعد سقوط عيدي أمين.. عجزت مجموعة الغاندا بأسرها والمنحدرين من سلالة العملاء - الزعماء من استرجاع النفوذ الذين كانوا يتمتعون به في ظل الحكم البريطاني. وسقط الدفع نحو التحديث في أيدٍ أخرى وسلك اتجاهات أخرى.

الملكيَّات التحديثية: هاواي وإيميرينا وسيام هاواي:

بدأ كاميهاميها (المتوفي سنة ١٨١٩) حياته المهنية شخصيةً سياسيةً ثانويةً في جزيرة هاواي. وشرع في حوالي سنة ١٧٩٠ في غزو البلاد المجاورة، ليس فقط على أرض الجزيرة الواسعة بل تعداها إلى أماكن أخرى من سلسلة جزر هاواي التي كان يسيطر عليها بحلول سنة ١٧٩٥. أما ما جعله يحرز هذا النجاح، فهو الإدراك بأنّ الأسلحة الأوروبية توفر القوة والنفوذ لغير الأوروبيين أيضاً. شرع بابتياع بنادق الموسكيت والمدفعية الخفيفة، وحوّر بعضها كي تصبح قابلةً للاستخدام على الزوارق المزدوجة البولينيزية.

اكتسب كاميهاميها، بفضل نجاحه العسكري، احترام زواره الأوروبيين، ولكنّ سكان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية كانوا ينظرون، عامةً، لهاواي نظرتهم لموسكو في السابق، على أنها موقع طريق بربري، سعت مملكة هاواي الجديدة لإضفاء الشكل الغربي على المظاهر الخارجية، بالأسلوب ذاته تقريباً الذي اعتمده بطرس الأكبر في روسيا قبل قرن ونصف القرن، لعبت المظاهر الخارجية دوراً مهماً في اكتساب الاحترام الضروري لاعتراف القوى الغربية الدبلوماسي. بدأ المبشرون يفدون من الأميركيتين وأوروبا في العشرينيات من القرن التاسع عشر. وقد ساعدت مشورتهم الملكيات في إقامة إدارة سياسية على الطراز الغربي. وهو ما كان ضرورياً لإقناع القوى الغربية بأنّ المَلَكية قادرةٌ على تدبُّر شؤون الجزر. أما ما فاق ما سبق أهميةً فقد كان إقامة جهاز حكومي قادر فعلياً على حكم البلاد. تأسست هذه الإدارة خلال الولاية الطويلة لكاميهاميها الثالث (١٨٢٤ حتى ١٨٥٤). وواجهت هاواي عدة عمليات ضم هددت بها إحدى القوى، ولكنها صمدت في وجهها من خلال تحديث الإدارة الحكومية من جهة، وكذلك من خلال التنافسات الناشبة بين القوى الغربية، ما ساعد في ضمان مستوى معين من الدعم في مواجهة ما بدا باعتباره تهديداً كبيراً في أي وقتٍ من الأوقات.

في مطلع القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا وفرنسا المتنافسين الرئيسين على النفوذ في الجزر، ولكنّ الاهتمام تزايد مع نمو صيد الحيتان في أمريكا الجنوبية. وبعد أن ضمت الولايات المتحدة كاليفورنيا في سنة ١٨٤٨، أصبحت هاواي المحطة المنطقية التي تتوقف عندها الرحلات الساحلية. تحسّنت التجارة وتزايد الاتصال مع كاليفورنيا، وواكبهما تعاظم التدخل الأميركي في شؤون المملكة.

في هذه الأثناء، أدخلت أحداث خارجية تغييرات رهيبة في ديموغرافية هاواي ومجتمعها. سببت الأمراض الغربية الأوبئة الكاسحة وانخفاض عدد السكان ذاتهما اللذين ضربا الأميركيتين في السابق. وفي مناطق أخرى، كان نمو الاقتصاد العالمي ونهاية تجارة العبيد في الأطلسي تدفعان «مركب المزارع» خارج حوض الأطلسي. عادت المزارع للظهور بأشكال مختلفة في مناطق متناثرة، مثل جزر موريشيوس وزنجبار في المحيط الهندي. أما في المحيط الهادي، فقد ظهرت تلك المركّبات في كوينزلان، وفيجي، وبيرو، وهاواي وأماكن أخرى، في كل هذه الأماكن، تطلبت زراعة قصب السكر يداً عاملةً فاقت ما توفّر محلياً، وبالتالي استوردت اليد العاملة من بلاد ما وراء البحار. وفي القرن العشرين، لم يعد العمّال عبيداً بل أصبحوا مأجورين لفترةٍ محدودةٍ من الزمن مكرَهين على تقبُّل هذا الوضع بسبب الفقر الذي كانت تعاني منه أوطانهم. عاد بعض العمال إلى بلادهم عقب انتهاء استخدامهم لأجل محدود. ولكنّ العديد بقوا، وبالتالي بدأ توازن سكان هاواي يتغير، أصبح أهالي هاواي الأصليون يشكلون أقلية ضمن مجموعة من السكان المنحدرين إلى حد كبير من أصل ياباني وصيني ومهاجرين فيليبين ومهاجرين برتغاليين من جزء المحيط الأطلسي بالإضافة إلى منحدرين من المبشرين ومديري المزارع والتجار القادمين من الولايات المتحدة وأوربا.

وبحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، كان سكان هاواي الأصليون يسيطرون على السلطة السياسية في ظل ملكية دستورية، ولكنّ النفوذ الثقافي والاقتصادي

الذي تمتع به الغربيون تزايد أهمية. في ظل تأثير الإرساليات التبشيرية، تغيرت معالم ثقافة الطبقة العليا في هاواي بشكل جذري. ويبيّن قصر إيولاني، وهو القصر الملكي الذي بوشر بناؤه في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، الطراز المعماري الذي انتقته ملكية هاواي، ويظهر في الصورة علَم هاواي الذي يجمع عناصر من الرموز الوطنية البريطانية والأمريكية. وهنا لا يُظهر الطراز المعماري تبايناً شديداً مع ما اختاره التاج البريطاني للإشارة رمزياً إلى نفوذه في دلهي الإمبريالية في تلك الفترة الزمنية ذاتها. وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أصبح ملك هاواي المدعو كالاكاوا أشبه بالرحّالة العالمي بما أنه كان يحظى باستقبال يليق بملك يعترف به المجتمع الدولي اعترافاً كاملاً في أثناء زياراته الملكية لكلٍ من اليابان وبريطانيا والولايات المتحدة من بين دول أخرى .



- قصر إيولاني في هنلولو -

خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، أشارت سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة إلى تزايد النفوذ الخارجي في حياة هاواي السياسية، بعضها متأتٍ من أفراد خارجيين، وبعضها الآخر من حكومات أجنبية، وفي نهاية المطاف، في سنة ١٨٩٨، وعقب مناورة معقدة للقوى السياسية المحلية والدولية، أعلنت الولايات المتحدة رسمياً ضم هاواي إليها على أنها منطقة لها وضعها مماثل لما تتمتع به الأراضي الداخلية في الولايات المتحدة مثل إريزونا أو نيومكسيكو أو ألاسكا. هذا الوضع فتح المجال أمام إمكانية الحصول على وضع الولاية دون الوعد بها. وبعد بضعة أشهر، عندما ضمت الولايات المتحدة بورتوريكو والفيليبين لها، لم تكن تعتبرها أراضي بل ممتلكات مستقلة فحسب. حصلت الفيليبين على استقلالها حتى قبل أن تصبح هاواي ولايةً في سنة ١٩٥٩، ولم يقرر بعد ما إذا كانت بورتوريكو ستتحول إلى ولاية.

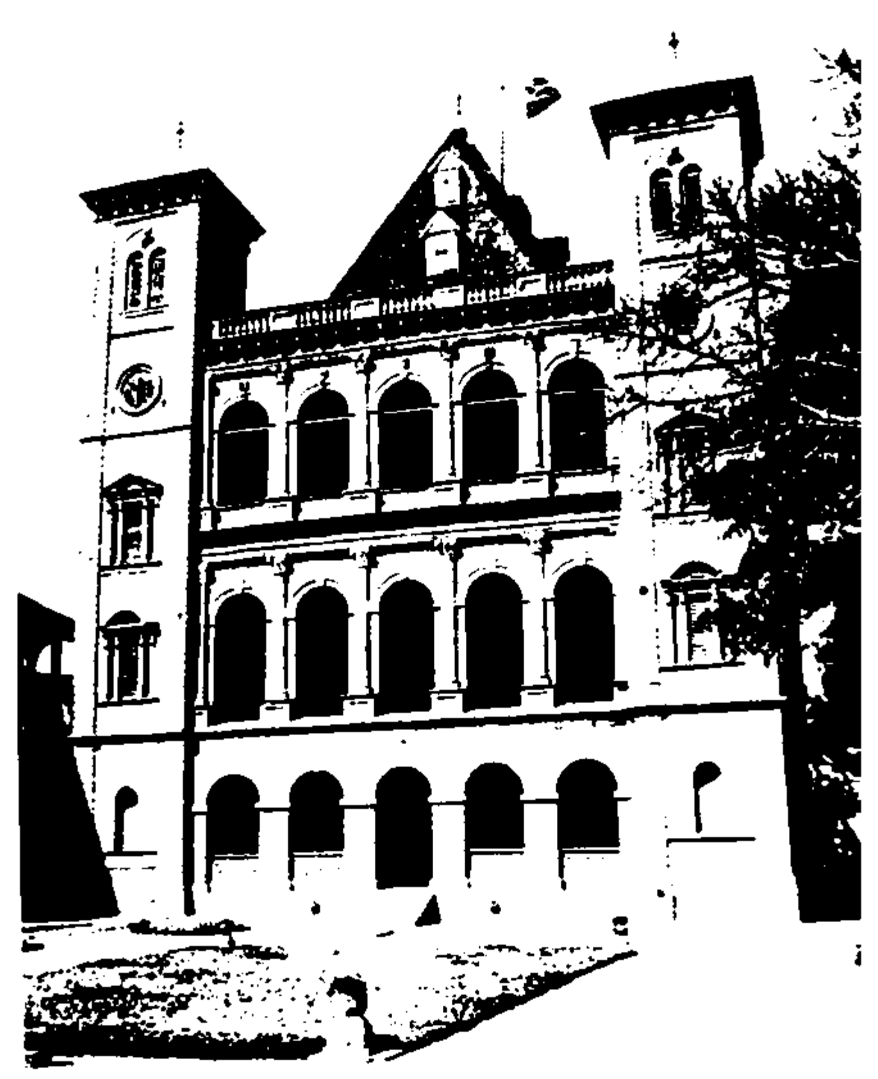


- ملك هاواي المسمى كالاكاو -

شكل تاريخ المَلَكية في هاويا حالةً واضحةً للتحديث الدفاعي. أما معرفة إن كان الدفاع قد أحرز نجاحاً أو أخفق فذلك منوط بالآراء المختلفة للأفراد. من وجهة النظر المادية، فقد دخلت هاواي إلى العالم المتقدم بحلول نهاية القرن العشرين. وقد ظهر جلياً أيضاً بأنّ ثقافة الجزر البولينيزية كما كانت عليه في التسعينيات من القرن الثامن عشر، تغيرت تغيراً جذرياً بحيث تشوّهت معالمُها بعد أن غشيها التنوع الثقافي الغني الذي يميز هاواي الحالية.

إيميرينا:

تمثل مملكة إيميرينا في مدغشقر جهداً مماثلاً من التحديث الدفاعي، ولكنه لم يحرز النجاح الذي أحرزته هاواي على الرغم من تماثل توقيتها وتأثيرها المبشرين فيهما، وضم الغرب لها في التسعينيات من القرن التاسع عشر، بدأت المراكب الأوروبية ترسو على سواحل مالاغاسي منذ مطلع القرن السادس عشر، وقد سيطر الأوروبيون، بين الفينة والفينة، على بعض المواقع الساحلية وحصّنوها، ولكنْ لم يُجرِ السهل المركزي المكتظّ سوى القليل من الاتصالات مع الأوروبيين أو مع الساحل حتى القرن التاسع عشر، تأسست المملكة في الهضبات المركزية على يد أندريانا بوينيميرينا (الذي حكم من حوالي ١٧٨٣ حتى ١٨١٠) وقد كان حاكماً محلياً لمنطقةٍ صغيرةٍ على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من العاصمة الأخيرة أي أنتاناناريفو. وقد شرع هذا الحاكم بتوحيد أراضي شعب الميرينو في السهل المركزي، ومن ثمَّ وسَّع رقعة نفوذه من خلال غزو الدولة المجاورة إلى أن تمكن من المطالبة بالسيطرة على معظم أجزاء الجزيرة، وعلى غرار كاميهاميها في هاواي، أسس إمبراطوريةً ثانويةً تقوم، على الأقل جزئياً، على بنادق المُسكيت التي حصلوا عليها من تجار العبيد الأوروبيين، بدأ المبشرون يفدون في العشرينيات من القرن التاسع عشر، فدوّنوا اللغة المالاغاسية، وعلّموا السكان القراءة والكتابة مثلما فعلوا في هاواي. بالفوز المحرز،



– مانجا كامياوانا، القصر الملكي، في أنتاناناريفو –

فقد أحرز المبشرون نجاحاً مع شرائح معينة من الطبقات المالاغاسية العليا، ولكنّ الديانة التقليدية ظلت راسخةً في قلوب الجماهير وقسم من النبلاء أيضاً. وعلى الرغم من تتالي الحكام الذين بدا بعض منهم من مناصري التحديث فيما أطلق المبشرون على بعضهم الآخر تسمية رجعيين، فقد شعر المبشرون بالفخر والاعتزاز

فقد اعتنقت المملكة الديانة المسيحية رسمياً بعد سنة ١٨٦٩. تبنى البلاد الأزياء الأوروبية والطراز المعماري الفيكتوري، أما القصر الملكي المعروف باسم مانجاكاميادانا في أنتاناناريفو، بعدما أعيد بناؤه في السبعينيات من القرن التاسع عشر، فقد شكل النسخة المالاغاسية لقصر إيولاني الذي شيِّد في هونولولو بعد عقد من الزمن (الصورة ٥). حصل الجيش المالاغاسي على أسلحة حديثة، تشتمل فيما تشتمل، على رشاشات ومدفعية خفيفة. كما أُلزم الجنود بارتداء موحّد وتدربوا على أيدي ضباط أوروبيين، وهكذا فقد كان ذلك، سطحياً على الأقل، من أروع الأمثلة على التحديث العسكري في المنطقة الإفريقية.

ولكن تحت هذه الرموز السطحية والاعتناق المعلن للمسيحية، لم تكن هذه التغييرات التي أدخلت على إيميرينا على مدى القرن التاسع عشر لتؤمن الدفاع المضمون على شاكلة النموذج الياباني أو الهاواي. تمتّع حكام ميرينا بإمكانية جمع مداخيل فعلية واستهلكوا سلعاً غربية الطراز، ولكنّ موقفهم كان متأثراً بالتأييد الكبير في العمالة القسرية بالإضافة إلى الاستعباد المعلن. فلم يخفقوا فقط في إدخال المزيد من التحديث بعد اعتناق المسيحية والأزياء الأوروبية الظاهرة خارجياً، بل أخفقوا أيضاً في بناء شكل من أشكال مجتمع وإدارة حكومية تديم نفوذهم الخاص، لقد كانوا يفتقرون إلى الإدارة الحديثة التي سمحت لملكة هاواي بالحكم بقدر من الفاعلية، ولكن ما هو أهم بعد يكمن في إخفاقهم في تحقيق دعم شعبي أو تحمُّلٍ شعبي.

بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، شهدت إيميرينا مواجهةً وضعتها أمام إحدى القوى الأوروبية، انتصرت الإمبراطورية الأثيوبية في معركة حاسمة ضد إيطاليا في عدوة في سنة ١٨٩٦ واستمرت لأربعة عقود لاحقة. وقبلت حكومة أقلية الغاندا بتسوية اتفاقية أوغندا. وعندما هددت فرنسا في سنة ١٨٩٥، بغزو إيميرينا لإجبار المملكة على قبول حماية فرنسا، قررت حكومة أقلية الميرينا أن تحاربها. أطلق الفرنسيون حملة رئيسة كانت أكبر حملة استطاعوا إعدادها في عملية غزو

إفريقيا الاستوائية ولكنها عانت من سوء إدارة أوشكت على القضاء عليها ومن خسارات فادحة سببتْها الأمراض.

مع ذلك، تمكن جزءٌ صغيرٌ من الناجين من القوة الفرنسية من التقدم باتجاه أنتاناناريفو، واكتفى جيش إيميرينا المحدَث بمقاومة مقاومةً رمزية، فانهارت سلطةُ الملك في البلاد. وانفجرت ثوراتٌ متزامنة في مناطق مختلفة لأسباب متنوعة، بعضها على شكل معارضة عرقية لحكم إيميرينا، وبعضها مناوئ للمسيحية، وغيرها لمجرد النهب والسلب. وعندما وصل ما تبقى من القوة الفرنسية إلى العاصمة، أجبر قائدها الملكة على قبول الحماية الفرنسية، ولكن ملكية إيميرينا سلَّمت سلطة لم تعد في حوزتها. وسرعان ما تخلت فرنسا عن فكرة الحماية وضمت مدغشقر على أنها مستعمرة فرنسية، لقد كان احتلالها الفعلي للجزيرة عمليةً تدريجية استمرت على مدار السنوات الثماني التالية إذ إنها كانت مضطرةً لتشكيل بنية حكومية جديدة تحل محل البنية التي انهارت.

سيام:

تمثل سيام على العكس مثالاً لملكية مطبِّقة للتحديث أحرزت نجاحاً باهراً في إدخال إصلاحات على الإدارة الحكومية، والمؤسسة العسكرية خولتها التنصل من الغزو الأوروبي، كما تواصل العمل في تغيير بنية الحكومة، والمجتمع، وأصبحت على غرار تايلاند من ضمن المجموعة الناجحة للدول التي دخلت حديثاً في عهد الصناعة في أطراف شرق آسيا، وينحدر الملوك الحاليون لتايلاند مباشرةً من الملوك التحديثيين الذين بدؤوا العمل في هذا المشروع في منتصف القرن التاسع عشر.

كانت سيام جزءاً من مجموعة الإمبراطوريات البرية في جنوب شرق آسيا المتمركزة في أودية الأنهار، وتضم هذه المجموعة كلاً من بورما وكامبوديا وفيتنام. وقد تفاوت إطارها الإقليمي بما أن كلاً منها كان يبرز في فترة من الفترات لترسيخ مطالباته بسائر حوض النهر وأطرافه الهضبية. وفي سنة ١٧٦٧، استولى جيش

بورمي على عاصمة سيام القديمة في أيوديا ثم أقامت سلالة جديدة عاصمتها في بانكوك وشرعت – ابتداءً من سنة ١٧٦٧ – بإعادة بناء سلالة سيامية. في منتصف القرن التاسع عشر، شعر الملك مونغكوت بالتهديد الذي كانت تشكله أوروبا المطبقة للتحديث ووضع سيام على درب التحديث العسكري، ممهِّداً الطريق لابنه شولالونغكورن (الذي حكم بين ١٨٧٣ و١٩١٠) كي يتغلب على الأزمة ذاتها التي عايشتها هاواي وإيميرينا في العقد الأخير من القرن وتهديد الغرب بضمّها لأراضيه. يدين الشعب التايلاندي اليوم لشولالونغكورن بتأسيس المجتمع التلايلاندي الحديث .

تطلب إنجاز التحديث بعض الحظ مصحوباً بقدرٍ من النبوغ والتخطيط المتقن لشريحة كاملة من الطبقة الحاكمة في سيام. وكانت الجغرافيا عنصراً مؤاتياً وفر لسيام فرصة التلاعب بالتنافس القائم بين الفرنسيين الذين احتلوا أجزاء من الهند الصينية في الشرق، وبين البريطانيين في الملايو بالجنوب، وبورما في الغرب. أما النجاح الدبلوماسي فما كان ليتحقق دون دفع ثمنه على شكل تنازلات عن الأراضي. أُجبرت سيام على التنازل لفرنسا عن مقاطعات أصبحت اليوم تشكل لاوس. ولبريطانيا عن أربع ولايات الملايو الأقصى شمالاً.

استند النجاح الذي حققه شولالونغكورن أيضاً على الإنجاز السياسي المتمثل بحشد مجموعة من الشباب حول برنامجه. إن هؤلاء الشباب ومن بينهم إخوته السبعة والعشرون، أساساً إلى طبقة النخبة القديمة، كانوا متعلمين وعلى دراية بالعالم الغربي على غراره، وتمكن شولالونغكورن، ابتداءً من منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر، أن يؤسس تدريجياً إدارةً حكوميةً على الطراز الغربي، على المستويين المركزي والإقليمي، مستعيناً بالنماذج البريطانية في بورما، والهند ووضعها قيد التنفيذ معتمداً على مركزه الملكي لإقامة نظام إداري مماثل لما أقامه المستقرون في ولايات الملايو باسم السلاطين.

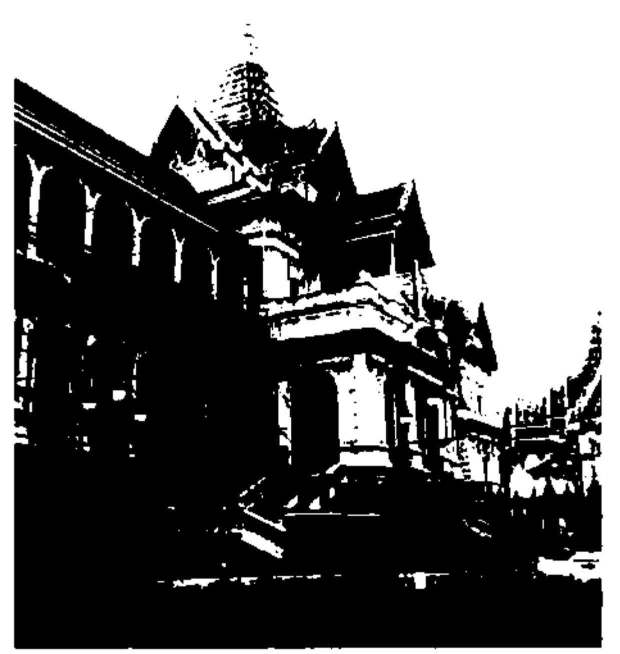


- الملك شولالو نغكورن ملك سيام في اللباس الرسمي -



- الملك شولالو نغكورن في اللباس السيامي -

وانبنت إنجازات شولالونغكورن على أساس أن القوى الدفاعية الفاعلة تتطلب أكثر من مجرد أسلحة جديدة. إنَّها تستلزم نفوذاً فاعلاً كي تفرض الضرائب وتحكم البلاد. والأكثر من ذلك فإنها تحتاج لنظامٍ للتعليم العام، أي ما يمكن تسميته بشكلٍ عام تعديلاً عميق الجذور لبعض مظاهر الحياة السياسية في سيام من دون التدخل في الديانة البوذية التايلاندية التقليدية وجذورها الثقافية. كان لا بد أن تحمل هذه التغييرات في طياتها بعض مظاهر التطبع بالطابع الغربي في مسائل من قبيل اللباس والعمارة، وهكذا صمَّم مهندس معماري بريطاني قاعةً جديدةً للحفلات، أو شاكري ماهبراساد، على الطراز الإيطالي، في القصر الملكي، انتهى بناؤها في سنة ١٨٨٢ - علماً بأن الملوك اللاحقين تابعوا المنحى نفسه في إضافة بعض الأبراج السيامية الطراز للمبنى المنتهي (الصورة ٨). هكذا انضم شولالونغكورن لقافلة الملوك المجددين باتباع الأنماط الأوروبية في العمارة السائدة في تلك الفترة، وإن شابها المزيد من لمسات اقتبست من التقاليد المحلية التي وجدت في قصر إيولاني أو في قصر أنتاناناريفو.



- شاكري ماهبراساد، القصر الكبير، بانكوك (تصوير المؤلف) -

في كل هذه الأمثلة، لم يكن الخيار قائماً بين التجديد أو الاحتفاظ بثقافة البلاد على حالها. ظهر القرار البارز بين مجموعةٍ من الخيارات احتلّ فيها خيار الأسلحة الحديثة والتنظيم العسكري المكانة الأبرز للدفاع عن النفس. لم تكن الأسلحة كافية على الدوام، كما يبينه مثال إيميرينا. قد يكون اقتراضٌ آخرُ من الغرب يهدف - على سبيل المثال - لإقامة إدارة حكومية فاعلة على مستوى أكبر من الأهمية. ويعقب على ذلك مجموعة، قد تكون على الأرجح رمزية، تتضمن أنماطاً من الألبسة وعمارة الآثار، كانت تبدو في أكثر الأحيان إشارة مهمة على التحديث، ولكن يكتنف إثبات أهميتها، عن بعد، صعوبة جمة. كثير من الخيارات كانت مطروحة، وتبرز الخيارات التي قدمتها حكومات الأقليات غير الغربية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال التجربة التي خاضتها اليابان والواردة في الفصل التالي.

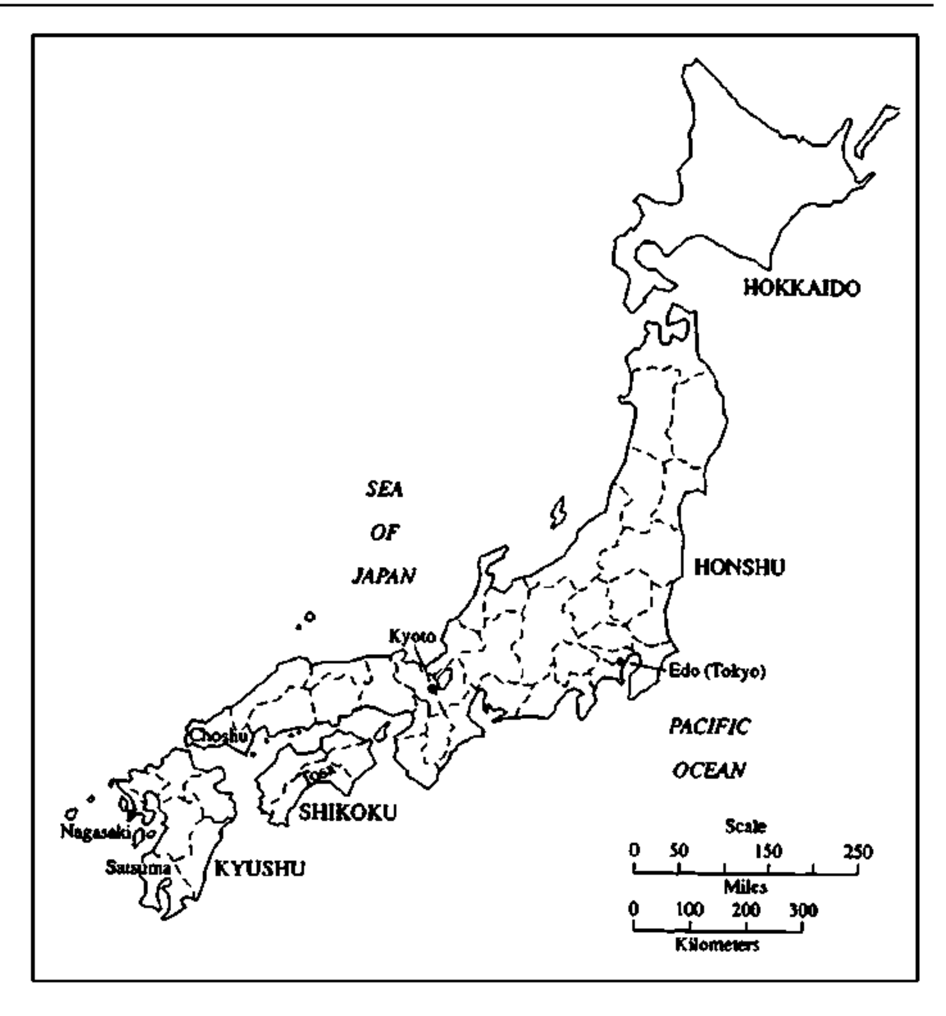
٩

اليابان في عهد الميجي - مثال على التحديث الثوري

اليابان هي أول أمة غير غربية أحرزت النجاح الأكبر في تحقيق الإنتاجية والاستهلاك العاليين الذين يحققهما الغرب. اعتاد العديد من المؤرخين على اعتبار الثورة الصناعية إنجازاً مقتصراً على الغرب واعتبار النجاح الذي حققته اليابان في مجال الصناعة مجرد اقتراض وتقليد بحت لما ابتكره الغرب، أما المركز المقارن الذي تحتله أوروبا في تاريخ العالم في القرن التاسع عشر فلم يعد يبدو على المستوى ذاته من الفرادة وفقاً لما اعتقده المؤرخون منذ حوالي بضعة عقود خلت. أثبت مؤرخو اليابان مؤخراً أن قسماً كبيراً من القاعدة الاجتماعية، والاقتصادية لإدخال اليابان في الطور الصناعي قد دخل حيّز التنفيذ أواخر القرن الثامن عشر.

تراث توكوغاوا:

اتسم هذا التحدي الغربي بالطابع العسكري قبل أي شيء آخر. ولكنّ الأسلحة المتفوِّقة لم تكن حكراً على الأوروبيين فحسب، كما سبق وتبيّن لنا من أمثلة الإمبراطوريات الثانوية المتنوعة تنوع إمبراطوريات الموتيسا والكاميهاميها. وقفت اليابان للمرة الأولى في مواجهة التحدي العسكري الجديد في أواخر القرن السادس عشر، عندما بدأت «إمبراطوريات البارود» تستلم زمام السلطة هنا، وهناك في كل أنحاء العالم. بدورها، اعتمدت اليابان على أسلحة البارود، ولكن ابتكاراتها العسكرية تضمنت استخدام كتيبة المشاة الثقيلة المنضبطة والمزودة بالبنادق دونها، وتشيد القلاع الكفيلة بتأمين الدفاع في مواجهة المدفعية، وقد وازت هذه التغييرات ابتكارات مماثلة في أوروبا. ظهر الأوروبيون في اليابان في ذلك القرن، ولم تشكل الإرساليات التبشيرية المسيحية وغيرها أي تهديد يُذكر.



في مطلع القرن السابع عشر، أتاحت التكنولوجيا العسكرية الجديدة المستعارة جزئياً من الخارج فرصة توحيد اليابان على يد قيادة توكوغاوا العسكرية شوغونات Shogunate Tokugawa أدت الوسائل الجديدة المعتمدة في تنظيم القوة العسكرية إلى توحيد الجزر سياسياً، كما حصل بعد قرنين في هاواي ومدغشقر. ولكن توكوغاوا واصل عمله بطرد المبشرين الأجانب، وقصر التجارة الخارجية على بعض الهولنديين والصينيين الذين أُذن لهم بممارسة أعمال تجارية من قواعد على مقربة من ناكازاكي في الجنوب الغربي الأقصى.

نعمت اليابان في حقبة توكوغاوا بقرنين ونصف القرن من السلام النسبي الداخلي والخارجي على حد سواء. ومع أن اليابانيين حدّوا من اتصالهم مع الأجانب، إلا أنهم كانوا على علم بالعالم الخارجي وبشؤونه وقد شعروا بالرضا لفترةٍ من الزمن لقدرتهم على البقاء بعيداً عنهم. ومع ذلك، تلاشى هذا الرضا عند انتصار البريطانيين في حرب الأفيون في مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر، إذ ثبت خلالها ما يمكن للأسلحة البريطانية أن تحققه في مواجهة الإمبراطورية الصينية. في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، عانت القيادة اليابانية من سلسلة من الصدمات التالية عندما أجبرتها القوى الأوروبية، والولايات المتحدة على فتح «أبوابها على مصراعيها» أمام التجارة العالمية.

حتى العقود الأخيرة، نزع المؤرخون، ولا سيما غير اليابانيين على اعتبار التحديث الياباني نتيجةً مباشرةً لوصول الأسطول الأميركي إلى خليج طوكيو سنة ١٨٥٣، ويصح القول إنّ تغييرات بارزة ظهرت على الاقتصاد الياباني عقب ذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولكن المؤرخين في فترة زمنية أقرب توصلوا لبذور مهمة للتغيير في عهد توكوغاوا تعود إلى مطلع القرن السابع عشر.

ظلت اليابان تتمتع بوحدة سياسية نظرية تحت حكم إمبراطوري، وقد كانت هذه المؤسسة خاضعةً لتأثير المثال الصيني، إلا أنّ سلطة الإمبراطور الفعلية كانت شبه معدومة. في القرن السابع عشر، انقسمت اليابان إلى مئات من الوحدات السياسية والعسكرية المتنافسة ضمن نظام سياسي شبيه، من بعض النواحي، بالنظام الإقطاعي الأوروبي، ثم خلال ذلك القرن، شهدت اليابان سلسلة من التغييرات السياسية، العسكرية التي عادلت قيام الملكيات الوطنية في الحقبة الزمنية ذاتها في أوروبا.

تعدّ المركزية السياسية سبباً للتغييرات العسكرية ونتيجةً لها، في آن واحد: ذلك أنّ تعاقب القادة العسكريين الأكفاء، وضع البلاد تدريجياً تحت جناح سطوتهم. في سنة ١٦٠٣، حصل أحد هؤلاء القادة العسكريين المدعو توكوغاوا إياسو على لقب

شوغون، أو القائد العسكري الأعلى تحت حكم الإمبراطور، وسرعان ما نجح في تعزيز منصبه حتى بات أقوى من الإمبراطور، ومن ثم أصبح الشخصية الأهم في اليابان وأسس قيادة توكوغاوا العسكرية العليا Shogunate. وبحلول العشرينيات من القرن السابع عشر، رسّخ خلفاء توكوغاوا مركزهم باعتبارهم حكاماً فعليين يتمتعون بنفوذ فعلي أقوى من أي إمبراطور حالي أو سابق.

من الناحية النظرية، كان نظام توكوغاوا عبارةً عن ديكتاتورية عسكرية يحكمها الباكوفو bakufu (معناها الأصلي المخيَّم) ومتمركزة في قصر الشوغون (القائد العسكري الأعلى) في إيدو (طوكيو الحالية). ولكنّ ممارسة النفوذ الفعلي كانت تمرّ عبر مجموعة من المؤسسات الإقطاعية ذات الطابع اللامركزي، علماً بأنّ نفوذ الباكوفو في أرجاء البلاد كافة كان يفوق السلطة المتوافرة للملكيات الوطنية المعاصرة في أوروبا الغربية. كان الشوغون قد سبق وتبنى، في الثمانينيات من القرن السابع عشر، إجراءات تقضي بتنظيم الاضطراب الإقطاعي والسيطرة عليه، على غرار مسح الأراضي الذي صنّف الأراضي كافة حسب إنتاجيتها المحتملة من الأرز بمكيال الكوكو koku (أي ما يعادل خمسة بوشل). وبالتالي، صنّف الممتلكات الإقطاعية وفرضت عليها الضريبة وفقاً لمكيال الكوكو المخصص لها. وأهم اللوردات أو دايميو daimyo أولئك الذين كانوا يمتلكون ما يزيد على العشرة آلاف كوكو. وقد كان الأوساط من هؤلاء الدايميو يخضعون لبعض كبار الدايميو، من مثل توكوغاوا ذاته.

تفاوت عدد الدايميو إلى حد ما، ولكنه كان يتراوح عامةً بين ٢٥٠ و٣٠٠، وتفاوتت الدايميو المسماة هان han تفاوتاً كبيراً حجماً ووظيفةً. بعض الدايميو كانوا على ارتباط مباشر مع عائلة توكوغاوا، وتركزت ممتلكاتهم في وسط اليابان على مقربة من كيوتو وإيدو. أما الممتلكات الباقية فقد تناثرت في كل أنحاء الجزر، وأُطلق على الأقلّ صلةً بعائلة توكوغاوا تسمية ملكيات الهان الخارجية الموجودة أساساً بعيداً عن

المركز، أي في جنوب غرب اليابان وشمالها، كانوا يشكلون أقلية بما أنّ عددهم لم يزد على المئة، ولكنهم كانوا أكثر عدداً ممن خضعوا مباشرة للباكوفو.

قام على خدمة الدايميو مجموعة من المستخدمين العسكريين المعروفين باسم الساموراي، وقد كانوا ينتمون لطبقة عسكرية متوارثة تتقاضى أجراً منتظماً هو عبارة عن عددٍ معينٍ من مكاييل الأرز بالكوكو محددةٌ عرفاً. ألفت هذه الطبقة - بالإضافة إلى الدايميو - طبقةً مماثلة لطبقة النبلاء والأرستقراطيين في أوروبا، وشكلوا حوالي ٧ بالمئة من العدد الإجمالي للسكان، وكانوا يعيشون أساساً على العمالة الإنتاجية للطبقات الأخرى. أما الخط الفاصل بين الطبقات السياسية، العسكرية والدركات الأدنى، فقد كانت قانونية، متوارثة، محترمة بشكل دقيق.

ضمن الطبقات الأدنى، كانت الفوارق متوارثة أيضاً، من الناحية النظرية، ومحددة قانونياً بحيث كانت تميز الفلاحين والحرفيين والتجار تمييزاً تنازلياً. أما الفوارق الفعلية التي كانت تفصل بين الطبقات الدنيا، فقد كانت سلسلةً يصعب الحفاظ عليها، كما كان الثراء الفعلي، والهيبة والنفوذ السياسي داخل كل من هذه الطبقات يتفاوت تفاوتاً شديداً. كان الفلاحون الأثرياء وزعماء القرى يتمتعون بنفوذ يفوق سلطة العديد من فرسان الساموراي ذوي المراتب الدنيا، وتمكّن بعض التجار من تجميع ثروة كبيرة على الرغم من وضعهم الاجتماعي المتدني.

ظلّ الإمبراطور ممثلاً لرأس الدولة الرسمي، لكنّ السلطة انحصرت نظرياً في أيدي الباكوفو وانتشرت، إلى أن عمّت كل الملكيات الهان، ومع ذلك فإن نفوذ العمل للباكوفو كان محصوراً، عمل العديد من الدايميو حكاماً نصف مستقلين، ولا سيما في الهان الخارجية، لقد كانت اليابان في عد توكوغاوا عبارة عن فدرالية الشوغون بنفوذ كاف للحفاظ على السلام ولكنه لم يكن كافياً لتسيير أعمال الحكومة في الهان الخارجية بالتفصيل. كان لكل إقطاعية هان جيشها الدائم الخاص بها من الساموراي، علماً بأنه نادراً ما كان يُطلب من هذه الجيوش أداء الخدمة. وبحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، أصبح للساموراي مراكز اجتماعية، دخلوا

مستندين إلى وضعهم العسكري، ولكن نشاطهم الفعلي الأهم اتسم بالبيروقراطية. خلفت اللامركزية أيضاً وراءها بعض النفوذ بين أيدي قيادة فلاحي القرى، وبعضه آخر بين أيدي التجار وغيرهم من الطبقات الحضرية.

هذا التغيير الاجتماعي، والاقتصادي الذي جرى خلال القرنين، ونصف القرن من التوكوغاواوا ظلّ راسخاً في الأعماق. فقد تضاعف النتاج الزراعي تقريباً بين ١٦٠٠ و١٨٥٠، فيما تزايد عدد السكان بحوالي ٤٥ بالمئة فقط. قلّت الحاجة لليد العاملة في الحقول، وتعاظم تخطيط المدن دون أن يقتصر على إيدو وكيوتو، بل وشمل أيضاً المدن المحيطة بالقلاع، والتي انتشرت على شكل مراكز للهان شبه مستقلة. وصل تخطيط المدن اليابانية في مطلع القرن التاسع عشر إلى مستوى موازٍ لما بلغه في أوروبا في مطلع الحقبة الصناعية. واحتوت إيدو على أكثر من مليون شخص، أي ضعف عدد سكان باريس. ولا يتوافر مقياس دقيق عن الإنتاج غير الزراعي ولكن يبدو أن الصناعات الحرفية الحضُرية والسلع نمت بسرعة فاقت حتى الإنتاج الزراعي، وبفضل وفرة الموارد المخصصة للتعليم، أصبحت اليابان أكثر الدول تعلماً في آسيا، وقد زادت نسبة التعلم فيها عنه في معظم دول أوروبا الغربية. وابتداءً من القرن التاسع عشر، تساوى مستوى الحياة في اليابان إلى حد ما بما هو عليه في بريطانيا، ونعمت الجزيرتان بالوفرة أكثر من الجارات البرية.

حاول المؤرخون تبرير القيادة الاقتصادية لبريطانيا، أو لليابان ما قبل الحقبة الصناعية من خلال البحث عن سلسلة من المسببات التي تبشر بدنو النجاح الصناعي. أفاد إ. ل. جونز بأن الناس يحاولون عادة كسب المزيد من الثراء المادي. ولكن لا ينبغي أن نعزو نجاحه في تحقيق هذا المطلب، في حال حصوله، إلى أسباب إيجابية بل إلى غياب الكوابح absence restraint من الحكومات أو القادة. في حالة اليابان، فقد لعب القرنان ونصف القرن من السلام النسبي دوراً مهماً. والدور نفسه لعبه توازن القوى السياسية القائم بين الهان الفردي والباكوفو. أشار العديد من المؤرخين بأنّ انقسام أوروبا إلى عدد من الملكيات الوطنية المتنافسة بالإضافة

إلى وضع ما تبقى من النفوذ في أيدي النبلاء والبلدات والتجار وغيرهم اضطلع بدور أساسي في انتعاش الغرب. توازن معادل للقوى ظهر في اليابان في أثناء حكم التوكوغاوا أيضاً.

الثورة اليابانية:

يجدر بنا أن نشد - في مستهل الموضوع - على أن الثورة اليابانية التي وقعت في الستينيات، والسبعينيات من القرن التاسع عشر حققت تغييرات سياسية على غرار الثورة الفرنسية، الروسية، المكسيكية في التاريخ الغربي، أما الحدث الأبرز فقد تمحور حول صعود إمبراطور الميجي من جديد في سنة ١٨٦٨ ووضع حداً للباكوفو الذين عينهم توكوغاوا ليعملوا عمل الحكومة المركزية في اليابان. إلا أن إعادة الإمبراطور تتضمن عناصر مثيرة للتناقض. بدأ قادة هذه الثورة بإطلاق شعار «أعيدوا الإمبراطور، أطردوا البرابرة»، قاصدين بهؤلاء التجار، الدبلوماسيين الأوروبيين الذين وصلوا مؤخراً إلى اليابان. في الواقع، لم يحصل الإمبراطور الميجي المسترجع على نفوذ أكثر مما كان سابقوه يتمتعون به. فقد كانت السلطة الفعلية محصورة في فترة إرجاع الإمبراطور بين أيدي مجموعة من الأقلية ينحدر معظم أفرادها - في أغلب الأحيان - وليس حصراً، من الطبقة الأرستقراطية من الهان الخارجي. أثارت مجموعة الأقلية هذه روح الثورة في الطبقات العليا من المجتمع الياباني. معتمدةً أساساً على التقنيات، والمؤسسات من البرابرة الذين طالبوا بطردهم.

في أثناء هذه العملية، دمروا الوضع القانوني والنفوذ المخصصين للدايميو والساموراي، أي الطبقة التي انتموا إليها شخصياً، وبحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، تمكنوا من تحقيق التوازن العسكري مع العديد من القوى الأوروبية.

وبحلول سنة ١٩٠٥، أصبحت اليابان قادرةً على دحر الإمبراطورية الروسية في حرب لم يخوضوها للدفاع عن أنفسهم في مواجهة الإمبريالية الغربية بل بسبب تصادم بين الطموحات الإمبريالية اليابانية والروسية على أراضي شرق آسيا.

التكنولوجيا العسكرية:

دخلت التكنولوجيا العسكرية عقر دار حركة التحديث اليابانية. عرفت اليابان تقليداً عسكرياً قديماً. وقد حددت الوظيفة العسكرية طبقة الساموريا المميزة. بقيت عيون اليابانيين ساهرة تراقب الشؤون العسكرية الغريبة، حتى في الفترة التي كان فيها الباكوفو يُحكّم سيطرته على البلاد، وكانت أبواب اليابان مغلقةً إلا قليلاً في وجه التجارة الأجنبية. رين شيهاي كان قد كتب في التسعينيات من القرن الثامن عشر، كتابه الشهير الذي يُترجم عنوانه عادةً بدراسة المشكلات العسكرية لدولة بحرية. توافرت المعلومات عن التكنولوجيا الأوروبية من خلال المحطة الهولندية في ناكازاكي. واستخدم اليابانيون المسكيت والمدافع لحوالي القرنين؛ ولذلك لم يؤخذوا على حين غرة بالطريقة نفسها التي واجهها غيرهم من الذين تصادموا مع أوروبا في العقود التي امتدت من ١٨٦٠ حتى ١٩١٠. ومع ذلك، ظلوا يظهرون لا مبالاة حيال الخطر الغربي إلى أن انهزمت الصين في حرب الأفيون بين سنة ١٨٣٩ و١٨٤٢ كما سبق قوله.

خاضت تلك الحرب، عن الجانب البريطاني. القوات البحرية للبحرية الملكية والشركة البريطانية للهند الشرقية التي كانت تتفوق على البحرية الملكية بأسلحتها المتطورة.

وقد أدخلت للمرة الأولى البواخر الحديدية draft-long التي كانت تحمّل عليها المدافع الثقيلة والصواريخ بغية استخدامها في مواجهة الحصون الساحلية والمراكب. صُممت هذه البواخر أساساً كي تُستخدم في الأنهار الهندية؛ ومع ذلك فقد كانت قادرةً على الإبحار في رحلات طويلة حول رأس الرجال الصالح.

تركزت المراكز الاقتصادية للقوات الصينية في الأراضي الداخلية لا على الساحل. ومن ثم فقد كانت القوات البحرية البريطانية معدومة الفاعلية في غياب قوة استكشافية قادرة على التحرك نحو الداخل. ومع ذلك تمكنت البواخر، في حملة سنة ١٨٤٢، من إسكات المدافع المنصوبة على السواحل وأبحرت صعوداً في

مجرى نهر اليانغسي حيث هددت بقطع خط الاتصال المهم بين الشمال والجنوب للقناة الكبرى. وجود القلاع الساحلية لم يكن حيوياً لمصالح الصين خلافاً للقناة الكبرى؛ ولذلك اضطر الصين للاستسلام لمطلب بريطانيا التجارية، تخلت عن جزيرة هونغ كونغ.

لم يغب هذا الدرس عن وعي اليابانيين، في بعض الدوائر العليا على الأقل، بوشر تطبيق التحديث العسكري الدفاعي بشكل شبه فوري، مع أنه لم يكن يعني المستوى المركزي من الباكوفو. كان لكل دايميو قواته العسكرية الخاصة، وصدرت الاستجابة الأهم من الهان الخارجي الكبير في الجنوب الغربي، ولكن الآخرين تدخلوا أيضاً. في سنة ١٨٤٠، أقام دايميو ميتو مسبكةً جديدةً للحديد ومصنعاً للأسلحة على الطراز الهولندي. وبدأ هان آخر يصنّع مدافعه الخاصة في فترة مبكرة أي في سنة ١٨٤٢، وأصبح له فرن صاهر جرى العمل فيه بحلول سنة ١٨٥٢، أي قبل سنة من وصول الكومودور بيري.

تُعَدُّ زيارة الأسطول الأميركي حدثاً مهماً بالنسبة لليابانيين. بما أنها مثلت الظهور الأول لقوة بحرية غربية في المياه اليابانية. وعلى الرغم من أنّ الأسطول كان يتألف من ثمانية مراكب، وأن الولايات المتحدة كانت أقل قوة من بريطانيا في المياه الآسيوية، فقد افتتحت هذه الزيارة صفحةً جديدة إذ وقّعت اليابان مع الأميركيين، في سنة ١٨٥٤، سلسلةً جديدةً من المعاهدات فتحت بموجبها اليابانُ أبوابها أمام التجارة الخارجية. والأهمّ من ذلك المعاهدة الأمريكية - اليابانية التي شارك في مفاوضتها تاونسند هاريس في سنة ١٨٥٨، وسرعان ما أُجبرت اليابان على توسيع رقعة تنازلاتها كي تشمل الأجانب الأوروبيين عامة. ولوحظ بحلول منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر، وضع مقلق، مثير للاستياء، فقد أُقيمت التجمعات الأوروبية في المرافئ اليابانية بحماية حراسها الخاصين، وتمتعت بحقوق موثقة في معاهدة خارج القانون الياباني.

تميّزت الحقبة الزمنية الممتدة من سنة ١٨٥٣ حتى إعادة الإمبراطور سنة ١٨٦٨

بإصلاحات داخلية على قدر كبير من الأهمية في العلاقات العسكرية، السياسية داخل اليابان. حاولت مجموعات الدايميو المختلفة أن تعزز قوتها العسكرية، وتناور للحصول على المزيد من النفوذ في وضع سياسي سلس. في المرحلة الأولى، توافرت الأسلحة الجديدة بشكل رئيس بين أيدي ممتلكات الهان الخارجية، مع أن الباكوفو، وحلفاءهم كانوا يسعون لإدخال تحديثات عسكرية في قواتهم الخاصة.

قوة الإمبراطور العسكرية كانت معدومة، ولذلك أصبح رئيساً صورياً للمعارضة المواجهة للقيادة العسكرية العليا. في كل الأحوال، تضاربت الصراعات السياسية التي نشبت في تلك الفترة. أجبر الباكوفو في إيدو على القبول بتنازلات لصالح الغربيين فيما كانوا يحاولون بناء دفاعهم الخاص ضد الغرب. اتهمت بعض مجموعات المعارضة الباكوفو بتقديم تنازلات أكثر مما يجب، مستخدمين الإمبراطور كرمز وطني مهم للأهالي nativist في حين كانوا يستخدمون، في الفترة ذاتها، التكنولوجيا الغربية لتحديث قواتهم الخاصة. لقد كانت حقبة زمنية تميّزت بقيام عنف لا مقصد من ورائه بقيادة كتائب وضعت جانباً، في آخر المطاف. بحلول سنة ١٨٦٥ تقريباً، تشارك كل من الباكوفو، والدايميو البارزين الذين قدّموا الدعم للبلد الامبراطوري في كيوتو بهدف التحديث الدفاعي، فأخذوا يستخدمون رجالاً من غير الساموراي للعمل كجنود عاديين. ووفروا لهم التدريب التكتيكي الذي كان يقدمه الأجانب، وخاصة الفرنسيين منهم. عند حدوث التصادم في سنة ١٨٦٨، لم يكونوا مؤيدين ولا معارضين للتحديث أو للإمبراطور أو للقيادة العسكرية العليا. تشابه الجانبان إلى حد أن المعركة الوجيزة لكن المهمة التي ختمت حقبة توكوغاوا كانت عبارة عن صراع بين سلطتين لأقلتين متنافستين تسعيان جاهدتين للهيمنة على حكومة مركزية جديدة كان من المحتمل أن تضع قيد التنفيذ سياسات متماثلة مهما كان الجانب الفائز.

استخدام كلمة restoration خاطئ. فقد أصبحت الحكومة التي بدأت تغير اليابان في سنة ١٨٦٨ مختلفة عما كانت اليابان تعرفه في الماضي. ومع أنها أقامت

تغييرات ثورية مدّعية بأنها ترسّخ التقاليد اليابانية إلا أنها ألغت نفوذ الدايميو والباكوفو أيضاً. حصل أبرز الدايميو على منح حسّنت فعلياً وضعهم الاقتصادي. ولكن صغار الدايميو وطبقة الساموراي بأسرها فقدت التمويل الحكومي والتمييز القانوني الذي كان يفرّقها عن باقي السكان. قسّمت اليابان إلى ٥٠ قطعة يحكم كل منها والٍ تعيّنه الحكومة المركزية، وتقيله، وحلّ هذا الوضع محل البنية اللامركزية التي أنشأها توكوغاوا وضمت الهان شبه المستقل الخاضعة كل منها إلى حكامه المحصّنين وجيشه الدائم.

سعى المؤرخون إلى تحليل هذه التغييرات وفقاً للطبقات الاجتماعية، حيث كانت طبقة الساموراي العليا والدنيا تعمل لمصلحة طبقاتهم. لمزيد من السهولة والوضوح نقول إن بعض المجموعات التي تنتمي إلى الطبقة الحاكمة السابقة، والمرتبطة في معظمها بالقوة العسكرية الإصلاحية في ممتلكات الهان الجنوبية الغربية، قد وضعت يدها على السلطة الفعلية للحكومة اليابانية. ثم إنها أنشأت شكلاً جديداً من الحكومة المركزية باسم الإمبراطور، وفيما كانت في طور تنفيذها لهذه العملية، أقامت قوة عسكرية جديدة على شكل جيش وطني حلّ - بعد مرور بعض الوقت - محل جيوش الهان والباكوفو على حد سواء. بما أن هذه الأقلية الجديدة قد أصبحت قائدة الجيش الوطني الجديد. فقد أصبحت تتبوأ مركزاً يسمح لها باستلاب امتيازات الأرستقراطية العسكرية القديمة التي ينحدرون منها أصلاً. في الواقع، غيّرت هذه الأقلية موضع السلطة في المجتمع الياباني من خلال تحديث الجيش والبحرية وإقامة إدارة حكومية على الطراز الغربي لدعمها. كما سبق ورأينا في أمثلة أخرى متنوعة من قبيل مثال روسيا في عهد بطرس، وبوغندا في عهد أبولو كاغوا، فمن الممكن أن يؤدي التعديل الذي أدخل إلى التكنولوجيا العسكرية، والطريقة المعتمدة في تنظيم القوة العسكرية إلى تغيير موضع السلطة في مجتمع من المجتمعات. عززت هذه التغييرات - في اليابان - تعزيزاً أساسياً سلطات الحكومة من خلال تحديث التنظيم العسكري والإداري الحكومية، دون إدخال أي

تعديل على العملية السياسية، أدارت حكومة الأقلية الميجي في السابق، متبنية وسائل يابانية بحتة لحل حالات النزاع بين المجموعات. مع الوقت، قدِّر لليابان أن تقترض الكثير الكثير من الغرب حتى فيما يخص العملية السياسية ولكن هذه التغييرات لم تر النور إلا عند حصولها على تشكيلة إمبريالية في سنة ١٨٨٩، وأرجئ العديد من أهم التغييرات إلى ما بعد ١٩٤٥.

القوة العسكرية والتصنيع والتغيير الاجتماعي:

تشكلت طبقة النبلاء اليابانية، على غرار نظيرتها الأوروبية، بدافع أداء واجب عسكري، ولكن كان لها تقاليدها الخاصة بها. شددت التقاليد العسكرية الغربية تشديداً خاصاً على استخدام الحصان. فكان الفرسان يحاربون من على صهوة أحصنتهم فيما كان العامة يخوضون القتال مشياً على أقدامهم. كان لليابانيين سلاح الفرسان أيضاً ولكن السيف، لا الحصان كان الرمز الذي اختاره الساموراي. بالفعل، كان يحق للساموراي، وفقاً للقانون والعرف، أن يحمل سيفين وهو امتياز حرمت منه الطبقات الأخرى، وبالتالي برر هذا الحق الاهتمام الخاص الذي أولاه الساموراي للأسلحة بوصفها خاصية طبقية. احتقر النبلاء اليابانيون والأوروبيون، على حد سواء، الطبقات الأخرى، ولكنّ الأوروبيين ازدروا المظاهر التكنولوجية للحرب، واعتبروا أنفسهم مستخدمي الأسلحة، لا صانعيها.

سبّب هذا التصرف السلوكي الذي أظهره الأوروبيون تضمينات بعيدة المدى في التاريخ العسكري الأوروبي، فنتيجة له، سلّمت الجيوش الأوروبية في البداية سلاح المدفعية إلى المدنيين، وقد كانت المدفعية فرعاً متدني الشأن في معظم الجيوش الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. سلوك مماثل حيال أدوات القتال حمل البحرية الملكية على معارضة مجرد فكرة المراكب البخارية الحديدية iron steamer. اضطرت الشركة البريطانية في شرق الهند إلى تطوير المراكب البخارية الحديدية iron steamer بغية تجنب معارضة القوة البحرية بشكل خفي. تصرفات مشابهة

حيال الأسلحة واستخداماتها شكّلت قادة تعروا معجبين ببطولة سلاح الفرسان إلى حد دفعهم إلى توسيع آفاقهم بحيث شملت ذبح رجال أرسلوا للوقوف في وجه المدفعية والرشاشات على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى في اليابان، وجدت القوات العسكرية أنه من المناسب أن يسيطر الساموراي على إنتاج الأسلحة عوضاً عن إبلاء هذه المهمة المهمة إلى التجار المنتجين إلى طبقة اجتماعية دنيا، أو الحرفيين الحضريين، أو الفلاحين، وجّه هذا السلوك حركة التحديث العسكري الياباني نحو اتجاه معيّن، بالمقارنة مع أماكن أخرى في العالم غير الغربي. تركّزت معظم الجهود المبذولة في أنحاء العالم كافة، في مجال التسليح الدفاعي، على تأمين الأسلحة الغربية، حذا اليابانيون حذوهم ولكن جهودهم تخطّت مجرد اكتساب الأدوات الغربية واستخدامها إلى تصنيعها بأنفسهم وإدخال تحسينات على التصميم عند الإمكان.

سلوك مماثل وجّه التصنيع الياباني نحو مسار خاص ووجهة معيّنة. فقد وضعت، قبل كل شيء، تراتبية الأولويات، وفيما دخلت أوروبا مجال الصناعة من باب الصناعة الخفيفة مثل النسيج والماكينات التي تحل محل اليد العاملة ويمكن إدخال تغييرات صغيرة عليها من خلال استثمار بسيط يقدمه تاجر أو حرفي، فقد دخلت اليابان عوضاً عن ذلك مجال التصنيع عن طريق أثقل الصناعات وتكنولوجيا المناجم، مثل علم المعادن والمسابك في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، ولم يبن معمل الحرير الياباني الأول حتى سنة ١٨٧٠.

أنشأت الحكومة اليابانية الصناعات اليابانية الجديدة لأغراض خاصة بالدولة، أي ما مفاده لأغراض عسكرية، يعود بدء هذه الممارسة حتى إلى ما قبل إعادة الإمبراطور إلى مركزه، عندما قام بعض الدايميو ببناء معامل للذخيرة خاصة بهم. اختير القسم الأكبر من البيروقراطيين المسؤولين عن هذه الصناعات الجديدة، ولا سيما في المراحل الأولى، من طبقة الساموريا، وقد كان الساموراي قد اضطلعوا في

السابق بإدارة الحكومة اليابانية عن الباكوفو والدايميو على حد سواء. ولكن التجار اليابانيين لم يهملوا تماماً إذ إن مستوى من التعاون بين زعماء الحكومة الأقلية الميجي، ورجال ذوي أهداف تجارية - صناعية تواجد من حقبة زمنية تعود إلى فترة ما قبل إعادة الامبراطور. وتعاظم هذا المستوى من التعاون عقب التغييرات الثورية الاجتماعية، والقانونية في السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن طبقة التجار لعبت في الفترة الأولى دوراً أقل أهمية في التصنيع عن دور البرجوازية الأوروبية.

في العقود الأولى من الإصلاح، شاركت الحكومة في مشاريع غير عسكرية أيضاً. ولكن في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تخلت الحكومة عن استثمارها في الصناعات التي لا تمت بصلة واضحة بالمجال العسكري، وفي مشروع واسع النطاق يمكن أن يطلق عليه حالياً تسمية الخصخصة، بدأت تبيع المناجم، ومعامل النسيج، وبعض السكك الحديدية، والمراكب البخارية، كما حصل في بعض الأحيان في خصخصة متأخرة، كان للمشترين غالباً روابط تصلهم بحكومة الأقلية الحاكمة فتمكنوا من إجراء عمليات الشراء بأسعار مناسبة. انتمى بعضهم إلى عائلات دعمت إعادة الإمبراطور، فيما كان بعضهم الآخر أعضاء موفوري الجيب من طبقة التجار. وبهذا الأسلوب ارتقى بعض الساموراي وبعض التجار إلى طبقة جديدة من الرأسماليين الصناعيين، جوهر هذه المجموعة تألف من عدد من العائلات المعروفة بشكل إجمالي باسم الزايباتسو - وكانت تجمع بين الميتسوي، والميتسوبيشي، والسوميتومو، والياشودا - الذين سيطروا على حصة وافرة من الصناعة اليابانية منذ ذلك الحين.

بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، تطوّر نمط ثابت نسبياً من العلاقات التي ربطت بين الصناعة والحكومة. وقدّر لها أن تدوم حتى مدة بعيدة من القرن الجديد. تضمنت ثلاث مجموعات صناعية مختلفة تتميّز بعلاقتها بالحكومة. أبقيت بعض الصناعات التي اعتبرت ذات أهمية خاصة للمؤسسة العسكرية تحت سيطرة الحكومة المباشرة وإدارتها. سلّمت مجموعة أخرى ذات أهمية استراتيجية ولكن

لا صلة مباشرة لها بصناعة الأسلحة إلى الزايباتسو. وأفراد غير عامين آخرين، علماً بأنّ هذا القطاع من الاقتصاد ظلّ تحت سيطرة حكومية محكمة. أخيراً، تأسست بعض الصناعات على يد مقاولين اعتقدوا بوجود فرصة سانحة لهم للتسلل عبر فرجات الاقتصاد المجدَّد. كان هؤلاء المقالون، في أغلب الأحيان، من الحرفيين الذين لا يستخدمون القدر الكبير من المكننة بل عمليات حرفية ومهارات تقليدية.

بدت اليابان، للناظر إليها من الخارج، دولة رأسمالية حديثة تتسم بأشكال غربية للتنظيم الاقتصادي. ولكن أوجه الشبه بلغت مستواها الأقصى في عالم التكنولوجيا فيما كانت مؤسسات الإدارة تتميز بطابع غربي على الهامش فقط. كانت أسماؤهم تظهرهم على شكل مصارف، مؤسسات، بورصة، وما شابهها إلا أن الانطباع السطحي الذي تظهره اليابان بوصفها نسخة كربونية عن المجتمع الرأسمالي البرجوازي الغربي كان مثيراً لخيبة الآمال. فالواقع يبيِّن مجتمعاً حديثاً حيث إنه كان يتحرك نحو تحقيق إنتاجية عالية، واستهلاكاً مرتفعاً، ولكنه ظلَّ يحتفظ بمعالم يابانية في العديد من أساليب التشغيل.

إضفاء الطابع الغربي على الحياة السياسية:

بدأت حكومة الأقلية الميجي بإصلاح عسكري، وسرعان ما عقبته إصلاحات في الإدارة الحكومية. بدا واضحاً بأن النظام الإداري الذي كان يتبعه الباكوفو والدايميو لا يتلاءم والحكومة المركزية من النوع الضروري لتجميع الأموال وفرض سيطرة مركزية فعلية على البلاد. قد يكون تطبيع الحياة السياسية بالطابع الغربي قد اكتفى بإصلاح الإدارة العسكرية والإدارة الحكومية، ولكن بحلول التسعينيات من القرن التاسع عشر، اشتملت الإصلاحات على دستور مدوّن، ووزارة، وحكومة تمثيلية، وأحزاب سياسية، وأشياء أخرى عديدة - وقد حدث كل ذلك بعد مرور ربع قرن على إعادة الإمبراطور وكلامه عن العودة إلى نظام سياسي ياباني عتيق.

كانت طبقة الساموراي الشباب وغيرهم من الذين وضعوا يدهم على السلطة في

السنوات التي سبقت ١٨٦٨ مباشرة بدأت تتقدم في السن ولكن أعضاءها كانوا لا يزالوا يحتفظون بزمام الأمور في البلاد. صحيح أنّ حكومة الأقلية الميجي كانت تستطيع أن تستخدم أعضاء جدد وتواصل حكم البلاد في ظل شعار التقليدية وباسم الإمبراطور، ولكنها قررت في سنة ١٨٨٩، أن تمنح دستوراً على الطراز الغربي - أو أن تجعل الإمبراطور يمنح هذا الدستور، حتى وإن لم يوفر هذا الدستور الرسمي سوى القدر القليل من التغييرات الفعلية في تحديد هوية من يمارسون السلطة داخل الدولة اليابانية.

طرحت عدة أسئلة من قبيل ما الداعي لتغيير الشكل الخارجي للحكومة بغية استبدال حكومة من الأقلية الحاكمة من خلال إمبراطور صوري بحكومة من الأقلية الحاكمة من خلال وزارة وبرلمان وهميين؟ ما الداعي لإضفاء الطابع الغربي على الشكل الخارجي للحكومة، إلا إذا كانت ترغب بإضفاء الطابع الغربي على الواقع أيضاً؟

لقد كانت مشاركة المؤسسة العسكرية في عملية التغيير هذه ميزة جوهرية، ولكنها لم تكن حكراً على اليابان فقط. فقد لعبت المؤسسة العسكرية دوراً مهماً في مواقع أخرى بعيدة ومتنوعة بعد بوغندا والإمبراطورية العثمانية وتنوعهما، لقد كانت الحاجة للتحديث الدفاعي تتأتى، في أغلب الأحيان، من المؤسسة العسكرية ولكن أيضاً من أقلية ضمن القيادة العسكرية - أي من الذين نبهتهم اهتماماتهم المهنية ولفتت انتباههم إلى المخاطر التي تسببها القوة العسكرية الغربية وإلى الفرص الناشئة لمن يقلدهم. تحوّلت هذه الأقلية إلى قسم من أقسام الجيش فرض نفسه لتسلّم شؤون الأسلحة الجديدة والتكتيكات الجديدة. ولكن اندفاعهم المؤيد لتحديث الجيش توسع نطاقه ليشمل مجالات أخرى أيضاً. تطلبت الأسلحة الجديدة وسائل جديدة لاكتسابهم، واستلزمت ومن ثم إعادة تنظيم نظام الضرائب لتسديد ثمنها. هذه العملية ذاتها أدخلت مجموعات جديدة إلى الأوساط الحاكمة مثل الصناعيين والبيروقراطيين والوسط الداخلي للرأسماليين. أما الساموراي غير

المقرّبين من مراكز السلطة الجديدة فقد فقدوا معاشاتهم وامتيازاتهم التي كانوا يتقاضونها في السبعينيات من القرن التاسع عشر. أصبحت تقاليدهم القديمة بالية وحلّ محلهم الجيش الوطني الجديد الذي اختير عداده بالقرعة من بين الفلاحين والقرويين المدربين على الأسلحة والتقنيات الجديدة. أما أفراد الساموراي الذين فشلوا في إيجاد مراكز قيادية لهم في النظام الجديد، فقد ظلوا عاطلين عن العمل.

بدا الوضع واضحاً جلياً في منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن قسماً من الساموراي حاول عكس التيار، بعد نشوب عدد من الثورات المسلحة في مطلع السبعينيات، قاد لورد ساتسوما، - وهو أحد زعماء إعادة الإمبراطورية الرئيسية - في سنة ١٨٧٧، ثورة مفتوحة مستندة إلى جيش ساتسوما الذي كان لا يزال قائماً. هذه الثورة كانت عبارة عن حركة تمرد رئيسة دامت ثمانية أشهر، وقد شاركت فيها، عن الجانبين، أكثر من ١٠٠ ألف كتيبة. ولكنها باءت بالفشل من جهة لأن الفلاحين العسكريين تمكنوا من دحر من يفوقونهم اجتماعياً، ومن جهة لأن حق مطالبة دايميو ساتسوما اقتصر على ولاء الساموراي داخل ملكية الهان الخاصة بها. شعر الساموراي في مواقع أخرى بشعور ذاته ولكنهم كانوا يفتقرون إلى تركيز وطني كفيل بتأمين تنظيم فعال.

توفر لدى الطبقة الحاكمة القديمة التي أقصيت عن السلطة بديل آخر تمثّل في استخدام الأسلحة الإيديولوجية المقترضة من السياسات الأوروبية، انبثقت حركة الحقوق الشعبية في الفترة الممتدة بين ١٨٧٤ و١٨٧٨، بقيادة رجال لعبوا أساساً دوراً فاعلاً في إعادة الامبراطور ولكنهم أهملوا في وقت لاحق. استعانوا بأفكار الفلاسفة الأوروبيين السياسيين الذين ذاع صيتهم في عصر التنوير الفلسفي - شخصيات مثل روسو أو جون ستيوارت ميل. صحيح أنّ هذه الأفكار أحيطت بهالة من الجاذبية على شكل طابع غربي هامشي إلا أنّ شعبيتها كانت محصورة.

بعض هذه المعارضة كانت مقتنعة بكل صدق بمقولات كتّاب مثل ميل القائل، بأنّ

الديمقراطية هي فعلاً الهدف الذي تصبو إليه اليابان، ولكن معظمهم كان ليبرالي المنحى بالمعنى المحدود الذي كان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر. مكتفية بشعار رجل واحد تصويت واحد. كان الإعلان عن الخطط المؤدية إلى دستور سنة ١٨٨٩ شكل من أشكال التنازل المقدّم إلى هذه المعارضة الليبرالية المنبثقة من الأوساط العالية من المجتمع. في هذه الأثناء، قضت حكومة الأقلية على المعارضة المنبثقة من المستويات الدنيا، وبالكاد بذل الأرستقراطيون الساخطون جهداً مستديماً بهدف تنظيم الفلاحين أو الجماهير الحضرية.

الضغوطات الخارجية:

ظهرت قوة دافعة ثانية موجّهة نحو تطبيع الحياة السياسية بالطابع الغربي من الموقف الدولي الذي اتخذته اليابان. على غرار مواقع أخرى، كان الهدف الأساسي وراء التحديث الدفاعي عبارة عن تأمين الحماية في العالم العدائي والعنيف المحيط ببناء الإمبراطوريات الأوروبية. كان من الممكن تحقيق جزء من هذا الهدف من خلال تحسين صورة اليابان في الخارج. مال الأوروبيون والأميركيون إلى اعتبار اليابان، على غرار غيرها من المملكات غير الغربية، جذابة وبربرية في أحسن الأحوال، ودام هذا الوضع حتى نهاية القرن وما بعده، حتى عندما تجاوز مستوى التصنيع الياباني مستوياته في العديد من الدول الأوروبية - وقد حدا هذا السلوك العديد من الأميركيين إلى رفض فكرة واقع التهديد الذي يمكن أن تشكّله اليابان في سنة ١٩٤١.

رمز مبكر للغرور الغربي اتخذ شكل «معاهدات غير متكافئة»: فرضت على اليابان في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر. ومن ضمن أمور أخرى، وُضعت قيود على جمارك الاستيراد التي يمكن لليابان، أن تفرضها على السلع الأوروبية كما أنها أجبرتها على قبول تمثيل قنصلي للغرب مصحوب بتشريع قانوني خاص يطبَّق على الأجانب في اليابان إلا أن هذه الشروط جرحت كرامة اليابانيين الوطنية. تعاظم الحس القومي الياباني، في أواخر القرن التاسع عشر، للأسباب

نفسها التي جعلت الحس القومي يتنامى في الغرب في ظل حقبة شهدت نمواً اقتصادياً وتخطيطاً سريعين بما أن الناس باتوا يتحررون من الروابط التقليدية والمحلية واستبدلوها بشعور جديد بالولاء يكنونه للامبراطور أو للأمة.

الأسلوب الأول الكفيل بإرضاء الغرب في أن اليابان كانت فعلاً قوة متحضرة كان يقوم على بناء قوة عسكرية قادرة على مقاومة الاعتداء الغربي، ولكنه يحسن أيضاً وضع اليابان دولياً في حال تبنت دستوراً قد يبدو متحضراً في نظر الأوروبيين. هذا المسار كان ممكناً دون اللجوء لعنف شديد ضد واقع القوى وتوزيعها في المجتمع الياباني. لم تكن اليابان وأوروبا بعيدتين بعداً شاسعاً كما كان يبدو الحال عليه في نظر الغرب. كانت اليابان خاضعة لحكم أقلية تتسلط على البلاد باسم الامبراطور. أما أوروبا فقد كانت تحتوي على عدة تشكيلات مؤاتية مؤلفة من أقليات. التشكيلة البروسية كانت تحكم مناسبة بشكل خاص فقد كانت تحتفظ بأقلية تحكم البلاد وتبدو، في الوقت ذاته، للطبقة الوسطى، على شكل حكومة تمثيلية. هذا النموذج هو الذي اختارته اليابان لتطبيقه في سلسلة من التغييرات التي أدخلتها في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وأدت إلى التشكيلة الإمبريالية الأخيرة لسنة ١٨٨٩، كما أنها أقامت جمعية تمثيلية من مجلسين هما المجلس العلوي الذي كان يتضمن أساساً أعضاء من طبقة الدايميو، والمجلس الأدنى الذي كان ينتخبه عدد محدود من الناخبين لا يزيد عددهم عن ٢ بالمئة من سكان البلاد الذكور. أما النفوذ المخصّص للامبراطور - في الواقع لحكومة الأقلية التي انبثقت مع إعادة الإمبراطور - فقد ظل قائماً بحيث أن اتخاذ القرار الفعلي كان مقتصراً عليهم وعلى خلفائهم غير الرسميين لعقود لاحقة.

الدستور والجيش:

وفقاً للقانون، كان الامبراطور هو من يضع الدستور وهو من يعدّله، أما في الواقع، فلم يكن أي تغيير يُدخل على الوثيقة الرسمية بتاتاً، إلا أن الممارسة

الدستورية كانت تتطوّر بأساليب أدت إلى سيطرة الطبقة العسكرية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، منحت إحدى الممارسات الدستورية إلى القيادة العسكرية العليا الحق بصرف أي وزارة يابانية تخفق في كسب رضاها. ابتداء من سنة ١٨٩٨، فرضت قاعدة من قواعد مجلس الشورى - وهي هيئة غير تمثيلية - أن تقتصر مراكز وزير الحرب ووزير البحرية على ضباط عسكريين من رتبة عالية معيّنة. هذه القاعدة حدّدت على الفور اختيار أي رئيس وزراء مكلّف بتشكيل حكومة، بل وأكثر من ذلك بعد، اتّبع الجنرالات والأمراء من الرتبة المذكورة انضباطاً عسكرياً، ولم يكن في مستطاعهم تبوء مناصب وزارية إلا بعد الحصول على إذن رؤسائهم العسكريين كان في مقدورها أن تمنع تشكيل الحكومة من خلال رفضها بإمدادها بضباط من الرتبة المناسبة.

كان هذا مثالاً واحداً عن الأساليب العديدة التي جمعت فيها عملية اتخاذ القرار السياسي في اليابان بعض الأشكال الغربية والألقاب الرسمية ذات الرنّة الغربية مرفقة بممارسات مشتقة أساساً من المبادئ اليابانية. تدريجياً، تلاشت الأشكال الدستورية والممارسات التي كانت متبعة في مطلع فترة إعادة الامبراطور الميجي على مدار نصف قرن وأكثر، ولكن التقاليد اليابانية ظلت سارية بما أنها دمجت القيم والمعتقدات اليابانية المتعلقة بالسلوك السياسي المناسب. أما النماذج الغربية فقد أعيد تأويلها، في حال استخدامها، بحيث تتجانس مع طبيعة الثقافة اليابانية. لم ينتج عن ذلك إضفاء الطابع الغربي على الحياة السياسية اليابانية، ولا تتابع ثابت للمبادئ اليابانية السابقة، بل سلسلة من الاستجابات الجديدة للشروط المتغيرة.

تحديث حكومات الأقليات في عصر الإمبريالية:

تبدو اليابان في وضع متضارب مع الافتقار المقارن للنجاح الذي أحرزته دول أخرى سلكت الطريق من أوله باتجاه التحديث الدفاعي. ولكن على الرغم من مجموعة متنوعة من النتائج، ثمة قواسم مشتركة تجمع بين تجربة اليابان من جهة،

وبوغندا وإيميرينا وهاواي وسيام من جهة أخرى، كان للقيادة في كل هذه الدول circle vision محصورة بالضرورة في فترة زمنية كان فيها تبادل الاتصال العالمي محدوداً، ما من أحد كان يمكنه أن يعرف أو أن يشتبه بما هو جلي مع بعض التراجع، بأنّ الغرب كان حينئذ يقود العالم ويدخله إلى حقبة جديدة من التاريخ البشري، في حال كانوا يشكون بأمر كهذا، فما من دليل يُثبت بأن الكثير كانوا يودّون الحصول عليه لأنفسهم. ولكن في أكثر الأحيان، بدؤوا ينسخون المصادر العسكرية للقوة الغربية بهدف حماية أنفسهم، بعد ذلك أرادوا أن يحصلوا على جزء من نمط حياة الغرب الذي أغراهم بجاذبيته على ضوء تراثهم الثقافي الخاص. أرادت القيادة الميجي الأصلية أن تطرد البرابرة، من دون أن تحلم بتحويل اليابان إلى المجتمع كما قدّر له أن يصبح عليه عند نهاية القرن.

مع ذلك، من شأن المقارنة بين بوغندا واليابان أن تشير إلى القواسم المشتركة في استجابتهم لما تراءى لهم من تهديد يشكّله الغرب. تنبّهت القيادة في المجتمعين أولاً لتأثير الغرب في جوارهم - المتمثّل بالإمبراطوريات الثانوية الزنجيبارية والمصرية في حالة الغاندا. وبالهجوم على الصين في حرب الأفيون في حالة اليابان. وضعت كلا الدولتين نصب أعينها، كهدف أول، تحقيق التحديث الدفاعي بقيادة جزء من الأرستقراطية المحلية التي تربطها صلات بالمؤسسة العسكرية والعملاء - الزعماء وحكومات الأقليات الميجي، نتج في الحالتين، تغييراً ثورياً لموقع السلطة داخل المجتمع المحلي مجسّداً في اتفاقية أوغندا وفي التغييرات التي عقبت إعادة الإمبراطور في اليابان، في الحالتين، أدى التحديث العسكري إلى تفوّق عسكري محلي، مما فسح المجال أمام الإمبريالية المحلية في مواجهة جيران أقل تسلحاً. كما حدث في حقبة بناء إمبراطوريات الغاندا الثانوية في فترة مبكرة من الثمانينيات من القرن التاسع عشر وبناء الإمبراطوريات اليابانية فيما وراء البحار ابتداء من التسعينيات من القرن التاسع عشر.

قد يغرينا أن نراكم الأمثلة المتوازية، ومن الممكن إيجاد أمثلة أخرى بين بوغندا واليابان والمملكات الثلاث غير الغربية التي سبق ودرسناها في الفصل السابق. ولكن ما يثير الانتباه هو كثرة القواسم المشتركة بين استجابة الغاندا المنهزمين واستجابة اليابانيين الذين أوشكوا على التفوق بقوتهم العسكرية على الولايات المتحدة.



القسم الرابع

الاستقلال وتصفية الامبراطوريات

تسلّط هذه المجموعة الأخيرة بشكل رئيس الضوء على حقبة الخمسينيات وصولاً إلى السبعينيات، التي تشكل العقود الرئيسة للانسحاب الأوروبي في السيطرة السياسية على العالم غير الغربي. ومع ذلك، تمثل التغييرات السياسية للانسحاب المأساوية مرحلة واحدة فقط ضمن سياق طويل للتحول الثقافي الذي بدأ بمرحلة مبكرة واستمر في الربع الأخير للقرن العشرين. غير أن هذه الجردة ستتوقف بعدُ عاجزةً عند النقطة حيث يعطي البعد التاريخي المجال لوجهة نظر ضعيفة (وقصيرة النظر) للأحداث الجارية.

وكانت تصفية الإمبراطورية التغيير الأكثر مأساوية في هذه العقود. ففي أقل من ربع قرن، تخلى الأوروبيون عن معظم امبراطوريات ما وراء البحار التي استولوا عليها خلال أكثر من قرنين، وقد توقفت الامبراطوريات الأوروبية عن التوسع بعد بداية العشرينيات، عندما أعطت عصبة الأمم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية السابقة لبريطانيا وفرنسا كمناطق تحت الانتداب. وحتى قبل ذلك، كانت هناك إشارات قادمة عن تصفية الامبراطوريات. ففي عام ١٩١٧، وعدت بريطانيا الهند بالاستقلال في تاريخ مستقبلي غير محدد، ولم تحقق هذا الوعد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد أصبحت الهند وباكستان والفلبين مستقلة في السنوات الأولى للسلام، وعندما بدأت العملية تسارعت الخطوة.

وبالرغم من ذلك، لم تستمر مؤلفة حضارات العالم ولم يتغير توجه الحضارة بشكل رئيس في الغرب إلى الشرق، وقد كان لدى المدن الأوروبية والأمريكية ملاهي

السوشي والمطاعم التايلندية، كما توجد سلسلة مطاعم وجبات سريعة أمريكية في المدن الآسيوية، غير أن بعض سلسلة مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية ظاهرياً هي في الواقع يابانية، مع ذلك تحولت الثورة المستمرة من تكنولوجيا غريبة أصلاً إلى تكنولوجيا عالمية الآن. وقد بدأت بالسفن التجارية والسكك الحديدية واستمرت من خلال السيارات والطائرات والتلفزيون والاتصالات عبر الأقمار الصناعية والعقود الإلكترونية الرخيصة والإنترنت.

وقد حصلت هذه التحولات على خلفية الأحداث الكبرى، كالحرب الباردة والثورة الشيوعية في الصين والتسارع الهائل لعملية التصنيع وعولمة اقتصاد العالم.

ويعد الاقتصاد الذي نواكبه الآن عالميَّ الانتشار بشكل متزايد ودولياً ومترابطاً. وليس التواصل فقط عبر الأعمال البنكية وأسواق الأسهم والتبادل التجاري بين المحيطات، وقد جذبت النماذج الجديدة أقليات جوهرية ومتنامية غير غربية الأصول إلى أوروبا وأمريكا الشمالية.

ولن تتعامل هذه البحوث مع هذه المظاهر الحديثة والمهمة من تاريخ العالم لكن من الأفضل الإدراك أنها بدأت فعلاً خلال العقود التي أصبح فيها معظم العالم، غير الغربي مستقلاً مجدداً.

المقاومة غير الأوروبية والانسحاب الأوربي:

استخدمت كلمة «قومية» لوصف المعارضة السياسية للحكم الأجنبي، لكن هذه العبارة غامضة كغموض الإمبريالية. غير أن للقومية معنى مختلفاً قليلاً في أوروبا عن الإحساس بالتضامن من جانب الذين ينتمون إلى إرث ثقافي مشترك إضافة إلى هدف دمج أمتهم في دولة مستقلة. في وقت ما جاءت الدولة أولاً ثم أنشئت أمة ضمن حدودها، وفي أوقاتٍ أخرى، كان للمجموعة التي تدعي أنها أمة تنظيم سياسي قصير الأجل. ويعتبر إيمان الناس بتقاسم ثقافة مشتركة غالباً غير موضوعي وعابر. ويمكن أن تكون الأهداف السياسية التي تليه متنوعة بشكل واسع.

وكانت بريطانيا وأمريكا الشمالية تتقاسم عناصر ثقافية مشتركة في العقود السابقة، أكثر مما تقاسم الإيطاليون والألمان في أواسط القرن التاسع عشر، إضافة إلى أن القومية الإيطالية والألمانية قادت إلى تشكيل دولة قومية جديدة بينما كان الشعور القومي خافتاً لصالح إعادة توحيد بريطانيا وكندا والولايات المتحدة بشكل أوضح، هناك شيء ضروري أكثر من التاريخ والثقافة المشتركة لإنشاء حركة قومية تنتج عنها.

وتعتبر مشاعر الثقافة والدين واللغة المشتركة في ظروف أخرى، وكذلك الهوية العرقية سبباً رئيساً للعنف بين الجيران. ولا تتشابه أسباب العنف العرقي مع أسباب العنف السياسي للقومية. وقد أكدت الأحداث الأخيرة في إيرلندا الشمالية ويوغوسلافيا السابقة ذلك. ولم تقتصر هذه الظاهرة بالضرورة على أوروبا وكان التاريخ الحديث لإسرائيل وفلسطين والصومال والسودان شاهداً على ذلك. لم يكن معظم الأوروبيين متجانسين عرقياً في القرن الثامن عشر، ولم تكن هناك فكرة إيجاد وحدة عرقية أقوى مما كانت عليه في الإمبراطورية العثمانية. وقد أشار أرنسب غيلز إلى أن الرغبة في الحصول على أمن ضمن الدولة كانت ضعيفة قبل انطلاق الحقبة الصناعية، وكانت من بين الذرائع الأخرى حول القومية في أوروبا. وأظهر آخرون الصلة بين القومية والتصنيع الناشئ في اليابان وأماكن أخرى.

لكن دور الحس القومي كان ضعيفاً ولم يؤد التشابه العرقي بالضرورة إلى إقامة دولة / أمّة، وشاهدٌ على ذلك الافتقار إلى الحماس في توحيد الولايات المتحدة وكندا. ولا ترتكز الدعوة إلى الاستقلال عن الحكم الأوروبي على الإحساس بالهوية العرقية.

ومن المؤكد أن اليونانيين في البلقان وغيرها الذين حددوا هويتهم كأمم أرادوا الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، لكن معظم حركات الاستقلال عن الحكم الأوروبي أرادت الاستقلال بسبب الدول الاستعمارية القائمة. وحدها باكستان كانت من القلائل التي سعت إلى الاستقلال ضمن حدود جديدة واضحة. وقد وضعت

الدولة المُستعمرة وأتباعها خطة بعد الاستقلال بدأت بموجبها بناء دولة متجانسة عرقياً كما سنرى أمثلة على ذلك إندونيسيا وغانا.

في القرن العشرين كان القاسم المشترك للقومية في الدول اللا غربية، الدعوة لاعتراف دولي باستقلال الدولة، غالباً دولة مُستعمرة أنشأها سلطة أوروبية مُستعمرة ونادراً كيان سياسي من أي نوع مستعمر سابقاً. وكان الهدف المعلن غالباً استخدام الهيمنة على هذه الدولة للحصول على شيء أبعد غالباً أهداف مادية لإنتاجية أعلى واستهلاك أكبر وليس بروز جديد لأمة محددة.

وقد استخدم الزعماء غير الغربيين لحركات الاستقلال نمط القومية الأوروبية ونقلوا في أغلب الأحيان عن الحركات القومية الإيرلندية واليونانية. وتبنوا عبارة وطني للتنظيمات، مثل حزب المؤتمر الوطني الهندي (لاحقاً حزب المؤتمر)، وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا. غير أن كلتا المجموعتين أيدت نشوء دولة مستقلة متعددة الأجناس. وكان للمجموعتين سجل طويل في مناهضة مصادر التضامن العرقي والديني. وقد طلب حزب المؤتمر الدعم من المسلمين والهندوس. وعارض حزب المؤتمر الوطني الإفريقي دائماً الانقسام العرقي الأبيض والأسود.

وقد أصبح تحديث حركات الاستقلال على نمط حزب المؤتمر الهندي وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي الأنجح بين كل الحركات السياسية المتنوعة التي عارضت الحكم الأوروبي، لكن المقاومة السياسية اتخذت عبر العقود أشكالاً متعددة.

وفي معظم الحالات بدأت المقاومة كمعارضة للغزو الأوربي، ثم تحولت إلى حركات احتجاج متنوعة متخذة أشكالاً متعددة وأهدافاً عديدة. وقد لاقت بعض هذه الحركات نجاحاً محدوداً وفشلت أخرى، لكن النجاح الباهر جاء مع الحركات الوطنية المعاصرة التي سيطرت عل دولة مستعمرة. وتشكل هذه الدول الغالبية العظمى للأمم المتحدة اليوم.

المقاومة الأولية:

ببساطتها، كانت المقاومة الأولى تشكيل تنظيم سياسي للمحافظة على استقلاله من تهديد الهيمنة الأوروبية. وفي عصر الامبراطوريات الأوروبية، كانت حروب الغزو تنتهي غالباً بنصر أوروبي عسكري يتبعه ضم المهزوم. لكن كانت عدة أشكال للغزو الأوروبي والمقاومة غير الأوروبية. كانت بعض عمليات الضم سهلة لكن تبعتها بعد ذلك حرب المقاومة الأولية. وعلى سبيل المثال، أرسلت بريطانيا عام ١٨٩٥ جيشاً صغيراً من مستعمرة الشاطئ الذهبي إلى مملكة أسنتة. وقد استسلمت أسنتة دون قتال وضمت وذهب الملك إلى المنفى. غير أنه بعد خمس سنوات، استطاعت زعامة أسنتة تنظيم حرب استقلال وصفتها بريطانيا بالتمرد لكنها كانت في الواقع حرب مقاومة أولية.

وحصل الشيء نفسه مع زيمبابوي الحالية. وفي عام ١٨٩٠، شنت شركة سيسيل رودس البريطانية الجنوب إفريقية حملة عسكرية على مقاطعة شونا المجزأة سياسياً الواقعة بين نهري ليمبوبووزامبيزي. وفي أواخر ١٨٩٣ احتلت قوات الشركة مركز مملكة Ndebele حول بولوايو. ولم تحدث أي معارضة للاحتلال في البدء، لكن النظام التابع للشركة أثار لاحقاً مقاومة إفريقية في صفوف الشونا وNdebele. وفي عام ١٨٩٦ – ١٨٩٧ اشترك الاثنان في انتفاضة عامة، وكانت المقاومة الإفريقية الأخطر التي واجهت الانكليز في إفريقيا الوسطى. وقد وصفتها الشركة بالتمرد واستدعت القوات الإمبريالية لقمعها.

وأدخلت المقاومة الأولية غالباً تحديث الدفاع الذي نجح في بعض الحالات كاليابان وسيام، وكخطوة متأخرة بعد حضور الغزو الأوروبي الحالي كما في فيلكا بمبا بعد سقوط الحكومة المركزية في تاوانشينويو. وفي حالات أخرى، توصلت الطبقة الحاكمة إلى تفاهم مع الحكام الجدد مما جعل الحفاظ ممكناً على شيء ما من هويتهم السابقة، إذا لم تكن كل سلطتهم السابقة. وتعتبر معظم الإمارات الهندية

أمثلة على التسويات المتنوعة بين السلطة المحلية والإمبريالية كما هو الحال بالنسبة لوضع المحمية لسلاطين المالاي أو حقوق الغاندا وفق اتفاق أوغندا.

وقد ورثت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة اليوم حدود دولة مستعمرة سابقاً، وليس حدود كيانات ما قبل الاستعمار، لكن القليل من المناطق التي خضعت للاستعمار، حافظت على هويتها وعلى أرضها الأصلية. ففي جنوب شرق آسيا، اعتبرت بورما وكمبوديا وفيتنام أمثلة، وكذلك ماليزيا وأندونيسيا وهي كيانات جديدة. وتعتبر حدود معظم دول إفريقية شبه الصحراوية جديدة مثل ليسوتو، بوتسوانا، سوازيلاند، رواندا، بوروندي وزنجبار التي خرجت من الحقبة الاستعمارية بهويتها القديمة. وتعد الكيانات الحالية نتاج تفاعل معقد لصنع القرار من قبل الأوروبيين وغير الأوروبيين في بداية ونهاية المرحلة الاستعمارية، هناك التي استلزمت غالباً فرصة لتغيير سهل وضع عند حصوله خريطة للعقود القادمة. وقد ناقشت الفصول السابقة هكذا مراحل في تاريخ أوغندا وماليزيا وجاوا. وفي بعض الأحيان، قاد خطر المقاومة الفاعلة إلى تنازلات أوروبية كما في بوغندا. وفي ظروف أخرى، طلب الأوروبيون من حلفائهم المساعدة في الحكم، ومثال على ذلك دول المالاي وجافا مع اختلاف في التطبيق في الحالتين.

واحتفظ المنحدرون من حكام موالين للاستعمار أحياناً بسلطة شبيهة في بعض المحميات، كالمغرب في حقبة ما بعد الاستعمار. غير أنه في معظم الدول غير الغربية قام جيل جديد من الوطنيين المجددين بتنحية السلطات التقليدية التي سيطرت بعد الاستقلال. وكان هذا السياق من الأحداث واضحاً في انتصار حزب المؤتمر الهندي على الدول البدائية المعترف بها. وفي السنوات الأولى للاستقلال سقط الحكام التقليديون من السلطة في تونس ومصر وزنجبار وأثيوبيا وأروندا وبورندي. واستطاعت المقاومة الأولية أحياناً الحفاظ بنجاح على هوية ما قبل الاستعمار خلال المرحلة الاستعمارية ونادراً ما حافظت على حكام ما قبل الاستعمار بعد الاستقلال.

حركات مقاومة الاستعمار:

قفزت حركات مقاومة حائرة بين فشل المقاومة الأولية وانتصار القومية المتجددة. ولم يكن هؤلاء بقيادة الحكام السابقين أو القوميين المجددين الذين برزوا للسيطرة على دولة ما بعد الاستعمار. واليوم هناك ميل للتعاطف مع تلك الحركات من منظور ما بعد الاستعمار ببساطة كونها عارضت الامبرياليين، كما حصل مع الأوروبيين في أوج بناء امبراطوريتهم. واعتبرت أعمالهم كانتصار للحضارة في ما وراء البحار. وكان الحكم بسيطاً عندما لم يكن خطأ كلياً. كان العديد من قادة الحركات المناهضة للاستعمار غير أنانيين ووجهوا صراعهم لخدمة العدالة كما رأوا. واستخدم آخرون المعارضة ضد الامبرياليين كوسيلة للحصول على امتيازات لطبقتهم وعائلتهم أو جماعات خاصة مستفيدة في مجتمعهم، وبعضهم كانوا انتهازيين.

وكانت حركات الاحتجاج ضد الاستعمار متنوعة بحيث لا يمكن التطرق إليها إلا من خلال أمثلة مع التحذير أنها لا تمثل كل الاحتمالات ولا يمكن وضعها بشكل نموذجي. غير أن هناك ثلاثة نماذج من الاحتجاج تم اختيارها لتبرز جزءاً من المجموعة الواسعة من المعارضة شبه الوطنية الممكنة للحكم الأوروبي. وتمثل إحداها حركات احتجاج إصلاحية ترتكز بشكل واسع على الرغبة في إصلاح ظروف معينة. وتمثل الثانية بناء حالة لمعارضة الاحتلال الغربي بين سياسة أكثر إتقاناً. وتمثل الثالثة حركة بدائية ترمي إلى رفض العديد من مظاهر الثقافة والنفوذ الأوروبي.

أشكال الاحتجاج:

حركات الاحتجاج الإصلاحية:

ليس للتنوع الواسع لحركات الاحتجاج حدّاً في العالم الاستعماري، ويمكن إيجاده في أيِّ مكان ينظم الشعب أوضاعه نحو الأفضل، ويتضمن التحرك السياسي

والعرائض والحركات العمالية والإضرابات والمظاهرات وأعمال الشغب المنظمة وغيرها. وفي وضع استعماري تتضمن مثل هذه الحركات غالباً بياناً مناهضاً للاستعمار يمكن أن يخفي تنوعاً كبيراً من الأهداف الراهنة.

عام ١٨٩٠، في إفريقيا الغربية، حصل مثل هذا التحرك في الساحل الذهبي باسم منظمة حماية حقوق السكان الأصليين تقليداً لاسم منظمة الحماية الإنسانية للسكان الأصليين التي كانت ناشطة في بريطانيا في أوائل القرن. وكانت معظم الأراضي بوراً في أي وقت، في منطقة تعد فيها الزراعة المسيطرة الفلاحة المتناوبة. وقد استخدمت في الماضي وستستخدم مجدداً، لكن ليس هناك حالياً محتل واضحاً أو مالكاً بالمعنى الغربي للكلمة. ومنذ البداية، كانت حكومة الساحل الذهبي تواجه مشكلة في تحديد هوية المالك بحيث كان بمقدور العديد من الأفراد أو المجموعات المطالبة ببعض الحقوق في قطعة أرض معينة. وشكل ذلك مشكلة متكررة للحكومات كما رأينا في البنغال وآسيا الوسطى وغيرها. واقترحت حكومة الساحل الذهبي إعطاء كل الأراضي غير المستخدمة للعرش في مرحلة ما، وتقال هذه الكلمة للدولة المستعمرة، وقد أثار هذا الاقتراح معارضة متنوعة. وكان بمقدور الزعماء التقليديين المطالبة بهذه الأراضي المعطاة للعرش، كونها أساساً من أملاك الأجداد وهكذا يكونوا أوصياء عليها. وكان الفلاحون المطالبين الآخرين المحتملين والذين عملوا في هذه الأرض، لكن عندما انتهت عملية التبوير أصبح احتمال سماع أصواتهم أقلّ.

ونظم عدد من الزعماء التقليديين مطالبهم بالعمل مع محامين أفارقة تعلموا في بريطانيا وشكلوا معاً منظمة حماية حقوق السكان الأصليين. وكان الاحتجاج فاعلاً على المدى القصير. وقد استأنفت الجمعية أمام القضاء البريطاني متخطية رأس الحكم في الساحل الذهبي، وقاموا بإرسال وفد إلى لندن ونجحوا في تعديل قانون الملكية المقترح لحماية حقوقهم بالأرض وليس حقوق المزارعين الحاليين.

وكان هذا التحرك أول احتجاج واسع على صعيد المستعمرة ذات فاعلية سياسية في الساحل الذهبي وكانت له أهمية سياسية على المدى الطويل كبداية لتعاون منظم بين الزعماء التقليديين والنخب الاستعمارية المتغربة مما قاد عام ١٩٢٠ إلى تشكيل المؤتمر الوطني لإفريقيا الغربية البريطانية مع مشروع في المستعمرات الإفريقية الغربية. ولم يكن الاستقلال الفوري حلاً بدل الخطاب الوطني الرنان. وكان يطالب بأمور مثل التعليم وتطوير الاقتصاد ورفع مستوى الصحافة الإفريقية وحقوق ملكية الأراضي للأفارقة وإصلاح قضائي. وكانت هذه الإصلاحات ملائمة للنخب الإفريقية وليس للناس العاديين، لكن كانت لديهم نوايا تحديث استغلت لاحقاً من قبل حركة الاستقلال.

وعام ١٩٥٠ تطورت حركة إصلاحية من نوع آخر في أوساط الكيكويو في كينيا. ووصف الأوروبيون ذلك بالماما أو الوحشية الإفريقية. وتعود في عناصرها إلى الثقافة التقليدية للكيكويو لكنها شُكّلت بشكل رئيس احتجاج على الشروط المفروضة على الكيكويو من النظام الاستعماري. وكان الاحتجاج الأكثر خطورة بسبب الاستيلاء على أراضي الكيكويو لجعلها مناطق للمستوطنين القادمين من أوروبا. وكان هذا الاحتجاج عنيفاً، بعكس منظمة حماية حقوق السكان الأصليين، وترجم بقوات حرب عصابات صغيرة تهاجم المعارضين الأفارقة وكذلك الأوروبيين. كان عبارة عن حركة استقلال لكنها فشلت في الحصول على دعم غالبية الكيكويو وحصلت على مساندة ضئيلة من الجماعات العرقية الكينية الأخرى.

أعلن البريطانيون حالة الطوارئ واستقدموا قوات أوروبية وسحقوا التحرك. وعلى المدى الطويل أسهم المارمار في انتصار القومية الإصلاحية في كينيا من خلال بروز الاستياء العميق من النظام الاستعماري، وكان درساً له تأثير مهم على الرأي العام البريطاني وعلى الوطنيين المتغربين الذين استولوا بشكل نهائي على الدولة المُستعمرة.

بناء دولة لمناهضة الغرب:

وتتضمن هذه المجموعة الثانية من المقاومة عدة جهود لإقامة دولة جديدة بهدف مناهضة الحكم الأوروبي. وتتقاسم بعض العناصر في المقاومة الأولية وبعض عناصر التحديث القومي. ومع ذلك لم تكن أيٌّ من جهود بناء الدولة ناجحة، ولذا لم تحظَ باهتمام المؤرخين. غير أن الجهود المهمة التي باءت بالفشل هي دليل مهم بالتأكيد بالنسبة لعملية التغيير في المجتمعات الإنسانية. وتضمنت هذه المحاولات المبكرة بذور حركات الاستقلال اللاحقة.

وقد أعطت الفصول السابقة أمثلة على بناء دولة محمية ضمن ظروف أخرى وكان منها مقاومة الإنكا الجديدة وتكيف الياكي مع التنظيم القروي اليسوعي. وكانت شأن سانتا كروز دولة جديدة من المايا بشكل رئيس ومعهم اللادينو. ولم تستطع أيٌّ من الجهود تأمين اعتراف دولي لكن نتج عن المقاومات الثلاثة بضعة عقود من الاستقلال عن الحكم الأوروبي.

وقامت مجموعات غير غربية أخرى بالرد بالطرق نفسها، لكن وفق نقاط انطلاق ثقافية أخرى. وهناك مثلان إفريقيان شماليان متصلان ومهمان. وحصل الأول خلال الغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٤٠، وكان النسب عنصر مهم في التنظيم السياسي في المجتمعات الجبلية والصحراوية في شمال إفريقيا. وقد حددت هوية سلالات راسخة بالاسم الأول للجد كما في آيت عطا بني المغاربة البربر وبنو محمد بني العرب ويعني أبناء عطا وأبناء محمد. وكانت هذه السلالات وحدات سياسية فاعلة وسميت غالباً قبائل وقد استخدمت عبارة قبيلة بشكل خاطئ للمجموعات العرقية الصحراوية التي لديها حضارة مشتركة فقط.

وقد تنافست مثل هذه القبائل البدوية النسب، في جزائر ما قبل الاستعمار سياسياً وعسكرياً مع بني مشابهة في أوساط البربر والعرب. وتنافسوا أيضاً مع السلطة المعينة من قبل الأتراك من مراكزهم في المدن كالجزائر وأوران. وفي بعض

الأوقات قام سلاطين المغرب بتقديم مطالب مشابهة لسيادة عليا وقامت سلطات دينية عديدة بتقديم مطالب يتقاطع فيها الولاء والطاعة. ومن بين هذه المطالب كان الدور الشرعي المطالب به من بعض المتحدرين من سلالة النبي محمد ﷺ وزعماء الطرق الصوفية الدينية التي مارست نوعاً آخر من السلطة.

وفي عام ١٨٣٠، بدأت فرنسا غزوها لشمال إفريقيا باحتلال الجزائر وعزل الداي الذي كان يمثل سابقاً السلطة البعيدة في اسطنبول. ولم يكن لدى الداي أي تنظيم إداري منظم لحكم المدن بل علاقات رسمية مع مختلف السلطات التي حكمت هناك حالياً. وقد ورث الفرنسيون فقط السيطرة على مدينة الجزائر من خلال قبول استسلام الداي، وإذا أرادوا حكم المناطق النائية، عليهم إيجاد طريقة لفرض سلطتهم هناك، والتي شكلت سياقاً طويلاً سياسياً وعسكرياً ولم تستكمل حتى عام ١٨٦٠.

وكان أحد أشكال المقاومة التي واجهت الفرنسيين دولة جديدة أنشأت بما أصبح الجزائر الغربية. وكان عصب هذه السلطة الجديدة الطريقة الصوفية القادرية، الطريقة الأقوى في تلك المنطقة. وكغيرها من الطرق في شمال غرب إفريقية، لم يكن لديها سلطة دينية فقط على أتباعها بل نوع من السلطة السياسية أيضاً. وكان لدى القادرية، على سبيل المثال، قوى عسكرية تابعة تستطيع استدعاءها في حالات الصراع مع السلطات القبلية أو الطرق الدينية المنافسة.

وفي عام ١٨٣٤، أصبح شاب يدعى عبد القادر، يعدّ مؤسس الطريقة القادرية، الزعيم المحلي للطريقة وبدأ ببسط سلطته في أنحاء الجزائر الغربية، وقاتل لتوسيع سلطته على الآخرين في المنطقة، وقاتل الفرنسيين أحياناً. وفي عام ١٨٣٧، كان عبدالقادر ناجحاً إلى درجة دفع الفرنسيين لتوقيع معاهدة اعتراف بسلطته على منطقة واسعة مبعثرة، ولفترة، كان حاكماً أكثر فاعلياً لمنطقته مما كان عليه الداي، وقد أصبح فعلياً رئيس دولة جديدة لم تكن موجودة عام ١٨٣٠ عند وصول الفرنسيين.

غيـر أنـه ابـتداء من عـام ١٨٣٩، كان عـبـد القـادر مـجـبـراً على خـوض سلسلة من المواجهات العسكرية ضد الفرنسيين أدت إلى الاستلام النهائي عـام ١٨٤٧. وقد برز نظامه السياسي الجديد كعنصر أساسي للمقاومة الأولى ضد الفرنسيين. ومع أنها لم تكن ناجـحـة على المدى الطويل، فـقـد أصـبـحت البُنى الإدارية التي أسسـهـا عبدالقادر لمواجهة الفرنسيين بعد هزيمته، الأساس للإدارة الفرنسية للداخل.

وبرزت الحالة الثانية لبناء حركة مقاومة بعد قرن في جبال الريف في شمال المغرب، ومع أنه كان لدى سلطان المغرب إدارة حكومية أكثر صلابة من إدارة الداي في الجزائر، فقد عانى من نقاط ضعف مشابهة. وكان جزء فقط من الأراضي التي يحكمها معتبراً أرضاً حكومية بلاداً محصنة تحت الإدارة الحالية لموظفي السلطان. أما الباقي، فكان يعترف بسلطة السلطان لكنه لم يكن تحت سلطته القوية. وقد طغت هذه المناطق كبلاد سائبة، بلاد غير محكومة إدارياً، خلال سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، وعندما فرضت فرنسا وإسبانيا حمايتها على المغرب، كانت تسيطر بشكل فاعل فقط على المناطق التي كانت خاضعة للسلطان في الماضي محددة البلاد المحصنة خصوصاً بالمدن الرئيسة والسهول على طول شاطئ الأطلسي. أما بالنسبة للبلاد السائبة، المتبقية من وسط وجنوب المغرب، حافظ الفرنسيون على ما يمكن من النفوذ من خلال الاعتراف باسم السلطان بسلطة من كان يسيطر حالياً. وفعل الإسبان الشيء نفسه في الشمال. فقد سيطروا على مرافئ المدن مثل سبتا ومليلة، لكن داخل جبال الريف كانت البلاد السائبة، ولم يكن لإسبانيا سيطرة أكثر مما كان للسلطان في الماضي عليها. وقد انسلخت بعض البلاد السائبة في أقصى الجنوب وأصبحت جزء من الصحراء الإسبانية أو موريتانيا الفرنسية.

وقـد برز جـهـد بناء الدولة في الريف من ارتباك النزاعات بين الأوروبيين والسلطان والسلطات المحلية المتمردة في أنحاء الإمبراطورية المغربية. في البدء في أوائل العشرينيات عندما برز عبد الكريم كزعيم لآيت وارياغال (التي تلفظ بطرق

مختلفة لأن اللغات البربرية كانت مكتوبة بالحروف العربية أو الرومانية) وكانت سلسلة الجبال الريفية تمتد إلى الجنوب من ساحل المتوسط وكانت فيها سكان بربر يبلغ عددهم ٦٠٠ ألف موزعين بين عدد من القبائل كانت آيت وارياغال أكبرها.

وكان عبد الكريم أفضل استعداداً من معظم زعماء القبائل. فقد درس الشريعة الإسلامية في تونس وعمل فيها بعد كصحفي وكقاضٍ للسلطات الإسبانية في شمال المغرب. وكانت خبرته في الخدمة الأوروبية مؤثرة في إقامة دولة الريف الجديدة التي سماها جمهورية الريف، وأعطى لنفسه لقب رئيس مع أنه اعترف بالسلطة النهائية للسلطان عندما يتحرر من السيطرة الفرنسية. وكانت نقطة انطلاقه التحالف القبلي، لكنه أضاف بنية إدارية على نمط المخزن المغربي، وبالفعل أسس لأول مرة إدارة مركزية على جزء من البلاد السائبة يترأسها مكان السلطان. وتبنى أيضاً الحداثة الإسلامية الممثلة بالطريقة السلفية التي عارضت بقوة نفوذ الطرق الصوفية الأقدم كالقادرية وطالب بالوقوف فوق الولاءات القبلية بالرغم من استخدامه لها كمواطئ قدم. وبدأ في الواقع كممثل عادي لتمرد البلاد السائبة وحاول التحرك نحو القومية الحديثة.

فشل، لكن جمهورية الريف في العشرينيات قامت مع ذلك بدفاع مؤثر. وبدأ القتال في صيف ١٩٢١ عندما قامت السلطات الإسبانية على الساحل بإرسال حملات عسكرية إلى الجبال. وكان لدى الإسبان قوة مؤلفة من ثلاثين ألف رجلٍ في مواجهة ثلاثة آلاف من الريفيين، لكنهم خسروا المعركة الحاسمة وأخرى عام ١٩٢٤ تاركين الريفيين في سيطرة كاملة على المناطق الجبلية. غير أن عبد الكريم شن عام ١٩٢٥ هجوماً باتجاه فاس في المنطقة الفرنسية وربما كان ذلك خطأه القاتل. وأدرك الأوروبيون الآن أن الريفيين ليسوا مجموعة متمردة من رجال القبائل تستطيع التحرك بسلام. وفي ربيع ١٩٢٦، قامت فرنسا بتعزيز حاميتها المغربية بحوالي أربعمئة ألف رجل بينما زادت إسبانيا قوتها المغربية بحوالي مئة ألف رجل. وبجيش يناهز الخمسمئة ألف رجل مساوٍ لمجموع سكان الريف، لم يكن

ممكناً للأوروبيين الفشل ضد جيش ريفي لا يتعدى ٧٥ ألف رجل، واستسلم عبدالكريم للفرنسيين في أيار ١٩٢٦ وأرسل إلى المنفى في جزيرة الريونيون في المحيط الهندي.

بالنظر إلى الماضي، يمكن رؤية حرب الريف غير مهمة نسبياً بحد ذاتها، لكنها كانت مع ذلك نذيراً لنهاية عصر الامبراطوريات الأوروبية. وفي عام ١٩٥٠، نجح الوطنيون الجدد لحزب الاستقلال من خلال عملهم مع السلطان محمد الخامس في تحقيق استقلال كل المغرب، وكما في الحرب الأنكو-بوير في الجانب الآخر من إفريقيا لعقود خلت، أظهرت حرب الريف أن ثمن كسب أو الحفاظ على الامبراطوريات في مواجهة قوى منظمة بأسلحة حديثة ازداد بشكل ملفت. ففي جنوب إفريقيا، كان على بريطانيا استخدام جيش مؤلف من خمسمئة ألف رجل في مواجهة قوة محلية من ٦٥ ألف رجل، لأن البوريين حصلوا على أحدث الأسلحة الأوروبية، وكانت خطط حرب العصابات مهمة أيضاً كما في الريف. لكن كان للأسلحة حساب أيضاً، ففي آخر حملة ضد المجموعات المشابهة، استولى الإسبان وحدهم على ٢٢٠ رشاش وحوالي مئة قطعة مدفعية وأكثر من ستة آلاف بندقية.

ردة فعل السكان الأصليين:

أحياناً قمت بتسمية نوع آخر من حركات مقاومة الاستعمار بالأصلية، وأحياناً الحركات المنبعثة، وأحياناً ردة الفعل الطوباوية. وتعد هذه الحركات متنوعة لكنها تتميز عن بعضها بشكل واسع من خلال أهدافها وبشكل أدق بما ليس من أهدافها. ولم تكن ترمي إلى تأسيس أشكال جديدة من الحكم قادرة على التحديث الدفاعي، هدفت نادراً إلى تحديث من أيٍّ نوع. وكان جهدهم الأساسي يتركز على طرد الأوروبيين البرابرة إضافة إلى تأثير الثقافة الأوروبية في كل مظاهر الحياة، وقد فشل معظمها وفشلوا لأنهم كانوا يفتقرون إلى التقنية العسكرية والمنظمة التي منحت الأوروبيين تفوقاً.

وفي كتابه «رسل التمرد»، كتب ما يكل أداس تاريخ مقارن حول خمس حركات تنسجم مع هذا النوع. وتمتد هذه الحركات من حرب جاوا ضد الهولنديين بين ١٨٢٥-١٨٣٠ والحركات المناهضة للأوروبيين في نيوزلندا في عام ١٨٦٠ إلى حركة في الهند الوسطى الشرقية في نهاية القرن وأخرى إفريقية الشرقية الألمانية بين ١٩٠٥ - ١٩٠٦ نزولاً إلى التمرد المناهض للإنكليز في بورما عام ١٩٣٠، وكان العديد من الثورات من هذه السلسلة صعباً ومكلفاً في قمعه. لكن القليل منها هدد بشكل جدي القوة الأوروبية ولم تستطع أيٌ منها الوصول إلى إقامة دولة قابلة للحياة بدرجة الاعتراف الدولي الذي حصلت عليه مملكة هاواي قبل ضمها.

وكانت ثورتان في هذه المجموعة خطرة إلى حد إنذار الرأي العام الأوروبي على الأقل في المدى القصير. وكانت الأولى التمرد الكبير في سهول الغائج الهندية عام ١٨٥٧، وكان هذا التمرد خطراً لأن قسماً واسعاً من جيش البنغال تمرد ضد ضباطه الانكليز مما أعطى للمتمردين قيادة جيش حديث على النمط الأوروبي. وكان العصيان العسكري مترافقاً مع متمردين مدنيين الذين كانوا مهتمين بشكل خاص في دولة إيتار براديش الحالية التي تحتل سهل الغائج المنحدرة من دلهي. وخلال حصوله، جمع التمرد مصادر عديدة ومتنوعة من الاستياء ضد الحكم البريطاني في صفوف الأمراء، والفلاحين، والهندوس، والمسلمين، والمعنيين، والريفيين. لكن المتمردين فشلوا في تطوير تنظيم مركزي، ولم يكن للحركة هدف مشترك بمعزل عن الرغبة الجامحة لإعادة بناء إمبراطورية المغال.

وسارع الانكليز إلى إرسال تعزيزات ضخمة وحافظوا على ولاء القوات الهندية في جيوش مقاطعات بومباي ومدراس والأكثر حسماً، وحافظوا على مساندة قوات السيخ في المناطق الخاضعة حديثاً في الشمال الغربي، وتقريباً في كل مكان في الهند، حافظ الانكليز على دعم جوهري من عناصر مهمة من السكان الهنود، خاصة في البنجاب في الشمال الغربي وفي البنغال نفسها حول كالكوتا. وفي نهاية عام ١٨٥٨ كانوا ناجحين في سحق القوة المتمردة الرئيسة، وأخذوا بعين الاعتبار جدّياً

خسائرهم والدروس التي استخلصوها من التمرد، قادت إلى إعادة تنظيم منهجية للحكم البريطاني للهند بما في ذلك الإلغاء الرسمي الإمبراطورية المغال وتصفية شركة شرق الهند التي ظلت طيلة قرن تمارس حكماً مباشراً على الهند البريطانية باسم العرش.

وكانت الحركة الأخرى المؤثرة نسيجاً من الأحداث المترابطة في الصين عام ١٨٩٠، ووصف الأوروبيون المسألة تمرد الملاكم لكنه لم يكن تمرد بقدر ما هو انتفاضة شعبية رعاها فيما بعد عناصر مناهضة للأجانب من المحكمة الصينية.

وأصبحت آخر وأوسع حرب مقاومة تخوضها الإمبراطورية الصينية في قتالها ضد الأوروبيين قبل إلغائها عام ١٩١٠.

وفي عام ١٨٩٠، تزايد الشعور الشعبي المناهض للأجنبي طيلة نصف قرن أو أكثر. وكانت قاعدته التنظيمية على المستوى المحلي تقليداً صينياً قديماً لجمعيات سرية، وفي هذه الحالة المميزة جمعية باسم ياباني ترجمه الأوروبيون كجمعية المصارعين المستقيمين والمنسجمين لهذا ملاكمين. ودعت الجمعية إلى المعتقدات القديمة حول قيمة المساعدة الخارقة من خلال الدين والسحر مدموجة بتقليد قديم من العناوين الحربية، مثل الكونغ فو وغيرها، التي انتشرت بشكل واسع في العقود الأخيرة. وكانت الأتباع الأكثر نشاطاً من الطبقات الدنيا من المجتمع الصيني؛ لذلك تمتع الملاكمون بقدر من التسامح والسيادة من قبل عناصر نافذة من البيروقراطية. في النهاية، أُخذت حركة الملاكمين بعين الاعتبار، واعترفت بها المحكمة وقاد ذلك إلى إعلان حرب صينية رسمية ضد الأجانب.

وقد بدأت المرحلة الأكثر نشاطاً النشاط الملاكم في أواخر ١٨٩٩ مع موجة من العنف المناهض للأجنبي والمسيحي بما في ذلك تدمير واسع لمراكز البعثات وقتل المسيحيين الصينيين خاصة في شمال الصين. ولجأ الأوروبيون هناك إلى مستوطنات محمية خاصة في بكين ومرفأ مدينة تيانجين حيث حوصروا. وبعد فترة

من القتال الصعب، قامت حملة عسكرية دولية تضم اليابانيين والهنود والأمريكيين بدفع الحصار عن بكين واتخذاً إجراء سلمي. ولعب الجيش الصيني دوراً مشبوهاً مع بعض السلطات المحلية محافظاً على السلام رغم قرار اللجنة بالحرب، وهربت اللجنة الصينية لفترة إلى غرب الصين، تاركة الأجانب أحراراً في نهب وإحراق القصر الصيني كما فعلوا سابقاً خلال القرن، وفي بداية عام ١٩٠٢، عادت اللجنة إلى بكين تحت غطاء رؤية مخترعة ملائمة «أن الحرب كانت فقط تمرد شعبي».

وكانت قضية الملاكم في بعض ملامحها مشابهة لعودة MEIJI، وبدأ كلاهما في الدعوة لدعم الملكية وإقصاء البرابرة، غير أن هذه الحركة بعكس زعامة الميجي MEIJI لم يكن لديها برنامج تحديث دفاعي أو غيره. وتقدر الجيوش الأجنبية التي قمعتها بأقل من خمسين ألف رجل. وكانت من حيث مظهرها العسكري أضعف وأقل تنظيماً من التمرد الهندي عام ١٨٥٧ لكن كانت مشابهة إذا عدنا إلى وضع سابق من الأمور الحقيقية أو الخيالية. على سلم من التنوع من البراغمانية إلى الطوباوية، كانت قضية الملاكم مسافة معينة عن التطرف البراغماتي وأيضاً بعض المسافة عن الطوباوية المتمثلة بحركات ألفية وضعت إيمانها بتوقع تدخل كوني لم يصل أبداً. وسيجري التعاطي مع حركات من هذا النمط في الفصل التالي.

جذور الانسحاب الأوروبي:

احتوى الانسحاب من الإمبراطورية - أصولاً أوروبية وغير أوروبية - من خلال أي مؤشر للإنتاجية الاقتصادية، كان الغرب في نهاية الحرب العالمية الثانية قوياً جداً مقارنة مع بقية العالم كما كان دائماً، بالرغم من ذلك، تخلى الأوروبيون عن المناطق المحتلة خلال عقود قليلة مع بعض الصراعات الخطرة بعد استخدام الكثير لغزو أكثر من نصف العالم.

وكان جزء مهم من التفسير عسكرياً. فقد خرج الغرب من الحرب العالمية الثانية أكثر قوة من أي وقت مضى لكن الفائدة النسبية التي تمتع بها في القرن التاسع عشر ذهبت إلى الأبد.

وفي رسالة هيلاري بيلوك الشهيرة، «مهما حصل، حصلنا أعظم سلاح ولم يحصلوا عليه» كانت السلبية الأخيرة مهمة ولكنها مؤقتة. فقد غزت القوات البريطانية والفرنسية المؤلفة بشكل رئيس من فرق إفريقية مجمل غرب إفريقيا بقوات يتعدى تعدادها نادراً ألفي رجل كل مرة، وكانوا مجهزين بأسلحة رشاشة وكانت المعارضة مسلحة بأسلحة تشحن من الفوهة إذ كان لديهم أسلحة أصلاً، بعد ثلاثة عقود، امتلكت المعارضة أيضاً أسلحة رشاشة وهزموا فقط بالتفوق العددي الهائل، وكانت الميزة المتشابهة للثوار المعارضين للجيوش الحديثة تتمثل بالاستمرار في حروب التحرير مثل الجزائر والهند - الصينية.

في أواخر السبعينيات، كانت الولايات المتحدة تمتلك القدرة على النصر في نهاية حرب فيتنام، لكن ثمن النصر الآن كان أكثر تكلفة وكانت الأهمية المتعلقة بحياة القوات الغربية أكبر مما كانت عليه في مرحلة بناء الإمبراطورية، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة بدفع ذلك الثمن وحتى قبل تجربة فيتنام، وقد توصل الفرنسيون والألمان والانكليز إلى نتيجة مماثلة في ظروف مماثلة.

لكن القرار السياسي بالانسحاب دون أي إمكانية عسكرية متاحة، كانت له أيضاً جذور في الرأي العام الأوروبي، وخلال عصر الامبراطوريات الأوروبية، عارضت بعض الانتقادات بالدرجة الأولى وجود مستعمرات، وضمن سياسات التقدم الإمبريالي كانت معظم الحكومات المركزية في أوروبا معارضة بشكل علني لضم مناطق ما وراء البحار معظم الوقت، وكانت معظم عمليات الضم في ترتيب الأقليات المرموقة وفي بعض الأوقات مدعومة في نعرة وطنية مفرطة، وكانت التكلفة الضئيلة وسهولة بناء الإمبراطورية ترجح دائماً كفة الميزان.

وكانت لدى بعض الدول الأوروبية خيوط مميزة من الرأي العام المناهض للإمبريالية، ففي فرنسا، كان هناك إيمان سائد بأن دور فرنسا الحقيقي وعظمتها الوطنية تستند على دورها كزعيم للقارة الأوروبية وتتعارض مع تبديد الموارد في مغامرات إمبريالية بعيدة، كان هذا الرأي المسمى غالباً القارية، قوياً إلى درجة في

وقت لآخر عند اليمين السياسي خاصة عام ١٨١٧ عندما أدت خسارة الألزاس واللورين لصالح الدولة الألمانية الجديدة ببعض الفرنسيين إلى اعتبار بناء إمبراطورية ما وراء البحار شبه خيانة. وكان هناك رأي مشابه بارز في الستينيات (١٩٦٠) عندما كانت فرنسا على شفير حرب أهلية بالنسبة للتسوية مع الجزائر. في هذه الحالة، كان اليسار بشكل رئيس مؤيد للسلام، وأراد الجيش وبعض اليمين الحفاظ على الجزائر فرنسية بأي ثمن. وكان شارل ديغول الذي جمع الشعور القاري واعداً بأن فرنسا ستقلل من خسائرها في الجزائر بهدف استعادة دورها الرئيس في زعامة أوروبا.

وكان لدى بريطانيا نوع آخر في المناهضة السياسية للإمبريالية يرتكز على تجربتها التاريخية التي تعود إلى خسارة المستعمرات التي أصبحت الولايات المتحدة. فبعد الغضب الأول والخيبة، كان واضحاً أن الخسارة لم تكن خطرة اقتصادياً واستراتيجياً. ففي منتصف القرن التاسع عشر ظهر أن بريطانيا هي أرخص سوق للشراء وتبيع ما هو أضخم بمعزل عن السيطرة السياسية. وقد ضعفت مقاومة منح الحكم الذاتي لأستراليا وكندا ونيوزلندا خلال القرن، مع توقع أن هذه المستعمرات المستوطنة ستنسلخ بشكل طبيعي عن الشجرة الأم عندما تصبح جاهزة للاستقلال.

وكانت العنصرية العلمية المزيفة قوية جداً في أواخر القرن التاسع عشر حيث توقع قليلون أن تكون الهند وسيلان ونيجيريا مستعدة للاستقلال في المستقبل القريب، لكن حصل ذلك في تاريخ مبكر. وكان الهدف المعلن للسياسة البريطانية منذ ١٩١٧ حكماً ذاتياً هندياً واستقلالاً نهائياً. وأضيفت إفريقية الغربية الاستوائية عام ١٩٤٥ بالرغم من أن الأكثر تفاؤلاً توقع أن تأخذ عملية الاستحقاق وقتاً أطول مما أخذت.

وقد تعمقت الحركات المناهضة للإمبريالية الأخرى في أنحاء أوروبا، وعندما وضحت تكاليف الإمبراطورية، عارضت أقلية بارزة في كل سلطة إمبريالية دفع الثمن. على صعيد اليسار السياسي، كانت الاعتراضات الاقتصادية أكثر تفصيلاً

وأوضح. وحتى في القرن التاسع عشر، عارضت تيارات الاشتراكية السلمية المغامرات العسكرية، وبعد عام ١٩٠٢ وظهور إمبريالية ج.أ. هبسون، أظهرت دراسة العلاقة بين الرأسمالية والإمبريالية شرارة جديدة، وكان الاشتراكيون الأوروبيون معارضين أكثر من أي وقت مضى لبناء الإمبراطورية.

ورجع نوع آخر من مناهضة الإمبريالية إلى الروابط الإنسانية بين المبادئ المسيحية وسياسة الدولة، وكانت هذه الروابط رتب الصف مهمة في الإلغاء البريطاني لتجارة الرقيق وتحرير العبيد. وتحرك شعور مماثل في البرلمان البلجيكي بسلخ دولة الكونغو المستقلة عن الملك ليوبولد ووضعها تحت سيطرة الحكومة البلجيكية. وقد أجبر التوافق الإنساني في الرأي العام الألماني والهولندي أحياناً إصلاح سياسات الدولة في إفريقيا الألمانية وجزر الهند الهولندية.

كان صعود وسقوط العنصرية العلمية المزيفة متقلباً لدى الرأي العام الأوروبي الذي شارك أولاً الرغبة في بناء إمبراطوريات ما وراء البحار ثم الرغبة في تصفيتها، ففي أوربا القرن التاسع عشر، ازداد الإيمان بالتفوق الثقافي الأوروبي مع تطور الصناعة الأوروبية، وصعدت العنصرية مع التعصب الثقافي وبين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ كان التفوق العرقي للأوروبيين لا جدال فيه في أوروبا على الأقل، ولم تكن مصادفة كلياً أنها كانت ذروة مرحلة بناء الإمبراطورية ما وراء البحار.

وحصل تبدل مأساوي في ثقة الأوروبيين بالنفس بين بداية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالمية الثانية. وقد بدأت الثقة العسكرية تهتز عند ما هزم اليابانيون روسيا عام ١٩٠٥ وقد أثار التدمير الواسع لليد العاملة في الحرب العالمية الأولى والهولوكست خلال الحرب العالمية الثانية الشكوك حول التفوق الأخلاقي الغربي. وقد أثارت خيبة الأمل الكبرى شكوكاً أخرى حول حقيقة استمرار التقدم المادي؛ لذا تأسس نوع جديد من التفاؤل المادي بعد عام ١٩٥٠.

وكان التحول في العقلية الغربية أكثر بعداً من مجرد الأخذ بعين الاعتبار الإمبراطورية ما وراء البحار، لكن توريطها كإمبراطورية تمثلت بوضوح بالتغير بين

ميثاق عصبة الأمم لعام ١٩١٩ وميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. وكان ميثاق عصبة الأمم كتب في وقت أعلن المنتصرون «حق تقرير المصير للأمم». وقد أعطت مع ذلك بعض الأراضي للقوى المنتصرة كانتداب بما في ذلك المستعمرات الألمانية في إفريقيا وميلانيزيا إضافة إلى المقاطعات العربية العثمانية السابقة في سوريا ولبنان والعراق.

وقد وعدت الدول الموافقة على انتداب عصبة الأمم حماية رخاء وتطور الشعور المحلية. لكن كانت الوعود الأكثر أهمية لما تبقّى في الخارج أكثر مما ضُمّ.

وقد كان محظوراً على الشعوب التابعة احتساء المشروبات الروحية واستثنوا من الخدمة العسكرية الإجبارية ولم يجر الإشارة للحقوق الإنسانية والسياسية. وكانت الأراضي العثمانية السابقة قطعاً تستعد للاستقلال وحتى دون جدول زمني.

وفي عام ١٩٤٥، أقامت منظمة الأمم المتحدة مجلس وصاية تبنّى قراراً واضحاً باستقلال كل المستعمرات في فترة محددة من الوقت، وحددت عشر سنوات للصومال الإيطالية على سبيل المثال، واعترفت بأنه ليس باستطاعة كل المستعمرات أن تكون جاهزة للاستقلال الفوري، وأنه ليست لديها سلطة حقيقة للإصرار على الاستقلال في كل مكان، لكن معنى تحقيق المصير كهدف تغير بشكل مأساوي.

البحث عن استقلال قابل للحياة: أندونسيا:

في نهاية القرن العشرين، أنجز كل العالم الاستعماري السابق وضعه الجديد فعلياً باستقلال معترف به وعضوية في الأمم المتحدة. وقد تنوعت عمليات العبور نحو الاستقلال وبدت النتيجة حتمية الآن، لكن كانت طبيعة الوحدة المستقلة غير متوقعة في البداية.

وعادت بعض الدول المستقلة إلى حدودها السابقة للاستعمار مثل حالة المغرب. وأصبحت بعضها مستقلة ضمن حدود أوجدها الحكام المستعمرون، وسيتطرق الفصل التالي لموضوع غانا. وكان توجه آخرين نحو الاستقلال وفق ذلك الشكل ثم تفككوا كما انقسمت الهند البريطانية إلى الهند وباكستان وبنغلادش. وانقسمت

بعض الفيدراليات الإمبريالية مثل إفريقية الغربية الفرنسية وظلت أخرى موحدة مثل نيجيريا بعد حرب أهلية قاسية وتوصلت إلى حل.

ويعالج هذا الفصل والذي يليه الطرق التي اتبعتها هذه الدول المنشأة حديثاً والتي نجحت بطريقة ما لتصبح مستقلة نوعاً ما، بل دول معترف بها مع درجة من التساوي مع الدول الأخرى في النظام العالمي بعد الاستعمار. وتعد أندونيسيا وغانا أماكن مختلفة كثيراً وعالماً مميزاً استمر بقاؤه موضع تساؤل، وهي تصور بالرغم من ذلك الطرق التي نجحت بموجبها تحركات الأوروبيين والسكان في فترة قصيرة نسبياً لإقامة مجتمع سياسي جديد.

وقد أظهر التحرك نحو الاستقلال في أندونيسيا وغانا اختلافاً واضحاً وتشابهاً مذهلاً. وكان أحد التشابهات سطحياً، فقد ظهرت الدولتان في الأخبار عند الاستقلال، أندونيسيا عام ١٩٤٩ لأنها كانت أول مستعمرة سابقة في جنوب شرق آسيا تحصل على اعتراف باستقلالها بعد نزاع عسكري فقط. وكانت أكبر دولة برزت في جنوب شرق آسيا بحدود جغرافية وسكان متشابهين، وكانت غانا صغيرة مقارنة معها، لكنها كانت بارزة كونها أول الدول المستقلة حديثاً في إفريقية الصحراوية. وقد أثارت أندونيسا وغانا الانتباه بسبب زعمائهما المميزين في ذلك الوقت. وقد حكم سوكارنو جزر الهند الهولندية كدولة مستقلة وكوام نيكروما دولة الساحل الذهبي حتى إقصائهما عن السلطة من قبل الجيش، نيكروما عام ١٩٦٦ وسوكارنو عام ١٩٦٧.

وكان التشابه الآخر التراخي المبكر للحركات الاستقلالية الذي يعود في الحالتين إلى الفترة التي سبقت سيطرة الحكم الأوروبي بقوة. ويمكن إيجاد حركة استقلال واضحة في الساحل الذهبي عام ١٨٧٠. وكانت حرب جاوا ١٨٢٥ - ١٨٣٠ في أندونيسيا حركة قومية مبكرة وغير ناجحة، كما بدأ الغزو الهولندي لسلطنة أشية عام ١٨٧٣، واستمر في حرب طويلة دامت ربع قرن وانتهت بقمع المقاومة نهائياً عام ١٩١٠، من جهة أخرى فإن الهولنديين لم يكتشفوا أندونيسا الحالية حتى أواخر

١٩٤٠ بينما استكشفوا معظم المناطق الداخلية لغينيا الجديدة الغربية، وبالفعل عندما تخطت الحكومة الأندونيسية مزاعم الهولنديين عام ١٩٦٩ وأعطت المنطقة اسم جوا IRIAN JAWA، لم يكن الأوروبيون قد أنشؤوا إدارة دائمة في معظم منطقة الداخل، وهكذا ضمت أندونيسيا عام ١٩٧٠ بعض المناطق التي خضعت أولاً للحكم الأوروبي وبضع المناطق التي لا زال للأوروبيين مطالب حولها.

انقسامات ثقافية وبيئية:

كان لكل الأرخبيل الهندي الشرقي شكل من الوحدة اللغوية في معظم المناطق الناطقة باللغة الأسترونيزية، لذلك لم تكن مفهومة بشكل متبادل، ويمكن إيجاد أعضاء آخرين من عائلة اللغات هذه بعيداً إلى الشرق في تاهيتي والجزيرة الشرقية شمالاً إلى تايوان وغرباً إلى مدغشقر. وكانت الاختلافات الثقافية ضمن هذه العائلة اللغوية كبيرة وكان الاختلاف الأول الأقدم والأكثر إلحاحاً بين مناطق قادرة على زراعة حقول الأرز والتي لا تستطيع.

وحيث يمكن زراعة الأرز، من الممكن زراعة ثلاث مواسم سنوياً في الحقل نفسه سنة بعد سنة. وكان استثمار اليد العاملة في الحقول وريّ الخناق هائلاً، لكن في مناطق الأرز المروي في أندونيسيا كانت اليد العاملة الضرورية للحفاظ عليها تستحق التقدير.

وكان معدل السكان الزراعيين في مناطق الأرز المروي في أندونيسيا في الستينيات حوالي ١٥٠ شخصاً بالميل المربع.

وبلغ المزارعون في المناطق التي يمكن زراعة الأرز فيها حوالي عشرة أشخاص فقط في الميل المربع، وكانت هذه المناطق عموماً مناطق غابات استوائية، حيث التربة فقيرة ومعظمها استوائي، وعندما قام المزارعون بقطع العشب وحرقه، أعاد الرماد مواد التغذية للتربة جاعلاً إياها صالحة مؤقتاً لزراعة النباتات. وخلال سنوات قليلة، استخدمت هذه المغذيات أو أتلفت وعادت الأرض ليكسوها العشب أو أصبحت الغابة مبورة لفترة قبل قطعها أو استخدامها مجدداً.

جعل هذا النظام الزراعي المعروف بتنوعه بين القطع والحرق والزراعة تحديد معيشة السكان مدعومة فقط من الزراعة ويعتقد البعض أن يكون منخفضاً ليبلغ عشرين شخصاً في الميل المربع. وإذا تم تخطي هذا الحد يمكن حصول ضرر دائم لا يمكن إصلاحه. كانت منطقة حقول الأرز مقتصرة في أندونيسيا في القرن العشرين على معظم جزيرة جاوا وبالي ولوبوك إلى الشرق. وكان هذا السبب الرئيس لتركيز الحكم الهولندي على جاوا وعاملت بقية الأرخبيل كجزر خارجية. عام ١٩٩٤، بلغ عدد سكان جاوا حوالي ٤٠ مليون نسمة أو ٨٠٠ شخص بالميل المربع بينما ضمت الجزر الخارجية ١٨ مليون نسمة فقط أو ٢٦ شخص بالميل المربع. وقد تشكلت في المناطق المدنية والمزارع الدائمة المزروعة بأشجار المطاط جيوب من المناطق السكانية الكثيفة لكن انقسام حقول الأرز كان رئيساً للعديد من التقسيمات الثقافية اللاحقة التي صنعها الإنسان.

وصف المؤرخون في وقت ما جنوب شرق آسيا منطقة لا حضارة كبيرة خاصة بها، منطقة استقطبت خلال قرون التأثيرات الثقافية من جيرانها، الصين إلى الشمال والمحيط الهندي إلى الغرب، ومؤخراً توصل المؤرخون إلى الاعتراف بأن الآسيويين في الجنوب الشرقي اهتموا بالاقتباس من الخارج كما فعل الأوروبيون خلال قرون، لكنهم كيفوا اقتباساتهم مع تقاليدهم الثقافية الحيوية المحلية.

وبالطريقة نفسها التي اقتبست بها جنوب شرق آسيا البوذية أو الإسلام، اقتبس الأوروبيون المسيحية من الشرق الأوسط بمزجها من مظاهر من الديانات المحلية القائمة. واستمرت المسيحية بالتحول في وطنها الأوروبي الجديد كما استمرت الأديان المقتبسة بالتبدل في جنوب شرق آسيا، ولم تعد الكاثولوكية في تيمور الشرقية بالضبط الكاثوليكية التي أدخلها المبشرون الدومينيكان في القرن السادس عشر أو الهندوسية في بالي التي حصلت عليها من الهند منذ زمن بعيد. وقد دخل الإسلام مع التجار عبر الخليج البنغال بشكل رئيس في القرنين الخامس والسادس

عشر، وتغيّر أيضاً وتكيّف مع الأفكار الدينية المحلية والممارسات وحافظ على الاختلافات المناطقية حتى داخل جنوب شرق آسيا.

وضعت التقاليد السياسية الهندية الأشكال الأساسية للنسب في أجزاء عديدة من جنوب شرق آسيا، لكن هذه الأشكال كانت أكثر أهمية واستمرت في مناطق زراعة الأرز المروي وليس حيث هناك إمكانية للزراعة البعل، وترك هذا الواقع توتراً مستمراً بين مناطق المستوطنين في السهول وسكان الجبال على حدود تايلاند، بورما وفيتنام، توتراً استمر حتى يومنا الحاضر، وفي الجزر، كانت التقاليد الملكية الأقوى والأكثر وجوداً في مناطق الأرز المروي في جاوا وبالي، وقد استلزمت محاكم منظمة وبيروقراطيات مركزية لكن باختلاف ضئيل على المستوى القروي باستثناء جباية الضريبة، وفي القرن الثامن عشر قام الهولنديون في جاوا باستبدال الملوك وحكموا عبر الإدارة المعينة من حكم الوصاية التي سخرت المؤسسات الجاوية فعلياً لمصالحها. وكانت بعيدة عن إقامة دولة بيروقراطية حديثة، لكن لم يستطع الهولنديون حكم جاوا بشكل مباشر كما حكموا الجزر المحيطية.

ومن الجزر المحيطية المؤلفة من سكان مبعثرين، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية وخليفتها Nethrlands indies غالباً راضية عن شكل أضعف من الحكم غير المباشر. وكان هذا الترتيب مفيداً سياسياً عبر استراتيجية فرق تسد باستخدام الجزر المحيطة ضد جاوا. كان هذا الأسلوب واضحاً في طريقة تنظيم Netherlans Indies لقواتها في ثلاث قطاعات بعيدة عن الجيش الهولندي في أوروبا. تم تجنيد القطاع الأول في أوروبا من ألمانيا وغيرها ومن هولندا أيضاً. وتم تجنيد القسم الثاني في إفريقية بشكل خاص من شراء العبيد فيما بعد بإذن من القوى المستعمرة مثل بريطانيا. وتم تجنيد قطاع كبير آخر محلياً المسمى رسمياً Ambonese أو سكان الجزر الأخرى ويعني غير الجاويين وللسبب نفسه كان الجيش الهندي بعد تمرد ١٨٥٧ مجنداً بشكل رئيس من أجناس محاربة عاشت بعيداً عن

مراكز التجمع السكاني الهندي بما في ذلك Qurkas من خارج منطقة السيطرة البريطانية المباشرة.

دور الإسلام:

بالرغم من الاختلافات الضخمة الموروثة من الماضي، كانت قوى التناغم الثقافي أيضاً تعمل منذ قرون، ومع أن التأثير السياسي والديني للغطاء الهندي أعطت درجة معينة من الثقافة السياسية والدينية المشتركة في معظم أنحاء مناطق الأرز المروي في جنوب شرق آسيا بما في ذلك أندونيسيا.

في القرنين الخامس والسادس عشر، انتشر الإسلام بشكل واسع وبسرعة أكثر في المناطق الأقل تأثراً بالثقافة الهندية. وحافظت بالي، الجزيرة ذات الطابع الهندي المميز على الهندوسية حتى يومنا هذا لكن أكثر من ٩٠ بالمئة من سكان أندونيسيا اعتبروا أنفسهم مسلمين. ونتيجة لذلك، تعتبر أندونيسيا اليوم الدولة ذات الغالبية المسلمة في العالم مع أنها الأكثر بعداً عن مكة.

وكما هو متوقع من أسلوب انتشار الديانات الأخرى في العالم، لم يكن الإسلام الأندونيسي مجموعة ثابتة وموحدة من المعتقدات ولم تكن معتقداته مشابهة لتلك الموجودة عند المسلمين في القاهرة أو بغداد. وكان الإسلام الأندونيسي منقسماً أولاً بالتمييز بين Santui abagan. وكان السكان المسمى abangan يتجهون بجذورهم نحو المناطق الريفية ويمزجون الأركان الأساسية للإسلام بمعتقدات هندوسية وبوذية متفرقة وآخرون لهم أصول أعمق في ديانات الجزيرة. وحددت santri وهي أقلية صغيرة نسبياً بالذين يأخذون الإسلام الرسمي بجدية أكثر وهم أكثر إيماناً بوصايا النبي. وتوجد santri أكثر شيوعاً في المراكز المدنية والتجارية وفي المناطق الساحلية من جاوا. مع أن التمايز بين Abangan - SANTIR كبير فإنه يستطيع أيضاً أن يصبح انقساماً لا يمكن تصوره، ويعتبر الإسلام الأندونيسي مجموعة من المعتقدات المختلطة من الصعب وصفها.

وتوجد بعض انقسامات الإسلام الأندنوسي في أماكن أخرى في أنحاء العالم الإسلامي، وتوجد الطرق الصوفية الإسلامية، الطرق هنا كما هي موجودة في تركيا والمغرب وتعطي المؤمنين ديناً أكثر انفعالية من الموجود عند علماء المدن. في نفس الوقت، انتشر الإسلام الإصلاحي في القرن العشرين في أنحاء العالم الإسلامي عموماً، وسعى إلى تطهير الإسلام من التراكمات غير الإسلامية، وواجه في بعض الأحيان تأثير الطرق الصوفية. ففي Netherland Indis كان مذهب إصلاحي ومجدد يسمى المحمدية مهماً بشكل خاص خلال القرن الماضي. لم يكن المطلوب فقط إعادة إسلام الأنديز إلى الخط الصحيح للمعتقدات والممارسات الموجودة في مكان آخر بل كان جزءاً من التحرك نحو إسلام متجدد ومن خصائصه العمل على تقبل اكتشافات العلم الحديث. ومن الواضح أن بعض الوطنيين الأندونيسيين مثل عبد الكريم في الريف طلبوا مساندة عناصر إسلامية مجددة في ظروف سياسية مختلفة كثيراً.

مجتمع تعددي:

بينما كان النقض الهولندي تجربة مشتركة للجميع، ظلت الأنديز الهولندية مع ذلك مجتمع مجتمعاً تعددياً بلغات وثقافات مختلفة. كانت بعضها ترتكز على اختلافات ثقافية محلية بين MINANDKABAU، الجاويين والباليين، وجاءت أقليات ثقافية أخرى من الخارج، وكانت الأكبر والأهم الصينية التي كانت تشكل ٣ بالمئة من سكان الجزيرة في ١٩٣٠، وكان الصينيون منقسمين ثقافياً، وكان المهاجرون الأوائل Hokkienese من جنوب الصين ومعهم لغتهم الأم التي كانت مختلفة عن MANDARIN و Lentonese. أصبحوا منذ ذلك الوقت Penana-kan ومختلطين ثقافياً مع السكان المحليين، وكانت الغالبية العظمى من المهاجرين رجالاً اتخذوا زوجات جاوية واستخدموا غالباً اللغة الجاوية بدل HOKKIENESE.

وقد اعترف بهم الهولنديون كجماعة منفصلة وأجبروهم على العيش تحت إشراف مسؤولين هولنديين في مراكز خاصة في المدن الجاوية، كانت مشاركتهم في

المجتمع الأنديزي أكبر مما يدل عليه عددهم. وكانوا يشكلون مجتمعاً مدنياً وتجارياً وكانت نشاطاتهم مهمة للاقتصاد الأنديزي.

كان الصينيون محسودين ومهابين من القطاعات الأخرى من المجتمع مثل المجموعات التجارية الغربية في العديد من المجتمعات حول العالم واستمر هذا التوتر بين الصينيين وآخرين في أندونيسيا بعد الاستقلال. غير أنه مع مرور الوقت، اندفعت المجموعة الصينية في عدة اتجاهات جديدة، وقد أعاد مهاجرون جدد إدخال عناصر صينية ضمن ثقافة Perenakan. وبعد سقوط الإمبراطورية الصينية عام ١٩١٠، شعرت المجموعة الصينية بالانتماء القومي الصيني، وقد ادعى انتصار الشيوعية الصينية عام ١٩٤٨ إلى ضغوط سياسية جديدة. وبسبب ثرائها النسبي، استطاعت الجماعة الصينية الاستفادة المقدمة في المدارس التبشيرية المسيحية. وهكذا توجهت جماعة Penanaken القديمة تدريجياً نحو انجذابات تغير الوطن الصيني وأصبحت في اتصال أقرب مع ثقافة القرن العشرين الأوروبية.

وكان الهولنديون عنصراً غريباً آخر في مجتمع الأنديز. وفي بداية الحرب العالمية الثانية، كانوا يشكلون فقط واحداً بالمئة من مجموع السكان، لكنّ ثروتهم وقوتهم جعلتهم مهمين، وكانت نسبتهم كبيرة نسبياً للعالم الاستعماري، مساوية للوجود البريطاني في كينيا وأكبر من الوجود البريطاني في نيجيريا والهند ولكن أقل من الوجود الأوروبي في الجزائر وجنوب إفريقية.

وكان الهولنديون منقسمين داخلياً مثل الصينيين، وقامت مجموعة مساوية للصين PERANAKAN يجعل جزء الأنديز وطنها، وخرج آخرون إلى الجزر لعدة سنوات وعادوا إلى أ وروبا في نهاية المطاف. وقد وصل الهولنديون غالباً مثل الصينيين غير متزوجين مما زاد الجماعة الأوروبية الآسيوية بشكل كبير، لكن الغالبية الكبرى تحددت من خلال أجدادها الهولنديين، وسعوا إلى تعليم هولندي وشددوا على إرثهم الهولندي، ومع ذلك فإن الهولنديين في أوروبا احتقروهم.

الاندماج الثقافي والاجتماعي:

أصبحت بعض مظاهر التعدد الثقافي أكثر حدة خلال النصف الأول من القرن العشرين بينما تضاءلت المظاهر الأخرى، وقد قدم الوجود الهولندي نظاماً سياسياً حصل ضمنه العديد من أشكال الاندماج الاجتماعي والفكري والثقافي.

وكان هذا المزج جزئياً الصيغة الأنديزية للانسجام الشامل للثقافات الحاصل في كل مكان خلال القرن العشرين، لكن كانت بعض المظاهر خاصة بجزر الأنديز الهولندية.

وكانت اللغة مصدراً أساسياً للوحدة والتفرقة على حد سواء، وكانت اللغة الجاوية بالطبع اللغة التي يتحدثها العدد الأكبر امتعض منها بعضهم لهذا السبب فقط، وكانت الهولندية لغة تعليم النمط الغربي، وكانت مستخدمة بشكل واسع من طاقم متنامٍ من موظفي الحكومة، غير أنه منذ بداية القرن، كانت لغة التجارة الشائعة لغة شبه جزيرة مالاي مع أنها كانت اللغة الأم لعدد قليل من السكان في جزر الأنديز الهولندية.

وكانت مفيدة بسبب ارتباطها باللغات الرئيسة لكل الجزر ولم تكن اللغة الأم لجزء كبير من السكان، وكانت أكثر حيادية ومقبولة من الجاوية، من هذا الجانب، كانت مشابهة للغات أخرى تجارية ناجحة أصبحت Lingua firance في منطقة واسعة والسواحلي في شرق إفريقية على سبيل المثال. وكانت لغة المالاي منتشرة عند الاستقلال وأعلنتها الحكومة ببساطة اللغة الوطنية وأعادت تسميتها بالأندونسية.

وكان الدين مشكلة أخرى في الاندماج الاجتماعي والثقافي. وفي القرن التاسع عشر، شكك الهولنديون بالإسلام نقطة تجميع ممكنة للاحتجاج لكن بعد نهاية القرن تحولوا إلى تشجيع الإيمان وأن الإسلام أفضل من الإلحاد وأملوا بكسب علماء المسلمين الكبار. وظلوا معارضين للحركات الإسلامية السياسية لكن المزج بين التشجيع والحياد جعل من الممكن انتشار الإسلام في الأجزاء الأقل إسلاماً من المستعمرة.

واستخدم الهولنديون أيضاً أسلوب التعليم الغربي كسلاح ثقافي يهدف إلى جذب القطاعات الأكثر ثقافة من المجتمع نحو النظرة الغربية للعالم، ليست المسيحية بالتحديد بل العلمانية بدل الإسلامية، ففي جاوا، حيث يعتبر نمط التعليم الغربي الأكثر توافراً، عمل العديد من رجال طبقة النبلاء على دخلوا نخبة جديدة من الأشخاص المتعلمين. وعملوا على فصل أنفسهم عن قيم آبائهم وطلب نوع من الوضع الاجتماعي مشابه للذي أعطاه التعليم للهولنديين، وطلبوا قبل أي شيء، وظائف حكومية ولم تكن لديهم أوهام عندما لم تستطع ثقافتهم تأمين النشاط الاجتماعي الذي ظنوا أنهم يستحقونه.

وعكست هذه التطلعات تقليداً جاوياً قديماً عن بروز في المجتمع من خلال خدمة الحكومة. في الماضي، كانت المحكمة تؤمن الفرصة وكانت اليوم البيروقراطية، ولا يعد المال مهماً لدى النخبة الجاوية كما هو في الجزر المحيطة حيث تمثل الثروة أسلوباً طبيعياً للوصول إلى السلطة والمركز. ويوجد لدى التجار الصينيين في جاوا المال وليس المركز. وبالنسبة لبعض الجاويين، كان التعليم طريقاً إلى السلطة عبر الحكومة، أولاً: بدأ الهولنديون بتشكيل هذه النخبة داخل الحكومة القومية عبر تحديث البيروقراطية في أندونيسيا مستقلة. وفي كلا الحالتين، لم يكونوا معادين للاشتراكية.

وكانت تصرفات النخبة في الجزر المحيطة مختلطة ومختلفة عن تلك في جاوا، وسمحت السلطة لهم وفق أشكال غير مباشرة للحكم أكثر من جاوا، ووجدت النخب غير الجاوية من الممكن استخدام سيطرتها على الأرض لإدخال نشاطات مقاولات متنوعة مثل النوع الذي تُرك للصينيين في جاوا. ومن الممكن سحب التناقض، لكن الزعامة في الجزر المحيطة كانت مهتمة بالحفاظ على موقعها السياسي الموروث وأكثر اهتماماً بتملك الملكية عوضاً عن مراكز في القيادة.

وقد أدى النزاع بين هذه التصرفات إلى تلبيد العلاقات بين المناطق الأندونيسية قبل وبعد الاستقلال.

استياء الفلاحين:

كانت النخب في جاوا وأماكن أخرى منفصلة عن جموع الفلاحين باختلافات ثقافية جوهرية في المراكز والثروة. كان استياء الفلاحين متكرراً وواسعاً ويعود إلى الفترة ما قبل الاستعمار، وقد زعمت القيادة الإسلامية أحياناً أن طبقة الفلاحين تخصه. وفعل الزعماء الوطنيون الشيء نفسه. وحاول الشيوعيون أحياناً كسب طبقة الفلاحين وفي وقت آخر اعتمدوا أكثر على الطبقة العاملة المدنية قاعدة أساسية لهم. ولم تكن الاستراتيجية تعمل بشكل جيد ولم تعتبر تحركات الفلاحين دلالة على نمو الاستياء الوطني.

تفاعلت بعض الحركات الفلاحية مع المشاعر الوطنية من المدن، لكن كانت معظمها نوعاً من حركة الاحتجاج كلية حتى قبل بروز القومية الحديثة، وحتى بعد ذلك، كانت الحركات الفلاحية موزعة وفق جذورها وطريقة حياة الفلاحين في جماعاتهم الخاصة.

وقد بدأ هذا التحرك في جاوا عام ١٨٨٠ بقيادة فلاح جاوي غير متعلم اسمه سوروتيكو سامني. وطلب سامني من أتباعه الانسحاب من المجتمع المحيط بهم ورفض دفع الضرائب وتنفيذ خدمات الدولة أو المشاركة في الصلاة وحفلات الزواج.

وقامت الحكومة باعتقال سامني وقادته ونفتهم من جاوا عام ١٩٠٧ - ١٩٠٨ لكن الحركة استمرت مع بعض النشاط خلال العقود اللاحقة، وكانت مسالمة كلياً، دون مواصفات معينة لحركة ألفية ودون أهمية حقيقية للحركة الوطنية.

وكانت حركات فلاحية أخرى ألفية، وكانت تدعو المسلمين أحياناً لفكرة المهدي الذي سيأتي لتطهير الإسلام، أو على الأغلب اعتقاد جاوي قبل الإسلام عن مجيء أمير عادل يعمل على إقامة مملكة جديدة مع العدل والرخاء للجميع دون ضرائب أو اضطهاد. وكانت الصيغ السابقة لهذا المعتقد مرتبطة مع المحاكم الجاوية

الداخلية والنبلاء، لكنها امتدت مع الوقت إلى نظم المجتمع الأخرى، وفي القرن التاسع عشر برز رجل من أصول فلاحية من وقت إلى آخر لإعلان نفسه أو غيره أميراً عادلاً، وكانت هناك عدة حركات، أربعة أو خمسة أحياناً في أجزاء مختلفة من جاوا في سنة واحدة، ويمكن أن نأخذ النبوءة الألفية أحياناً ملامح مناهضة للأجنبي ومناهضة للهولندي. ولم تعط أي من هذه التحركات معارضة فاعلة للحكومة. لكنها تضمنت المعتقدات يمكن استخدامها لاحقاً لتعبئة طبقة الفلاحين لأهداف أخرى وأكثر تحديثاً.

صعود حركة الاستقلال:

كانت حركة الاستقلال في جزر الإنديز الهولندية والتي نهضت على هذه الخلفية مختلفة عن حركات مماثلة في غانا والهند البريطانية. وكان الهولنديون أكثر ذعراً من البريطانيين تجاه التحريضات الوطنية وكانوا أكثر شدة في قمعهم، وكان العنصر البارز في جزر الأنديز الهولندية الخليط الشفاف للحركات المتنوعة والتقاليد، ويستطيع موضوع الأمير العادل الألفي الانضمام إلى الوفاء الديني المسلم والقومية الحديثة والحركة الشيوعية العالمية لفترة الحرب الداخلية، وحملت النتيجة بعض التشابه مع الحركات الألفية في Melanensia، لكن كان أيضاً نمو مميز ووحيد للوضعية الثقافية والاجتماعية الجاوية.

بدأت الحركة الوطنية الأندونيسية بطريقة نموذجية في وقتها، انتشرت الجمعيات الثقافية في الحقل الأول من القرن العشرين غالباً بأسماء مثل جاوا الشابة أو Young Celebas مذكرة بالقومية الأوروبية للشباب الإيرلندي أو الشباب الترك، وفي المرحلة التالية عام ١٩١٢، أنشأ المثقفون ذات التعليم الغربي حزباً سياسياً على النمط الغربي، حزب الأنديز، ودعوا بشكل رئيس إلى الأقلية الأوروآسيوية وانتهى بسرعة بعد فترة قصيرة، لكنه كان أول تنظيم يحدد هويته بالجزر الهندية الهولندية كياناً سياسياً. وكان لمقياس الحركة الواسع الأول قاعدة

مختلفة، وبدأت Sanket Dagang Islam أو بجمعية التجارة الإسلامية لكن أصبحت لاحقاً ببساطة الجمعية الإسلامية. وكان العنوان معبراً، وكانت العضوية الأولى في أوساط التجار الجاويين الذين قاموا بتحرك مشترك ضد منافسيهم الصينيين. وكانت الإشارة إلى الإسلام بشكل رئيس لتحديد المصالح التجارية التي ليست صينية أو أوروبية.

وبدأت جمعية الإسلام بتنظيم مقاطعة التجار الصينيين، لكنها وسعت نشاطها وجذبت عضوية واسعة من الناس. ومنذ تأسيسها عام ١٩١٢، وصلت إلى ٤٠٠ ألف عضو خلال سنتين، وانخفض العدد قليلاً ثم عاد وارتفع إلى ٥٠٠ ألف عضو عام ١٩١٨ منهم ١٠ بالمئة من خارج جاوا. وكان زعيم مميز (عمر سيعد ثجو كرومنتو) Tjokioaminto فعالاً في تغيير التوجه، ملغياً عنصر مناهضة الصينيين وإدخال وعد بحياة أفضل من خلال الاستقلال السياسي. وجاءت شعبيته الواسعة في مجتمع لا زال نسبياً غير متعلم بشكل كبير لأنه بدا مستوفياً لنبوءات الأمير العادل.

بعد عام ١٩١٨، خسرت جمعية الإسلام المساندة جزئياً بسبب عدم تحقيق الإنجازات لكن أيضاً بسبب التيارات السياسية الجديدة في بداية العشرينيات التي اتسمت بالانتصارات الأولى للثورة الروسية، وقد انسلخ جزء من جمعية الإسلام عنها عام ١٩٢٠ ليؤسس الحزب الشيوعي الأنديزي وانضم إلى الأمة السوفياتية. وتحولت الأغلبية نحو اشتراكية أكثر اعتدالاً محافظة على هويتها الإسلامية؛ وتكيف Tjokroaminoto مع هذه التيارات السياسية الجديدة زاعماً أن الأمير العادل الحقيقي لن يأتي بشكل إنسان لكن بشكل الاشتراكية.

لكن Sanckat Islam بدأت بالتفكك، ومنذ عام ١٩١٩، بدأت الحكومة الهولندية الاستعمارية اضطهاداً علنياً واعتقال بعض الزعماء الأكثر راديكالية، لكن هذا العمل كان ضرورياً جداً. وقد اندلعت الصراعات في الفروع الخاصة بشكل رئيس بين الزعامة الأكثر تديناً وتلك التي مالت نحو الحزب الشيوعي الأنديزي وعندما ربح الحزب الشيوعي كما فعل دائماً، رحلت الطبقة الفلاحية وتوزعت

القيادة الدينية على تنظيمات مثل المحمدية، ولفترة اعتبر الحزب الشيوعي الأنديزي المتحور الرئيس من حركة الشعب لكنه انقسم أيضاً. وفي عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧، عندما حاول قطاع منه القيام بثورة مسلحة في جاوا الغربية وأجزاء من سومطرة، استخدمت الحكومة بسرعة الثورة كذريعة الاعتقال قادة الحزب وسحقه نهائياً.

وفي عام ١٩٢٧ أيضاً، ظهر سوكارنو على الساحة كزعيم وطني بارز، وكان تابعاً Tjokroaminoto وكان متزوجاً لفترة من ابنته. وقد أسس الآن حزب الإنديز الوطني مستعيداً بعض جاذبية Sarekat Islam السابقة. وكان سوكارنو خطيباً جيداً يستطيع الوصول إلى طبقة الفلاحين، وكان معروفاً بما سُمّي التوجه الخاص أو تشويش التفكير وأعجب بالتقليد الجاوي الذي جعل من الممكن جذب الناس من مختلف الآراء ،وكان أيضاً بارعاً في استخدام رموز «الأمير العادل». وقد تطور تفكيره خلال الثلاثينيات بهدف إقامة تركيبة من القومية والماركسية والإسلام وأمضى -مثّل الزعماء الوطنين الآخرين في ذلك الوقت- معظم فترة ما قبل الحرب في السجن أو المنفى.

وقبل الحرب العالمية الثانية، ظهرت عدة تيارات متنوعة معارضة للحكم الهولندي إلى الوجود، وكانت مفككة بحيث لا يمكن وصفها حاملة للشعور الوطني الأنديزي وهناك دليل صغير بأن الناس اعتقدوا عموماً بأمة أندونيسية، وقام الغزو الياباني بتغير الوضع بشكل مأساوي.

الاحتلال الياباني

بدأ الاحتلال الياباني في آذار ١٩٤٢ كجزء من الغزو الواسع لجنوب شرق آسيا. وقد انتهى فجأة بعد الاستسلام الياباني في آب ١٩٤٥. وخلال سنوات الاحتلال، مهّد اليابانيون عن غير قصد الساحة للثورة الأندنيسية ١٩٤٥ - ١٩٥٠ وكان بعد ذلك ظهور أمة أندونيسية فعلية إلى الوجود. ويمكن تأريخ الاستقلال الرسمي بعد توحيد المناطق الهولندية عام ١٩٤٩.

وكانت حملة اليابانيين خلال الحرب مهمة مناهضة الإمبريالية، لكن احتلالهم أثبت أنه انتقال من سيطرة صناعية إلى سيطرة سلطة أخرى، وكانت تطلعات اليابانيين البعيدة لمدة مراوغة ومتقلبة، لكن كان هدفهم القصير الأمد استخدام الجزر ومواردها كحجر انطلاق نحو النصر في الحرب ضد الحلفاء الغربيين. وبالفعل كان النظام الياباني أكثر اضطهاداً من الهولنديين، فقد أرسلوا أكثر من ٣٠٠ ألف فلاح للعمل عمّالاً بالإكراه قرب جبهات القتال في غينيا الجديدة والبر الرئيسي الجنوب شرق أسيوي حيث لم يرجع سوى القليل منهم. وقاموا باعتقال الهولنديين وأقصوا الأوروآسيويين عن المراكز الحكومية ووضعوا يابانيين في المراكز العليا. وبما أنهم لا يستطيعون تأمين قوة متخصصة كافية للإشراف على إدارة جديدة كاملة، قاموا بإعطاء المراكز الثانوية للأندونيسيين الذين لديهم بعض الثقافة الغربية. وكان هؤلاء من نفس المجموعات المدنية التي تورطت في التحركات الوطنية وكانوا قد أخذوا سابقاً من جموع الناس. وكان سوكارنو ومحمد حتثا أبرزهم الذين كانوا من الوطنيين الناشطين في فترة ما قبل الحرب والذين خرجوا علناً إلى اليابانيين لرفع وتيرة القضية الوطنية.

وانطلق اليابانيون أيضاً من السياسة العسكرية لجزر الإنديز الهولندية والقوى الاستعمارية الأخرى. وقاموا بتجنيد قوة عسكرية مدربة ومسلحة جيداً مؤلفة من ٦٥ ألف رجل يخدمون تحت إمرة ضباط أندونيسيين ما عدا الرتب العليا. وكان طاقم الضباط منبثقاً من طبقة المدنيين والمثقفين نفسها الذين شكلوا البيروقراطية المدنية. وقام هؤلاء القادة المدنيون والعسكريون الذين برزوا خلال الاحتلال بالمضي قدماً حتى الاستسلام الياباني ليصبحوا نواة أي حكومة تتشكل خلافاً لذلك، فقد كان للنظام الياباني تأثير على مختلف المجموعات الاجتماعية بطرق شتى. وبشكل عام خرجت النخب القديمة من السلطة والجاه وحلت محلها النخب المتغربة وخرجت النخب الأوروآسيوية وخرج الهولنديون من السلطة ومن البلاد واتجه الفلاحون نحو الضعف الاقتصادي وليس خلاف ذلك.

وعندما انهار النظام الياباني، كان لهذه التغييرات نتائج مهمة. وأراد الذين أبعدهم اليابانيون العودة إلى مراكزهم وأراد الذين وضعهم اليابانيون الحفاظ على مكاسبهم وعرفوا أنهم سيخسرون إذا عاد الهولنديون.

في ظل هذا الوضع، فإن العودة إلى وضع Statusque كانت مستحيلة عملياً. كان ذلك واقعاً لو كان أو لم يكن هناك حركة استقلالية قبل الحرب.

نهاية الحركة وحركة PEMUDA الشباب:

عندما استسلمت الإمبراطورية اليابانية، بدأ الحلفاء باحتلال جنوب شرق آسيا بشكل هزيل. وكان جيش الاحتلال الياباني لا يزال موجوداً لكن لم يكن اليابانيون متحمسين للقتال في معركة لا تخصهم. أعلن سوكارنو و Hatta، استقلال جمهورية أندونيسيا بدستور مكتوب وقاموا بتشكيل حكومة أندونيسية قبل عودة الهولنديين بقوة. وفي المراحل الأولى القصيرة، قامت الحكومة الجديدة بعملية اكتساح وأخذ سوكارنو بعض الوحدات من الجيش الذي نظمه اليابانيون لتشكيل قوة عسكرية أندونيسية وبدأ بقبول استسلام اليابانيين واستولى على أسلحتهم.

وفي أيلول ١٩٤٥، نزل البريطانيون الذين يشكلون القوة الحليفة الوحيدة القريبة في أندونيسيا لقبول استسلام الحامية اليابانية، عاملين نظرياً لصالح هولندا، وكانت حكومة هولندا قد أمضت الحرب في المنفى في بريطانيا، وكانت في سياق استعادة السيطرة على هولندا ومما يدعو للسخرية ضمت قوات الحلفاء الهنود الذين وجدوا أنفسهم يقاتلون الجمهورية الأندونيسية في الوقت الذي كانت بريطانيا تنظم انتقال السلطة في الهند.

لم تكن جمهورية أندونيسيا الواقعة تحت سيطرة الجيل القديم من الوطنيين المدنيين الذين يتفوق عليهم الحلفاء وكذلك الحركات الثورية الأندونيسية، وفي فترة ما بين أيلول ١٩٤٥ وصيف ١٩٤٦، وقعت جاوا وسومطرة في قتال متشابك بين مختلف الأطراف المتصارعة المنضوية معاً في حركة PEMUDA، وتعني PEMUDA

الشباب لكن لم تكن حركة شباب بالمعنى الغربي العادي، وتعتبر PEMUDA مرحلة في نمط حياة الشباب الجاوي تشتمل عل التثقيف والتطهر استعداداً لمرحلة النضوج. وفي هذا الوقت من الأزمة، انطلق النشطاء الشباب في اتجاهات متنوعة عوضاً عن الانسحاب وقاتلوا غالباً ضد الحلفاء الغزاة مع القوى التي تجمعها الجمهورية أو مرحلياً ضد اليابانيين الذين كانوا في حالة دفاع عن النفس.

كان مركز نشاط (PEMUDA) الشباب في جاوا وسومطرة. واندلعت أحياناً حرب أهلية بين قوات PEMUDA المتصارعة والتي كان منها المئات في أندونيسيا في حينه. ومن أشتيه شمال سومطرة، تحولت الحرب إلى هجوم قادة زعماء المتدينين المسلمين ضد العائلات الارستقراطية التافهة التي سيطرت رسمياً على المنطقة. وفي منطقة شرق سومطرة السكنية سميت الحركة ثورة اجتماعية وحالياً نوع من ثورة الفلاحين حيث هاجمت عصابات الرعاع تحت القيادة الشيوعية المحلية الأغنياء أو أياً كان يعيش على النمط الغربي. وفي أماكن أخرى، حاول الاوروآسيويون الوقوف إلى جانب الهولنديين في محاولة لاستعادة امتيازاتهم السابقة.

وفي منتصف ١٩٤٦، أُنشئ شكل حكومة في معظم المناطق وبدت الجمهورية مسيطرة. واستلم الهولنديون مكان حلفائهم الإنكليز محاولين إعادة بناء الوضع الاستعماري، أولاً عبر الدبلوماسية من خلال إثارة الجزر المحيطة ضد جاوا. وفي عام ١٩٤٧ عندما فشل هذا الجهد الدبلوماسي، اتجهوا نحو الهجوم العسكري الشامل على جاوا وانتصروا، وقاموا بأسر سوكارنو وحتتا ومعظم الجزيرة لكن الانتصار العسكري لم يكن كافياً. وفي النهاية، هزم الاستياء الشعبي في الحرب في هولندا، إضافة إلى الضغط الدولي للقوى العظمى البارزة، جهدهم في السيطرة بالرغم من الانتصار في المعركة. واعترفت هولندا باستقلال أندونيسيا في كانون الأول ١٩٤٤، وانهارت حكومات الدُمى التي أنشؤوها في جنوب سولاويسني Sulawesi وأجزاء من سومطرة سريعاً أمام الهجوم العسكري للجمهورية الأندونيسية.

وكانت النتيجة السياسية انتصاراً للقادة المدنيين العلمانيين الذين وجهوا الحركة القومية منذ عام ١٩٢٠، وأدى التغير المهم خلال ثماني سنوات إلى تصفية السياسات الوطنية والدينية ضمن جموع السكان الذين لم تمسهم سابقاً الحلول السياسية الكبرى. واعترف معظم الناس الآن أنهم أندونيسيون بالرغم من أن التغيير الحاصل رئيس في النظرة دون تبدل الفارق السياسي والاجتماعي الذي وجد طيلة الوقت. واستمر الصراع بين جاوا والجزر المحيطة وكذلك الصراعات العرقية. وأدى القتال في السنوات الثورية أحياناً من حدة الخلاف السياسي بين SANTRI وabangan في القرى الجاوية، وحصلت خلافات حادة حول مستقبل الدولة ظلت قائمة حتى عندما كانت الحرب ضد الهولنديين تتطور. وفي عام ١٩٤٨، قامت عناصر في حزب الأنديز وآخرون من الجناح اليساري للحركة الوطنية بالثورة ضد الجمهورية في Madium إلى الشرق من جاوا وعمدت الجمهورية إلى قمع الثورة بقوة السلاح.

السياسات الأندونيسية بعد الاستقلال:

بدأت أندونيسيا الحياة السياسية تحت حكم النخبة التي احترمت رغم ذلك الأشكال الديمقراطية. ولم تكن هناك انتخابات في البداية لكن قام القادة الجمهوريون عام ١٩٤٥ بتنظيم اللجنة الوطنية المركزية المبتدئة بشكل من المشاركة السياسية من ممثلي الزعماء. وكان الزعماء الرئيسون رباعياً مؤلفاً من سوكارنو وسلطان Sjharir ومحمد حتتا وأمير Sjarifuddin. وضمن هذا البرنامج، برزت وسقطت حكومات وحصلت تحالفات وألغيت لكن استمر شكل من الحياة السياسية البرلمانية.

في عام ١٩٥٥، كانت الانتخابات الأولى منافسة بين الأحزاب السياسية النشطة. وكانت هذه الأحزاب مختلفة عن النموذج الاعتيادي لمجال سياسي يتراوح بين الراديكالي والمحافظة أو من اليسار إلى اليمين، وكان هناك نوعان مختلفان من الأحزاب، الذين يهتمون بشكل رئيس بالقضايا الدينية والذين يهتمون أساساً

بالقضايا الاجتماعية والسياسية. وكان ممثلو الرأي العام الإسلامي مثل الذين انضموا إلى SAREKAT ISLAM منقسمين بين حزبين، وجاء أحدهم Majiumi ليمثل الأوساط الإسلامية المحافظة المجددة التي تنتمي إلى المحمدية. وكان الحزب الإسلامي الثاني والأكبر المعروف باسم نهضة الأمة التي ترجم حزب الأساتذة المسلمين. ووقف إلى جانب الأصولية الإسلامية بهدف تحويل أندونيسيا إلى دولة مسلمة، وكما يقترح الاسم كانت نواة الحركة طبقة العلماء ومثقفي القرى. وحصل الحزبان المسلمان الرئيسان على ٤٣ بالمئة من انتخابات ١٩٥٥، معطيان دليلاً كبيراً على أن الإسلام لا زال قوة سياسية مهمة.

في تلك الأثناء، انجذبت العقول الأكثر علمانية إلى أحزاب تمثل الحلول العلمانية لمشكلات أندونيسيا، الشيوعيون، الاشتراكيون ووطنيو سوكارنو، وحصلت الأحزاب العلمانية على أغلبية ضئيلة في انتخابات ١٩٥٥ مع التصويت الكبير للحزب الوطني الأنديزي وسوكارنو بالرغم من حصوله فقط على أقلية، وكان الدعم الرئيس لسوكارنو في جاوا مركز السلطة الهولندية ومركز الثورة.

وكان ظهور الحزب الشيوعي مفاجئاً وقد تمرد ضد الجمهورية عام ١٩٤٨ بعدها فقد الحزب الاحترام وأُعدم بعض قادته القدماء لكنه لم يقمع. وظل في البرلمان وحصل على ربع المقاعد في انتخابات عام ١٩٥٥.

السياسة والجيش:

وكان العسكر عاملاً سياسياً مهماً آخر في أندونيسيا كما في معظم الدول ما بعد الاستعمار، وبدأت معظم الأنظمة المستقلة بأي قوة دفاع أنشأتها السلطة المستعمرة، وللحفاظ على الأمن، جندت القوى الاستعمارية في قواتها أشخاصاً من الحاشية، وقد جند الهولنديون أشخاصاً AMBONESE ومن سكان الجزر الأخرى بدل الجاويين، غير أنه خلال الاحتلال الياباني فقد تجاهل الاحتلال هذه القوى وجندوا القوة العسكرية الجديدة من جاوا. وشكلت هذه القوة العصب الأساسي

للجيش الأندونيسي الجديد، لكن كان معظم الجيش الذي تشكل في أوائل الخمسينيات منظماً من شباب مرتبطين بحركة الشباب PEMUDA. وكانت النتيجة تبدو معاكسة للوضع المألوف للعسكريين المتخصصين الذين يدخلون السياسة، وكان العسكر الأندونيسيون مسيساً منذ البداية وكانت مصالحهم السياسية التي أوصلتهم إلى الجيش.

ونتيجة لذلك، كان الجيش قوة سياسية بطريقة خاصة. ففي منتصف الأربعينيات، كان في البداية حركة شباب يقودها رجال معظمهم تحت سنّ الثلاثين. وكانت القيادة الجمهورية بمجملها ومن ضمنها سوكارنو قادة الحزب الشيوعي ينتمون إلى جيل آخر كان بعضهم في الحياة السياسية منذ حركة Saukat Islam وخرج بعضهم من أوساط الطبقة المثقفة هولندياً وذات أصول مدنية، وعلى العكس، جاء العسكر بشكل رئيس من المدن الجاوية الصغيرة ولم يتعدَ معظمهم التعليم الثانوي ويعرفون قليلاً اللغة الهولندية. وعلى الصعيد الديني كان معظمهم مسلمين من جماعة Abangan وليس Santi.

وبينما كان معظم القتال في جاوا، كانوا جاويين وليس من الجزر المحيطة.

ديمقراطية موجهة

بدا التحرك نحو الديمقراطية وانتهى مع انتخابات ١٩٥٥، غير أن الصراعات البرلمانية استمرت لبضعة سنوات بموازاة نزاعات أخرى داخل الجيش المسيس. ولم تسيطر أي فئة على المجلس وكانت السيطرة المدنية عل الجيش الضعيف وكان لدى القائد الأعلى سيطرة ضعيفة على قادة المناطق.

وفي أواخر ١٩٥٦، استولى عدد من القادة المحليين في سومطرة وفي جنوب سولاويسي Sulawesi على الحكومة المحلية احتجاجاً على الهيمنة الجاوية، وقد تعمقت الأزمة عام ١٩٥٨ عندما اجتمع سومطرة الغربية، وتبع ذلك حرب أهلية

قصيرة وانتصرت الحكومة المركزية مع استمرار بعض نشاط حرب العصابات حتى أواخر ١٩٦١، وقادت هذه الأحداث إلى اضطهاد Majumi والاشتراكيين معاً.

وفي عام ١٩٥٩ ألغى سوكارنو الدستور وأنشأ نظاماً سمي، الديمقراطية الموجهة وحاول توحيد البلاد من خلال عقيدة جديدة سماها Masakom الوطنية المترابطة، الإسلام والشيوعية، وأصبحت السلطة السياسية الآن بيد حزب سوكارنو الوطني مع النفوذ الكبير للحزب الشيوعي. في الواقع كان تحالف حزبي ثلاثي من شركاء الفراش موحداً الحزبين الرئيسين السياسيين الاقتصادية بدعم من الجيش.

حاول سوكارنو تأسيس دعم لحكمة من خلال سياسة خارجية عدائية تشمل على تأميم كل الأملاك الهولندية وضم IRIAN الغربية (التي كانت تحت سيطرة الهولنديين) وقام بهجوم غير ناجح على الأراضي الماليزية في بورنامي ووقع تفاهماً مع جمهورية الصين الشعبية وانسحب من الأمم المتحدة. وقد شجع تحوّله نحو اليسار إلى تنامي الحزب الشيوعي بقيادة AIDIT.M.D لكن ذلك لم يوحد البلاد، وعمل على التحالف مع مجموعات أرستقراطية في الجزر المحيطة والجيش والعديد من أعضاء الخط القديم في الحزب الوطني الذين ظلوا يعتبرون الحزب الشيوعي متمردين رئيسين يمكن أن يستخدموا القوة للسيطرة كلياً على الحكم. إضافة إلى ذلك، كان سوكارنو قد بلغ سن الستين مما شكل أرضية للصراعات على السلطة في حال وفاته.

الانقلاب والانقلاب المضاد عام ١٩٦٥:

في نهاية عام ١٩٦٥، كانت مجموعتان متنافستان تستعد لصراع مسلح. وكانت مجموعة مناهضة للشيوعية بقيادة الجنرال ناسيوسيون وزير الحرب. وكان الحزب الشيوعي بقيادة AIDIT يستعد أيضاً لانقلاب مضاد معتمداً على الظروف. وقد ضرب الحزب الشيوعي أولاً وقتل ستة جنرالات معارضين وسيطر على جاكرتا ويوغيرتا لفترة قصيرة. بعدها رد الجيش الذي لم ينو حصول إبادة لكن حصل ذلك،

وبدأت المجزرة بهجوم مضاد للجيش على الحزب الشيوعي وأتباعه ثم انضم آخرون. وخلال حصول المجزرة التالية، انقلب غضب الناس ضد أي أعداء قدماء جاؤوا للمساعدة.

وكان السبب الرئيس لظهور العنف القناعة المتنامية في أوساط طبقة الضباط أنها تواجه خطر الموت إذا استولى الحزب الشيوعي على السلطة. وكانوا بالتأكيد يخافون على وظائفهم. وكانت التوترات الاجتماعية القديمة والشخصية والتي واكبت حركة الاستقلال واضحة في حرب العصابات التي توسعت، كان الجيش المحرك الرئيس، لكن كان لحزب نهضة الأمة الميليشيا التابعة له في جاوا وكان مسؤولاً عن العديد من عمليات القتل. وانضمت المحمدية من خلال فتوى تعد القضاء على الحزب الشيوعي واجباً دينياً: لذا كان من الصعب عزل العنصر الديني عن الأسباب الأخرى الممكنة.

أن تكون سانتري Santri على سبيل المثال، كان يعني دور الزعامات القروية وأن تكون Abangan لا يعد أنك ملحد فقط بل شيوعي.

وحصل الانقلاب الرئيس في ٣٠ أيلول عام ١٩٦٥، وبعد شهرين توفي عيديت وانتهت الثورة، لكن عمليات القتل الواسعة استمرت حتى كانون الثاني ١٩٦٦.

لكن تفاوت عدد القتلى بلغ مجموعه حوالي ٨٠٠ ألف في وسط وشرق جاوا وحوالي مئة ألف في بالي وسومطرة أو ما مجموعة مليون نسمة. وقد نتج عن الحملة العسكرية الناتجة اعتقال أكثر من مليون شخص في معسكرات اعتقال في الجزر المنتفضة. وكان حوالي المئة شخص لا يزالون في السجن حتى أواخر ١٩٩٥ بينما تم الإعلان رسمياً عن إطلاق سراح مليون ٣٥٣ ألف شخص عام ١٩٩٢، ولا زالت هناك أسئلة دون أجوبة حول دور الحكومة الأميرلية مع أنه كان واضحاً أن الدبلوماسيين الأميركيين في جاكرتا كانوا على اتصال مباشر مع قيادة الجيش الجديدة للجنرال وسوهارتو. وقالت بعض التقارير: إن لائحة بالأشخاص المطلوب قتلهم وضعت من قبل السفارة الأمريكية. وبالتأكيد، كانت الحكومة والصحافة

الأمريكية إلى جانب الانقلاب ولم تقدم الحكومة الأمريكية أيَّ احتجاج على عمليات القتل، في تلك الفترة، كانت أمريكا تحضر للتدخل العسكري في فيتنام.

كانت الحكومة الجديدة برئاسة سوهارتو ممثلاً للجيش خاصة الجيل الذي قاد حركة PEMUDA. وسمح سوهارتو لسوكارنو الاستمرار كرئيس شكلي مع الإقامة الجبرية. وفي ١٢ آذار ١٩٦٧، شعر الجيش القدرة على إقصائه كرئيس.

كان عمر سوهارتو ٤٨ سنة عند تسلمه السلطة، وكان في سن العشرين عند بداية الثورة، وحافظ على السلطة كقائد لطبقة عسكرية حتى ١٩٩٨ عندما أجبرته انتفاضة شعبية للاستقالة وخلال هذه العقود أدخل الجيش أسلوبه في الديمقراطية الموجهة التي سميت بالنظام الجديد، وقام الجيش بقمع الحزب الشيوعي وحركات سياسية أخرى لكن الحزب الوطني استمر بالعمل. وقد سمحت الحكومة الجديدة بانتخاب نواب بسلطات محددة. ومع أن الانتخابات كانت مسيطراً عليها كأسلوب مفيد لإبقاء الحكومة مطلعة ومعطية للشعب شعوراً بأن وجهات نظره مسموعة. وبالفعل شكل الجيش حزبه اللجنة المركزية للقوى العاملة المسمى Oolkar وقد أدت الإحباطات العديدة والضغوط إلى زعزعة استقرار أندونيسيا خلال القرن ولا زالت موجودة، لكن لثلاثة عقود أنتجت الطبقة الحاكمة الإصلاحية من الثوريين نظاماً ثابتاً نسبياً وفترة من النمو الاقتصادي الناجح.

وقد فشلت أندونيسيا في نواحي عديدة أخرى في تحقيق الآمال التي كانت تطمح إليها خلال عقود الاستقلال الأولى. وقد حققت نمواً اقتصادياً نسبياً، لكن المكاسب كانت مضطربة بشكل غير متكافئ، وقد كان سجلها حول حقوق الإنسان ملطخاً بالإبادة السياسية عام ١٩٦٠ وكان وعد الحكومة بتحقيق الديمقراطية ضمن برنامجها ولم يكن ذلك صحيحاً. وبسبب كل السجل الملطخ، أصبحت الأراضي التي جمعها الهولنديون تحت اسم الإنديز الهولندية، أندونيسيا وهي دولة قابلة للبقاء أكثر مما كان يتوقع العديد عام ١٩٤٥.

ردود الفعل العثمانية على الغرب

واجهت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية اليابانية التهديد الغربي في ظروف مختلفة كليا. وشكلت الإمبراطورية العثمانية أحد ثلاثة مراكز إسلامية جديدة في عصر الامبراطوريات. في العالم الإسلامي: امبراطورية المغول في الهند والصفوية في بلاد فارس. ومنذ القرن الرابع عشر، كانت الأقاليم العثمانية متاخمة لحدود أوروبا المسيحية، وواجه جنوب شرق أوروبا الخطر العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ففي عام ١٤٥٣ قضى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية على ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية، وأقام مكانها إمبراطورية إسلامية. وخلال القرن السادس عشر، أصبح الأتراك متساوين عسكرياً مع أي قوة غربية متفوقة. وعلى الساحة العالمية، شكلت الإمبراطورية العثمانية إحدى أبرز الامبراطوريات في صناعة المدافع.

وفي القرن السابع عشر وبعده، تحول ميزان القوى العسكري لصالح الغرب، ولم يدرك العثمانيون، وكذلك اليابانيون حجم القوة المتنامية في أوروبا مع أن علاماتها كانت أوضح مما كانت عليه قبل الثورة الصناعية الكاملة في القرن التاسع عشر. وبالرغم من أن القيادة العثمانية كانت مطلعة بشكل جيد على الوضع الأوروبي، فقد قادتها الشوفونية الثقافية المشتركة السائدة في العالم الإسلامي آنذاك إلى التغاضي عن التهديد الأوروبي. لكنّ أقلية مميزة أدركت هذا الخطر عام ١٧٩٠ وسبقت اليابانيين بنصف قرن حيث لم يدركه هؤلاء حتى عام ١٨٤٠.

المجتمع العثماني والثقافة:

كانت الإمبراطوريتان العثمانية واليابانية متشابهتين في تجنبهما للغزو الأوروبي، لكن أساليب الرد اختلفت. وكان الرد الفعال يتطلب أكثر من أسلحة متطورة في كلتا الحالتين، بل يحتاج إلى إعادة بناء نظام اجتماعي وسياسي قادر على تنظيم وتجهيز قوة عسكرية تستطيع استخدام أسلحة متطورة بفعالية. وقد فشلت معظم

المجتمعات غير الغربية الأخرى في إجراء هذا التعديل وخضعت بالتالي للحكم الأوروبي لفترة.

وكانت المؤسسات التي نظمت وحمت أساليب الحياة اليابانية، والعثمانية مختلفة تماماً. وكان للدين أهمية أكبر لدى العثمانيين منه لدى اليابانيين أو أوروبا الغربية. ففي أوروبا كان هناك خلاف بين الإمبراطورية الرومانية، والباباوية طيلة القرون الوسطى وكان هذا الصراع قائماً في أماكن أخرى.

وقد فرض المبدأ المسيحي «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، قيام الدولة والكنيسة بوظائف متنوعة. أما بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، فقد كان للشريعة عموماً أساس ديني وليس علمانياً ولم تفرق بين الكنيسة والدولة. واعتبر السلطان الحاكم الشرعي كونه يحمي العقيدة الصحيحة وقوانينها. وقد تشاجرت السلطات العلمانية والدينية كما حصل في المجتمعات الأخرى لكن لم يحصل تمييز نظري بين ماهو للسلطان وما هو لله.

أضف إلى ذلك، أنه لم يكن لدى المجتمع العثماني موقف منظم، مساوٍ للكنيسة الأوروبية التي تستطيع التحدث عن المصالح الدينية. كان لديه عوضاً عن ذلك، طبقة من المفكرين الإسلاميين والعلماء الذين ترتكز سلطتهم على التعليم وليس العمل ضمن النظام الوظيفي أو المعين من قبل السلطة الدينية العليا. وقد تنوع وضع العلماء في العالم الإسلامي، فكان أضعف من الكنيسة في بعض الدول وأقوى منها في بعضها الآخر.

وقد أعطت الدولة العثمانية دوراً مؤسساتياً للدين أكثر مما هو عليه في دول إسلامية أخرى. وتربع السلطان على رأس سلطتين إداريتين، واحدة علمانية وأخرى دينية، لكل منهما طاقم منفصل من الموظفين. وفي المراحل الأولى للإمبراطورية تسلمت طبقة من الموظفين التابعين عمل الحكومة العلمانية، وكانت تأتمر بأمر السلطان متحررة من الروابط العائلية وروابط المجتمع الذي تسيطر عليه.

وبالرغم من ذلك كانت السلطة القضائية بيد القضاة الذين درسوا وفق الشريعة الإسلامية وكانوا من طبقة العلماء. وكان لهذه السلطة القضائية المستقلة- الموظفون الدينيون- قيادتها الممثلة بالمفتي أو شيخ الإسلام الذي يُعد السلطة الدينية العليا التي تعطي الإذن بعزل السلطان مرة تلو الأخرى وفق الشريعة.

بهذا المعنى، كان لدى العثمانيين موظفون من رجال الدين، لا أكليروس بالمعنى المسيحي. وبالرغم من ذلك، كانت هناك مجموعة من الرجال تتمتع بسلطة دينية، وقانونية منبثقة عن دور السلطان الثنائي كحاكم وخليفة للمسلمين بعد محمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا كانت للعلماء العثمانيين سلطة رسمية وشرعية أكثر مما لنظرائهم في ممالك إسلامية أخرى.

وكأي نظام سياسي، ابتعد العثمانيون مع الوقت عن البساطة السائدة سابقاً. ومع اتساع المناطق التي يسيطرون عليها، ضعفت الروابط مع المقاطعات البعيدة التي اتجهت نحو الحكم الذاتي. ولم تكن منطقة الجزائر خاضعة عن قرب لسلطة الدولة العثمانية في اسطنبول، ولم يكن لدى الداي سوى سلطة متقلبة وغير ثابتة على بلاده.

وقد خضع الحكام الأقرب للدولة الأم لمراقبة أكبر، لكن سلطة السلطان الفعلية أو البيروقراطية المركزية المخولة إصدار الأوامر، وفرضها كانت محدودة كما يحصل في معظم الدول النامية.

لعب العسكر دوراً مميزاً كما في أي مكان آخر لأنه كان مستقلاً. وشكلت الانكشارية الوحدات الأكثر أهمية، للجنود العبيد الذين كانوا عصب الجيش. وكان يجري تجميع هؤلاء الأطفال من خلال شرائهم أو من الفرنجة التابعين للإمبراطورية أو خارجها ويتم ضمُّهم إلى قوى النخبة العسكرية. وكغيرها من القوى العسكرية الأخرى، فإنها كانت قادرة على التأثير في مسار سياسة الدولة وفي بعض الأحيان إصدار الأحكام وإلغاؤها.

وكان هناك مركز مهم للسلطة يتخطى سيطرة السلطان يسمى الأعيان وهو مجموعة تضم زعماء المحافظات وكبار الأعيان وأصحاب الإقطاعيات وجباة الضرائب الذين لديهم قوة كافية لإنشاء إقطاعيات محلية. وكان لدى العلماء والعسكريين سلطات من مصادر مستقلة عن السلطان.

ولا يطيع هؤلاء الأوامر دائماً ومن الصعب إقصاؤهم عن مراكزهم. وحتى البيروقراطية المركزية من الإداريين المملوكين من السلطان والذي يمكنه تعيينهم أو عزلهم حسب رغبته لديهم بيروقراطية غير فاعلة.

وشكلت مشكلة القوميات المصدر الآخر لضعف الدولة وأصبحت شديدة الأهمية مع مرور الزمن. وتعد كل الدول الكبرى متعددة القوميات إلى حد ما، لكن الإمبراطورية العثمانية كانت أكثر تنوعاً من معظمها. ففي القرنين السابع والثامن عشر كانت الدولة العثمانية وطنية أكثر منها متعددة القوميات. وبالطبع، فقد كانت تركيا، بمعنى أن المسلمين الأتراك يسيطرون على السلطة السياسية، واللغة التركية هي لغة التعليم والإدارة لكن معظم أتباع العثمانيين لا يجيدون التركية كإجادتهم للغاتهم. ولم يعتبر الذين لا يجيدون اللغة التركية أنفسهم أتراكاً، وكانت ميزتهم الرئيسة في تحديد هويتهم جماعتهم المحلية من مزارعين وبدو وسكان مدن أو الإسلام كرابطة أخوية كبرى من المؤمنين.

وفي القرن الثامن عشر، كانت نظرة العالم للطبقات العثمانية الحاكمة سلطةً ينظر إليها من المنطقة المحيطة باسطنبول، وشكلت استنبول، وما حولها قلب الإمبراطورية على الجهة الغربية من المضائق وليس الأناضول إلى الشرق.

وبنظرهم كان العثمانيون المسلمون يهتمون بالشؤون الدولية وهم من أتباع السلطان بينما ظل المسلمون السُّنة من غير الأتباع معتبرين جزءاً من المجموعة إخوةً في الدين وحتى موالين.

ويأتي في أسفل السلم الأتباع غير المؤمنين وهم يشكلون جزءاً كبيراً من سكان الإمبراطورية وتتضمن هذه المجموعة المسيحيين الأرض المتمركزين في شرق

الأناضول، والمسيحيين اليونان في البلقان، وبعض المسيحيين الكاثوليك، وجماعة اليهود الموزعة في أنحاء الإمبراطورية. وكانت كل هذه الأقليات الدينية عبارة عن ملل معترف بها من الدولة، ومُصرَّح لها بممارسة ديانتها مقابل ضريبة أعلى وإجراءات أخرى لا يخضع لها المسلمون. وكان أسقف القسطنطينية رأس الكنيسة اليونانية الأروثوذكسية، وظل المركز الإداري للمسيحية الأرثوذكسية في اسطنبول حتى يومنا هذا.

وفي أسفل السلم، كان أولئك الذين هم خارج الإمبراطورية وخارج المألوف الديني. وتتضمن هذه المجموعة جيراناً كالمسيحيين الأورثوذكس إلى الشمال والمسيحيين إلى الغرب، لكن كان هناك أيضاً المسلمون الآخرون إلى الغرب، كان هناك أيضاً المسلمون الشيعة في بلاد فارس وهم أعلى درجة قليلاً.

التهديد الغربي:

منذ القرن الخامس عشر وبعده، واجه العثمانيون مسيحيي شبه جزيرة البلقان عبر حدود عسكرية متنازع عليها بشكل دائم، وشكلت منطقة المتوسط نقطة النزاع الأخرى بالنسبة للسيطرة البحرية. وكان القرن السادس عشر عصر التفوق العثماني بينما شكل القرن السابع عشر فترة هدوء على جبهة البلقان مع بعض التراجع أمام القوى المسيحية هناك وفي المتوسط. وقد تراجع العثمانيون أكثر في القرن الثامن عشر، لكن لم تتعرض سيادة الإمبراطورية العثمانية للتهديد بشكل رئيس حتى نهاية القرن.

وباستثناء بعض المعارك المتفرقة خلال هذه الفترة، فإن التبادل الثقافي بين العثمانيين، والغرب تراوح بين التسامح الحذر والاحتقار.

وكانت عند المسيحيين حالة طويلة من الكراهية للوباء الإسلامي تعود بدايتها إلى فجر الإسلام واشتدت مع الصليبيين. لقد كان العثمانيون أكثر تسامحاً فيما يتعلق

بالاختلاف الديني، لكن نظام الملة وامتزج بين التسامح ومحاولة وضع الأقليات المسيحية واليهودية في مجتمعات مغلقة.

وعلى الرغم من ذلك كانت الحدود المسيحية- العثمانية تشكل حدوداً عسكرية، حيث كان كلا الطرفين في حالة ترقب. انتظاراً لعدوّه. وقام كل طرف بنسخ ما هو ثمين عند الآخر؛ لكن الاقتباس كان محدوداً ومتصلاً بالتقنيات العسكرية وحسب. وقد أدى التشدد العثماني إلى بقاء العثمانيين متخلفين عن الغرب في مجالات أخرى. فعلى سبيل المثال، ظلت الطباعة محرمة على العثمانيين، (عرب وأتراك) حتى القرن الثامن عشر خوفاً من تدنيس الكتابات المقدسة مع أنه كان مصرحاً لغير المسلمين بالطباعة بالعبرية واليونانية أو اللغات الأوروبية الأخرى. وحتى بعد السماح بذلك، لم تكن الطباعة التركية منتشرة حتى القرن التاسع عشر. بدأت التكنولوجيا العثمانية تتراجع وتسقط خلف القدرة الاقتصادية الأوروبية ثم تحول نحو الثورة الصناعية، في منتصف القرن الثامن عشر، أصبحت هذه التحولات واضحةً في القوة العسكرية نسبياً خاصة على جبهة البلقان حيث قام النمساويون وغيرهم باستعادة بعض المناطق المسيحية المحتلة منذ قرن؛ لذا شعر العثمانيون بالخطر عندما بدؤوا يفقدون مناطق يقطنها المسلمون. ففي عام ١٧٦٠ تقدم الروس من الشمال نزولاً نحو البحر الأسود وضموا بلاد القرم حيث كان حكام التتار المسلمين نظرياً تحت سيادة اسطنبول. وفي عام ١٧٩٨، غزت الجيوش الفرنسية مصر ثم حاربت في العالم التالي الجيوش العثمانية في سورية، وقد أنقذ تدخل البحرية البريطانية العثمانيين من خسارة كبرى لبعض المقاطعات العربية.

في هذا الوقت، بدأ العثمانيون بالرد. وقد اعترف السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) بالرغم من كونه متشدداً بتنامي التفوق العسكري الأوروبي. ووجد مع مستشاريه، أن هناك حاجة لإصلاح عسكري راديكالي مدعوم بإصلاح اقتصادي ومالي. وفي عام ١٧٩٢-١٧٩٣ أصدر مجموعة من المراسيم سميت كلها بالنظام الجديد وركزت هذه المراسيم على أولوية التحقق من القوة العسكرية للغرب وليس كما فعل بطرس الأكبر في القرن السابق.

واشتمل البرنامج العسكري المركزي للنظام الجديد على إنشاء فرقة مشاة نظامية جديدة، مدربة وفق الأساليب الغربية ومنفصلة عن أسلوب الانكشارية القديم. وتضمن أيضاً كليات عسكرية وبحرية جديدة يشرف عليها مستشارون فرنسيون، وجرى إصلاح راديكالي للنظام الضريبي وعمل السلطان على تشكيل حكومة أكثر فاعلية قادرة على دفع تكاليف التحديث العسكري. وكانت لهذا الجهد نتيجتان مهمتان دفعتا إلى جهود غير غربية لاحقة لتموين القوة العسكرية. أولاً: أوصلت إلى السلطة آلياً مجموعة جديدة للاهتمام بالشؤون العثمانية. وكان هناك الضباط العسكريون الجدد، الذين (نتيجة لتدريباتهم المكتسبة وبعضها في الغرب)، قاموا باقتباس التقنيات العسكرية الغربية إضافة إلى تعلم العلوم الغربية والتكنولوجيا العسكرية. وقد أعجب هؤلاء بالأمور الأخرى التي شاهدوها في الغرب. وقد أصبح الجهاز العسكري الحديث عنصراً علمانياً ومتغرباً في المجتمع العثماني كما كان المجددون العسكريون في اليابان عصب حركة التحديث في المجتمع.

والنتيجة الثانية والمعاكسة: أنّ النظام الجديد اعتُبر تهديداً للنظام القديم. وكانت الحكومة تحتاج لزيادة الضرائب مستعدية القادرين على الدفع.

وقد شكلت الإصلاحات الضريبية أيضاً تهديداً للأعيان وجُباة الضرائب إضافةً إلى الضغط المتزايد للحكومة المركزية. والأكثر أهمية أيضاً، أن النظام الجديد شكل تهديداً للسيطرة العسكرية لضباط الانكشارية، واستعدى مجموعة أخرى مهمة. وأخيراً اعتبرت الإصلاحات العسكرية اقتباساً من البرابرة غير المؤمنين يمكن أن يهدد الإسلام نفسه، إلى درجة استعدائه عناصر مهمة في صفوف العلماء.

وقد أعادت الأزمة إنتاج عناصر من صراع بطرس الأكبر في تحديث الجيش الروسي أو جهود النخبة المسيحية لتحديث اليابان، لكن المجددين فشلوا هذه المرة.

ووحد المتشددون قواهم عام ١٨٠٧ وأسقطوا سليم الثالث، منهين بشكل مؤقت الإصلاح العسكري أو أي تجديد فاعل.

مشكلة القوميات:

مع مرور الوقت: خاضت الملل (القوميات) تجربة الإحساس بالثورة من أجل الهوية الخاصة. بدءاً باليونانيين، بدأ أتباع الدولة العثمانية التفكير بأنفسهم ككيانات قومية، ويعود هذا التحول إلى ضعف الروابط والموقع والقرب من العالم الصناعي في القرن التاسع عشر. لكن فكرة الانتماء إلى أمة انتشرت أيضاً في الغرب، خاصة في فرنسا إبان الثورة الفرنسية، ومعها فكرة حق الشعوب بحكم ذاتي بسبب الانتماء القومي المشترك.

وسوف يعود التأثير القومي للظهور لاحقاً في هذه المقالات. لكن يجب الإشارة إلى اثنين من تشكيلاته المتعددة ضمن السياق العثماني. عموماً، وصلت الشعوب التي عاشت في ظل دولة واحدة لعدة قرون إلى تجربة مشتركة من الإحساس بالتضامن. وقد أعطيت تسمية الدولة -الأمة، أو القومية في بعض الأحيان، لأن الدولة جاءت أولاً ثم أنشئت الأمة بعد فترة من الزمن. وتعد بريطانيا وفرنسا مثالاً على ذلك. وقد خاضت الشعوب التي تتمتع بلغة وتاريخ مشترك تجربة الأمة في وقت لاحق في القرن التاسع عشر. وقد حول بعضهم هذه التجربة إلى حركة سياسية مطالبة بالاستقلال، وبحكومة ذات سيادة حسب هويتهم القومية. وفي هذا السياق جاء الحسّ القومي في الطليعة وتلته المطالبة بذاتية ينتج عنها نوع الدولة الأمة لكل قومية. وشكلت ألمانيا وإيطاليا الأمثلة الأولى في هذا المجال.

وقد ظهرت علاماتٌ قليلةٌ في الدولة العثمانية لتنمية عنصر الولاء للدولة- الأمة لدى أتباعها، لكنها فشلت كقوة محركة على المدى الطويل، وأصبحت فكرة القومية المجزأة التي سادت مدمرة بشكل واسع لمفهوم وبنية الدولة العثمانية. ولم تشدد الدولة التي تأسست قبل كل شيء على الدين، والشريعة على إخضاع أتباعها للدين المهيمن. وكان نظام الملة يهدف إلى حماية الإسلام عبر عزل المجموعات الدينية المتمردة. لكن ذلك أعطى هذه المجموعات تجربة مشتركة تفكر كقوميات. ونتيجةً

لذلك نشأ تمرد في صفوف المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني، وفي بعض النقاط القريبة من المركز. وتمرد الصرب قبل خلع السلطان سليم الثالث، وتلاهم اليونانيون بعد انتهاء حروب نابوليون، وأجبروا الحكم العثماني على القبول باستقلال اليونان تحت ضغط القوى الأوروبية. واكتشف البلغار أنهم يشكلون أمة أيضاً، وكذلك الأرمن في شرق الأناضول.

ومع الوقت، اكتشف العرب المسلمون أيضاً هويتهم القومية، لم تشكل القومية في صفوف الشعوب التابعة العلامة الوحيدة للتفكك. فقد انفصلت مصر عام ١٨٠٥، واستقلت فعلياً. وفي عام ١٨٣٠، بدأت فرنسا بغزو الجزائر، واستمر الروس بالهجوم من الشمال في سلسلة حروب احتدمت في بلاد القرم حيث انضمت إليها فرنسا وبريطانيا للدفاع عنها. وقد اجتمعت القوى الغربية أيضاً على ضم أجزاء من تركيا في وقت ما كما حصل عام ١٨٧٨ عندما استولت بريطانيا على قبرص وحصلت فرنسا على الموافقة بغزو تونس، وأخذت روسيا مقاطعات الشمال كتعويض.

وخلافاً للثقافة التركية الأساسية للدولة العثمانية، كانت شعوب الملل المسيحية، أو اليهودية الأكثر تغرباً، وكانوا أول من تلقف الغريب لأهداف خاصة، وليس كفكرة قومية بالرغم من أهميتها، وقاموا بالدعوة للقيم الغربية وطلبوا مساعدة الغرب في ثورتهم. وبدا الغرب كحليف لهم ضد حكامهم العثمانيين، وشكلت الدعوة إلى ديانة مشتركة مصدراً فاعلاً للتعاطف في أوروبا الغربية. وبالفعل، جاءت الديانات المسيحية واليهودية إلى أوروبا في الشرق الأوسط، وتمركزت هناك ونظر الأوروبيون إلى ما تبقى من ممارسين لعقيدتهم في الشرق الأوسط كأنفسهم. وتطلع مسيحيو البلقان أيضاً نحو الغرب طلباً للمساعدة؛ لأن تيار التجديد في النموذج الأوروبي الغربي كان قوياً بين الملل أكثر منه في القطاعات الرئيسة في المجتمع العثماني.

شكل التحديث المؤثر صعوبة بالنسبة للدولة العثماني وحكامها. وكانوا كأمثالهم في اليابان حساسين لحقيقة أن تخلفهم الواضح أدى إلى احتقار الغرب لهم. لكن

الإسلام كان عصب هويتهم الدينية والثقافية وكان للدين موقع السلطة بالنسبة للمجتمع العثماني. واحتاجت الإصلاحات الجذرية التي فرضت في اليابان من قبل نخب MEIJI إلى تحولات ثورية أكثر تعقيداً في المجتمع العثماني وكانت بطيئة. ومع ذلك، حصلت تحولات راديكالية قليلة كانت كافية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية من التجزئة بين القوى الأوروبية مؤقتاً. وكانت الإصلاحات العسكرية في مقدمتها. ففي عام ١٨٢٦ تزعم السلطان الثاني ثورة الانكشارية ثم حوّل قوته المدفعية الجديدة ضدهم.

وقد تبع القضاء على القوى الرئيسة للحرس القديم إلغاء الانكشارية في جميع أنحاء الإمبراطورية واستبدلوا بقوة عسكرية على النمط الأوروبي. واستتبع ذلك وصول ضباط يتمتعون بثقافة غربية إلى مراكز جديدة في السلطة، وقد ساعد هؤلاء الضباط المدربون في الغرب على إفساح المجال أمام بعض النخب للانخراط في العلوم والثقافة الغربية. وقد سافر العديد من الشباب إلى أوروبا الغربية لتلقي العلم، خاصة إلى باريس وإلى المدارس التي أُنشئت على النمط الفرنسي في الإمبراطورية العثمانية. وكانت التغييرات التعليمية تدريجية. لكن كان لها أثر متنام على مجمل الطبقة الحاكمة من ١٧٩٠ وحتى بداية ١٩٠٠، وفي النهاية كان لهذه التغييرات التأثير الأقوى على الإطلاق.

وقد شهد تحديث الحكم تطوراً مميزاً منذ أواسط القرن التاسع عشر، وكما حصل في اليابان في المدة نفسها، كانت مشكلات اتخاذ القرار السياسي مرتبطةً بمشكلات الإدارة مع اختلافات مهمة. ولمواجهة التهديد الغربي، تعرضت كل البنية الإدارية لإعادة بناء من أعلى الهرم إلى أسفله وفق النموذج الغربي. لكن هذه التغيرات نفسها أحدثت مشكلة جديدة. فقد فسحت المجال للسلطان، ومحيطه لاستخدام المركزية الجديدة للسلطة لمصلحته الخاصة. واتهمت المعارضة المحكمة بالاستبداد لسبب ما. وقد تجاوزت الحكومة المركزية السلطات التقليدية المحلية للأعيان وحددت الامتيازات الخاصة بالملك، وبالرغم من أن السلطة الجديدة للدولة

كانت ضرورية للدفاع الذاتي، فقد ظلت مشكلة السيطرة على السلطة المركزية دون حل. وكما حصل في اليابان، كان لدى الحكومة العثمانية خيار وحيد لحل هذه المشكلة يتمثل بتحويل الملكية إلى ملكية دستورية. ففي عام ١٨٧٦ وضع دستور فعلي، لكن السلطان ألغاه بعد سنتين من تطبيقه بشكل متقطع ولم يكن لإلغائه أي نتائج تطبيقية بشكل متقطع، ولم يكن لإلغائه أي نتائج سياسية خطيرة. في الواقع حصل قليل من الدعم من خارج البيروقراطية نفسها وفي صفوف عدد قليل من الإصلاحيين.

وكانت البلاد محافظة بشكل واسع، وخاضعة لسيطرة العلماء والعادات الإسلامية. وقد أعاد الإصلاحيون توجيه معظم الإدارة الحكومية لكنهم لم يتجرؤوا على القيام بإصلاح ديني وفشلوا في محاولتهم إقامة ملكية دستورية في مجتمع إسلامي محافظ.

الشباب الأتراك والثورة الفاشلة:

في الثلاثة عقود الأولى بعد قمع الدستور من ١٨٧٨-١٩٠٨ حكم السلطان من خلال وزارات معينة. لم يكن عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩ رجلاً تقليدياً عن قناعة، وقد حاول إنقاذ الدولة العثمانية بقدر المستطاع ورأى واجبه قمع المتجددين والقوميين المتمردين، لكن التحديث التدريجي حصل مع ذلك. وتطلب التهديد الروسي والقوميون البلقان بيروقراطية فاعلة وجيشاً مؤلفاً من ضباط ذات ثقافة غربية.

وكان رجال هذا الجيل الجديد نواة الحركة الثورية. وقد أعطوا لأنفسهم اسم الشباب الأتراك، وكان لهذا الاسم صدى مشترك في آسيا الوسطى والغربية على الصعيد القومي. ولكن ذلك لم يشكل ثورة من القاعدة. فقد كان الشباب الأتراك من أعلى صفوف المجتمع العثماني، وخاصة من العناصر الشابة في القطاع العسكري. ولم يكونوا ثوريين بمعنى الانقلاب على المجتمع العثماني كما حصل راديكالياً مع طبقة Meiji في اليابان في عقود سابقة. وهدفت ثورتهم أن تكون محافظة فعلياً من خلال تحديث قابل للدفاع عنه بقوة لاعتقادهم بأن استبداد السلطان دمر البلاد.

وفي عام ١٩٠٨، اتخذت ثورة جماعة تركيا الفتاة شكل انقلاب عسكري دون مساندة شعبية قوية، وكان الجيش في الواقع السلطة الفعلية الوحيدة لمواجهة السلطان.

ولدى وصولهم إلى السلطان أعاد الشباب الأتراك دستور ١٨٧٦، الذي لم يكن ليبرالياً بشكل خاص في نصوصه الحالية. وبالفعل، شكلوا طبقة تحكم من خلال السلطان الذي بقي في الحكم حتى هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا.

كانت تجربة الشباب الأتراك خلال عشر سنوات حكمهم مختلفة بشكل كبير عن تجربة الطبقة اليابانية الحاكمة في العقود السابقة. وقد انبثقت التجربتان من قمة القيادة العسكرية للبلاد. وأراد الطرفان التحديث للحفاظ على المجتمع الذي عرفوه. وقد أسست الطبقة اليابانية الحاكمة يابان عصرية. وقاد الشباب الأتراك الإمبراطورية العثمانية إلى هزيمة عسكرية دمرتها بشكل فعلي.

وهنا «تفسير واضح للاختلاف يتمثل باختيار الإمبراطورية العثمانية للجانب الخطأ في حرب أوروبية مهمة، بينما تجنبت اليابان خوض أي حرب ضد قوة غربية حتى أصبحت قوية بشكل كاف لكسب الحرب ضد روسيا عام ١٩٠٥ لكن بمعزل عن الأخطاء الواضحة بعد حدوثها، كانت لدى الإمبراطورية العثمانية مشكلات خاصة. كانت إمبراطورية مسلمة تحكم العديد من غير المسلمين. ولم يكن لدى الإصلاحيين MEIJI في اليابان مشكلة قوميات لمعالجتها. وكان المسار البديل للشباب الأتراك يهدف إلى بعض التحديث، لكنه توقف عند الإجراءات الناقصة التي يمكنها تغيير الطابع الإسلامي الأساسي للدولة. وأثار القيام بذلك إلى تمرد لدى الملل المسيحية التي كانت نفسها متغربة. ومن خلال خيارهم المنطقي، قام الشباب الأتراك على سياسات أسلافهم. وعمدوا إلى قمع معارضة الملل، وحاولوا قمع الثورات القومية التي أدت إلى حربين في البلقان أدت إلى تأزيم العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا وقادتهم إلى دخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.

وانتهت الحرب بهزيمة، حددت أي توجه للحكومة العثمانية في ذلك الوقت للتصرف بحكمة أكثر. وقد بدأت الحرب في البلقان، في المقاطعات العثمانية السابقة، وكانت أسبابها تتعلق بمشكلات الأقليات القومية، واللغوية التي فشل العثمانيون في حلها. ومن الواضح أن الذين خلفوهم في البلقان الإمبراطورية النمساوية الهنغارية أولاً وبعدها الجمهورية اليوغسلافية والدول الأخرى، فشلوا أيضاً في حل هذه المشكلات.

الحالة السياسية بعد خسارة الحرب:

بعد عام ١٩١٨، اعتمدت خيارات التخلص من بقايا الإمبراطورية العثمانية على الحالة الدبلوماسية والعسكرية في ذلك الوقت، ففي صيف ١٩١٨،خسر الألمان الحرب في أوروبا الغربية وكانت هزيمة العثمانيين في الشرق الأوسط واضحة، وقد انسلخت عنها المقاطعات العربية مع تقدم الجيوش الحليفة في البلقان وفي المشرق. وقد فرّت الحكومة التركية في تشرين الثاني إلى المنفى ووقّع السلطان على وثيقة استسلام قبل أيام من استسلام ألمانيا.

وقد وصلت البحرية البريطانية إلى البوسفور مقابل مدينة استنبول.

وخلال الحرب، وضع الحلفاء خططاً متنوعة لتقسيم تركيا، خططاً مثلتها ضرورات المرحلة، وقد وعدت إحدى هذه الخطط منطقة واسعة في الأراضي العثمانية لروسيا التي كانت مستمرة في الحرب، لكنهم لم تكن لديهم النية بالحفاظ على وعودهم بعد نجاح الثورة الفرنسية. وقدموا وعوداً أخرى لليونان، وإيطاليا فيما يتعلق بأجزاء في الأناضول، ووعود متناقضة في المشرق للعرب واليهود الصهاينة. وكان هناك تفكير مسيطر وراء العهود المحددة من قبل الطبقة السياسية في بريطانيا، وفرنسا وإيطاليا يتمثل بعدم اعتبار تركيا دولة مهزومة وعدو حضاري مثل ألمانيا، بل كدولة يجب أن تعامل كما عوملت ممالك أخرى غير غربية خلال العهود الإمبريالية الكبرى، وكانت غايتهم تجزئة الإمبراطورية العثمانية وتقسيم الباقي إلى

مناطق نفوذ مما أعطى فرنسا وبريطانيا وإيطاليا على التوالي سلطات واسعة في الإمبراطورية العثمانية السابقة على ما تبقى في الدولة العثمانية شبه المستقلة وحتى كان عام حديث جدي حول وضع وصاية أمريكية على ما تبقى في تركيا لفترة انتقالية لحين تكون جاهزة لحكم نفسها، وذلك بتفويض من عصبة الأمم، وعندما وقّعت الحكومة العثمانية الاستسلام، كانت معظم الأراضي الخاضعة لها غير محتلة من جيوش الحلفاء. ولم يكن ممكناً تجزئة تركيا دون قتال دون إذعانها. ففي أيار ١٩١٩، بدأ الحلفاء بغزو الأناضول مع نزول القوات اليونانية بحماية البحرية البريطانية والفرنسية والأمريكية. وكانت نية اليونانيين جعل ذلك بداية لإقامة إمبراطورية يونانية جديدة تعمل على احتلال ضفتي بحر إيجه كشكل من أشكال إحياء الإمبراطورية البيزنطية مكان الإمبراطورية العثمانية.

وبالرغم من خسارة الحرب وتوقيع الاستسلام، أثارت هذه الإجراءات مقاومة جديدة، ليس من جانب الحكومة العثمانية بل في رابطة غير رسمية للدفاع مستمدة سلطتها الأساسية من الباب العالي ومستقلة فعلياً عن السلطان العثماني في اسطنبول، كما نظم شارل ديغول حركة مقاومة في الحرب العالمية الثانية مستقلة عن الحكومة الفرنسية التي استسلمت.

وفي عام ١٩١٩ حتى ١٩٢٢، قاتلت الحكومة الجديدة من خلال قيادتها الجديدة في أنقرة الغزو اليوناني من جهة، والسلطان والعناصر المستسلمة من جهة أخرى.

وفي عام ١٩٢٣، حصلت هذه الحكومة على تسوية جديدة من الحلفاء الغربيين، معاهدة لوزان، كبديل عن اتفاق السلام الموقع مع السلام والذي لم يستطع الحلفاء تطبيقه.

من حيث الجوهر، أعطت معاهدة لوزان حكومة أنقرة حدود تركيا الحديثة وألغت الشروط التي تضع تركيا تحت السيطرة غير الرسمية للدولة الأجنبية. وقد شكل ذلك إنجازاً مهماً لشعب مهزوم لدولة اعتبرها الأوروبيون الغربيون متخلفة إلى درجة

طلب رعاية غربية حتى تصبح قادرة على حكم نفسها. وكان مصطفى كمال المهندس العسكري للانتصار والذي سمى نفسه بعد ذلك أتاتورك، وهو رجل يتمتع بخبرة عسكرية كبيرة. وقد أعطته انتصاراته مع أعوانه منزلة مرموقة ساعدته على تمرير قرارات حول المسار المستقبلي للتاريخ التركي، نوعاً من الخيارات التي أعطت للمجددين العثمانيين في القرن التاسع عشر حرية تحرك بخلاف ما تمتعت به سلطة MEIJI عام ١٨٧٠.

في عام ١٩٢٤ أعلن مصطفى كمال دستور الجمهورية التركية وأسس بموجبه حزب الشعب الجمهورية الذي حكم تركيا كحزب الدولة الوحيد من عام ١٩٢٤ إلى ١٩٤٥. وحتى بعد خسارته لوضع الحزب الوحيد، بقي في السلطة حتى عام ١٩٥٠ رغم وفاة مصطفى عام ١٩٣٨. وجعل ثبات السلطة من الممكن للنظام الجديد إقامة مسار جديد للبلاد مثلما فعل قادة MEIJI الأصليين والذي لم يتغير حتى بعد رحيلهم عن السلطة.

مشكلة الهوية:

واجهت القادة الجدد للجمهورية التركية خيارات متنوعة، وكانت إحدى المشكلات الأولى إيجاد هوية قومية قابلة للنجاح، وتعد الجمهورية التركية بشكل واسع نتيجةً لقرارات مصطفى كمال وأعوانه يمكن تجنبها لكنها كانت حاضرة. ويتمثل الخيار الأول بإعادة صياغة فكرة الإمبراطورية العثمانية ومحاولة استعادة بعض أو كل مناطق البلقان التي فقدها وكذلك المناطق العربية في الجنوب الشرقي. ويمكن أن يكون الخيار الثاني محاولة قيادة العالم الإسلامي ككل. وقد كانت المطالبة بالسلطان العثماني كزعيم روحي للمسلمين في كل مكان في العقود السابقة للحرب مرتكزة على حق السلطان أن يكون خليفة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لكن ذلك كان بعيداً عن توجهات الكماليين الفكرية.

وتمثل الخيار الثالث الأكثر واقعية بالرغم من قسوته بفكرة اللغة المشتركة للقوميات في أوروبا الشرقية وبمحاولة بناء تركيا في وسط أمبراطورية جديدة من ضمنها الأمة الثيرانية. وكان هناك ملايين المتحدثين باللغة التركية يعيشون في الشرق في مناطق خاضعة لروسيا التي تواجه اليوم حرباً أهلية بعد الثورة، وربما وجدت رغبة لدى القوى الغربية بتشجيع تركيا على ضم القوقاز وماوراءه. وفي أوائل العشرينيات ذهب وزير حرب سابق في الحكومة التركية الحالية شرقاً في محاولة لقيادة مقاومة في آسيا الوسطى ضد السيطرة السوفياتية.

كان الخيار الرابع، والذي جرى اختياره بالفعل، العمل ضمن وحدة الأراضي المتبقية والقبول بالحدود الواردة في معاهدة لوزان، وكان هذا الخيار غير متوقع كما بدا، وشكل مفهوماً أضيق من فكرة الأمة الثيرانية وفي حلول الأمة الإسلامية. وقد استخدم الأوربيون عبارات الترك أو التركي للإشارة إلى العثمانيين وفعلوا ذلك بسبب تميزهم القومي واللغوي. وقد بدأت شعوب الأناضول مؤخراً التعريف عن أنفسهم بالأتراك، كلمة تنطبق على الأناضوليين والمزارعين غير المتخصصين. وقد بدأت كلمة ترك تأخذ معانيها الصحيحة فقط إبان الإمبراطورية العثمانية بعد تمرد الشباب الأتراك عام ١٩٠٨. ولم يتم استخدام الاسم رسمياً في البلاد في أي قانون حتى عام ١٩٢١، ولم يستخدم نهائياً حتى إعلان دستور الجمهورية التركية عام ١٩٢٤.

وقد ظهر الكيان التركي الذي اكتسب معنى الدولة الأمة، لكن كانت له أيضاً بعض عناصر الأمة التي يجب بناؤها وتكون حدودها كل الشعوب التي تدين بالهوية التركية. وبعد الحرب العالمية الأولى، حصل تغيير سكاني مهم بين تركيا وكلٍ من اليونان وبلغاريا، وترك مشكلات قومية لازالت قائمة تشمل أتراكاً في قبرص وأكراداً غير أتراك ضمن الجمهورية دون إغفال السكان المسلمين غير الأتراك في ألبانيا والبوسنة والذين ظلوا منذ الحكم التركي.

بناء الأمة التركية:

كان إنشاء القومية التركية مقصود جزئياً ومصادفة. وقد هزمت الدولة التي أنشأها مصطفى كمال اليونانيين والحلفاء وكذلك السلطان العثماني الذي تآمر معهم. وقد توجهت الدولة العثمانية المتناحرة قرن من التحديث العسكري الهامشي بهزيمة كارثية عام ١٩١٨.

لكن حتى خلال حروب ١٩٢٠-١٩٢٣، ظن معظم مقاتلي المقاومة أنهم يقاتلون في سبيل السلطان الذي اعتبروه سجيناً لدى الانكليز.

وكان مصطفى كمال يمهد الطريق في أنقرة لمفهوم آخر للولاء عبر إصدار سلسلة جديدة من القوانين الأساسية من خلال المجلس. وأعطت هذه القوانين وغيرها حق السيادة للشعب التركي. ومن أجل جعل ذلك أكثر قبولاً لدى المؤمنين، عمد المجلس إلى إلغاء الصفة الشرعية عن الخليفة المخلوع وأعطوها لابن عمه بشكل مؤقت.

بعد ذلك، نقل قادة الثورة العاصمة من اسطنبول إلى أنقره. وكانت عملية النقل ترمز جزئياً إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية لكنها نقلت مركز الحكومة من موقع عالمي مرتبط بالروائع العثمانية والبيزنطية إلى مدينة تركية جبلية. وفي عام ١٩٢٤، وبعد إتمام عملية النقل الرسمية، جرى إلغاء مركز الخليفة وأصبحت تركيا دولة علمانية منظمة جمهورية يرأسها مصطفى كمال.

من المستبعد تسامح العديد من أصحاب النفوذ إزاء هذه التحولات السريعة، لكنهم تسامحوا تدريجياً.

وقد جعلت خيانة السلطان الواضحة من خلال التعامل مع الإنكليز مقابل انتصارات مصطفى كمال العسكرية، التغيرات ممكنة فبينما كانت صعبة في ظروف أخرى.

مشكلة الدين:

ومن بين هذه التغييرات، كان الانتقال من مفهوم الدولة الإسلامية، حيث كانت

الكنيسة والدولة مجتمعة حاسماً. وشكل تحرك مصطفى كمال معركة مبكرة في الصراع بين العلمانية، والإسلام والذي تكرر في أنحاء العالم الإسلامي خلال بقية القرن. وكان إلغاء مركز الخليفة الرمز الأهم البارز في كل البرنامج الذي تلاه مباشرة عام ١٩٢٤-١٩٢٥. واستمرت عملية إعادة التنظيم لتلغي منصب شيخ إسلام ووزارة الشريعة الإسلامية والمدارس الدينية المتفرقة، والكليات التي تدرب العلماء، والمحاكم الشرعية حيث كانت تطبق الشريعة الإسلامية. وقد أدت هذه الإجراءات إلى أول وأخطر ثورة مسلحة لكن هذه الثورة لم تنبثق عن علماء الدين في المدن كما كان متوقعاً فقد جاءت من سكان الريف المؤمنين ونُظمت من خلال الطرق الصوفية المشتقة من كلمة، طريقة العربية (طرق بالجمع) وقد تشكلت هذه النظم الإسلامية الدينية لأول مرة في أواخر العصور الوسطى عبر المتصوفين الباحثين عن طريقة لمحاصرة تآكل التمسك بوحدانية الله، وبحثوا عوضاً عن ذلك من أشكال للعبادة تعطي للفرد شعوراً بالتواصل الروحي مع الله. وعلى الأغلب فقد تأسست الطرق الصوفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي لمواجهة التطرف الديني لعلماء المدينة. وقد انعكست الطرق الصوفية على العديد من الناجين من تهمة الإلحاد في مختلف الديار العثمانية وغيرها وكرّست تقديس الأنبياء، أو الأولياء وتقديس الطلاسم وممارسات السحر المتنوعة.

وقد أوضحت حقيقة بقاء هذه الطرق الدينية قويةً في الريف بينما ضعف علماء الدين في المدن في وجه قمع الدولة إلى أن وصلت تيارات التجديد في القرن الماضي في تعرية الممارسة الدينية للطبقة الراقية في المدن دون المس بالدين الشعبي في الريف. وكانت الطبقة الفقيرة من سكان المدن ريفية الأصل وتدين بالولاء الشخصي لزعماء طريقة معينة.

وحصلت ثورة ١٩٢٥ انطلاقاً من الريف لكنها تضمنت قضايا دينية، وعرقية وزودت مصطفى كمال بذريعة للقضاء على النشطاء المشبوهين في جميع أنحاء البلاد. وكان زعيم الطريقة النقشبندية زعيم هذه الحجة، وكذلك كل كردي ينتمي

غالبية أتباعه إلى الأكراد المقيمين شرق الأناضول. وقامت الحكومة بقمع الثورة بسهولة، وذهب مصطفى كمال إلى حد إلغاء الطرق الصوفية وفق القانون وأصدر مراسيم أخرى ترفض بشكل قاطع المعتقد القديم والتقاليد. وتم منع ارتداء الطربوش، الرمز الرئيس المتبقي من الزي الإسلامي للرجال، بينما تكيفت طبقة المدن مع ارتداء الزي الغربي، وأعادت هذه التغييرات السطحية إلى الأذهان منع بطرس الأكبر ترك الذقون في روسيا قبل قرنين وإجراءات سطحية مشابهة لطبقة MEIJI الحاكمة في وقت سابق في اليابان.

وأضيفت إجراءات أخرى مهمة عام ١٩٢٦ مع إلغاء القانون المدني الإسلامي واستبداله بقانون جديد يستند إلى القانون المدني السويسري. وكان هذا التغيير رئيساً في القانون والممارسات المدنية والمعتقدات وأثر على الحياة العائلية بمجملها، ملغياً تعدد الزوجات ومتجهاً نحو النموذج الغربي لوضع المرأة علماً أن سويسرا لم تكن في الطليعة في العشرينيات من حيث تطبيق حقوق المرأة.

واتبع المجردون ذلك عام ١٩٢٦ بجعل الأبجدية التركية رومانية. وحتى ذلك الحين كانت اللغة التركية تكتب بحروف عربية بما أنها اللغة التي أنزل الله بها القرآن على محمد ﷺ وكانت الأبجدية الأوروبية بمفرداتها الواضحة أكثر ملاءمة لكتابة التركية من العربية، لكن العديد من الناس نظر إلى هذا الإجراء في حينه كعملية علمنة. وقد نتج عن تعليم الأطفال الحروف الغربية سلخ هؤلاء عن الكتابة العربية والنموذج العربي الذي كان وسيلة اتصال جامعة في الأمة الإسلامية.

لكن الأبجدية العربية لم تلائم اللغة المحكية حالياً؛ لذلك انسلخ الأدب التركي واللغة المحكية عن بعضها، وبعد تغيير اللغة، قادت الأبجدية الجديدة بعد دمجها بالتعليم الرسمي إلى ازدياد المعرفة وفتحت مستوى جديداً من التواصل الواسع وتحركاً أساسياً نحو اقتصاد قادر على درجة إنتاج عالية واستهلاك كبير. وكان

الوضع مشابهاً في اليابان، فقد شكل المستوى العالي للمعرفة في أواخر حكم توكوغعايا خطوة مهمة نحو التحديث هناك ومع بداية مرحلة الكساد. مر برنامج مصطفى كمال التجويدي بأكثر المراحل راديكالية. ولم ينجح التجديد الاقتصادي بسرعة كما حصل في اليابان في أوائل حكم MEIjI لكنه أحدث تحولات جوهرية في مجالات أخرى في المجتمع التركي، والثقافة التركية. وربما تغييرات أكثر أهمية مما قامت به اليابان في الفترة نفسها.

وقد وضع مصطفى كمال تركيا على مسار جعلها جزءاً ثقافياً من أوروبا كما فعل بطرس الأكبر في تحديث روسيا. وفي كل من اليابان وتركيا، لم يصل التحديث إلى التغريب الكلي، لكن مصطفى كمال بذل جهداً في وضع تركيا في اتجاه العلمنة الغربية بالرغم من أنه ظل مسلماً. كان يريد نجاحاً في تأسيس قومية تركية قادرة على إعطاء معنى للتضامن في دعم الجمهورية، لكن السياسات التركية ظلت بعد نصف قرن من وفاته قابلة للتأرجح بين العلمنة الكمالية وإعادة إحياء المشاعر السياسية الإسلامية. ولم يستطع مصطفى كمال -بالرغم من محاولته- حلَّ مشكلة القوميات كلياً: طالما رفضت عناصر مهمة والأقليات الكردية القبول بقانونية وضعها ضمن الجمهورية التركية.

ردود شخصية وخيالية

اتخذت بعض ردود الفعل على الوجود الغربي شكلاً سياسياً علنياً ومنظماً، لكن كان للعديد من الردود المميزة تعاطٍ ضئيل مع السياسات، وقد احترم بعض الزعماء الاجتماعيين والمفكرين، الظاهرة الغربية، وطرحوا برنامجاً للتعامل معها وكانت ردود الفعل الأخرى شخصية وغير رسمية، كاختيار الملابس أو لغة التعبير العام. بأي حال كانت ردة الفعل على الوجود الغربي أداء خياراً ثنائياً بين التقليد المحلي من جهة والغربي من جهة أخرى، وكان هناك مجال دائم للابتكار الذي يؤمّن عدداً من البدائل.

وتعاطي أداء يتمتع بالغنى مع خيارات وضعها زعماء غير غربيين يتمتعون بالفصاحة، وتعامل كُتاب السيرة -وبعيداً عن مؤلفاتهم- مع شخصيات مثل غاندي

نهرو ومماثلين لهم في مجتمعات أخرى. وتحري علماء الاجتماع والمؤرخون أيضاً أدى إلى ردودٍ أقل توثيقاً كردود الفلاحين المثقفين الذين سعوا إلى التفهم والرد على الظروف التي يواجهونها في عالم متغير.

وهناك مدخل آخر أكثر شمولاً يتمثل بدراسة ردود الفعل الشخصية على التأثير الغربي عبر تاريخ الجماعة. وقد تعاطى ليو سبيتزر Liwes in betwern بشكل مقارن مع تعديلات حول العمق، الديني والطبقة في مجتمعات متنوعة ثقافياً. وحدد ثلاث عائلات من بين عدد من الأجيال في مناطق مختلفة من العالم. وكانت عائلة ماي في سيراليون المنحدرة من عبيد قبض عليهم في البحر ووُطِّنوا هناك من قبل البحرية البريطانية في أوائل القرن التاسع عشر. وقد أصبح العديد من عائلة الماي في أواخر القرن أعضاء في نخب الكريول لتلك المستعمرة. وكان المثل الثاني عائلة ريبوساس البرازيلية الإفريقية التي انتقلت من العبودية إلى وضع نخبوي في المجتمع البرازيلي. كان المثل الثالث استيفان زويغ في هايسبورغ فينيا، وهي عائلة يهودية سعت إلى تقبلها في الثقافة المسيطرة. وفي الحالات الثلاث، وجد أعضاء العائلة أنفسهم يشكلون مجموعة سائرة نحو الاستيعاب ضمن النخبة المسيطرة لكن بقبول محدود.

ويقدم فرانسيس كارتوتين في كتابه «بين عالمين» مدخلاً آخر إلى اتصال الثقافة على المستوى الشخصي. إنها دراسة سيرية لعشرين شخص عملوا مرشدين ومترجمين ووسطاء بين الغربيين وآخرين على حدود الاتصال مع غير الغربيين. وكان العديد من أتباعها نساءً أُغفلن في ظروف مختلفة من المؤرِّخين السابقين.

وكانت دونا مارينا أشهرهن التي ترجمت لكورتيس إبان الغزو الإسباني للمكسيك وسكاجاوي التي رافقت لويس وكلارك إلى المحيط الهادي في أوائل القرن التاسع عشر. وتقدمت كارتونين هذه النساء وغيرهن كمترجمات بين الثقافات وليس كشخصيات تافهة ورومنسية.

وتتوافر المظاهر الشخصية للتفاعل الثقافي أيضاً في الروايات وتعطي رواية سينوا أشيبي «الأشياء المبعثرة» التي نشرت في نيجيريا الشرقية في بداية القرن

العشرين نظرة مفصلة للفرد الواقع بين الثقافات في العقود الأولى للحكم الاستعماري. وقد تعمق رواة ومؤلفون مسرحيون آخرون في بحث موضوعات مماثلة في مؤلفات أخرى. وتعطي مثل هذه الحسابات بديلاً ذا قيمة لشخص عادي في دراسة السلوك الجماعي الموجود لدى الحركات السياسية، أو في التصريحات المتطورة لأشخاص اعتبروا كباراً بين قومهم في حينه.

الأحلام الألفية:

تمضي الرواية التقليدية فعلاً وقتاً طويلاً في تسجيل أعمال الأشخاص المعروفين بالكبار. وتسجل أعمال الكيانات أيضاً التي تصنّفها حضاراتٍ على حساب البرابرة عبر الحدود. وغالباً ما تكون الرواية الكبيرة قصة ناجحة كما سجل نُسّاخ الجهة الجيدة. غير أن سياق التغيير في المجتمعات الإنسانية يتضمن البرابرة والمتحضرين والنساء والرجال والخاسرين والرابحين، وتشكل أعمالهم أيضاً جزءاً مهمّاً من التجربة الإنسانية. يعد صعود الغرب وردة فعل العالم عليه حديثاً بحيث يترك بصمات واضحة من الردود الإنسانية التي يصعب اقتفاء أثرها في العصور السابقة، وفي نهاية القرن العشرين، ليس هناك أدنى شك في نجاح تحديث القومية لكن بعض الأشخاص العاديين تأثروا بالغرب بأساليب أقل عملية وقليلة الحظ.

وكان اللجوء إلى مساعدة خارقة رد الفعل المشترك لمقاومة القوة المعادية. وتمارس معظم الأديان شكلاً معيناً من من اللجوء إلى التدخل الإلهي، وقد اتخذت هذه الدعوات عدة أشكال في مواجهة السلطة الغربية، عبر صلوات شخصية ومجموعة حركات منظمة. كان لهذه الحركات الكبيرة دائماً عناصر ألفية: لذا كان للعبارة نفسها عدة معانٍ ممكنة، وتعتبر أصول هذه الحركات متنوعة، لكن يعود أحدها إلى بداية المسيحية والديانات الأخرى الشرق أوسطية التي تتمسك، بأن العالم بدأ بالخلق وسينتهي في تاريخ محدد في المستقبل عندما يعلن الله عن إرادته بيوم الحساب. وتوقع العديد من المسيحيين السابقين قدوماً قريباً ليوم الحساب،

وتوقع بعضهم حصوله في الألفية الأولى بعد المسيح، وبالنسبة لمعظم المسيحيين في وقت لاحق، وقد تلاشى قرب حدوثه وخطط المؤمنون حياتهم على احتمال استمرار الأمور كما كانت في الماضي القريب.

غير أنه من حين لآخر، وضع المؤمنون في عدة ديانات مختلفة توقعاتهم حول التحول الجذري في المستقبل القريب ودائماً مع تاريخ محدد. ودخل بعض هذا التوقع للتغيير الجذري ضمن العديد من الحركات السياسية الواردة في الفصل الأخير خاصة تلك المعالجة في كتاب مايكل أداس (رسل التمرد). وكانت بعض عناصر الألفية حاضرة في التمرد الهندي عام ١٨٥٧ لكنها كانت أقوى في انتفاضة تايوان المعاصرة في الصين واستمر بعضها في حركة الملاكم المناهضة للمسيحية في شمال الصين بعد نصف قرن. وقد تراوحت قوة العنصر الألفي بشكل كبير بين الدقة والتنبؤ بتوقيت التغيير القادم دعماً إذا كان الخلاص المنشود سيكون لكل الإنسانية، أو لمجموعة معينة فقط أو ببساطة لفرد.

الألفية المتطرفة:

من خلال تنوع المعتقدات الألفية، من الممكن تحديد عائلة من حركات التطرف حيث يُطبَّق وعد الخلاص في عالم آخر على مجموعة كبيرة، والذي كان متوقعاً حدوثه هنا الآن أو على الأقل قريباً. ونستطيع تحديد هوية هذه الحركات بالتطرف الألفي، لكنها كانت متطرفة فقط في توقعاتها الألفية. وتتفاوت في حالات أخرى بين المسالمة والعنيفة لكنها تنبئ بتحول جذري بأمر خارق وقريب ودعت دائماً إلى سلوك معين للوصول إلى الهدف. ولدى هذه الحركات الألفية المتطرفة مجموعة من الملامح المتكررة مشتركة عند العديد من المؤرخين.

وكان التحول المتوقع كلياً في الغالب في هذه المعتقدات. مفاجئاً وكاملاً وليس مجرد تحسن بل شيء يشبه الكمال نفسه، الكمال كما وصفه المؤمنون. كان قرب حدوث التحول المتوقع مهماً جداً، على امتداد حياة الناس المعاشة في هذا العالم

وليس العالم الآخر. (يخص الخلاص في العالم الآخر عائلة أخرى من المعتقدات مع أسباب ونتائج أخرى. وكانت الثورة المتوقعة تعد أيضاً جزءًا من مسار سابق للتاريخ لكن بأسباب خارقة، مخطط ومصمم له سابقاً من قبل إله أو عدة آلهة، وأخيراً، كان الخلاص جماعياً، وليس فردياً لكن المجموعة التي ستنقذ هي طائفة واحدة فقط وليست البشرية كلها، طائفة محددة هويتها كقطبة اجتماعية، طاقم من المؤمنين، مجموعة عرقية، وهو غير محدد في حالات أخرى.

ولدى الحركات الألفية المتطرفة عناصر أخرى إضافة إلى هذه الصفات المحددة تحدث أحياناً. كان أحدها جنوحاً نحو الثنائية الأخلاقية، تمييز دقيق بين الذين يستفيدون من التغيير، وأولئك الذين سيكونون خاسرين. وثم النظر إلى هذا الصراع كنزاع بين الخير والشر بشكل دائم حيث يبدو الشر منتصراً وظاهراً حالياً بينما سيتغير الوضع بأعجوبة الألفية، ولدى معظم الحركات نبي معترف به ليس بالضرورة شخص مفرد يمكن أن يكون زعيماً - غائباً - حاضراً - رمزياً. غير أن المنظم كان نادراً النبي نفسه، فقد كان دوره دائماً ترجمة النبوءة الألفية التي ستحدث وتنظم الرد.

ونشأت الحركات الألفية من هذا النوع في أوساط الناس الذين يشعرون بالحرمان الشديد غالباً من الناحية المادية، مع ذلك، كان حرمانهم النسبي أحياناً غير موضوعي أكثر منه فعلي أو محسوب. وتأتي الثورات السياسية نادراً من الطبقات الدنيا في المجتمع، ويفتقر المحرومون الحقيقيون عادة إلى قوة للتحرك بفاعلية. وفي أغلب الأحيان تأتي الثورات السياسية في أوساط الميسورين نسبياً الذين ليسوا ميسورين كما اعتقدوا. بالطريقة نفسها نسبياً، كان حرمان الذين انضموا إلى الحركات الألفية يقاس غالباً ضد الظروف السائدة في ماضٍ حقيقي أو خيالي.

وكانت النبوءات تميل للانتماء إلى أحد النمطين الممكنين. ويعلن النمط الأول ببساطة أن الألفية قادمة، ويدعو الناس للاستعداد فقط وليس إلى التحرك. ويدعو النمط الآخر إلى التحرك ويحدد غالباً التضحية للحصول على التغيير المتوقع.

وكان التحرك المطلوب يتم غالباً عبر طقوس احتفالية، وممارسة دينية للأفعال المعتبرة مذنبة وغير منتجة سابقاً، وكان هناك إصرار على سلوك أخلاقي صادق ومشترك أيضاً.

عندما تحدد النبوءة الألفية موعداً واضحاً ويصل ذلك الموعد دون حصول التغيير مما يحدث أزمة واحدة، بالنسبة للنبي وأتباعه أو أتباعها، كانت هناك حلول كثيرة ممكنة. ويتمثل الحل الأول بإعادة جدولة الموعد مع خسارة متوقعة للمصداقية بعد كل فشل حتى تلاشى هذا الأمل بالألفية ضمن إيمان رمزي بمستقبل بعيد. وقد تعامل المسيحيون بشكل عام مع توقعات الألفية بهذه الطريقة. وقد اختفت حركات ألفية أخرى بسهولة وغاص أتباعها مجدداً في إحساسهم بالحرمان وتوجهوا نحو نبي آخر إذا ظهر. أما الاحتمال الثالث فقد تمثل بزعامة تتحول عن الأحلام الخيالية وتسعى لحلول أكثر براغماتية تتراوح بين أشكال متنوعة من النشاط السياسي والتمرد العنيف. وقد تم توضيح هذه النماذج العامة بشكل أفضل من خلال أمثلة مستقلة.

رقصة الشبح:

تعد ديانة رقصة الشبح الأكثر شيوعاً من بين الحركات الألفية في أوساط هنود أمريكا الشمالية. وفي الواقع لم تكن حركة مفردة، بل تطورين متصلين انتشرا عبر مركز في فيفادا الغربية. وقد حصل الأول عام ١٨٧٠ وفي السنوات التالية وانتشر غرباً نحو كاليفورنيا وجنوب أوريغون، أما الثاني الذي نشأ في المنطقة نفسها، فقد عُرف عموماً بديانة رقصة الشبح عام ١٨٩٠مع أنها بدأت قبل ذلك بوقت قصير لكن بقاياها استمرت حتى القرن التالي. وقد انتشرت رقصة الشبح بشكل رئيس شرقاً عبر الحوض الكبير والسهول المرتفعة حتى نهر الميسوري.

وقد حظيت الحركة الثانية بمعظم الاهتمام من الأميركيين الأوروبيين بسبب انتشارها الواسع، وفي أواسط ١٨٨٠ واجهت الحركة عداء الحكومة الأمريكية،

وتضمنت جهود الحكومة لقمعها حصول مجزرة الركبة الجريحة (Wounded Knee) وموت زعيم قبيلة السيو (الثور الجالس) المنتصر في معركة القرن الضخم الصغير Little Big horn. وكنتيجة جزئية، أصبحت موضوع دراسة تراثية تقليدية. وجاء بروز الحركتين بعد الطغيان الأوروبي الأميركي على السهول المرتفعة والحوض الكبير، حركة بدأت فقط بعد منتصف القرن. وقد وطّن السكان الكولومبيون صيادين وحطابين بشكل مبعثر وهم يعيشون على الزراعة الطبيعية وصيد الثور البري مشياً على الأقدام. في عام ١٥٢٠ أدخل الإسبان الماشية والخيل إلى المكسيك وهرب قسم منها.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدّل هنود السهول المرتفعة والحوض الكبير أسلوب حياتهم المادية بما عرف فيما بعد بثورة الحصان، وقد تعلموا ترويض الجياد البرية وتحويلها لخدمتهم؛ مما جعلهم صيادي ثيران برية أكفاء ومتحركين بسهولة كبدو أو أشباه البدو.

وبدؤوا أيضاً مع الوقت المعاناة من التأثير المبكر للأمراض الأوروبية غير المألوفة. ونظراً إلى ذلك، من المستحيل التكهن بمدى الضرر الذي سببته هذه الجراثيم المستوردة، والفائدة من الحيوانات المستوردة التي عدلت الكفة، كان يوجد ظاهرياً نوع من التوازن حتى عام ١٨٤٠ عندما جاء الجنود الأوروبيون الأميركيون، وزادوا نسبة الوفيات بواسطة الأمراض المستوردة. وقد عانى وسط المكسيك من تأثير الأمراض الدخيلة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومع حلول القرن الثامن عشر عاد السكان الهنود إلى الثورة مجدداً، غير أن أهالي السهول المرتفعة والحوض الكبير المعزولين نسبياً، فإن التناقص السكاني توقف حتى عام ١٨٩٠ أي حتى مئتي سنة بعد وسط المكسيك. وكان المرض فقط واحداً من عدة كوارث بيئية، فمنذ وقت طويل، قتل الصيادون الأوروبيون الثيران في شرق المسيسيبي بالأسلحة النارية، لكن بقي ما يعادل الثلث، أو النصف من الثيران الكولومبية في شمال أمريكا على قيد الحياة حتى عام ١٨٥٠. وفي النصف الثاني من القرن، كانت الكمية المتبقية من

الثيران مبادة تقريباً، وقضي على نمط حياة ركوب الخيل وصيد الثيران عند الهنود حتى قبل التأثير المباشر لتوسع الاستيطان، وخسارة الأراضي الهندية من عقود ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية.

وقد جاءت النبوءة الأصلية التي أدت إلى حركة رقصة الشبح عام ١٨٧٠ في منتصف ١٨٦٠ إلى ود زبوب، وهي منطقة بافيوتسو، هندية تقع حالياً في نيفادا الغربية، وبينما كان في غيبوبة، تلقى الرسالة بأن على الشعب التجمع لتشكيل رقصة معينة في أوقات منتظمة تعيد الهنود الأموات إلى الحياة. وكان الوعد يتضمن أيضاً الحياة الأبدية لكل الهنود وموت أو اختفاء الأوروبيين، وكانت الرقصة بحد ذاتها أساساً رقصة بافيوستو دائرية تتشكل من مجموعة ضمت أيديها في دائرة منسقة لكن مع انتشار الحركة، تغير الوعد الألفي وكل الرقصة. ومع الوقت، ماتت الحركة وغالباً بسبب عدم تحقيق وعدها.

وكان أساس حركة الرقص عام ١٨٩٠ منبثقاً عن رسول آخر من بافيوستو يدعى وافوكا، ابن أحد أتباع الحركة السابقة؛ لذا فقد كانت الحركتان متصلتين بوضوح، وتضمنت رؤية وافوكا رسالة أخلاقية أيضاً. فقد حث الناس على حب بعضهم البعض، والتخلي عن الحرب والعيش بسلام مع المستوطنين الأوروبيين، وإذا أطاعوا تعليماته الأخلاقية وكذلك الرقصة الدينية، فإن الموتى والثيران ستعود إلى الحياة، ولن يكون هناك مرض أو شيخوخة بعد الآن. غير أن هذا الوعد الألفي لم يكن له تاريخ محدد للتطبيق. وكان يجب ممارسة الإصلاحات الأخلاقية مع الوقت، وكان يجب القيام بالرقصة كل ستة أسابيع ولمدة خمسة أيام كل مرة. كان يجب عودة الموتى بشكل عجائبي، لكن كان يجب أن تكون المعجزة مكتسبة، وبعد كسوف الشمس في ١ كانون الثاني ١٨٨٩ ذهب وافوكا في غيبوبة وتنبأ بأن التغيير الألفي سيحصل في صيف أو نهاية عام ١٨٩١.

وبعد توسع الحركة إلى مجموعة عرقية أخرى، حافظت على وعدها المركزي بعودة الميت، بالرغم من أن رسلاً جدداً وعدوا بأحداث مختلفة في تواريخ مختلفة

من الألفية. واتخذت ترجمات لاحقة مظهراً قوياً مناهضاً للاستيطان، منبئة بأن كارثة كبرى ستقضي على الأوروبيين مع انزلاقات أرضية وعواصف وفيضانات وستترك الهنود مسالمين، بعد ذلك، ستعود الحياة مجدداً لتغطي السهول بالاخضرار والخيول والثيران. وعوضاً عن ذلك، نظر آخرون قدماً نحو يوم يؤدي فيه إعادة إحياء الميت الهندي إلى مرحلة من التناسق العرقي للهنود والأوروبيين معاً، ودعا بعض قادة الحركة إلى حركة إيجابية أو عنيفة تجاه المؤمنين وحياة أخلاقية فقط ورقص ديني ومقاومة سلمية للجنود الأميركيين.

لكنّ هذه النظريات انتشرت بعيداً بشكل غير متكافئ. ولم يشارك فيها الجميع حتى لو تبنت قبيلة ما هذه الديانة بشكل واسع. وقد عارضت بعض الشعوب -التي تشتمل ديانتها على خشية عميقة من الأرواح- هذه الحركة بقوة؛ خاصة شعوب نافاهو وأتابسكا. وكان الوضع السياسي لقبيلةٍ ما في أوائل ١٨٩٠ يؤثر على قبولها أو رفضها للديانة الجديدة. فقد أعاد النافاهو احتلال أراضيهم السابقة مؤخراً، على سبيل المثال، وكانوا نسبياً آمنين. من جهة أخرى، وانطلق العديد من الأباتشي في حرب عصابات كشكل من أشكال المقاومة لطغيان الاستيطان.

وقد دخل هنود السيو لتوهم حقبة أزمة في تعاطيهم مع الولايات المتحدة. وقد أعطتهم معاهدة ١٨٦٨ كل جنوب داكوتا، في عام ١٨٨٩ قلص قانون من الكونغرس أرضهم بحوالي النصف وقسمها إلى خمس محميات موزعة، وكانت منها محمية باين ريدج. وقد أدت خسارة أرضهم إضافة على موت الثيران إلى شعورهم بحرمان شديد القساوة. وفي منتصف ١٨٩٠، اعتنق ٤٠ بالمئة من قضاة محمية باين ريدج ديانة رقصة الشبح.

وفي كانون الثاني ١٨٩٠ بدأت المأساة النهائية لمجزرة الركبة الجريحة مع تحرك الولايات المتحدة العسكرية مع عملائها الهنود الذين - عوضاً عن ترك رقصة الشبح تكمل مسيرتها بسلام - أدخلوا الجنود وحاولوا قمعها بالقوة، وبدأ العنف بمعركة صغيرة قتل فيها أحد جنود الثور الجالس. ولم يعد بالمستطاع إعادة السلام بما في

ذلك ترتيب تسليم جنود السيو أسلحتهم في محمية الركبة الجريحة، لكن حصلت حالة من الذعر لدى الطرفين عند عملية الاستسلام. وقامت الخيالة بقتل ٣٧٠ هندياً بينهم العديد من العزل.

وقد استمرت ديانة رقصة الشبح لعدة عقود كحركة شعبية فاقدة بعض الأتباع عندما لم تتحقق نبوءة البعث، لكن هذه الديانة بقيت طويلاً خلال القرن العشرين مثل بقية الديانات ذات التوقعات الألفية وانتقلت من الأمل بتغيير حتمي إلى تعبير باهت بالإيمان أن الأمور ستكون أفضل في المستقبل.

قتل ماشية شعب :Xhosa

في أواسط القرن التاسع عشر، عانى شعب XHOSA إلى الشرق من مستعمرة الكاب في جنوب إفريقية من أزمة مشابهة لتلك التي عانى منها هنود سهول أمريكا الشمالية، ونتج عن الجمع بين الغزو العسكري الأوروبي لعدة عقود متوجاً بكارثة بيئية أصابت الماشية حالة مساوية لقتل الثيران في السهول الهندية، وكان موقع XHOSA حرجاً، كونهم يتصدرون الشعب الناطق بلغة البانتو BANTU المعارض للغزو الأوروبي من الغرب، وكان العائق الوحيد أمامهم نحو رأس الرجاء الصالح، وشعوب الكوسا من السكان الأفارقة الذين يتشكلون من رعاة للماشية والصيادين والحطابين، شعب مشتت في منطقة شبه صحراوية بشكل رئيس، ولم يستطع شعب السان أو الكواكوا تقديم سوى مقاومة ضعيفة للأوروبيين القادمين، وكان شعب XHOSA المتمركز في منطقة مائية شعباً زراعياً؛ ولذا لعبت الماشية دوراً مهماً في اقتصادهم. وقد واجهوا أولاً المستوطنين الهولنديين عسكرياً عام ١٧٧٠. وعبر العقود التي تلت، أقاموا مع البوير قرب الحدود، معارك تشتمل على الغارات والغارات المضادة واتسمت بمراحل في الحرب المفتوحة.

وقام شعب الكوسا تدريجياً بتحسين دفاعاته في مواجهة الخطر الأوروبي عبر الحصول على أسلحة أوروبية، وفي سياق التدرب على القتال كخيالة، غير أنهم لم

يتحدوا أبداً كما كان شعب الزولو في أوائل القرن التاسع عشر. وكان شعب الكوبا ككل، منتسباً إلى عدد من المجموعات الثقافية، وحتى كانوا نادراً متحدثين سياسياً لفترة طويلة. وكانت وحدتهم الأكثر أهمية المسماة غالباً زعامة تشتمل على قائد أو رئيس يحكم مجموعة من الأقارب، والزبائن التي تربطهم جزئياً روابط النسب والولاء والمصلحة المشتركة، وبالرغم من الضعف السياسي، شكّل شعب XHOSA حدوداً قوية نسبياً في مواجهة الأوروبيين، وفي عام ١٨٤٠ كانت مقاومتهم عاملاً رئيساً أجبر توسع البوير المسمى غالباً Creat trck ليتخذ مساراً آخر إلى الشمال، حيث أقام البوير بسرعة تفوقهم فيما أصبح دولة البرتقالة الحرة.

وبالرغم من قيام الأوروبيين بدفع حدود شعب XHOSA تدريجياً إلى الوراء في سلسلة حروب محققة انتصارات عسكرية عام ١٨٣٤ و ١٨٤٦ - ١٨٤٧ ومجددة عام ١٨٥٠ - ١٨٥٣. وكانت الحرب الأخيرة قاسية بشكل خاص مع استراتيجيات الأرض المحروقة من جهة الإنكليز وثوار XHOSA في المناطق المسيطر عليها من الإنكليز عام ١٨٥٣، ضمت مستعمرة الكاب المنطقة غرب نهر KEI تاركة إلى الشرق منطقة غير موحدة لكن مستقلة عن الحكم الأوروبي. وقد استطاعت ترانسكي الحفاظ على استقلالها الفعلي حتى عام ١٨٩٠.

بالنسبة لشعب XHOSA، لم تكن الكارثة الكبرى في أوائل ١٨٥٠ خسارة الحرب، لكنّ إدخال مرضى الماشية المسمى مرض الرئة إلى جزء من إفريقية غير المعروف سابقاً. ونجا شعب XHOSA من مشكلات المرض التي واجهها الهنود في أمريكا الغربية: لأن المرض البيئي عندهم كان مشابهاً تقريباً لأوروبا، ومع أن مرض الرئة كان جديداً وكأي أمراض بشرية جديدة جاء معدياً مع أعلى نسبة من الوفيات، وقد ظهر أولاً في خليج موسيل إلى الشمال عام ١٨٥٤، وبلغ XHOSA على الجانب الآخر من نهر كاي عام ١٨٥٥ بعد الهزيمة العسكرية. وقد أصاب مرض الرئة تقريباً كل الماشية وقتل الغالبية العظمى، وكانت الماشية مهمة جداً لاقتصاد XHOSA حيث

بدأ الناس يموتون من الجوع. وقدر عدد الذين ماتوا بـ ٤٠ ألفاً وفر ٤٠ ألفاً آخرون إلى مستعمرة الكاب بحثاً عن الطعام والعمل.

وقد واجهوا الأزمة، مثل هنود الحوض الكبير والسهول المرتفعة عبر العودة إلى تبني دياناتهم التقليدية، وفي هذه الحالة تلك التي تميل إلى تفسير الشر في العالم من خلال وجود السحرة أو الساحرات الذين لقبوا بالعرافين المحترفين في زمن الإحباط. ودعت ثقافة XHOSA أيضاً إلى التضحية بالماشية في نقاط مهمة من مسار الحياة مثل الولادات والموت والاحتفالات. وتضمنت معتقدات XHOSA الأخرى الأمل ببعض البحث أو تجديد الشباب.

وخلال الأزمة في منتصف ١٨٥٠، اتبع العديد من XHOSA هذه المعتقدات التقليدية واستخلصوا أن وفاة حاشيتهم تلوث بنوع من السحر. ويكون الدواء الطبيعي التضحية، وكانت التضحية ببعض الماشية المتبقية إحدى الطرق لحماية صحة الماشية التي لم تولد. لم تكن هذه المعتقدات مألوفة بعد، لكن رسل أوائل ١٨٥٠ تنبؤوا بمعجزات ألفية من مختلف الأنواع، وقد تأثر أحدهم بأخبار حرب القرم متوقعاً وصول الروس لطرد الإنكليز.

غير أن النبوءة التي شاعت، بدأت عن طريق Mhlakaza، وهو مستشار مهم لأحد زعماء غيليكا الواقعة على جانب منطقة ترانسكي على نهر كاي ونزولاً إلى البحر، وكذلك على حدود مستعمرة الكاب. مكالازا نفسه لم يكن نبياً بل منظماً، وتملك حفيدته نفونكوز الرؤيا والرسالة من الأجداد بقتل ما تبقى من الماشية وإتلاف كل الحبوب وعدم الزراعة العام المقبل. عندها سيعود الأجداد من الممات، ويرمون الأوروبيين في البحر، وستعود الماشية إلى الأرض وستملأ الأهرامات بالحبوب بمعجزة. وتنبأت نفونكوز سلسلة من التواريخ لهذه الأحداث بدءاً من آب ١٨٥٦ وحتى أيار ١٨٥٧. قام العديد من الناس بقتل ماشيتهم لكن مع حلول ١٨٥٦

كانت معظم الماشية ميتة من مرضى الرئة، واستمرت الأزمة على ضفتي نهر كاي، وفي نهاية ذلك العام كان ثلثا السكان إما أموات من الجوع أو رحلوا.

إن التشابه مع ديانة رقصة الشبح مذهلة: فالأموات يبعثون أحياء مجدداً. يقضى على الأعداء الأوربيين من خلال تحضير طقوس دينية.

وستعود قطعان الماشية والثيران، وتنجب، وهناك اختلافات مذهلة أيضاً. هذه المرة، تدعو النبوءة إلى التضحية وليس القيام فقط بطقوس دينية، كما أن أساس الحضارتين الدينية مختلفة بشكل كبير. كذلك فإن درجة المشاركة تبدو أغلبية صغيرة في أوساط الراقصين السيو بينما يصل المشاركون من شعب XHOSA إلى ٨٠ بالمئة أو أكثر.

شهود يهوة:

برزت دياة قتل الماشية ورقصة الشيخ في ظروف حرمان قاسية نسبياً استمرت طيلة عقود.. ولم تكن لكل الحركات الألفية هذا النوع من الخلفية. وقد بدأ شهود يهوة في شبه الجزيرة الغربية في أوقات رخاء نسبي، وقد استقطب بنجاح متابعة واسعة من الولايات المتحدة وأوربا. واستمروا في إعطاء تنبؤات دقيقة حول ما سيأتي لقرن بعد تأسيسهم الأصلي. ولم تكن لديهم خبرة حول نزاع التشابك الحضاري في مكانه الأصلي، لكن نظريتهم انتشرت بشكل واسع بين المؤمنين غير الغربيين الذين عايشوا تجربة هذا الصراع خاصة في إفريقية.

أسس شارلز تاز راسل شهود يهوة عام ١٨٧٠ كمجموعة دراسة للإنجيل ذات خلفية مقدمية، في عام ١٨٩٠، توسعت الحركة، وتطورت من خلال مراقبة الإنجيل، ومجتمع كنسي مع فروع في أجزاء عديدة من الولايات المتحدة وبريطانيا. وكان فكرها في السنوات الأولى مرآة دقيقة للنصوص الدينية التي أوضحت من بين أمور أخرى عودة المسيح بشكل غير مرئي إلى الأرض عام ١٨٧٤، وكان هذا التاريخ بداية

من اضطرابات ستقود إلى نهاية العالم عام ١٩١٤ عندما سيعود الميت مجسداً وسيعطى المؤمنون فرصة الهداية قبل الحساب الأخير وبعد زوبعة حملة الهداية، سينضم المهتدون إلى المؤمنين الأحياء ليدخلوا الجنة بينما يسقط غير المؤمنين في عالم النسيان.

وتستند هذه العقيدة بشكل واضح على عناصر من المسيحية البروتستانية السائدة في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر واليوم السابع المقدمين بين الآخرين. وكانت مشاعر العداء من بقية المجتمع الأميركي حاضرة ومستمرة، لكن مثل هذه المشاعر كانت مشتركة في أوساط الطوائف الأخرى بشكل كبير بما في ذلك المهزوزين وغيرهم في أمريكا وفي أماكن أخرى. من الصعب ملاحظة أي شعور حاد من الحرمان النسبي مساوٍ لراقصي الشبح XHOSA. وتبدو الألفية في هذه الحالة قد نشأت خارج علم اللاهوت البروتستانتي في وسط أمريكا الذي انعكس بدوره على الألفية القوية للمسيحية المبكرة.

من جهة أخرى، كان لدى المذهب عناصر لتحويل فكر الناس عن التقاليد الفكرية الأخرى. في جنوب إفريقية، لم يكن أول ناقل للرسالة مراقباً تبشيرياً أو حتى عنصراً عبقرياً من الطائفة، لكنه راديكالي متدين من نيوزلندا اسمه جوزيف بوث الذي أدخل بعض الأدب المراقب في جنوب إفريقية. وكان لتأثير بوث على إليوت كاموانا كنتيجة انتشار العقيدة في معظم إفريقية الوسطى والشرقية خلال القرن القادم.

وكان كاموانا عاملاً مهاجراً من مالاوي لاحقاً وعاد إليها عام ١٩٠٨ في مرحلة بدأ الناس هناك يشعرون بتأثير السيطرة الاستعمارية المباشرة. وقد أدخلت الحكومة الاستعمارية مؤخراً فقط ضريبة الكوخ، وهي شكل من الضريبة التنازلية تهدف لأخذ ضريبة من كل بيت بشكل ضاغط بحيث يصبحون عاجزين عن الدفع من محاصيل مزارعهم، عندها أجبر الرجال على العمل في المزارع الأوروبية التي كانت تنتشر في أنحاء الريف أو الذهاب للعمل في جنوب إفريقية كما فعل كاموانا نفسه.

وكانت نبوءات ألفية طرحت في مالاوي، فقد تنبأ كاهن غير مسيحي بأن الأوروبيين سيختفون في نهاية عام ١٩٠٧ عندما كان كاموانا لا يزال في جنوب إفريقية، وبعد عودته، للألفية القادمة عام ١٩١٤، دفع عدة آلاف إلى الهداية، لكن عندما فشلت نبوءته أيضاً في الحصول، تبع الكاهنة الإفريقية إلى المنفى.

وفي وقت لاحق تحول كاموانا إلى طائفة مسيحية أكثر تطرفاً، لكن الحركة توسعت دون المساعدة المباشرة للمؤسسين الأصليين في الولايات المتحدة الذين تخلوا عنها وأرسلوا مبشريهم إلى إفريقية لنشر مذهب أكثر تطرفاً للمعتقدات المراقبة.

وقد ظلت مالاوي (نايسالاند) موقعاً مهماً لتشتت الأفارقة؛ لأن النايسلانيين انتشروا بشكل واسع كعمال مناجم، وعينوا بعد ذلك كرهبان بسبب ثقافتهم الغربية في الإرساليات. وحصلوا على رواتب أعلى ووظائف أكثر ثباتاً من العمال غير المتخصصين. وأصبحت ديانة المراقبة قوية في الروديسيتين (زامبيا وزيمبابوي) وتورطت في اندلاع الانتفاضة العمالية في مناجم شمال روديسيا التي بدأت عام ١٩١٧ - ١٩١٩، عندما انتشرت، استوعبت مظاهر الأديان الإفريقية، وقد تغير الاسم المشترك من المراقب الانكليزي إلى مراقب كيتاوالا وقنوعاته.

وعندما انتشرت، تضاءل التأكيد على التوقع الألفي، وعوضاً عن الاستعداد الديني لرقصة الشبح أو التضحية بقتل الماشية XHOSA تحولت فروع من الحركة إلى تهيج نشط لمناهضة الأوروبي وساعدت على تنظيم اضطرابات مناهضة للأوروبيين في شمال روديسيا في منتصف العشرينيات، تبعها تحرك عنيف مماثل في الكونغو البلجيكية عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ .

بعد الحرب العالمية الثانية، دخل كيتاوالا شمالاً حتى الكونغو الفرنسية باسمها الجديد كينشاسا، وحصلت اختراقات أخرى في أوغندا. في ذلك الوقت، كانت الحركة قد سافرت أكثر من ألفي ميل بعيداً عن نقطة دخول إلى إفريقية في الولايات المتحدة وأكثر من ألف ميل من انتشارها الثاني من نايسلاند منذ نصف

قرن. ودخل المخترقون من الحركة لاحقاً في الصراعات من أجل الاستقلال الإفريقي، ففي عام ١٩٦١ نشرت بعض الصحف الأمريكية تقريراً أن قبائل كيكيوات الشرسة نصبت كميناً لفرقة إيرلندية تابعة لبعثة الأمم المتحدة المرسلة لمنع انفصال كاتنغا عن الكونغو البلجيجية السابقة.

لا يعني هذا القول أن حركة المراقبة الإفريقية خسرت انطلاقتها الألفية كلياً، فلا تزال تتنبأ بنوع من الألفية حول طرد الأوروبيين من إفريقية، لكنّ التاريخ لم يكن دقيقاً وتضاءل التوقع. وحافظت الحركة على فكرة بأن إطاعة الحكم الاستعماري هو إطاعة للشيطان، مع أن شهود يهوة الأكثر تطرفاً ساندوا أحياناً العصيان المسيحي لبعض متطلبات الحكومات العلمانية في الدول الغربية.

شعائر وطقوس نقل المواد في ميلانيزيا Melanesia

جذبت مجموعة أخرى من الحركات الألفية من جنوب غرب المحيط الهادي الانتباه خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، وسميت غالباً مذاهب الشحن التي تعني البضائع المستوردة من كل الأنواع. وتتضمن توقعات هذه الحركات الألفية، الأمل، والإيمان بأن بضائع الأوروبيين الثمينة ستصل عبر البحر أو الجو؛ لذا فإن هوية المانحين تغيرت من حركة إلى أخرى.

كانت طقوس التسفير الأكثر شيوعاً في ميلانيزيا وهو الاسم التقليدي لواحدة من ثلاث مجموعات ثقافية ولغوية رئيسة تأسست في جزر الهادي، وقد اشتملت على جزيرة غينيا الجديدة الكبيرة وغيرها إلى الشرق The New Hebrides، وقد نشأ هذا الاسم أصلاً من واقع أن لون بشرة السكان كان داكناً أكثر من بقية سكان جزر الهادي مع مظهر جسدي مشابه للسكان الأصليين الاستراليين، وكان جيرانهم البولونيزيون منتشرين على مساحة كبيرة من الأرض تمتد من هاواي إلى الشمال حتى نيوزلندة الجديدة في الجنوب. أما المجموعة الثالثة Micronesia إلى الشمال فهي تشتمل على جزر مبعثرة شمال خط الاستواء بين هاواي والفلبين.

وقد حصل الاختراق الأوروبي Melanena في مرحلة متأخرة مقارنة مع جزر الهادي الأخرى. ولم يقم الأوروبيون بزيارة غينيا الجديدة الساحلية إلا نادراً قبل ١٨٥٠، وجاءت عمليات الضم فقط عام ١٨٨٠ و ١٨٩٠. وحتى ذلك الحين، كان الأوروبيون بطيئين في استكشاف المناطق الداخلية للجزر الكبيرة، وقد وصلوا إلى معظم المناطق الخارجية المرتفعة لغينيا الجديدة فقط بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت غينيا الجديدة وبقية جنوب غرب Melanesia مبعثرة سكانياً، بمعدل عشرة أشخاص في الميل المربع وهو مقياس عام. وعندما وصل الأوروبيون قاموا بإنشاء إدارة استعمارية لأسباب استراتيجية وبشكل رئيس لمنع الأوروبيين الآخرين من القيام بالمثل، أكثر منه، لأجل المنافع الاقتصادية المتوقعة. واستخدموا الجزر فقط لمزارع جوز الهند المبعثرة، وللطبقة العاملة الموسمية المستخدمة في أماكن أخرى هنا وهناك، لاستخراج الموارد المعدنية. وقد حكم الإداريون القلائل السكان الأصليين بشكل رئيس عبر أتباع محليين عرفوا بالزعماء، وكانت قوات الجيش المطلوبة والشرطة معظمها مأخوذة محلياً، وكانت بإمرة ضباط أوروبيين. بمعنى آخر، اشتمل الوجود الأوروبي على عدد من المسؤولين الزراعيين وبعض المبشرين، وكان النفوذ الأوروبي ضئيلاً حتى بعد الضم.

كان تأثير الوجود الأوروبي على الثقافة المحلية متناقضاً أيضاً. في بعض الحالات، كان التأثير الأوروبي محدوداً جداً، وحصل قليل من سكان جزر المحيط الهادي على الثقافة الأوروبية من خلال التعليم، ووصل عدد أقل إلى درجة أعلى من المرحلة الابتدائية. وبالفعل استطاع نفر قليل من ممارسة القانون والطب والعمل لدى الإدارة في مراكز عالية. مع ذلك أدى غياب الشباب في فترات العمل المتنقل، وخسارة الأراضي الزراعية، والأجور الضئيلة في المزارع إلى تشتت العديد من التقاليد الثقافية القديمة.

وكان إدخال الأمراض الغريبة مهماً أيضاً في المناطق الساحلية للبلاد والتي لم تصل بعد إلى المرتفعات المعزولة ووصلت بعد نصف قرن ونيف إلى مناطق أخرى من

المحيط الهادي مثل: نيوزلندا وهاواي. وكان Madir متأخراً عما كان في الحوض الكبير في شمال أمريكا والذي حصل في العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

كانت مشاعر الحرمان الشديد سائدة. وكانت البضائع الغريبة ظاهرة في أيدي الأوروبيين ولم تكن متوفرة لدى أهالي Melansia، وقد تأثرت هذه المشاعر أيضاً بتعاليم المبشرين المسيحيين خاصة تلك التي تتحدث عن ظروفهم ولا تتعارض مع معتقداتهم السابقة. وكان العهد القديم مؤثراً، وكان لعملية أسر اليهود وهروبهم من مصر تأثير خاص كما حصل للمحرومين في أي مكان آخر.

وقد أعطت هذه المعاني الموجودة أيضاً الأمل بالمستقبل، وكانت الآمال الألفية موجودة في العديد من الأديان القديمة في المنطقة. وقد وجدت الحركات الألفية بتنوع كبير في أنحاء Melanisia ويمكن اعتبار ساحل غينيا الجديدة مثالاً إقليمياً. وفي أوائل ١٨٥٧، سجل المبشرون في المنطقة الغربية المحتلة من الهولنديين في غينيا الجديدة نبوءة جديدة تعتمد على أسطورة تقليدية حول شبيه للمسيح بصفة MANSERN، وكانت روايته حول معجزة رجل عجوز، وزوجته، وابنه الذين سافروا عبر كل المناطق الساحلية وقاموا بمعجزات متنوعة قبل اختفائهم. وروت الأسطورة عودتهم المتوقعة التي ستحصل في عصر ذهبي، حيث يعود العجزة إلى الشباب ويبعث الأموات، ويعود التناغم مع الطبيعة وستزول مطالبة الأوروبيين بالضرائب وبالعمالة الإجبارية.

وقد أثار رسول لاحق في غرب غينيا الجديدة أسطورة MANSERN لكن دون نبوءات ألفية دقيقة. وأخذت نبوءة طارئة مظاهر مناهضة الأوربيين، وقامت الإدارة باعتقال الرسول. وقد حافظ الرسول الذي سجن عام ١٩١١ على بعض أتباعه بعد إطلاق سراحه عام ١٩١٦. وظهر رسل آخرون في سنوات الحروب الداخلية مع نبوءات طارئة بأن اليوم سيأتي عندما تقوم بواخر أوروبية ضخمة بإحضار بضائع، وتقول نبوءة أخرى: إن أيَّ معامل تصنيع البضائع ستظهر من الأرض.

وقد أحدث الكساد الكبير الذي تلا اندلاع الحرب في أوروبا واحتلال الألمان لهولندا عام ١٩٤٠ توتراً سياسياً ووضعاً اقتصادياً صعباً في الجزء الهولندي من غينيا الجديدة. وقد برز رسل مع ترددات كبيرة، واتخذت نبوءاتهم ملامح مناهضة للأوروبيين أكثر ثورية. وكانت هذه الحركات نشطة بنوع خاص على الساحل الشمالي وعلى شواطئ جزر مثل BIAK، لذا توزعت هذه الحركات إلى مجموعات صغيرة غير مترابطة تنتظر كلها قدوم البضائع. وتضمنت طقوسهم الدينية غالباً استخدام الألقاب الأوروبية مثل: جنرال، وطبيب، وعامل راديو.

وعندما وصلت الحرب إلى Melanenia عام ١٩٤٢، كان أثرها كبيراً، وشكلت هذه المنطقة التي أهملها الغزاة لسنوات قليلة ساحة قتال مهمة بين أقوى الدول الصناعية. ولم تمثل هذه المنطقة اهتماماً جوهرياً بالنسبة لليابانيين، لكن عند احتلالهم للفلبين وأندونيسيا أصبحت الممر نحو أستراليا ونيوزيلاندا، كما تقع بورما في الطريق إلى الهند بعد الاحتلال السهل لبقية جنوب شرق آسيا. وكانت بورما وجزر Solomon حيث استطاع الحلفاء وقف التقدم الياباني بشكل فاعل.

وبالمصادفة أدى ذلك إلى استعراض ضخم لمختلف المنتجات العسكرية المتطورة المتوفرة في العالم.

وبالنسبة لشعب غينيا الجديدة الساحلية، جرى الترحيب بالغزاة أولاً على أنهم أعداء للهولنديين الظالمين، لكن هذه الموافقة زالت تدريجياً بعدما فاقت مطالب اليابانيين مطالب الهولنديين. وقد دخلت مجموعات متفرقة من PAPVAN القتال بعضها ضد اليابانيين، وبعضها الآخر ضد الأوروبيين؛ وقاتل آخرون الطرفين في مراحل متفرقة.

وفي عام ١٩٤٤ أدى الاحتلال الأميركي لـ BIAK ومنطقة الساحل الشمالي إلى تحول كبير في مستوى النشاط العسكري. فقد كانت القوة اليابانية في المنطقة أقل من عشرة آلاف رجل، وقد جرى تجريدها من السلاح بسرعة. وجعل الأميركيون

Holandia قاعدة للتحرك شمالاً إلى الفلبين وتمركز ٤٠٠ ألف رجل من القوات الأمريكية هناك في أوائل ١٩٤٤.

وخلال السنوات الأخيرة للحرب، قامت قوة من الحلفاء قوامها أكثر من مليون رجل مزودة بالسفن وطائرات النقل (إضافة إلى المؤلف) بالتحرك حتى جزيرة Ma-nus. وكان عدد السكان المحليين حوالي ٢٥ ألف نسمة. كان هذا الاستعراض لحجم البضائع المتوفرة في العالم الخارجي مؤثراً لأي كان، وزاد بالتأكيد في التوقعات الألفية مع أن الزعماء حددوها بشكل مختلف.

وقد بنى بعضهم المخازن لاستقبال البضائع المتوقعة وقاموا بطقوس دينية أخرى، لكن التوقعات والاستعدادات تحولت مع الوقت من خيالية إلى واقعية. فقبل الحرب على سبيل المثال، جرى التنبؤ بعودة MANSERN والاستعداد له بطقوس دينية. وخلال القتال، اعتاد PAPVANS استخدام القوة وشاهدوا استخدامها بشكل واسع. ولا زال العديد يتوقع الآمال الألفية وهم مستعدون الآن لدعمها بتحركات سياسية متنوعة تدعم مصالحهم.

كان لدى سكان MELANESIA برنامج براغماتي للآمال الألفية، وكانت لهم تجربة قوية مع الشحن عن طريق الجند الأجانب. ففي جزر SOLOMOW على سبيل المثال حيث قاتل الأميركيون والأستراليون ضد اليابانيين لأول مرة برز تنظيم سياسي في أواخر ١٩٤٥ يدعى نظام الكتلة.

ولا توجد علاقة لهذا النظام بنظام ماركسيان MARXIAN كما ادعى المعارضون في ذلك الوقت. وكان الجانب السياسي للحركة، العمل على إقامة حكومة مؤسسات فيها جذور أوروبية لبعض الوقت. استفادت زعامة نظام الكتلة من انشغال الأستراليين في مكان آخر، وأصبحت الحكومة الفعلية للجزر.

تمسكت الحركة بتوقعاتها إلى جانب إنجازاتها بأن الأميركيين الذين مروا خلال الحرب سوف يعودون مع بضائع؛ لذا كانت هذه التوقعات في حينها تفسيراً جانبياً.

في البدء، وصفت الحكومة الأسترالية الاستعمارية الحركة بالانقلابية، وأوقفت معظم قادتها البارزين لكنها اعترفت بسرعة أن القمع لن يجدي نفعاً. وفي بداية ١٩٥٠، أقامت استراليا حكومة محلية منتخبة كانت أكثر فاعلية في التصدي لمطالب نظام Marching Rule بسلطة مستقلة، وبالفعل كان ذلك التحرك رئيساً نحو الاستقلال في جزر Solomon والذي أعلن عام ١٩٧٨.

نجاح أو فشل

اعترض معلّقون سابقون على الدور المميز والتاريخي لأكثر الحركات الألفية تطرفاً. وكان لبعضٍ مظاهرُ عملية وخيالية أيضاً، لكنها فشلت جميعها بمعنى أن الألفية المتوقعة لم تحدث مطلقاً. وقد وصفهم تخمين شائع كنوع من المرض الاجتماعي وعدم ثقة يؤدي إلى المجهول. وتضع مثل هذه التقديرات الحركات الألفية إلى جانب المذاهب الأمريكية العصرية مثل الحركة الداوودية في واكو تكساس عام ١٩٩٠، أو المذهب المسؤول عن مجازر جونستاون الجماعية والانتحار عام ١٩٨٠.

وتوضح تقديرات أخرى المظهر الديني للحركات الألفية، والأمل في تدخل إلهي لديه الكثير من المشترك مع الدين أكثر منه مع السياسات العلمانية، ويساعد العديد من الأديان الأفراد على تخطي مشاعر العجز، وقد أعطت العديد من الحركات (رقصة الشبح وشهود يهوه) الطمأنينة لأتباعها حتى بعد فشل ظهور الألفية.

ومهما كانت التقديرات السابقة، فإن هذه الحركات مهمة لفهم التحول في المجتمعات الإنسانية. وبالرغم من أنها كانت نادرة النجاح في الوصول إلى أهداف محددة، فهي تبرز بأنها الردود البشرية على المشكلات الإنسانية، وإذا كانت فرضية، فهي مع ذلك أمثلة للردود على التنوع - ضمن هذا السياق - فهي تنتمي في مكان ما إلى امتداد يمر من الأعمال الإجرامية من جهة إلى الثورات السياسية الرائعة والعقائدية مثل الثورة الأمريكية من جهة أخرى.

دروب إلى استقلال قابل للحياة: غانا

كانت عملية بناء أمة في غانا مختلفة كثيراً عن أندونيسية وربما أكثر نجاحاً. فغانا ليست مثل أندونيسيا في خصائص عديدة، وتقع الدولتان على طرفين متقابلين من الكوكب، ولديهما القليل من التشابه في ثقافتهما. بالرغم من أن كلاهما استوائية، وكل الأرض النائية من الساحل الذهبي، أصبحت غانا منطقة من الزراعة المتناوبة مع مناطق أرز مروي قادر على دعم الكثافة السكانية مادياً. وتعتبر أراضي أندونيسيا متنوعة وموزعة على منطقة شاسعة مع عدد سكان بلغ ٨٥ مليون نسمة مقابل ٦ مليون في غانا عند الاستقلال. وبالرغم من كل هذه الاختلافات فإن تجربتهما التاريخية تتضمن الكثير من المشترك.

وقد تلاقت المنطقتان مع الأوروبيين تحت ستار التجارة مع بعض الامبراطوريات. وقد بدأ الحصن البرتغالي في المينا على الساحل الذهبي عام ١٤٨١ وزار كولومبس هذه المنطقة قبل ذهابه لاكتشاف أمريكا. وقد أنشئت قاعدة باتافيا في جاوا عام ١٦١٩ بعد ذلك بنصف قرن، غير أن الحركة من تجارة المناطق إلى أراضي الإمبراطورية كان له التوقيت نفسه في الساحل الذهبي وجزر الأنديز الهولندية. وبمعزل عن سيطرة الهولنديين المبكرة على جاوا فإن غزوهم لشمال سومطرة حصل مع استيلاء البريطانيين على أسنتة والأراضي النائية عام ١٨٩٠.

وفي غانا وجزر الأنديز الهولندية كانت حركات الاحتجاج المناهضة للاستعمار حتى قبل الغزو مكتملة وكسبت الدولتان الاستقلال الرسمي عام ١٩٥٠.

الإقليم والشعب:

قيل مراراً إن الحدود الإفريقية مصطنعة، وقد رسمت من قبل الاستعمار خلال الزحف نحو إفريقية. إن ذلك صحيح جزئياً، لكن الحدود وفق اتفاقيات بين الأوروبيين وظلت نفسها حتى يومنا هذا. لهذا السبب، فإن هناك حدوداً أخرى

اصطناعية، وقد وُضعت الحدود أولاً ثم نما الإحساس بالهوية الوطنية داخل هذه الحدود، ويعتبر ذلك صحيحاً بالنسبة لأندونيسيا كما كان بالنسبة لغانا وأمريكا.

تشكلت الأراضي التي أصبحت غانات من أربع أنواع من الكيانات ما قبل الاستعمار مرتبة على شكل طبق من الحلوى مع طبقات متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب وعلى طول خليج غينيا. وعندما تقدم الإنكليز من الشاطئ إلى الأرض النائية، قاموا بضم جزء من كل كيان جديد من الشاطئ حتى الأراضي النائية قسماً سياسياً من الساحل الذهبي، وقاموا بالتعامل مع كل منها على حدة بشكل مختلف.

وكانت أول هذه المناطق منطقة الدول الصغيرة جنوب أسنتة حيث كان الوجود الأوروبي محدوداً لمدة طويلة في الحصون التجارية، وكانت السيطرة على هذه الحصون هزيلة. وكانت معظم الشركات التجارية الأوروبية تدفع نوعاً من الإيجار أو الدعم للحكام الأفارقة المقربين. وجاءت أول حالة ضم أراض واضحة عام ١٨٧٤ عندما عمدت بريطانيا إلى ضم حزام الدول التجارية على طول الساحل معطية لمستعمرة الساحل الذهبي أول وجود رسمي.

ويعد استخدام عبارة دولة في هذا السياق مشكلة للتاريخ الإفريقي. وقد استخدم الحكام الاستعماريون والدخلاء عبارة قبيلة أحياناً، لكن هذا الاستخدام كان حقيراً ودون أيٍّ معنى دقيق بأي حال. وتحتاج الدولة من جهة ثانية إلى حكومة أكثر تنظيماً من التي وجدت في أي مكان قبل بداية العصر الصناعي، ويمكن أن تكون عبارة مملكة أكثر دقة، لكن كون هذه الكيانات صغيرة فقد سميت دولاً صغيرة. وقد اختلف عدد هذه الوحدات وفق التقديرات السياسية للوحدات المستقلة. وربما كانت هناك ٤٠ وحدة سياسية في القرن السادس عشر مع بعض الترابط مع الوقت، لكن العدد انخفض إلى عشرين في القرن التاسع عشر، وكان لدى هؤلاء قاسم ثقافي مشترك، مع أن هناك انقساماً لغوياً كبيراً يفصل ثقافة منطقة AKAN الواسعة إلى الغرب والوسط عن مناطق ثقافة Adangne, GA في أكرا والمناطق النائية شرقاً حتى نهر فولتا.

وكانت لهذه الممالك تجارة نشطة لفترة طويلة قبل وصول الأوروبيين من البحر. وقد قايض سكان الساحل الملح والسمك من المحيط مقابل الأقمشة ومنتجات أخرى من الداخل. ومنذ عام ١٤٨٠، زادت عملية الاتصال مع أوروبا عن طريق البحر حجم التجارة بين الشمال والجنوب لكنها استمرت كلياً بأيدي إفريقية. وبعكس الهولنديين في باتافيا مارس الأوروبيون سيطرة سياسية محدودة على الأراضي النائية.. وكانوا يسيطرون فقط على الحصون التجارية وعدد من المراكز التجارية غير المحصنة. ولم تكن هذه الحصون للحماية بشكل رئيس من الأفارقة: بل لدرء خطر الأوروبيين الآخرين التي كانت غاراتهم تشكل خطراً فعلياً كون جزء كبير من التجارة من الذهب.

في القرن الثامن عشر، بنى الأوروبيون ٢٥ حصناً حجرياً على طول الساحل الذهبي بمعدل حصن كل عشرة أميال دون حساب عدد المواقع الأخرى غير المحصنة أو المحصنة بشكل خفيف، ويبدو العدد كبيراً، لكن كل قوة أوروبية تريد تأمين وصول أمن قدر الإمكان إلى المعابر التي تقود نحو الداخل. وكان البرتغاليون أول من وصل، لكنهم تخلوا بعد مدة من الوقت وحلت مكانهم مراكز متناثرة يديرها هولنديون وإنكليز ودانماركيون وآخرون.

بدأت المنطقة التي تمثل الطبقة الثانية وتبلغ بين ٣٠ و ٥٠ ميلاً بحرياً، وكانت منطقة ممالك واسعة واقعة جنوباً في منطقة الغابات وجزئياً أبعد منها في سفانا الجنوبية، قبل القرن السابع عشر كانت هذه الممالك صغيرة مثل الممالك السياحية. وفي أوائل القرن التاسع عشر، جعل التماسك السياسي أسنتة أكبر المجموعة، لكن الآخرين Denkyise في الغرب وأكوامو في الشرق قاموا باستيعاب جيرانهم الأصغر قبل أن يستوعبوا بدورهم من أسنتة. وكانت أسنتة مماثلة للممالك الساحلية من حيث حضارة AKAN، غير أنه في أوائل القرن التاسع عشر توسعت سلطة أسنتة أبعد من منطقة حضارة AKAN شرقاً عبر نهر فولتا وشمالاً حتى وصلت في بعض المناطق أبعد من الحدود الحالية لغانا.

شكلت المنطقة شمال أسنتة الطبقة الثالثة الأكثر تعقيداً وتنوعاً. فقد تبدلت الزراعة الطبيعية حتى في شمال أسنتة من غابة استوائية في سافانا إلى أرض حرشة مفتوحة. وفي نيجيريا المجاورة، سميت هذه المنطقة أحياناً (الحزام الوسط) بين الغابة الممطرة في الجنوب وسافانا كلها إلى الشمال. غير أنه وضع غانا، كانت المنطقة المماثلة لشمال نيجيريا تمتد بشكل رئيس عبر حدود بوركينا فاسو. وعلى غرار الأحزمة النيجيرية الوسطى، اتجه شمال الغيني نحو الميل أكثر إلى التبعثر السكاني والتشرذم السياسي والتنوع العرقي من الدول المجاورة إلى الشمال والجنوب. ومن المجتمعات الفاقدة الجنسية إلى نسبة التي بقيت خلال القرن العشرين Tallensi وقد مثلت نموذجاً لذلك. وقد وصفت بعديمة الجنسية لعدم وجود نظام سياسي مركزي وليس بسبب الافتقار للسلطة عموماً، وعوضاً عن ذلك كانت المؤسسات السياحية معتمدة على صلة القربى مع ميزان متشابك من الأنساب والمسؤوليات المتناوبة لإثارة النزاعات بدل حل هذه النزاعات عبر شخصية قضائية مركزية. وامتد نسيج العلاقات بين الأنساب من قرية واحدة ليشمل مجموعة قرى معزولة، بحيث لم تكن هناك حدود واضحة دائماً لمدى هذه العلاقات.

وأخيراً، إلى الشمال من الحزام الأوسط وجدت منطقة من الممالك الأكثر أهمية سافانا التي تمتد من الأطلسي إلى بحيرة تشاد وما وراءها، وكان السكان إلى الشمال من غانا بأغلبيتهم من حضارة Mossi الموجودين حالياً في بوركينا فاسو: ولذا امتد نفوذهم إلى الجنوب من الحدود الحالية.

التوحيد السياسي في الداخل:

لم تكن أيٍّ من هذه المجتمعات الساحلية والحرشية أو سافانا ثابتة. وجاء التوحيد السياسي الذي دام طيلة قرون نتيجة تطوير حرف التجارة. وكانت حقول الذهب في MKAN إلى الجنوب مصدراً لمعدن مالي مصدرة بشكل واسع إلى شمال إفريقية وأوربا حتى قبل نزول البحرية الأوروبية إلى الشاطئ. وقد بسط الشعب

المسمى Jaula (التي تعني تاجر) سيطرتهم السياسية لعدة قرون في المنطقة شمال وغرب أشنة. وقاموا بإدخال الإسلام إلى المنطقة، واستخدم آخرون يمتطون الخيول طريق Jaule للتقدم إلى داخل غانا الحالية. حيث أنشؤوا مملكة لونجا Lonja، وقام فرسان آخرون من غير المسلمين هذه المرة بدخول المنطقة من الشمال والشمال الشرقي، وأسسوا ممالك صغيرة أخرى مرتبطة بممالك Mossi التي تسمى حالياً بوركينا فاسو.

غير أن التحولات الأكثر أهمية لم تكن سياسية. فقد جلبت التجارة المعرفة من المجتمعات الأخرى وكذلك أساليب أخرى لصنع الأشياء، جلبت الإسلام مع عقيدته. ولم يقم علماء المسلمين بنشر دينهم فقط بل كانوا مفيدين لدى الحكام غير المسلمين وعملوا كتّاباً وموظفين، ومع حلول القرن الثامن عشر، ظهر التجار المسلمون على الساحل أحياناً وكسب الإسلام أتباعاً إلى الجنوب في أسنتة.

لم تكن عملية التوحيد السياسي فقط مرحلة من الغزو والإحاطة، كان بروز أسنتة المثال الأهم في عملية بناء أمة ما قبل الاستعمار. بدأت أسنتة واحدة من الدول الصغرى العديدة في AKAN من منطقة الغابة وسافانا. وقد اتجهت هذه الممالك إلى اختيار زعماء شبه منتخبين مرتكزين على توازن دستوري بين سلسلة من الأنساب تم التعبير عنها عبر توزيع السلطة السياسية بين الزعيم ومجلس من كبار القوم، الملكة الأم ومجموعة العامة. كان هناك عبيد أيضاً لكنهم لم يحصلوا على أيَّة سلطة سياسية مهمة أكثر مما أوكل إليهم أسيادهم. وكان موقع الملك دينياً جزئياً طالما أنه مكلف بالوساطة بين الأحياء وأجدادهم الأموات الذين تتمثل أرواحهم رمزياً بالأداة الخشبية المنقوشة دون ظهر التي يجلس عليها الملك في المناسبات. وكان يُصنَع كرسي جديد Stool لكل حاكم، وكانت مقاعد الملوك السابقين تحفظ في مخزن الأدوات المساوي للمتحف الملكي الذي يحفظ فيه تاج كل ملك سابق. وكانت السلسلة الواضحة للشرعية النسب واتحاد الحاضر مع المستقبل من خلال الأجداد الذين كانوا الممثلين البارزين لكل نسب ولكل مملكة في عالم الأرواح.

كان من الصعب جمع هذه الممالك الصغيرة معاً، طالما يمثل كل ملك أجداد مجموعة Komasi ومستشاروه رمزاً لاتحاد واسع. كان ذلك الرمز عبارة عن أداة ذهبية سقطت نظرياً من الجنة وتمثل أجداد كل الشعوب في مملكة جديدة تشكلت من خلال التحالف العسكري. كانت أسنتة هي هذه الدولة، وأصبح ملك كوماسي Asentehena أو ملك الاتحاد برمّته كما كان. غير أن Sentehena لم يجلس على الكرسي الذهبي وظهر جالساً على كرسيه.

في القرن الثامن عشر، هزمت أسنتة Denkyire وأصبحت الدولة الأكثر أهمية بوحدتها في حزام الغاجة مع مجلس عام وجيش عام ونظام قضائي، وتركت كل من الممالك المجتمعة توسع أسنتة في منتصف القرن التاسع عشر، لكن المناطق المحتلة عوملت بطرق مختلفة. وقام بعض أتباع حضارة AKAN بالانضمام كأجزاء مكملة لملكة أسنتة. وتم ضم عدة دول ساحلية صغيرة من حضارة AKAN ظاهرياً لكنها لم تكن مكملة لدولة أسنتة، كانت هذه الدولة متروكة للقيام بتسيير أمورها ولم يطلب منها المساهمة في جيوش أسنتة التي تقاتل. بمعنى آخر كانت محميات. وغزت أسنتة أيضاً عدة ممالك إلى الشمال ما وراء منطقة حضارة AKAN لكن عاملتها بشكل مختلف، فقد أجبرتها على الاعتراف بتبعيتها وبدفع الجزية، لكن خلاف ذلك سمحت لها بإدارة شؤونها الداخلية. واشتملت هذه المناطق الشمالية التابعة على ممالك كبيرة مثل Gonja و Dagonba وقد أسست أسنتة خلال قرن ونصف من التوسع بنية إدارية جديدة تضمنت مراكز معينة خاضعة لـ Asentehen لكن كان لديها سلطة من الممالك التابعة. وكان النظام السياسي على غرار النظم الأوروبية السائدة في ذلك الوقت لكن بعض السلطات رأت فيه بداية للبيروقراطية.

التوحيد السياسي على الساحل

في أوائل القرن التاسع عشر، حصل نموذج مشابه من التوحيد السياسي في أوساط الدول الصغيرة الساحلية بشكل رئيس رداً على خط توسع أسنتة، ولجأت هذه

الدولة إلى الحصون لطلب المساعدة، مع أن هذه الحصون الساحلية ليس لها قوة كافية ولم تكن نِداً لجيرانها إبان ازدهار تجارة العبيد. بالرغم من ذلك كان قادتها متورطين في الشؤون السياسية للمنطقة. وبعد إلغاء تجارة الرقيق عند الإنكليز عام ١٨٠٩، لم يعد هناك مبرر للحفاظ على النقاط الساحلية، لكن مع ذلك استمروا متورطين في النزاعات المحلية. بين ١٨٢٤ و١٨٢٦، دخل الإنكليز تحالفاً معادياً لأسنتة مع الدول الساحلية وقتل الحاكم البريطاني خلال المعركة ضد قوات أسنتة.

كانت مبادرة هذا التحالف إفريقية، لكن مجموعة من الحكام الإنكليز أذعنوا ظاهرياً على حماية أمن التجارة. وفي عام ١٨٣٠، لجأ حاكم بريطاني إلى إثارة الفتنة في أوساط شعوب Fiaute حول قلعة الكاب الساحلية المركز الرئيس البريطاني، ثم بدءاً من عام ١٨٤٤، أعطى الصفة القانونية لهذا النفوذ من خلال توقيع سلسلة من المعاهدات سميت اتفاقيات. وقدم الغطاء القانوني لعلاقة كانت تتطور بشكل غير رسمي سُميت أحياناً: حماية قضائية. حصل المسؤولون البريطانيون على سلطة لمحاكمة بعض الحالات، تورط فيها حكام أو أتباع في الدول الصغيرة المختلفة، لكن تم الحكم في هذه القضايا وفق القانون الإفريقي وليس الإنكليزي، انقلاباً على القانون في مناطق خارج سلطتهم والذي طالب به الأوروبيون مراراً في الإمبراطورية العثمانية أو معاهدة المراكز مع الصين.

في عام ١٨٥٠، اشترى الانكليز الحصون الدانمركية لكن بدؤوا في نهاية ١٨٦٠ بالتخطيط لإخلائها مع تزايد خطر سلطة أسنتة الذي كان قائماً. وفي ظل حالة الشك هذه، جاءت مبادرة للتوحد السياسي من الأفارقة المتغربين الذين بدؤوا فعلاً يظهرون قدرات متنوعة حول الحصون. وقد شغل متغرب إفريقي منصب حاكم عام ١٨٤٠ وكان آخرون في مراكز عليا في الإدارة وكان الدكتور MORKN. B. A. J أحد قادة التوحيد، وقد نشأ في الشرق حيث دولة نيجيريا الحالية وقد قبض عليه في البحر من قبل الإنكليز ثم أعيد اعتقاله وتعلم في بريطانيا وكان عنصراً نظامياً في جهاز الخدمات الطبية للجيش البريطاني المتمركز على الساحل الذهبي.

كان المسؤولون الإنكليز في الحصون محايدين في البداية. وظهرت في إقامة إدارة أولية. غير أن تبدل السياسة البريطانية عام ١٨٧٠ أدى إلى قرار الإنكليز الحفاظ على حصونهم وبدؤوا مفاوضات لشراء حصون الهولنديين أيضاً. وفي عام ١٨٧٣ غزت أسنتة مجدداً الممالك الساحلية واحتلت معظم المناطق نزولاً حتى الحصون. وردّ الانكليز بهجوم صاعق على أسنتة التي تقدمت نحو Komesis وأحرقت العاصمة ثم تراجعت. تحركت بريطانية لحماية مركزها المستقبلي. بضم أحادي لكل الممالك الساحلية وللأراضي النائية للحصون الساحلية وجنوب أسنتة مؤسسة مستعمرة الساحل الذهبي. وكانت هذه أولى مطالبة واضحة وحاسمة للسيطرة الأوروبية خارج الحصون. وتحول التوحيد السياسي الذي حصل بناء على مبادرة إفريقية إلى مبادرة للأوروبيين.

ضم وتنافس وإقامة حدود:

من خلال النظرة التقليدية للجغرافيا السياسية الإفريقية، رسم الأوروبيون حدودهم الاستعمارية متجاهلين الواقع الإفريقي، وكان هذا هو الحال أحياناً. غير أن الإنكليز في الساحل الذهبي قاموا بضم كل الممالك الإفريقية كما فعلت أسنتة في الماضي، وفي عام ١٨٩٥ أضاف الإنكليز أسنتة أيضاً. وإلى الشمال من أسنتة، كانت الخصومات الأوروبية أكثر أهمية في مكان تحديد الحدود. كان الفرنسيون يتقدمون شمالاً من ساحل العاج إلى الغرب، وكان الألمان يتقدمون من توغو إلى الشرق: ونتيجة لذلك، جرى ترسيم الحدود الجنوبية للساحل الذهبي باتفاق بين الانكليز والسلطات الإفريقية بشكل عفوي، وتم ترسيم الحدود الشمالية باتفاق بين البريطانيين والأوروبيين الآخرين. وقد علم الأفارقة بالأمر بعد حصوله. وبالرغم من تدخل الدبلوماسية الأوروبية، كان نصف سكان غانا من حضارات AKAN يتكلمون لغات متشابهة، لكن الممالك الأخرى التي تتحدث لغة AKAN في ساحل العاج تحاشت هيمنة أسنتة: لذا فقد بقي ربع شعوب AKAN خارج غانا الحالية. من جهة أخرى كانت شعوب BA و Adangue في منطقة أكرا ضمن غانا كلياً.

ولم يكن شعب EWE على الحدود الشرقية إلى الشمال من أكرا كياناً سياسياً، مع أن لديه روابط ثقافية قوية، وساند دائماً الدعوة لتشكيل دولة عصرية واحدة، وكان شعب EWE منقسماً بين الساحل الذهبي وتوغو الألمانية. وفي عام ١٩١٩ انقسمت توغو بين الانتداب الفرنسي والبريطاني تحت رعاية عصبة الأمم، وأصبحت أرض توغو البريطانية جزءاً من غانا، واليوم يعيش ثلث شعب EWE في غانا مع أن الثلث الآخر أصبح المجموعة العرقية المسيطرة في توغو المستقلة بعد الانتداب الفرنسي.

إلى الشمال من أسنتة انتهت معظم الممالك وأصبحت Dagonbe, Goyia جزءاً من غانا غير أن موسي Mempusi, Momi في الشمال الأقصى شكلوا جزءاً من مجموعات ثقافية متمركزة في بوركينا فاسو حالياً.

وبالتالي فإن معظم الغانيين ينتمون إلى حضارة AKAN، وكان لدى أجدادهم الحاليين قواسم مشتركة ثقافياً أكثر مما للأجداد الفرنسيين عندما ضموا إلى الملكية الفرنسية، كانت أسنتة بشكل واضح أمة مع تقاليد ووحدة تاريخية، وظلت هذه التقاليد مظهراً للحياة السياسية الغانية. لم تكن سيطرة حضارة AKAN في غانا مختلفة كثيراً عن جاوا في أندونيسيا مع أن العلاقات السياسية الناتجة بين AKAN والباقي كانت أقل خطورة مما بين جاوا والجزر المحيطة.

السياسة البريطانية والتحديث السياسي

بدأت التصرفات الانكليزية تتبدل بشكل حاد تجاه ثقافات إفريقية الاستوائية عام ١٨٨٠، وقبل ذلك بعدة عقود بين ١٨٣٠ و١٨٧٠، سلّم معظم المراقبين الإنكليز بضرورة تحضير إفريقية، وأنه يجب نشر الحضارة عبر نفوذ المبشرين الشبه مباشر والعلاقة التجارية وليس من خلال الحكم البريطاني. وبينما كان بعض الوجود البريطاني مسلّماً به في الحصون الساحلية، أوصى بعضهم أو توقع نوعاً من الغزو أو الضم الذي حصل في العقود الأخيرة.

وفي عام ١٨٩٠، تبدلت هذه الافتراضات بشكل مأساوي عندما ضمت بريطانيا أسنتة والأراضي الشمالية، ولم يعد الإنكليز ينظرون بعين الرضى للأفارقة الموجودين في مراكز عليا في المستعمرات وبدؤوا تدريجياً بإقصاء الأطباء الأفارقة من الخدمة الطبية الإفريقية الغربية لتقليص تعيين الأفارقة في مراكز عليا في الخدمة المدنية، ولتخوين الأفارقة الذين بدؤوا يلعبون دوراً في السياسات الاستعمارية، خاصة المحامين المتخصصين الذين درسوا في بريطانيا للعمل في المحاكم الاستعمارية، لم تكن الفكرة الجديدة للوصاية تتعارض مع تحديث إفريقية الاستوائية أو الساحل الذهبي، لكنها كانت مرتكزة على الاعتقاد بأن التحسينات في المستقبل القريب ستنجز بشكل أفضل مع وجود مسؤولين إنكليز في موقع المسؤولية، والأفارقة في مواقع أدنى.

كان من الصعب استعادة كل المكاسب التي حصل عليها الأفارقة في مستعمرة الساحل الذهبي، لكن كان من الممكن التعامل بشدة أكثر مع المناطق الملحقة حديثاً. ولم تصبح هذه المناطق جزءاً من المستعمرة بل جرى تنظيمها على حدة، مثل أسنته والمناطق الشمالية وأرض توغو البريطانية، وجرى تنظيم المناطق الجديدة على أنها محميات لا يطبق فيها القانون البريطاني بالضرورة. وافتقر السكان إلى حقوق المواطنين البريطانيين وكانوا فقط أشخاصاً خاضعين لحماية بريطانيا، وكان هذا التمييز واضحاً، وقد تم تطبيق قانون ١٨٣٣ حول تحرير العبيد في الإمبراطورية البريطانية في المستعمرات فقط، وليس المحميات، وجرى منع المحاكمات لفترة من قبل محلفين في المناطق الجديدة خوفاً من حصول مشكلات مع المحامين الأفارقة المدربين في بريطانيا.

وعبر العقود بين ١٨٩٠ و١٩٢٠، كانت سياسة الحكم غير المباشر معتبرة أفضل طريقة للحكم في المستعمرات من قبل الإنكليز. كان من السهل الحكم بواسطة الزعماء في هذه الفترة، لكن الدعوات في هذه الفترة شددت على الحكم غير المباشر وفق قواعد جديدة، وكانت متأثرة بشدة بالعنصرية الأوروبية السائدة في

ذلك الوقت. لم يكن الجدل الثقافي نسبياً فقط حول ضرورة حكم الأفارقة وفق طريقتهم. واعتقد بعض الإنكليز أن الطريقة الإفريقية هي بجودة الطريقة البريطانية لحكم الأفارقة، ولكن معظم الإنكليز يعتقد أنها الطريقة الأمثل لحكم شعب له وضع عرقي أدنى.

ونتيجة لهذه التصرفات الجديدة في مرحلة الوصاية، كان انتشار الأسلوب الغربي في الحكم مجمداً فعلياً منذ ١٨٩٥ إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من الانتخابات التمثيلية في المستعمرة، لم تمتد الحكومة الديمقراطية إلى أسنتة والمناطق الشمالية أو توغو حتى عام ١٩٤٦ أي قبل أقل من عشر سنوات من الاستقلال.

التعليم:

بالرغم من إهمال التحضير للحكم الذاتي، أسهمت الإدارة البريطانية ببناء أمة بأساليب أخرى غير متوقعة. واشتمل قرار مهم على خطة عمل للغة. وكانت هناك عدة خيارات متوفرة. ويمكن أن يكون التعليم باللغة الأم للطلاب أو مزيج من اللغة الأم والإنكليز أو الإنكليزية منذ البداية. ويمكن أن تكون لغة إفريقية غير اللغة الأم للطلاب. وقد جرى استخدام لغة السواحلي بهذه الطريقة في كينيا وتنزانيا مع أنها كانت اللغة الأم لأقلية صغيرة فقط. وأصبحت لغة Bazan Mabay أندونيسية بالطريقة نفسها تقريباً. وأفادت لغة المالاي إندونيسيا كثيراً، لكن بعض السلطات بنت أفكارها حول السياسة اللغوية الإفريقية بناء على افتراضات عرقية. واعتبرت أن اللغات الإفريقية بالرغم من مستواها المتدني عن الانكليزية تلائم بشكل أفضل الوضع العرقي للأفارقة. وقد اقترح مسؤول أن يكون التعليم الابتدائي في الساحل الذهبي بلغة Hause اللغة الرئيسة لشمال نيجيريا وغير مرتبطة لغوياً بأي لغة للساحل الذهبي.

ولحسن حظ الساحل الذهبي، تم اتخاذ قرار بأن تكون الانكليزية لغة التعليم بما في ذلك البعثات التبشيرية المهمة، وقد فتحت اللغة الانكليزية آفاق العلم المتوفرة في العالم خارج إفريقية. وأصبحت اللغة الانكليزية اللغة الوحيدة للإدارة ولغة قيادة الفوج العسكري في الساحل الذهبي. أضف إلى ذلك، لم يكن المسؤولون الاستعماريون متحمسين بشدة لتعلم لغة Twi، المحكية بشكل واسع في AKAN. وقد جرى في أغلب الأحيان تبني سياسة مختلفة في مكان آخر من إفريقية البريطانية، حيث كان متوقعاً أن يظهر المسؤولون مستوى من الكفاءة في اللغة الإفريقية، ولغة السواحلي لغة قيادة فرقة البنادق الملكية الإفريقية في شرق إفريقية، وكان على الإداريين في شمال نيجيريا معرفة بعض HAVSA وفي بعض الأحيان لغة Fulena أيضاً.

كانت سياسة تشجيع الأفارقة على التطور على طريقتهم متناقضة في الواقع، فقد أيد عدد قليل من الإداريين الطريقة الإفريقية فعلياً. وبالرغم من تقديم الخدمات على الطريقة الإفريقية، فقد استخدم المكتب الحكومي، ورجال الأعمال الإنكليز والبعثات أشخاصاً يعرفون القيام بأعمال على الطريقة البريطانية فقط. وكان الاقتصار على استخدام المواطنين الإنكليز مكلفاً بشكل كبير؛ لذا لم يكن هناك من تدريب الأفارقة على العمل، وأدى ذلك إلى الحاجة العملية لمدارس أكثر بما في ذلك المدارس الثانوية. وكانت المدارس الثانوية كبيرة دائماً مما جلب أشخاصاً من مختلف المناطق. وكما في بريطانيا، صقلت التجربة المدرسية أواصد الصداقة والتعاون. وخارج هذه الشبكات القديمة. فقد أدى النمط الواحد للغة التعليم إلى زيادة أعداد الذين يتواصلون دون الالتفات إلى خلفيتهم العرقية، وقد كانت هذه النخبة المتعلمة هي التي شكلت حركة الاستقلال.

ففي عام ١٩٢٠، كان لدى هذه النخبة من المشترك ما يكفي لتأسيس أمة أساسية بالرغم من أنها كانت مقتصرة على جزء صغير من السكان.

الخطط الممكنة للاستقلال:

أصبحت غانا مستقلة ضمن حدود مستعمرة الساحل الذهبي، والمحميات المرتبطة بها، لكن كان هذا الخيار حتمياً. ويستطيع الناس اختيار أيٍّ من الأمم العديدة الممكنة التي يشعرون بالانتماء إليها. كما كان للزعماء السياسيين في الإمبراطورية العثمانية، حق الاختيار بين الهوية العثمانية والهوية الإسلامية، والهوية التركية التي برزت أخيراً من خلال الجمهورية التركية الحالية، كان للزعماء السياسيين في الساحل الذهبي المجموعة نفسها من الخيارات، وكان هناك تنوع في الأحاسيس المختلفة من التضامن الحالي، واستمر، وتغير مع مرور الوقت.

كانت الأنماط العرقية في معظم التصرفات الأوروبية تجاه إفريقية - الشبه صحراوية - عاملاً يحدد اختيار الهوية. وكان الرد الإفريقي السعي للتضامن مع مواطنين آخرين بالمواصفات نفسها والعمل على ربط كل شعوب إفريقية - الشبه صحراوية - والشتات والأمة الإفريقية التي برزت، واستمرت بتشكيل مطالبة فاعلة في بعض الحالات. غير أن هدف ولايات متحدة إفريقية لم يكن قوياً. وقد برزت وحدة ممكنة قاعدتها غرب إفريقية البريطانية عام ١٩٢٠ على شكل اتحاد بين غامبيا وسيراليون والساحل الذهبي ونيجيريا، لكن هذه الفكرة فقدت استمراريتها مع اقتراب موعد الاستقلال.

وكانت وحدات أصغر من غانا الحالية ممكنة أيضاً. كان من الممكن نظرياً حصول تفكك في البنية الاستعمارية لأسنتة وأرض توغوا البريطانية والمناطق الشمالية، وكانت أمة AKAN الساعية إلى توحيد حضارة AKAN في ساحل العاج والساحل الذهبي ممكنة التحقيق أيضاً، لكن لم تبرز هذه الحركة وكانت المطالبة الوحيدة لتوسيع الأمة صادرة عن حركة EWE الطامحة لتوحيد الشعب المقسم بين الانتداب البريطاني، والفرنسي وكانت بعيدة عن حدود الساحل الذهبي، لكن حتى هذه الحركة كانت ضعيفة. وكانت حركة التحرير الوطني الحركة الأقوى من بين

القاعدة العرقية للساحل الذهبي والتي أسست مملكة أسنتة. وقد نمت لفترة وجيزة في أواسط ١٩٥٠ مع الولاء لأسنتة التي ظلت قوة سياسية.

وكان كوامي يذكر ويقول دائماً إن على الأفارقة السعي أولاً للاستقلال في أي حدود سياسية ممكنة معترف بها من أوروبا، ثم العمل لتحقيق الأهداف الأخرى وفق هذه الخطة. وكانت الجغرافيا السياسية ثابتة منذ الاستقلال مع أنه لوحظ دائماً أن الحدود الطبيعية ناقصة. لكن كان الساحل الذهبي في أول الخمسينيات في طريقه ليصبح مستقلة قابلة للحياة جزئياً كونها ظلت طبيعية لفترة طويلة دون تغيير وجزئياً بسبب التكامل الاقتصادي الذي حصل خلال النصف قرن الماضي.

التكامل جغرافياً واقتصادياً:

كانت منطقة الساحل الذهبي الذي سماه الأوروبيون مميزاً طبيعياً بشكل لم يكن ظاهراً في الحال. وقد أخذت اسمها من مناجم الذهب في أكان AKAN التي أنتجت ذهب التصدير عبر البحر في أوائل ١٤٨٠. وقد جذبت مناجم الذهب التجار من الشمال في وقت مبكر بحيث فتح الاتصال البحري علاقات تجارية امتدت من خليج غانا حتى حدود الصحراء وما وراءها.

وكان الساحل الذهبي مميزاً لسبب آخر، كان الساحل الشرقي والغربي لخليج غينيا عرضة للعواصف والتيارات من الغرب. وتميز معظمه بشاطئ مشبع بالطبقات وأمواج قوية تجعل من الصعب الرسو. غير أنه يوجد على طول الساحل الذهبي سلسلة أراض صخرية تؤمن نسبياً النزول بأمان على الجانب البعيد عن الرياح.

وفي بعض النقاط مثلاً الميناء، يضم الرأس خليج صغير يجعل نزول البواخر أسهل. وتستطيع التحصينات على الرؤوس الصخرية حماية أماكن النزول، وقد شجعت هذه الحقيقة – إضافة إلى الحاجة لحماية الذهب المعد للشحن – الأوروبيين على بناء صف سميك من التحصينات لا مثيل له في إفريقية الغربية الاستوائية. وكانت عملية النزول أكثر صعوبة إلى الشرق والغرب من الساحل

الذهبي، لكن كانت البحيرات الساحلية تمتد غالباً بشكل موازٍ للشاطئ على بعد بضعة أميال فقط على اليابسة، ومن هنا وهناك فقد أصبحت الانفتاحات المهمة على البحر مثل لاغوس وأبيدجان لاحقاً مواني رئيسة.

لم يكن هناك ميناء طبيعي يضاهي الساحل الذهبي، لكن الإدارة البريطانية عمدت عام ١٨٩٨ إلى بناء ميناء اصطناعي في تاكورادي لاستخدامه قاعدة لسكة الحديد التي وصلت إلى كوماسي عام ١٩١٩ وامتدت بعد ذلك لتصل إلى أكرا. وقد أضيفت الطرق المتحركة لتوسيع عمليات ربط السكة بنقطة الشحن الرئيسة في تاكورادي. وقد ساءت حالة الطرق مع اقترابها من الحدود الاستعمارية المخصصة لحركة البضائع، والناس باتجاه الشبكة الاستعمارية. كما شكلت اللغة والتعليم نموذجاً موازياً للحياة الفكرية.

وتحرك النمو الاقتصادي من خلال توالي تصدير المحاصيل، وفي منتصف القرن الثامن عشر كان التصدير الرئيس من منتجات النخيل التي شكلت ٤٤ بالمئة من الصادرات عام ١٨٩١ مع ٣٠ بالمئة للمطاط.

وجاءت هذه المنتجات من مناطق الغابات في الداخل، وقام التجار الأفارقة بتنظيم شحنها إلى الشاطئ حيث اشترتها الشركات الأوروبية وعملت على تجهيزها للشحن.

بعد عشرين عاماً، حل الذهب والكاكاو مكان منتجات المطاط والخيل. ففي عام ١٩١١، رفعت التكنولوجيا المنجمية الحديثة حجم الذهب إلى ٢٠ بالمئة من الصادرات، بينما وصل حجم صادرات الكاكاو إلى ٤٦ بالمئة. وكان العقدان اللذان انتهيا عام ١٩١١ عقدا ازدهار بالنسبة لدخول الساحل الذهبي عالم الاقتصاد حيث تضاعف دخل الفرد. وقد تطلب دخل الفرد نصف قرن مجدداً أي حتى عام ١٩٦٠.

وكان معظم رأسمال زيادة إنتاج الذهب أوروبي المنشأ، لكن الأفارقة قدموا الرأسمال والكفاءات التجارية لتجارة منتجات المطاط والنخيل، واتسعت مع الوقت لتشمل الكاكاو. وقد بدأ العديد من التجار النشطين بإقامة مركز من المدن الساحلية

على شاطئ الكاب أو أكار، لكن بعضهم جاء من المدن الداخلية في Ashanti، ومهما كانت قاعدتهم الأصلية. عمل التجار الأفارقة بشكل متزايد ضمن هيئة تجارية عملت على التوسع إلى ما وراء المنطقة المحلية نحو الحدود الاستعمارية.

ويمكننا النظر إلى هذا المجال الواسع من الاندماج الاقتصادي عبر تاريخ زراعة الكاكاو. وكان الكاكاو محصول أميركي غير معروف في الساحل الذهبي قبل ١٨٩٠ عندما تم إدخاله إلى جزيرة بيوكو الساحلية التي أصبحت لاحقاً مستعمرة إسبانية، ثم امتد عبر المناطق الحرشية للساحل الذهبي بمبادرة شبه كاملة من المزارعين الأفارقة. وفي عام ١٩٢٠ أصبح الساحل الذهبي أكثر إنتاجاً للكاكاو في السوق العالمية. ويعد موضوع انتشار الكاكاو مشروعاً استثمارياً ناجحاً، وقد شكلت Akwepin Ridge مركزاً برياً لأكرا، وكان مزارعو Akwapin متورطين أساساً في زراعة المحاصيل المعدّة للبيع والتي تلبي احتياج السوق، لكنهم تحولوا بسرعة إلى زراعة الكاكاو. والكاكاو عبارة عن شجرة تحتاج بضع سنوات بين الزراعة والإنتاج، لكن عندما تبدأ بالإنتاج فإنها تعطي بسخاء مانحة المزارع رأسمال للتوسع. وبما أن الأرض المناسبة لم تكن متوفرة في الجوار فقد أقام مزارعو الكاكاو على مساهمة محمية من قبل الزعيم المحلي بعيدة نسبياً. وخلال عقود قليلة، كان لدى مستثمري الكاكاو الأصليين في Akwapin مزارع منتشرة عبر المنطقة الحرشية، ثم توسع زرع الكاكاو غرباً وشمالاً. وقد تمت إقامة النظام نفسه تقريباً في مراكز الإنتاج الأخرى السابقة مثل أشانتي. وخلال عقود قليلة زاد حجم الاستثمار للكاكاو لدى المزارعين الأفارقة وتعدى مجال وحدتهم السياسية قبل الاستعمار.

واقتصر الكاكاو على الحزام الحرشي لكنه جذب الناس إلى اقتصاد زراعي أوسع وأكثر تكاملاً. وقد أدى ازدياد إنتاج الكاكو إلى نقص في اليد العاملة في المنطقة الحرشية مما جذب الناس من الشمال خاصة في موسم الحصاد. علماً أن منطقة ريف سافانا إلى الشمال من الغابة تمر بمرحلة جفاف لستة أشهر، حيث يمكن ممارسة زراعة صغيرة. وتصادف هذا الركود مع موسم حصاد الكاكاو. عندها بدأ

الشماليون الانتقال جنوباً بشكل يد عاملة مأجورة، لكن ما بدأ حركة موسمية امتد إلى سنوات، وبدأ المهاجرون الذين اقتصروا على الرجال أولاً بإحضار علائلاتهم. ومع الوقت، جذب إغراء منطقة الكاكاو أشخاصاً من وراء حدود الساحل الذهبي من بوركينا فاسو، ومن المستعمرات الفرنسية. وقد ساعدت عمليات الهجرة في بداية القرن -والتي استمرت عدة عقود- على اندماج أهالي المناطق الشمالية ضمن مناطق تطور اقتصادي في الحزام الحرشي والساحل.

التحرك السياسي

يمكن ملاحظة علامات القومية الحديثة في الفترة التي سبقت إنشاء الإنكليز لمستعمرة الساحل الذهبي عام ١٨٧٤، وأبعد من ذلك، أي منذ إنشاء اتحاد MANKESSIM واستمراره إلى نهاية القرن وبعده، كان الاتحاد يشتمل على مجموعة صغيرة من الأفارقة ذات الثقافة الغربية. وقد بدأت الصحف الصادرة بالإنكليزية من قبل صحفيين أفارقة بالصور، وانضم المحامون والأطباء الأفارقة المدربون من البريطانيين إلى مجموعات النخب القديمة من التجار والزعماء التقليديين.

ولم تكن هذه الجماعات على اتصال وثيق مع القرويين في الريف لكنهم كان باستطاعتهم التأثير على الحكومة الاستعمارية. ومع أن معظم أعضاء المجلس التشريعي من الموظفين الحكوميين، فقد جرى تعيين أقلية صغيرة أعضاءً غير رسميين حتى يستطيع المجلس العمل على شكل برلمان محلي محدود السلطات. وقد انبثقت عن المدن الرئيسة الثلاث مجالس بلدية أيضاً بسلطات محدودة لكنها كانت أيضاً منتدى للسياسات الاستعمارية.

في بعض الأحيان، استطاعت مجموعات النخب المحلية اللجوء بفاعلية إلى الحكومات المركزية في لندن كما فعلت عام ١٨٩٠ من خلال تأسيس جمعية حماية حقوق السكان الأصليين. وكانت المناسبة صراعاً حول أراضي أدّى بمعاونة الحكومة

الاستعمارية إعلانها أراضٍ غير صالحة. وقد ردت مجموعة من الزعماء التقليديين والمحامين الأفارقة باسم حقوق الأفارقة، لم تكن النتيجة لصالح حقوق الأفارقة بالأرض بقدر حق الزعماء في بيع الأراضي لصيدايين يملكون ترخيصاً. ونادراً ما كانت حقوق الفلاح الإفريقي الذي يعيش على الأرض طرفاً في النزاع، لكن أظهرت النتيجة أن عمل الزعماء التقليديين والمحامين الأفارقة معاً تستطيع التأثير على سياسات الحكومة.

كانت لجماعات النخب في إفريقية الغربية البريطانية مصالح مشتركة أكثر مع الجماعات الأخرى في المستعمرات البريطانية مما لها مع الطبقة الفلاحية في الأراضي النائية. لم يكن المؤتمر الوطني لإفريقية الغربية البريطانية والذي تأسس عام ١٩٢٠ مع فروع في المستعمرات البريطانية الأربعة وطنياً بمعنى المطالب بالاستقلال، لكنه خدم مصالح النخبة الإصلاحية. وكان برنامجه يدعو إلى محاكم استئناف إفريقية غربية، وإلغاء التمييز العنصري في الخدمة المدنية وإقامة جامعة إفريقية غربية، وكانت هذه الحلول تلبي مطالب الأقلية الإفريقية المتغربة وتخص نظاماً إفريقية غربياً شاملاً مع أنها تتحدث قليلاً عن مصالح رأي عام واسع من أي مستعمرة. في البداية، عمل الزعماء التقليديون والمثقفون المتغربون معاً وكانوا غالباً من الأقارب. غير أنه في عام ١٩٢٠، بدأ التعاون يتفكك بين المجموعتين بعد دخول سياسات استعمارية جديدة على الساحة مساندة مطالب الزعماء بالتحدث باسم الناس على نطاق واسع ومنكرة المطالب نفسها للطبقات المثقفة المتغربة المدنية.

وشكل الدستور الجديد عام ١٩٢٥ والذي استمر حتى عام ١٩٤٦ نوراً عالياً بالنسبة للسياسة البريطانية في الساحل الذهبي. ومع أنه لم يشكل خطوة كبيرة إلى الأمام، لكنه قدم الكثير للمثقفين الأفارقة بعكس الحكومات الاستعمارية السابقة. فقد وصل عدد المراكز الحكومية العليا التي يشغلها الأفارقة إلى الثلاثة أضعاف، مع أن آخر زيادة حصلت قبل الحرب العالمية الثانية. وفيما يختص بالمستعمرة، حيث يتمتع الناس بوضع مواطنين بريطانيين، تم إنشاء مجالس مقاطعات من الزعماء

على غرار مجلس اللوردات في كل مقاطعة، ويقوم مجلس المقاطعة باختيار ستة من أعضائه لتمثيله في المجلس التشريعي. وكان مسموح للناخبين الأفارقة في كل من المدن الثلاثة الكبرى التي انتخبت مجالس بلدية انتخاب عضو إلى المجلس التشريعي. بمعنى آخر، كانت المجالس المحلية بين أيدي الزعماء في المستعمرة وخارجها، ولم تكن Ashente وتوغو والمناطق الشمالية ممثلة حتى في المجلس التشريعي.

وقد مثلت هذه السياسة تنوعاً في الاستراتيجيات التي اتبعها الهولنديون في أندونيسيا في الفترة نفسها مرتكزة على خوف مماثل من المثقفين المتغربين ومطالبتهم بدور في الحكومة الاستعمارية. وكانت الحكومة البريطانية تهدف إلى ثبات الحكم غير المباشر عبر إعطاء السلطة المحلية للزعماء كما فعل الهولنديون مع الأوصياء. وكان الزعماء يعملون على شكل حكومة ظاهرة مع سيطرة بريطانية مبطنة. غير أن حكومة الساحل الذهبي كانت أكثر فاعلية في الهولندية في أندونيسيا، ربما بسبب الخطر الأقل من ثورة عنيفة. ولم يكن لدى الساحل الذهبي حركات جماهيرية مثل Sarket Islam أو مساوٍ للثورة الشيوعية في جاوا عام ١٩٢٦. لكن بالرغم من نوايا الحكومة والاضطهاد الواسع فقد ازداد عدد ونفوذ المثقفين الأفارقة خلال الحرب الداخلية. ولم يكن يتمتع الغالبية العظمى من المثقفين الأفارقة في الساحل الذهبي بتعليم يفوق المرحلة الابتدائية، لكن ذلك كان كافياً لتأهيلهم للعمل في القطاع الأوروبي والحكومات.

وقد جاء البرهان الرئيس للمعارضة الصاعدة من صفوف القاعدة من النخبة في مصدرين. كان المصدر الأول حركة ناشئة مناهضة للأرستقراطية على المستوى المحلي، فقد كان لدى معظم زعامات أكان AKAN ذريعة دستورية لإقصاء زعماء من مراكزهم بمبادرة من العامة. استمرت العملية المسماة بالإقصاء تحت إشراف البريطانيين وجرى استخدامها خلال عقود الحرب الداخلية التي حدثت في الماضي. وكان العامة أيضاً أكثر نشاطاً في سياسات Sbols مما كانوا عليه، غير أن هذا النشاط أثار الاستياء المحلي بدل المطالبة بالاستقلال.

وكان النوع الثاني من المعارضة المنظمة موجهاً ضد الأمير المعين من الشركات الأوروبية المستوردة للكاكاو ليس ضد الحكومة الاستعمارية، وكانت أسعار الكاكاو تنخفض بسرعة أكبر من أسعار البضائع المصنعة والتي يستوردها الساحل الذهبي بشكل مشابه لأسعار المواد الأولية الأخرى في سنوات الكساد. وكانت تعقد اتفاقيات مفتوحة كل بضعة سنوات، وكان لدى المزارعين الأفارقة مصدر دخل صغير، لذلك حاولوا أحياناً وقف أو رفض البيع بأقل من السعر الأعلى المنافس. لكن معظم هذه الجهود كانت محلية وغير فاعلة. وعندما وافقت الشركات المستوردة مجدداً على تثبيت الأسعار في صيف ١٩٣٧، قامت نقابات المزارعين وبعض الزعماء التقليديين ومجموعات أخرى بتنظيم عرقلة في الساحل الذهبي وأشنتي وتوغو. وكانوا ناجحين في الإمساك عملياً بكامل المحصول، واتبعوا طريقة التوقف ومقاطعة الشركات المعتدية. وفي نيسان ١٩٣٨، استسلمت الشركات الأوروبية، ووافقت على شراء محصول الكاكاو بسعر منافس.

في الوقت نفسه، كان لدى الساحل الذهبي أكثر من مئة ألف مزارع كاكاو. ولم يكن التنظيم الفاعل لمثل هذا العدد الكبير في تحرك مشترك نصراً فقط على الصعيد الاقتصادي بل شكل دلالة أيضاً للمستقبل. وبالرغم من مرور عقد من الزمن قبل أن يتخذ أيٌّ تنظيم مشابه شكلاً سياسياً أو حركة استقلال.

الحرب ومجيء الاستقلال:

ومثل أي مكان آخر من العالم، سرّعت الحرب العالمية الثانية عملية التغيير في بعض الحالات وأخرتها في حالات أخرى، وحرفت اتجاه التغيير في أخرى، أيضاً وكانت إفريقية الغربية متورطة قليلاً في العمل العسكري المباشر. فقد كانت المناطق الفرنسية الخاضعة لحكومة فيشي الفرنسية وحدها تحت السيطرة غير المباشرة لدول المحور، ولم تكن تشكل خطراً كبيراً لجيرانها الخاضعين للسيطرة البريطانية طالما تهيمن القوة البحرية للحلفاء على الخطوط البحرية. غير أن قوات إفريقية

الغربية شاركت في حرب ما وراء البحار في شرق إفريقية وبورما. ومثل بقية إفريقية الغربية البريطانية، مر الساحل الذهبي بمرحلة من التعبئة والإرباك ونقص المواد الاستهلاكية خلال الحرب. ومع نهاية الحرب، ازداد الاستياء العام، واتخذ صدى جديداً. قام المحاربون العائدون من تجربة في الخارج بمبادرة جديدة. فقد وفرت الموجات القصيرة المدى -من الممكن لسكان القرى الجاهلة والبعيدة- الحصول على معلومات وافرة عن العالم الخارجي. وكان الانتقال السريع نحو الاستقلال في الهند وباكستان معروفاً وكذلك بروز ثورات وطنية في جنوب شرق آسيا.

وقد ظهر حزبان وطنيان متنافسان في الساحل الذهبي: مؤتمر الساحل الذهبي الموحد بقيادة DANQUAH B.J ممثلاً الجيل القديم من زعماء النخبة الذين توقعوا السماح لهم بالاستيلاء على الحكومة الاستعمارية في الوقت المناسب كما فعل حزب المؤتمر في الهند. وكان حزب المؤتمر الشعبي حركة راديكالية منظمة أكثر من كاومي نيكر ورفاقه لمواجهة موقف حزب المؤتمر الموحد مرتكزين على دعم شعب واسع من كل الطبقات.

في غضون ذلك، قررت الحكومة البريطانية في أواخر ١٩٤٠ القيام بتحرك في المستعمرات الإفريقية الغربية، وخططت للاعتراف بالاستقلال في المستقبل القريب، لكن مع فترة تأخير في مناقشة التفاصيل وعلى نجاح شكل من الاستقلال يكون لمصلحة بريطانيا. وفي البداية، اندلعت تظاهرات خطيرة في مدن الساحل الذهبي عام ١٩٤٨، وقد سجن كوامي نيكروما لفترة قصيرة عام ١٩٥٠ لكن حزب مؤتمر الشعب خرج منتصراً ضد حزب المؤتمر الموحد في أول انتخابات شعبية، وتم تحرير نيكروما من السجن ليصبح رئيس وزراء جلالته.

وخلال العشر سنوات من الأزمة بين ١٩٤٨ و١٩٥٧ ومن خلال كل التغييرات، كان العامل العرقي في السياسات أكثر ليونة مما كان عليه في أماكن أخرى من إفريقية الاستوائية. ولم يكن أيٌّ من حزبي المؤتمر الوطني أو المؤتمر الموحد حزباً له أصول عرقية. وقد تحدثت حركة تحرير وطني ضعيفة نسبياً عن انفصال أسنتة لفترة

قصيرة في منتصف الخمسينيات، وقد تحقق الاستقلال رسمياً عام ١٩٥٧ على نمط النظام البريطاني والكندي حيث تعتبر السلطة التنفيذية من مسؤولية الأعضاء المنتخبين في البرلمان، وأعيدت تسمية الساحل الذهبي - غانا - على غرار اسم المملكة الإفريقية القديمة على طرف الصحراء إلى الشمال. وكان لدى غانا عند الاستقلال أعلى دخل وطني للفرد من إفريقية الاستوائية، وساد اعتقاد واسع حول وعد كبير أن تكون القيادة المستقبلية لإفريقية ديمقراطية.

ولم يدم هذا الوعد عشر سنوات. ففي عام ١٩٦٠، قام حزب نيكروما CCP بالتصويت ديمقراطياً وبشكل غير دستوري لتحويل البلاد إلى دولة الحزب الواحد وجمهورية دامت حتى ١٩٦٦. وظلت عناصر ديمقراطية داخل حزب الشعب الوطني، لكن نيكروما أقصى أو أقال القيادة الرئيسة الأصلية موجهاً الحزب نحو اليسار، وزاد في سلطته الشخصية تدريجياً. وفي منتصف الستينيات لم يفشل وعد التحديث الاقتصادي عند الاستقلال في الظهور فقط، بل بدأت قطاعات من الاقتصاد بالانهيار. وقد بات نقص الأغذية ومواد استهلاكية أخرى مؤكداً وانخفضت الأجور. وقامت حكومة حزب الشعب الوطني أيضاً باستعادة مجموعات عرقية معينة. وفي عام ١٩٦٦، ساء الوضع كثيراً بحيث شعر الجيش بالحرية للتدخل. وقامت سلطة عسكرية بإقصاء نيكروما عن السلطة وألغت حكومة الحزب الواحد، لكن الحكم الجديد لم يكن أكثر ديمقراطية من سلفه.

وكان انقلاب عام ١٩٦٦ الأول في سلسلة انقلابات وانقلابات مضادة سيطر فيها العسكر واستمرت فترة الانهيار الاقتصادي حتى أواخر ١٩٨٠. ولم يكن مصير غانا خلال هذه العقود ساراً أو أقل سروراً مما هو عليه في الدول الأخرى المستقلة حديثاً في إفريقية الاستوائية خلال الفترة نفسها. وقد حكمت الحكومات السلطوية غالباً لمصالحها الخاصة، وارتكب العديد منها أخطاء جسيمة في السياسة الاقتصادية. ومن الصعب التغاضي عن خطاب نيكروما الساخر عام ١٩٥٧ والذي ذكر سابقاً: «اسعوا أولاً للمملكة السياسية وكل الأمور ستأتي بعد ذلك» إلى درجة أن

كل الأشياء تتضمن الحديث الاقتصادي المؤدي إلى إنتاجية عالية واستهلاك فردي لم يحدث.

بالرغم من الاختلافات الرئيسة بين غانا وأندونيسيا فقد ظهرت تعميمات مقارنة، وكان أكثرها أهمية توحيد دور إشراف دولة استعمارية واحدة. غير أن تجربة الساحل الذهبي والأنديز الهولندية أظهرت أن ما حصل يندرج ضمن خطة الدولة الاستعمارية لم يكن كلياً أو في معظمه، وهذا ما واجهه الأوروبيون.

لقد وضعوا خطة تتضمن خصائص مهمة مثل اللغة للتواصل الداخلي على المستوى العلمي، ونظام تعليمي واحد، وكيان سياسي حصل فيه تحول اقتصادي. وبعد وضع الخطة، كانت المبادرة بيد أشخاص محليين بدءاً من الوسطاء الذين تختارهم سلطة الحكم لكن اتسع ذلك مع الوقت ليشمل قطاعات عديدة ومتنوعة من المجتمع.

وقد استمر الكيان السياسي الذي برز في كلا الحالتين لبضعة عقود، لكن لم يكن الوضع نفسه في عالم ما بعد الاستعمار. وقد تفككت عدة دول استعمارية سابقة. وقد تم الحفاظ على الوحدة الأندونيسية أحياناً من خلال استخدام القوة فقط، وظل العنف بين المناطق قائماً. ومع ذلك كان العمل الداخلي للحكام الأوروبيين والسكان المحليين عملاً معقداً، وقد شابك عبر العقود وأدى إلى وضع مجتمع أكثر تماسكاً وقابلية للحياة مما جرى التنبؤ به منذ قرن أو قبله.



الخاتمة

كان صعود الغرب إلى وضع من الهيمنة أحد أهم التطورات في تاريخ العالم في العقود الأخيرة. وقد تعامل العديد معه ببعض المنهجية المركزية، فبالنسبة للتاريخ الأوروبي وحده أو التاريخ الاقتصادي أو تاريخ النظام الدولي وكان على كل من يكتب عن عالم ما وراء أوروبا الأخذ بعين الاعتبار صعود الغرب بإدراك أو دون إدراك.

وبالنسبة لعالم ماوراء الغرب، فإن الواقع المركزي في هذه الفترة هو تحدي الغرب والرد عليه، وقد تعامل العديد من المؤرخين مع هذا الموضوع بطرق مختلفة، وتمثل هذه البحوث مدخلاً مميزاً مع توضيح على ردود غير الغربيين الظاهرة من خلال دراسات لحالة من المشكلات الخاصة عوضاً عن معاني واسعة وتعميمات شاملة. ويبدو اختيار الحالات متعلقاً بخصوصية فردية ولكن لم يكن عشوائياً. وقد تم اختيارهم في محاولة للنظر إلى ردود متنوعة ضمن نطاق ضيق. وكان الانشغال الحاد في حالة الموضوع من مناقشة القرارات الإدارية وآثارها في جنوب شرق آسيا على شؤون فلاحي المايا في بوكتان مقصوداً. وتمثل النظرتان فقط جزءاً من كل الحقيقة، وتمثلان معاً جزءاً من التنوع الحاصل حالياً. وتسعى البحوث إلى إدخال وجهة نظر تاريخ العالم ليس عبر إيراد كل الأشياء المهمة التي حصلت في أي مكان، إذ هي استحالة واضحة، لكن عبر الحديث حول مجموعة من الأشياء المختلفة التي حصلت في أماكن مختلفة ضمن خطة مجتمعات إنسانية مختلفة.

وتجسد الأبحاث أيضاً طوقاً في التاريخ المقارن مع موقف خاص حول أي المقارنات أكثر قيمة. ويقارن ببعضها الأوضاع المتشابهة، ويبحث آخرون عن النقاط المشتركة في ظروف غير متشابهة، ولكلا المدخلين استخداماتهما .

إن مقارنة التحديث في اليابان وتركيا مألوف وجرى التعامل معه في آخرين من وجهات نظر مختلفة، كان لمقارنة Maya, Yaqui عامل مشترك في النقض الإسبان والمكسيكي. وتعد مقارنات أخرى متباعدة عن قصد مثل الردود على تحديث النخب في اليابان وبوغندا. وتساعد مثل هذه المقارنات للأحداث في أضرار متباعدة من العالم على الصعود فوق الوضعية الثقافية المباشرة. وهناك في الفصل حول تغيير الثقافة في المجتمعات الكلية مثل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى السوفياتية له هذا الهدف وكذلك الفصلين حول بناء الأمة في غانا وأندونيسيا.

وتبرز في المنظور بعض الموضوعات المشتركة، ويعد الموضوع الأول تأملاً حول التحول التاريخي عموماً والتفاوت بين مقاصد اللاعبين الرئيسين والنتائج الراهنة، ويعد مقارنات أخرى متباعدة عن قصد مثل الردود على تحديث النخب في اليابان وبوغندا. وتساعد مثل هذه المقارنات للأحداث في أجزاء متباعدة من العالم على الصعود فوق الوضعية الثقافية المباشرة. وهناك في الفصل حول تغيير الثقافة في المجتمعات الكلية مثل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى السوفياتية له هذا الهدف، وكذلك الفصلين حول بناء الأمة في غانا وأندونيسيا.

وتبرز في المنظور بعض الموضوعات المشتركة، ويعد الموضوع الأول تأمل حول التحول التاريخي عموماً والتفاوت بين مقاصد اللاعبين الرئيسين والنتائج الراهنة. ويعتبر الموضوع الثاني الذي تدار فيه الأمبراطوريات الأوروبية من غير الأوروبيين. ليس تأملاً فحسب لحقيقة أن أوروبا غزت العالم بشكل رئيس بجنود غير أوروبيين وكانت هذه حالة أيضاً، لكن من واقع أن الحكم الراهن للمجتمعات المغزوة بين أيدي المحليين أكثر منه بين أيدي الإداريين الأوروبيين. وقد ظهر هذا الموضوع مع ثالث. كان النقل الثقافي عن الغرب نادراً مسألة تقليل كلي. وقد تم تكييف المواد المنقولة ثقافياً ضمن قالب ثقافي موجود. ولم تكن العولمة لثقافات العالم طريقاً باتجاه

واحد. إن النقل عن غير الغربي أقل وضوحاً لدى الغربيين لأنه وضع ضمن قالب ثقافي غربي مألوف.

وكان الموضوع الأخير الأكثر وضوحاً غير أنه لم يؤكد بسبب وضوحه. فقد كانت الثقافات البشرية تتقارب منذ اختراع الزراعة؛ وكان التقارب أسرع من أي وقت مضى مع بداية الحقبة الصناعية.

والسؤال المثير للجدل هو: ماذا لو أي شيء، يجب أو يمكن أن يفعل بشأنه، إن تجانس الثقافات الإنسانية جزء واحد فقط من منهج واسع في التغيير يجعل العالم مكاناً أقل تنوعاً عما كان عليه.

وتختفي الأجناس البيولوجية بوتيرة أسرع من الماضي، وإن التكنولوجيا التي حصلت مذمومة بشكل واسع.

وقد شعر علماء البيولوجيا بالخطر وأرادوا الحفاظ قدر الإمكان على العديد من الأجناس، من الصعب الدعوة إلى مسار مشابه من التحرك بالنسبة للثقافات الأخرى غير التي نملكها. للعولمة بعض المنافع لكن لها محاذيرها وربما المكان الذي ننطلق منه هو إدراكها أنها موجودة.



المحتويات

الموضوع	الصفحة


منتدى سور الأزبكية